المركز القومي للترجمة

المسيحيون واليهود
في التاريخ الإسلامي العربي والتركي

تأليف : فيليب فارج
يوسف كرباج



ترجمة : بشير السباعي

2147

المشروع القومي للترجمة

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامي العربي والتركي

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

- العدد: 2147
- المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي
- فيليب فارج، ويوسف كرباج
- بشير السباعي
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

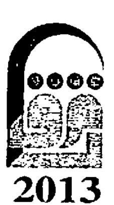
Chrétiens et Juifs dans L'Islam Arabe et Turc
Par: Youssef Courbage et Philippe Fargues

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامي العربي والتركي

تأليف : فيليب فارج
يوسف كرباج
ترجمة : بشير السباعي



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فارج؛ فيليب
المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى
تأليف: فيليب فارج - يوسف كرباج؛ ترجمة: بشير السباعى
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٣٢٤ ص؛ ٢٤ سم
١- المسيحية والديانات الأخرى
٢- الإسلام والديانات الأخرى
(أ) كرباج، يوسف (مؤلف مشارك)
(ب) السباعى، بشير (مترجم)
(جـ) العنوان ٢٧٦,١٢

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٥٩٨٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-036-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

كلمة من المترجم

على مدار السنوات السبع عشرة الماضية، شَكَّلَ هذا الكتابُ المصدرَ الرئيسيَّ لباحثين ديموغرافيين عرب جادين، لكنه، خاصة مع نفاده، تعرض لانتحالات غريبة من جانب سياسيين وإيديولوجيين تافهين قدموا أنفسهم في صورة باحثين(!)، وقاموا - في سياق الانتحال - باجتزاءات وتفسيرات مريبة لا تكشف إلا عن تحيزاتهم المشبوهة.

وبالنظر إلى هذا الواقع المحزن، من ناحية، وإلى أهمية توافر الكتاب من جديد أمام جمهورٍ قارئ جديد لم يسبق له الاطلاع عليه، من ناحيةٍ أخرى، فإن صدور طبعةٍ جديدةٍ منه إنما يمثلُ خطوةً في الاتجاه الصحيح لا أملكُ سوى التوجه بالشكر إلى المركز القومي للترجمة على اتخاذه لها.

31 أكتوبر 2011

بشير السباعي

إلـى القـارىء

يمثل هذا البحث المهم أول محاولة علمية لتناول مجمل التاريخ الديموغرافى للمسيحيين واليهود فى عالم الإسلام العربى والتركى منذ بدايات الدعوة المحمدية وحتى الآن .

ويكشف هذا التاريخ عن ديناميات ازدهار واضمحلال المسيحيين واليهود على خلفية تاريخ ازدهار واضمحلال الدول التى عرفها عالم الإسلام العربى والتركى ومستويات ضغط الغرب على هذا العالم .

والواقع أن هذا البحث إنما يمثل فى الوقت نفسه محاولة لتناول تاريخ انتشار الجماعة الإسلامية على مدار زمن طويل . وهو يشكل إسهاماً مهمًا من هذه الزاوية كذلك .

ويكشف البحث عن تعرجات تاريخ الجماعات المسيحية واليهودية والمسلمة تبعاً للتحولات التاريخية السياسية والاجتماعية - الاقتصادية والإيديولوجية التى أثرت على تطور عالم الإسلام العربى والتركى.

ويبين مسار هذه التحولات ونتائجها أسباب تباين وتداخل مصائر هذه الجماعات على مستويات عديدة.

وتظل رسالة هذا البحث الضمنية هى أن ازدهار الجماعات السكانية المكونة لعالم العرب والأتراك إنما يتوقف على اقتحام ساحة تاريخية جديدة أساسها الإنصاف والإخاء بين البشر؛ وهى رسالة ما أحوجنا إلى بذل كل جهد من أجل تحويلها إلى واقع.

القاهرة، ٢٧ مارس ١٩٩٣ .

بشير السباعى

إهداء الترجمة

إلى زملائى السابقين فى مدرسة الفرنسيسكان الابتدائية
الذين لا أدرى ماذا فعلت بهم الأقدار:

جميل ... المسيحى،

إدوار... اليهودى،

محمد طلعت، الذى تقاسمت معه تحسس غيابهما بسبب
درس الدين!

ب. س.

تمهيد

يبدو أن مواجهة قديمة ذات تفجرات متكررة، تنبعث من جديد منذ الإطاحة بالأسرة الحاكمة البهلوية فى إيران (١٩٧٩) وصحوة إسلام سياسى يجاوز القوميات. فمن جديد، تبدو كتلتان: المسيحية والإسلامية، عصيتين على التصالح. وإسلام البحر المتوسط، منظوراً إليه من الشمال، يبدو أيضاً مهيمناً، بلا منازع، على مجتمعات الجنوب. ولكن هل يرجع كل هذا التجانس وكل هذا الدوام إلى ليل الأزمنة؟

إن إنسان أوروبا اللاتينية المهذب، المغمور فى الحاضر، يتصور التوسع الإسلامى بوصفه فتحاً خاطف السرعة للسلطة السياسية وللمعتقدات الدينية على حد سواء. لكن الأمر تطلب قرابة ألف عام حتى يتسنى للإسلام الفوز تدريجياً بولاء السكان الذين ينتمون إليه اليوم. وهذه الأعوام كانت بعيدة عن أن تكون زمن إكراه وعنف متواصلين. كما أن الأسلمة لم تكن قط شاملة. إن سلسلة من الطوائف غير المسلمة تواصل الحياة والحوار، بل وتزدهر فى الشرق العربى.

والواقع أن الفاتحين الذين سوف يخرجون من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع سوف يصوغون تصوراً عن العالم يقسمه إلى عالمين. ففى البلدان التى سيحتلونها، سوف يمنحون أهل الكتاب وضعية المحميين. أما باقى العالم فهو يعتبر ساحة الحرب الممكنة. وأولئك الذين ينزلون منه غزاةً، مسيحيين كانوا أم يهوداً، يصبحون أعداء للإسلام. وهكذا فإن توسيع الأراضى المفتوحة ونشر الدين فيها يخضعان لمنطقين مختلفين. والواقع أن المهمة الأولى وحدها هى التى تعبىء جميع الطاقات. وسوف تتساند آلة الحرب والأدوات الحقوقية للتعايش الطائفى فى بلاد الإسلام. فلا شك أن مال الفلاح القبطى والراهب اليعقوبى والحرفى اليهودى الملزمين بأداء ضريبة رأس، إن كانوا يريدون التمسك بديانتهم، كان حيوياً لتوسيع ولتوطيد أركان الإمبراطورية. لكن الدين الجديد يكسب الأذهان والسكان شيئاً فشيئاً.

عبر أية آليات؟ عمليات التحول إلى اعتناق الدين الجديد، أولاً، والتى سوف تمتد على مدار الأعوام الألف الأولى. فالسكان سوف يتأسلمون بفضل الفرص على نحو أكثر بما لا يقاس مما بفضل الإكراه. وكان هناك ثانياً الزواج، وهو تعاقد سلمى بامتياز: فهو يؤدى إلى

انتشار الإسلام الذى تنتمى إليه، بحكم الشريعة، ثمار زواج مسلم من كتابية. وأخيراً، فإن الديموغرافيا التفاضلية للطوائف تدخل إلى المسرح فى مستهل القرن العشرين. وفى أيامنا، فإنها وحدها تواصل العمل لصلحة الإسلام فى المجتمعات المتعددة الطوائف فى الشرق. ونرى من هذا التعداد للآليات أن المذابح والترحيلات الإجبارية لا تظهر بينها. ومن المؤكد أنها تحدث فى هذا المكان أو ذاك. لكن أياً منها لن يتميز باتساع جد كبير قبل مولد تركيا الحديثة.

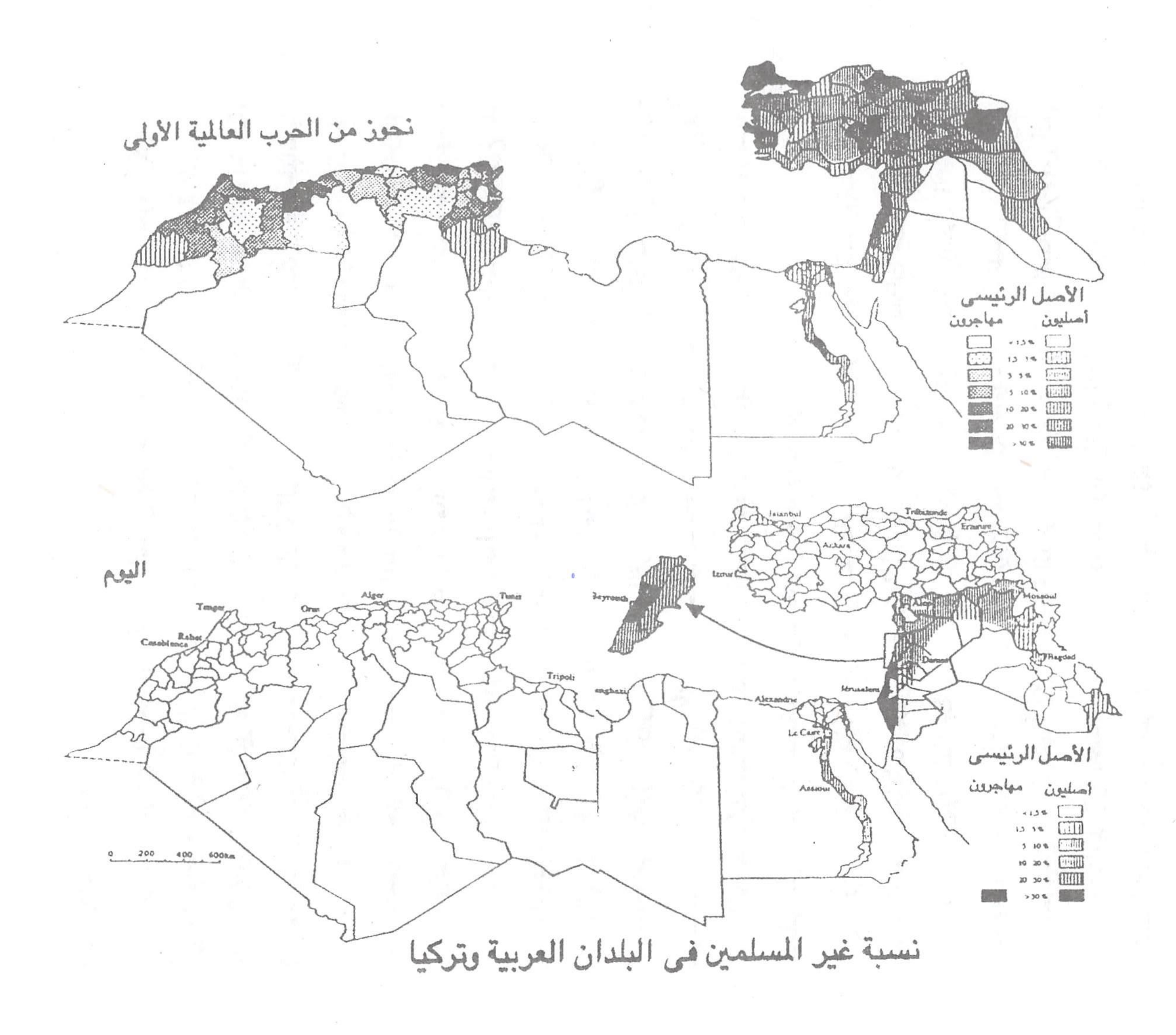
وقد استغرق إقرار الإسلام فى الشرق العربى (الفصل الأول) تسعة قرون: من الهجرة إلى سقوط المماليك. وفى بادىء الأمر، كانت عدة قبائل مسلحة قد تمكنت من دحر أقوى دولتين آنذاك: بيزنطة وفارس. ولما كان عدد رجالها قليلاً بشكل يدعو إلى السخرية قياساً إلى الجماهير التى سوف يحكمونها، فقد كان عليهم الفوز باعترافها بهم. وقد أتاحت النزاعات الدينية التى مزقت صفوف المسيحيين أرضية مؤاتية للفاتحين الجدد. وقد أدت الوضعية التى سوف يخصصونها للمسيحيين واليهود فى آن واحد إلى تقنين العلاقات فيما بين الطوائف. وهذه الوضعية، المزدوجة فى آثارها، تسمح للطوائف الدينية بتكريس نفسها، لكنها تشجع فى الوقت نفسه عمليات التحول إلى الدين الجديد. وسوف يتكشف أن النواة التى تواصل العيش غير قابلة للامحاء. وكان يمكن للتاريخ أن يدور بشكل مماثل فى الغرب. لكن أفريقيا الشمالية، خلافاً لذلك، سوف تنزع عنها طابعها المسيحى بشكل تام (الفصل الثانى). فالمغرب، البعيد عن القلب الجغرافى للإسلام، سرعان ما سوف ينقسم إلى كيانات صغيرة لها صبغات أمم أولية، ومن ثم قادرة على تحقيق التجانس. وهو باجترائه على أوروبا، يصبح شاهد وقوة الصدام الأمامى الكبير الأول مع الجماعة المسيحية اللاتينية لزمن إعادة الفتح (الإسبانية). وعندئذ تنتقل بقايا المسيحيين المحليين إلى الإسلام.

والواقع أن الجماعتين المسيحيتين، اللاتينية والعربية، سوف تتجاوران لأول مرة خلال الحروب الصليبية (الفصل الثالث). أما تحفظات الجماعة المسيحية العربية تجاه الجماعة المسيحية اللاتينية، والإزعاجات التى كانت معرضة لها من جانب الجماعة المسيحية اللاتينية، والتى كان من المفترض مع ذلك أن تمد لها يد العون، فإنها سوف تسمح باجتياز هذا الصدام الثانى دون قطيعة مع الإسلام الذى أصبح دين الغالبية. على أن الحدث ينتهى بالمحنة التى يفرضها على الجماعة المسيحية الشرقية إسلام أصولى، فيختزل عدد المسيحيين ونفوذهم. أما المواجهة الثالثة والأخيرة بين الإسلام والجماعة المسيحية اللاتينية فسوف يكون مسرحها هو المغرب الكولونيالى (الفصل الرابع). والواقع أن الاستعمار الفرنسى، وهو هيمنة أخرى كبيرة

على الإسلام فى أرضه، سوف يكون له حضور أقل استمرارية بكثير من حضور الممالك اللاتينية. على أنه، خلافاً لهذه الأخيرة، سوف يترك بصمة ثقافية ولغوية تزداد عمقاً، بعد ثلاثين عاماً من زواله.

وعندما يجتاح العثمانيون الشرق العربى بعد فتحهم البلقان، فإنهم سوف يكونون مزودين بخبرة فى مجال الحوار بين الطوائف، وسوف يسمحون بنهوض للجماعة المسيحية العربية غير مسبوق ومثير على حد سواء (الفصل الخامس). ولما كانوا مؤسسين لإمبراطورية، فإنهم سيسعون إلى السيطرة، لا إلى الامتلاك، أو إلى تجريد الأمور مما استوت عليه طبائعها. فمنذ دخولهم القسطنطينية، سوف يعترفون بوجود جماعى للأقليات الطائفية، برفعها البعض إثر البعض الآخر إلى مصاف «الأمم» (الملل)، ويمنحها استقلالاً ذاتياً لتصريف شؤونها الدينية والحقوقية والثقافية والصحية. ولأول مرة منذ بيزنطة، تجد هذه الأقليات نفسها موحدة ضمن عالم تبادلات واحد. وفى تركيا (الفصل السادس) سوف يعيد العثمانيون صوغ بلد كانت أربعة قرون من الفوضى قد أدت إلى ضعضعة المسيحيين فيه. وجنباً إلى جنب اليهودية، فى ظل المبدئية السنية السلطانية، تشهد الجماعة المسيحية نهوضاً مساوياً فى اتساعه لنهوضها فى الشرق العربى. لكن الدولة القومية التى سوف تنهض على أنقاض الإمبراطورية سوف تحسم مصيرها فى الأناضول حسماً سريعاً، فالأمة التى يتصورها محركوها يجب لها أن توحد جماعات سكانية متماثلة إلى أقصى حد ممكن. وفى غضون عقد مأساوى سوف تختفى الجماعتان المسيحيتان التاريخيتان، الأرمنية واليونانية.

وعلى أنقاض هذه الإمبراطورية نفسها، فى اتجاه الجنوب، وبعد ذلك بوقت قصير، سوف تؤسس جماعات يهودية دولة قومية أخرى. ولما كانت هذه الجماعات قادمة من جهات أخرى، من أوروبا المسيحية ومن عدد من بلدان الإسلام، فإنها سوف تذكّر بالاختراقين السابقين، الصليبى والاستعمارى. وفى وجه إسرائيل، سوف يجد المسلمون والمسيحيون الفلسطينيون أنفسهم كتفاً لكتف لمواجهة الهجرة بالديموغرافيا (الفصل السابع). ومن أدنى أجزاء إسرائيل إلى أقصاها، يستقطب اليوم محوران التنوع الطائفى. وعلى طول النيل وعلى منافذ الشام البحرية، تمس المسيحية العربية منذ ذلك الحين منحنى دائرتها الهابط (الفصل الثامن). فالتقدمات الاجتماعية التى سبق لها أن رفعتها إلى أعلى تكبحها، بعد أن أصبحت الأسرة المحدودة العدد سمة من سماتها. ومع اتساع التحول الحضرى، تحد الجغرافيا من مجالها، لكن الاقتصاد يوسعه.



نسبة غير المسلمين فى البلدان العربية وتركيا

وهذا التاريخ ليس مجرد تاريخ لتعاقب ديانات تدعو إلى وحدانية الرب، فهو أيضاً تاريخ سلسلة من الاختراقات الصاخبة أو الصامتة. فمن فرسان الإسلام وبدو شبه الجزيرة العربية إلى الصليبيين، ومن المغول إلى الأتراك، ومن الأوروبيين - اللاتينيين إلى (اليهود) الأشكنازيين، تقدم جميع هذه الأحداث شبهًا غريباً في استهلالها. فالقادم الجديد، الذى يشكو دائماً من دونية ديموغرافية جسيمة، يستولى على السلطة. والموجة التالية تسلك طرقاً جد مختلفة. وتصبح بعض الأقليات الأغلبية، أو الكافة ببساطة تماماً، بحكم توسع ثقافى، وليس ديموغرافياً. فمن هو التونسى الذى يحس اليوم أنه غير عربى؟ ومن هو الأناضولى إن لم يكن تركياً؟ وسوف يذوب بعضها الآخر من الناحية السوسيولوجية فى الجماهير التى كان قد أخضعها من الناحية السياسية. والبعض الثالث، أخيراً، سوف ينزح أو يهلك. وكلهم، مع تباين طفيف فى الظلال، يصلون مسلحين بدين ولغة.

ومع احتمال تلقى الإرث الثقافى للشعوب المفتوحة، سوف ينشر العرب والأتراك الاثنين. أما الأوروبيون، الصليبيون والكولون، فإنهم لن يفكروا فى ذلك، أو لن ينجحوا فى تحقيقه، بحيث إنهم سوف يحتفظون بهذه وتلك لأنفسهم. والانفصال هو الثمن. وفى نهاية المطاف سوف يجرى رفضهم. والتجربة الثالثة لرفض الامتزاج لا يزيد عمرها عن خمسين عاماً. فهى جد قصيرة بحيث يتعذر تأمل مستقبلها، لكنها كافية لرصد ما تنطوى عليه من مستجدات. فالصليبيون والكولون ظلوا أقلية فى الأرض التى يحكمونها، فى حين أن اليهود يتمتعون بأغلبية كبيرة فى داخل حدود إسرائيل المعترف بها. ومن ثم فإن الحوار المتصور سوف يتكشف أنه حوار علاقات بين قوميات بأكثر مما هو حوار علاقات بين طوائف.

أما الجماعة المسيحية المحلية التى كانت من قبل أغلبية فهى تصبح أقلية تواصل البقاء فى هذا المكان أو ذاك، بينما تتلاشى فى أماكن أخرى. وليست المسألة مسألة مصير محدد بشكل لانفكاك منه، بل هى بالأحرى مسألة توليفات فريدة من عدة عناصر ثابتة. فالانتماء إلى الأرض قد خلع على هؤلاء المسيحيين من زمن ما قبل الإسلام انغراساً لا تستطيع الجماعة المسيحية المستوردة الاعتزاز به. وسرعان ما سوف يؤدى تقارب أساليب الحياة والأعراف الاجتماعية إلى تعميم التعايش. وكان تبنى لغة الفاتح، العربى أو التركى، حاسماً بالنسبة للتبادل. ومن المترجم النسطورى إلى الموسوعى المارونى، ما أكثر المواهب التى سوف تشهد على الاحترام المتبادل بين اللغة التى حملت الإسلام، العربية، والديانة التى وجدتها: المسيحية! وسوف يكون الولاء للدولة ورفض الولاء للأجنبى رصيداً مهمًا آخر. والطوائف لا تفى كلها ودائماً بهذه الشروط المتنوعة.

وصحيح أن الأقليات الطائفية لن تكون لها الهيمنة التامة على مصيرها. فالتسارعات العظيمة لانحدار الجماعات المسيحية المحلية سوف تتبع كلها اقتحاماً قوياً من جانب أوروبا، على الرغم من غياب تحالف أكيد. وسوف تجد كل مواجهة امتداداً لها على شكل تجدد للأصولية الإسلامية. تطهرية الموحدين والانتصارات الأولى لإعادة الفتح (الأسبانية)، التشدد المملوكي ومغامرة الحملات الصليبية، جامعة السلطان عبد الحميد الإسلامية وإذلال الإمبراطورية في المغرب والبلقان، الصعود الحالي لأصولية إسلامية جديدة وإنشاء إسرائيل: فبعد فترة من الكمون، يعقب ردُ الفعلِ الفعلَ. وسوف تترافق هذه الاندفاعات لتجذر الدولة والمجتمع كلها، بشكل أو بآخر، مع تراجع للأقليات المسيحية. على أن التاريخ أثبت مرة، خلال القرون العثمانية الأربعة، أن الوثوب يمكن أن يتلو التراجع. ومن ثم فإن الانكماش الذي تعرفه الجماعات المسيحية العربية منذ تقسيم الشرق إلى أمم قد لا يكون هو الآخر غير كسوف مؤقت.

شكر وتقدير

يشكر الكاتبان المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية ومركز الوثائق التابع له اللذين أتاحا لهما إمكانية كتابة هذا الكتاب.

ويشكر الكاتبان والمترجمُ السيد سعد القدري الترجمان على ما قدمه من ملاحظات مفيدة.

الفصل الأول

قيام الإسلام فى الشرق العربى

> «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حَيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شىء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطِى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومَن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزِية، ومنْ أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّى بيَعهم وصلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيِعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَنْ كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزْية».
>
> مقتطف من معاهدة استسلام القدس (٦٣٣)، التى دونها الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (٩٢٣) (١).

كانت مكة تضم على الأكثر بضعة آلاف من السكان حين جاء الوحى إلى محمد هناك.

وعلى امتداد مئات من الكيلو مترات حولها، كانت الصحراء تعزل المدينة، مرغمة إياها على اجتياز أفق من الكثبان الرملية، وعلى دفع قوافلها فى بحث دائم عن أسواق نائية. وقد سلك النبى هذه الطرق نفسها، ولكن سعياً وراء تحقيق مطمح آخر: توحيد جماعة البشر. وإذا كان قد عاش بما يكفى لإرساء أسس دولة دينية، فإنه لم يتح له الوقت لمد سلطتها إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

وغداة موته (٦٣٢)، سوف يشيد خلفاؤه، «الخلفاء»، إمبراطورية ذات مقاييس عالمية تمتد من نهر الإندوس إلى المحيط الأطلسى. وقد تم ذلك على أيدى حفنات قليلة من المحاربين البدو. وكان الضعف الديموغرافى البالغ لقاعدة انطلاقهم مصدر قوة لهم. ففى فرضهم لسلطة الإسلام على جماعات سكانية أوفر عدداً بكثير، كانوا مضطرين إلى الاستناد إلى السكان المحليين بدلاً من الدخول فى صدام سافر معهم، ومن ثم كانوا مضطرين إلى التصالح مع أفكار مختلفة عن أفكارهم.

ومن بين هذه السمات الحضارية الأجنبية، كان الدين هو السمة الأعمق تأصلاً فى هوية المجتمعات المفتوحة. ومنذ الاختراقات العسكرية الأولى، كان على محمد العثور على طريقة للتعايش الطائفى مع اليهود والمسيحيين الذين صادفهم. والواقع أن المبادىء المقررة فى حياته سوف تصبح قواعد يلتزم بها الفاتحون وقادة الدولة المسلمون، بجرعة متغيرة من الوفاء.

وبعد إخراجه من مكة، أقام النبى فى المدينة، حيث حاول فى البداية تدشين المساواة التامة بين رفاقه والجماعة التى استقبلته: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». لكن تهكمات اليهود على الوحى القرآنى سرعان ما سوف تتحول إلى عداوة سافرة، ويطردهم محمد من المدينة، التى تصبح منذ ذلك الحين مسلمة.

وعندما يدخل النبى من جديد فى اتصال مع أهل الكتاب، فإنه يدخل فيه بوصفه محارباً وغالباً لهم فى نهاية الأمر. وقبل شن الهجوم، كان من عادته أن يعرض عليهم اختيار مخرج من بين ثلاثة مخارج: التحول إلى اعتناق الإسلام، أو دفع جزية أو الحرب حتى الموت. وفى الحالة الأولى، يتزايد عدد المؤمنين على الفور. وفى الحالتين الأخريين، يصدر عهداً (معاهدة)، أكان ذلك فى موقع المعركة أو بعدها، يحدد شروط إذعان المسيحيين واليهود، وهم غير المسلمين الوحيدين المسموح لهم آنذاك بالاحتفاظ بديانتهم. وهذه المعاهدات، المصاغة وفق نموذج واحد، تفرض على الذميين، «محميى» الإسلام، عدداً معيناً من الالتزامات. وعلى مر الأجيال، سوف تثنى العدد الأكبر عن الاحتفاظ بديانته.

ومن الأقصر إلى الإسكندرية، ومن عكا إلى حلب، يرسم محوران الخط الذى ما يزال ينبض فيه قلب جماعة مسيحية عربية. فهذه الجماعة المسيحية، المتمردة منذ زمن غابر الزمان على إملاءات الكنائس الأم النائية، روما ثم بيزنطة، تدين بالبقاء للحوار الذى تمكنت فى أغلب الأحيان من إقامته مع الدولة الإسلامية، وإلى قدرتها الحاذقة على التوفيق بين الولاء القومى والإخلاص لدينها. على أن طوائفها المحلية سوف تجتاز مفازات التاريخ الشاسعة منعزلة بعضها عن البعض الآخر. وهكذا تتشكل الخصوصيات العديدة لكنائس الشرق ولأتباعها. وعلى ضفاف النيل كما على ضفاف نهر العاصى، يحمل الجميع بصمة محلة ريفية أو مدينة. وغالباً ما كان البلدان مرتبطَين، مصر بوصفها صاحبة السيادة وسوريا بوصفها تابعة. ومن فراعنة الإمبراطورية الجديدة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، صاغت تقارباتهما عدداً من أعظم لحظات التاريخ.

وخلال إحدى هذه اللحظات تأسس الفكر الداعى إلى وحدانية الرب: الديانة العابرة والمبشرة بما سوف يكون فى آن واحد والتى دعا إليها إخناتون الثاقب البصر، ثم اليهودية[٢]. أما القرون التسعة التى تفصل بين الفتحين العربى والعثمانى، فهى أطول هذه الفترات التى تعرف فيها مصر وسوريا مصائر، إن لم تكن مترابطة، فهى متوازية على الأقل. فمنذ الشطر الثانى للقرن التاسع، وسط ملكوت خلافة العباسيين الواسع، تتشكل أرض تربط النيل بالفرات وتضع الأماكن المقدسة فى فلسطين تحت سلطة مصر. والأجانب هم الذين ينجزون ذلك الاتحاد: فأحمد بن طولون (٨٦٨ - ٨٨٤)، وهو ابن عبد تركى، جند هو نفسه فى جيش الخليفة، يمد سلطة مصر إلى تخوم قيليقيا. والمنشقون القادمون من أفريقية (تونس)، الفاطميون (٩٠٩ - ١١٧١)، يجنون التركة ويخلفون لمصر عاصمة، هى القاهرة، وللبنان نصف شخصيته: الطائفة الدرزية. ثم يجيء إليهما موحد ثالث من العراق، هو الكردى صلاح الدين (١١٧١ - ١١٩٣)، غالب الفرنجة إلى حين. أما المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) أخيراً، وهم سلالة حاكمة غريبة بلا نسب، تنحدر من أجناد عبيد تم شراؤهم فى أسواق وسط آسيا، فسوف يعيدون تكوين الإمبراطورية.

وهذه الحوادث التوحيدية لاتمحو خصائص البلدين جد المتمايزين اللذين نعرفهما اليوم. على أنها قد أعطتهما على الأقل طابعاً مشتركاً، فريداً بين جبال أطلس وجبال الهيمالايا: تداخل الديانتين اللتين تتواجهان فى كل مكان آخر على جانبى الحدود.

حالة الجماعات المسيحية عند وصول العرب

كانت بيزنطة وفارس تحتلان جزءاً كبيراً من الشرق الأوسط، فقد كانت الأولى تحتل مصر وسواحل سوريا، وكانت الثانية تحتل بلاد الرافدين. أما سوريا الداخلية، المشتهاة من جانب الإمبراطوريتين، فهي تنتقل تارة تحت سلطة إحداهما وتارة تحت سلطة الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة للقدس. وكان جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) قد أعاد المدينة المقدسة إلى حضن روما. ثم فتحها الملك الساساني كسرى الثاني في عام ٦١٤، وحرمها من أغلى ذخر لديها، الصليب الحقيقي، الذي سوف يعيده إليها البيزنطي هيراكليو عندما يسترد هو نفسه المدينة(٦٢٩).

وكانت الجماعات السكانية لهذه الأقاليم، أكانت خاضعة لسلطة بيزنطة أم لسلطة فارس، مسيحية، مع أقلية يهودية تافهة[٣]. وكانت الغالبية تعتنق مسيحية هرطوقية. فالواقع أن الإمبراطور ثيودوس، الذي جعل في أن واحد من المسيحية الديانة الإلزامية ومن القسطنطينية عاصمة الدولة، العاصمة الثانية للكنيسة، كان قد فرض منذ زمن غابر عقيدة جامدة : ففي نيقية (٣٢٥) جرى إعلان وحدة جوهر الآب والابن، حيث يكتسب هذا الأخير طبيعة مزدوجة، بشرية وإلهية. وعلى امتداد الأصقاع المترامية الأطراف للإمبراطورية البيزنطية، كان رجال الدين ملزمين أينما كانوا بالتسليم بهذا المذهب الرسمي. وتصبح المناقشة اللاهوتية، بطبيعة الحال، وسيلة لتأكيد بعض التطلعات إلى الاستقلال الذاتي السياسي.

وهكذا، ففي مستهل القرن الخامس، يرى نسطوريوس، أسقف أنطاكية، أن المسيح كان بشراً قبل أن يكون إلهاً، بينما على النقيض من ذلك يعلن أساقفة الإسكندرية طبيعة المسيح الإلهية بشكل حصري (مذهب واحدية طبيعة المسيح). ويفصل مجمع إفسس (٤٣١) النساطرة بينما يفصل مجمع خلقدونية (٤٥١) القائلين بواحدية طبيعة المسيح. وفي العراق، سوف يصبح السكان نساطرة، في غالبيتهم العظمى على ما يبدو[٤]. وفي مصر وفي سوريا، سوف يتبنى قسم كبير من السكان مذهب واحدية طبيعة المسيح، القبطي في البلد الأول، واليعقوبي في البلد الثاني. وتحتفظ الكنيسة اليونانية بجزء من أتباعها، سوف يسمى في العربية بـ «الملكانيين»، أي أتباع «ملك» بيزنطة. وفي هذا التنوع المتشابك للشيع، سوف يتلون الجدل بذكريات شرك جلية. والحال أن الإسلام المسلح بدعوة وحدانية إلهية بسيطة ومطلقة، سرعان ما سوف يحرز تقدماً وسرعان ما سوف يتمكن من فرض جاذبيته، بتحقيقه للسكينة.

آنذاك كان يهيمن على تخوم الإمبراطوريتين وضع مشوش. فالغساسنة واللخميون، وهم قبائل عربية تابعة لبيزنطة فى الغرب ولفارس فى الشرق، كانوا يسكنون الجزيرة السورية الحالية وشمال شبه الجزيرة العربية. وكان قد جرى تحويل الأوائل إلى مسيحيين واعترفت بيزنطة بزعيمهم فيلاركا، «قائداً». وفى الجنوب، فى الصحراء، لم تكن الإمبراطوريتان تمارسان بعد أية سلطة.

والواقع أن المسيحية لم تخترق هذه الأقاليم إلاّ بشكل بالغ السطحية. والإمبراطور الوحيد الذى قدمه العرب لروما، فيليب الثانى، المسمى بـ «العربى» (٢٤٤ - ٢٤٩)، والوثنى فى نظر رعاياه، يقال إنه قد تحول إلى اعتناق المسيحية سراً. وكانت إرساليات نسطورية قادمة من سوريا ومن العراق قد قامت بعمل تبشيرى لكنها، إذ تسلك الطرق التجارية، تمس بوجه خاص أطراف الصحراء: فى الشمال، مشارف وديان الفرات والعاصى والأردن وفى الشرق، ضفاف الخليج والمحيط الهندى، حيث يظهر عدد من الأساقفة فى عُمان فى عام ٤٢٤ وفى البحرين فى عامى ٥٧٥ و ٦٧٦ وفى الجنوب، جبال عسير واليمن. وفى هذا البلد الأخير، فى عام ٥٢٣، قام ملك تحول إلى اعتناق اليهودية بإبادة الجماعة المسيحية إبادة واسعة(٥).

وفى قلب شبه الجزيرة، لم تكن نجد والحجاز تضمان غير عدد قليل من المسيحيين، يتألف من عبيد أقباط بين آخرين، لن يتوصلوا أبداً إلى تشكيل طوائف حقيقية. وواحة نجران الصغيرة وحدها، التى ترجع شهرتها إلى المعاهدة(٦) التى عقدها محمد مع سكانها، هى التى كانت مسيحية منذ نحو عام ٥٠٠ (٧). أما اليهودية فقد كانت لها بالمقابل أهمية معينة فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلامية، تشهد عليها بوجه محدد المعاهدات المعقودة مع الفاتح المسلم. على أن مما لا مراء فيه البتة أن الغالبية العظمى من سكان شبه الجزيرة كانت ماتزال بمنأى عن كل من الديانتين القائلتين بوحدانية الرب.

وعندما طلع الإسلام على هذه الشعوب، كم كان عدد المسيحيين وكم كان عدد اليهود الذين سوف يقابلهم (٨)؟ إن بعض الشواهد، وأحياناً بعض الوثائق الحسابية التى ترجع إلى زمن الخلفاء الأوائل، تسمح بتقدير السكان فى هذه الفترة القلقة التى تسبق مجىء العرب.

والفاتحون ورثة. وإذا كانوا يقهرون، فذلك بوجه عام سعياً إلى الاستحواذ لا إلى التدمير. وفى مصر، سوف يكونون خلفاء لثلاثة آلاف سنة من تراث المركزة. والإدارة، كما لو كانت قد هجعت فى طمى أقدم دولة فى العالم، تستأنف السير منذ استسلام البلد أمام جيش

القائد عمرو بن العاص. فالجبايات الضريبية الأولى تسجل على أوراق البردى التى تبين المبلغ الإجمالى للإيرادات السنوية للجزية، ضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين: ١٢ مليوناً من الدراهم غداة الفتح (٦٤١). وتشير شواهد متباينة إلى مبلغها بالنسبة للفرد: ٢٤ درهماً مصرياً. ولما كان دافع الضريبة يمثل فى المتوسط أسرة من خمسة أفراد، فلابد أن مصر كانت مأهولة آنذاك بنحو ٢٫٥ مليون من السكان[٩]، كلهم غير مسلمين.

وقد يبدو العدد هزيلاً يدعو إلى السخرية، وذلك بقدر ما أن هذه الأرض، هبة النيل، تستحضر صورة وفرة الخيرات الغذائية والبشر[١٠]. ففى عام ٦٦ قبل يسوع المسيح، نجد أن هيرود أجريبا، ملك اليهود، سوف يدهش، وقد تأثر بحجم إيراداتها الضريبية، من أنها «تضم سبعة ملايين وخمسمائة ألف نفس، خارج الإسكندرية [١١]». ويجتاز الرقم القرون. وعلى مر العصور، تثير الإسكندرية الخيال. ويكتب الفريد بتلر، المؤرخ البريطانى للفتح العربى: «لقد ازدهى عمرو بتتويج غزوه بالاستيلاء على قصور الإسكندرية التى يصل عددها إلى أربعة آلاف، وعلى مسارحها التى يصل عددها إلى أربعمائة، وعلى حماماتها العامة التى يصل عددها إلى أربعة آلاف، وعلى يهودها الأغنياء الدافعين للجزية والذين يصل عددهم إلى أربعين ألفاً من عدد إجمالى للسكان يقدر بـ ٦٠٠٠٠٠ إنسان، لا يشمل النساء والأطفال»[١٢]. وهذه مبالغة، دون شك؛ فالمساحة المنزرعة وغلال الأزمنة قبل الصناعية، الخالدة خلود النيل، يمكنها، فى حدها الأقصى، إعاشة ما بين ٥و ٦ ملايين من الأشخاص. والحال أن مصر، فى ذلك العصر، لا تطعم فقط سكانها بل تصدر فائضاً كبيراً إلىٰ روما؛ ومن ثم فإن رقم الـ ٤٫٥ مليون من السكان نحو العام صفر يبدو تقديراً معقولاً. ويشير بيان للإنتاج الزراعى فى عهد ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) إلى هبوط ممكن إلى ٣٫٢ مليون من السكان. وفيما بعد سوف يؤدى طاعون ٥٤٢ - ٦٠٠ الكبير إلى حرمان البلد من خمس عدد سكانه. وربما كان ذلك هو السبب فى أن العرب لن يواجهوا هناك غير مقاومة جد طفيفة، خارج الإسكندرية، التى سوف يواصل البيزنطيون الاحتفاظ بها لبضع سنوات.

أمّا سوريا (إسرائيل، الأردن، لبنان وسوريا الحالية) المتمردة بالنسبة إلى مصر، والعصية منذ زمن على فرض السلطة عليها، فيبدو أنها لا تملك أى نوع من البيانات التى يمكنها إطلاعنا على حالة سكانها. وتشير الوثيقة الوحيدة المتاحة إلى الضريبة المجباة فى مدينة حمص : ٨٥٠٠٠ دينار فى السنة. وكان كل رجل ملزماً بأداء ضريبة من دينار واحد وكان الرجال البالغون يشكلون ربع السكان، وهو ما يعنى أن المدينة والإقليم المحيط بها ربما

كانا يضمان ٣٤٠٠٠٠ فرد . ولما كانت حمص تمثل نحو جزء من اثنى عشرة جزءاً من سكان البلد، فقد كانت سوريا مأهولة بأربعة ملايين من السكان. ومن شأن قياس مماثل أن يحدد عدد سكان بلاد الرافدين بـ ٩ر١ مليون نسمة عند مجىء الخلافة، وذلك على أرض تتطابق اليوم مع العراق وتركيا الجنوبية الشرقية (١٣).

ومن ثم، ففى لحظة الوحى الإسلامى كانت الأرض التى تشكل اليوم المشرق العربى تضم، بموجب هذه التقديرات، ما يزيد قليلاً عن ١٥ مليوناً من المسيحيين، وأقل من ٢٠٠٠٠٠ يهودى (الجدول I.1).

سبعة قرون من الأسلمة

لقد تقدم الفتح العسكرى الإسلامى بالسرعة التى نعرفها. فعند موت النبى، كانت شبه الجزيرة العربية وحدها الخاضعة. وبعد ذلك باثنى عشرة عاماً، خضع مجمل ما يشكل اليوم المشرق العربى. ولم يكن بوسع الفتح الروحى أن يساير هذه المسيرة الجامحة. ويعتقد بعض المؤرخين أن سكان الإمبراطورية قد ظلوا فى غالبيتهم غير مسلمين حتى الحروب الصليبية.(١٤) والواقع أن الإسلام قد انتشر بشكل متفاوت: فبعض السكان سوف يتبنونه منذ البداية، فى حين أن البعض الآخر، فى مجموعهم أو على شكل فصائل، سوف يحتفظون بمعتقداتهم القديمة على مدار عدة قرون.

تحقيق التجانس الدينى لشبه الجزيرة العربية

«لا يجب لديانتين التعايش فى شبه الجزيرة العربية». هذا العهد الذى توردة السنة يقال أنه صدر عن النبى وهو على فراش موته. والواقع أنه يبدو تماماً أن عمر الأول، الخليفة الثانى، قد قام فى عام ٦٤٠ بطرد اليهود من الحجاز والمسيحيين من نجران، ناقضاً بذلك المعاهدة التى كان محمد قد عقدها معهم، والتى كفل لهم بموجب شروطها دوام إقامتهم على هذه الأرض (١٥). فهل سوف يصبح وسط شبه الجزيرة العربية برمته، من ثم، خالياً دائماً من أية طائفة يهودية أو مسيحية، كما سوف يسجل ذلك، بعد مائتى سنة، كبار مؤرخى الإسلام؟

يبدو أن ذلك غير صحيح إذا ما حكمنا على الأمور بتراكم عدد من الشواهد: ذلك أن مسيحياً من المدينة، صحيح أنه عبد، هو الذى اغتال عمراً. وفى عهد معاوية، مؤسس السلالة الحاكمة الأموية، كانت قوة من مائتى رجل مسيحى هى التى تشكل شرطة المدينة. وأخيراً، فإن كان النبى قد أمر حقاً بطرد المسيحيين واليهود، فهل كان يمكن لهذا الأمر أن يغيب عن بال أبى بكر خليفته الأول، وأن ينتظر عمر إلى أواخر خلافته حتى يشرع فى تنفيذه؟[١٦]

وإذا كان قد بقى عدد من غير المسلمين فى شبه الجزيرة العربية، فإن ذلك لن يكون بعد إلاّ باعداد تافهة فى جزئها الأوسط. ومما لا مراء فيه أنه لا يوجد بعد هناك مسيحيون خارج الجماعة الصغيرة التى يستمر رصدها فى نجران بعد ثلاثة قرون من الوحى. وفى المقابل، نجد أن الطوائف اليهودية سوف تستمر فى أطرافها. وقد ذكر رحالة القرون الوسطى عدة عشرات من الأسر فى حضرموت. وفى القرن الثانى عشر، يذكر بنيامين دو توديل أن ٥٠٠ من اليهود كانوا يعيشون فى قيس وأن ٥٠٠٠ منهم كانوا يعيشون فى القطيفة، فى أرخبيل البحرين[١٧]. والمبالغة الواضحة للرحالة اليهودى تشهد على الانطباع القوى الذى خلفته هذه الطائفة فى نفسه. ومن جهة أخرى، تظل اليمن بؤرة هامة لليهودية العربية حتى إنشاء إسرائيل. وتسمح أهمية اليهود فى بداية هذا القرن (٢٪ إلى ٣٪ من السكان) بتخيل أنهم سوف يشكلون بلا انقطاع مكوناً غير تافه من مكونات اليمنيين. والواقع أن عدن، حيث سوف يشهدون أعظم ازدهار لهم فى القرن الثانى عشر، كانت ماتزال تضم ٧٠٠٠ رجل يهودى من دافعى الجزية فى مستهل الفترة العثمانية [١٨]، أى نحو ٣٠٠٠٠ نسمة.

العراق من الهجرة إلى المغول

إن العراق، الذى كان يركز الكتلة الديموغرافية للمنطقة، قد ترك لنا المؤشرات الأكثر ترتيباً. ولا مراء فى أنه يجب تمييز بلاد الرافدين الجنوبية عن جبال وسهول الشمال، المناطق الشيعية اليوم، عن المناطق، السنية، التى توجد فيها أقلية مسيحية. ففى الشمال، فى ظل الخلفاء الأوائل، تظل النسطورية حيوية بما يكفى لإرسال بعثات تبشيرية إلى الشرق الأقصى، وتشهد على ذلك نقوش جنائزية فى سيان - فو (الصين) وعلى ساحل مالابار (الهند). ويتواصل نموها الفكرى: فبفضل الترجمات التى يقوم بها النساطرة، سوف ينقلون إلى العرب الفلسفة اليونانية. وفى الجنوب، فى المقابل، يمتد الإسلام بسرعة بالغة. والبرهان على ذلك هو

انهيار إيرادات ضريبة الرأس: ففى عهد الخليفة عمر الأول، تصل إلى ما بين ١٠٠ مليون و١٢٠ مليونا من الدراهم؛ بينما لا يجمع الأمويون منها بعد غير ٤٠ مليونا من الدراهم فى عهد عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) (١٩). وهذه الأرقام توضح اتساع عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام: إن ثلثى إجمالى السكان يقرران الانتماء إلى الإسلام منذ النصف الأول للقرن. وإذا ما سلمنا بأن العراق (بمفهوم جغرافى واسع) كان يضم نحو عام ٧٠٠ زهاء ٩ ملايين من السكان، فبالإمكان توزيع هؤلاء إلى ٦ ملايين من المسلمين حديثى الاعتناق للإسلام و٣ ملايين من المسيحيين.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام قد جرت بإيقاع ابطأ إلى حد ما وإلى أن المصريين والفرس والآراميين الذين تحولوا إلى اعتناق الإسلام فى الأزمنة الأولى للخلافة العباسية (٧٥٠ – ١٢٥٨) هم وحدهم الذين سوف يتجاوزون المسلمين ذوى الأصل العربى من حيث العدد(٢٠). والحال أن العرب، الذين كانوا قد أصبحوا كلهم مسلمين بحلول ذلك الزمن، يبدو أنهم لم يكونوا يزيدون عن مليونين . والتأكيد على أن المسلمين غير العرب، فى هذا الكيان المأهول بنحو عشرين مليوناً من السكان (مصر وفارس وسوريا)، كانوا أيضاً، مليونين، إنما يعنى أن نسبة ١٠٪ بالكاد من السكان الخاضعين، بعد قرن من الفتح، هى التى اعتنقت الدين الجديد.

ويبدو هذا قليلاً جداً، خاصة إذا ما أولينا شيئاً من الاعتبار لتقدير آخر ذى أصل عسكرى. ففى ٧٤٢ – ٧٤٣، تمكن الجيش «السورى»، أى إجمالى الرجال (السوريين أو غير السوريين) الذين يقودهم خليفة دمشق من حشد ٥٣٠٥٠٠ رجل (٢١)، كلهم على دين الإسلام، فيما عدا استثناءات قليلة. وربما مست التعبئة، التى كانت ماتزال قوية خلال فترة التوسع السياسى هذه، ربع الرجال الذين هم فى عمر القدرة على حمل السلاح، والذين يمثلون هم أنفسهم نسبة ٢٥٪ من إجمالى السكان. وهذه التقديرات تتفق على نحو أحسن مع ما نعرفه عن عهد عمر الثانى (٧١٧ – ٧٢٠)، أحد آخر الأمويين، السلالة الحاكمة التى تتلو الخلفاء الشرعيين الأربعة الأوائل.

والواقع أن عمر الثانى الشديد التقوى والورع سوف يفرض قيوداً تمجل بعمليات تحول إلى اعتناق الإسلام فى جميع ممتلكات الخلافة؛ وتوضح ذلك حوليات تاريخية كثيرة. وتصل إلينا رسالة مسيحى، ترجع إلى القرن الأول للهجرة، يعرب فيها عن الاستياء من السرعة التى

سمح بها سكان الإمبراطورية الساسانية السابقة لأنفسهم بالاستجابة لإغراء الإسلام دون أدنى محاولة لدرء ذلك: «إلى أين انتقل شعب مرو[٢٢] العظيم هذا الذى لم يسبق له قط الصبر على السيف أو النار أو التعذيب لكنه تحول، تحت غواية إلههم، تحول بهلوان، عن جادة الحق، لكى يلقى بنفسه مطاطىء الرأس فى المعصية، فى الدمار الأبدى؟ فمن بين هذه الآلاف المؤلفة التى كانت تحمل أسماء مسيحية، لا يوجد شهيد واحد قدم دمه للرب قرباناً للدين الحق[٢٣]».

ومنذ الخلفاء الأمويين، يعرف العراق الجنوبى إشعاعاً تجارياً[٢٤] وثقافياً عظيماً. وسوف يؤدى نقل العباسيين الخلافة إلى بغداد إلى مزيد من نموه. ولاشك أن ذلك يفسر الانتشار البالغ السرعة للدين الجديد. ففى بداية الأمر، كانت الكوفة والبصرة ومدن بلاد الرافدين الأخرى مجرد مدن حاميات، تهيمن من بعيد على سكان لا تحيا فى تواصل معهم. لكنها سوف تصبح مراكز نشاط إقليمى ودولى كثيف وسوف تجتذب الناس من شتى الآفاق. والجماعات السكانية التى كانت حتى ذلك الحين بمنأى عن حكامها الجدد سوف تدخل هناك فى اتصال مع الدين الإسلامى ومع اللغة العربية، وسوف تتبنى الأول والثانية، ثم سوف تنشرانهما.

فهل تترافق هذه الفترة من فترات الازدهار الاقتصادى والأسلمة السريعة مع نهوض ديموغرافى؟ إن ذلك غير مؤكد لأن الضرائب على الأرض تتزايد، بعد وقت قصير من الفتح، وتحفز نزوح الريفيين. وتتكمش المساحة المنزرعة فى الوقت الذى يتزايد فيه عدد المستهلكين المدنيين. ويبدأ فى القرن العاشر انحدار طويل لأسعار الحبوب، بما يدل على أن إيقاع انكماش السكان يتجاوز أيضاً إيقاع هجر الأراضى. ويترجم هبوط إيرادات ضريبة الأراضى فى العراق الجنوبى انحداراً عاماً للنشاط: فمن ٣ر١٠ ملايين من الدينارات الذهبية فى عهد عمر الثانى، سوف تنتقل إلى ٦ر٩ ملايين فى أواخر القرن السابع، وإلى ٧ر٦ ملايين عند مجىء هارون الرشيد (٧٨٦)، وإلى ٥ر٤ ملايين عند موته (٨٠٩)، وسوف تنحدر إلى ٥ر١ مليون فى عام ٩١٨[٢٥]. وسوف يكون عدد سكان بغداد فى عام ٩٥٦ أقل عشر مرات مما كان فى زمن المقتدر (٩٠٨ – ٩٣٢).

ولم يكن أمام العراق وقت للنهوض. إن سلسلة لا تنتهى من القلاقل تؤذن بتفكك الخلافة العباسية، ثم بالغزو المغولى (١٢٥٨)، الذى سوف يغرق البلد فى فوضى مقيمة. وعندما يهيمن المغول على البلد، لن يكون فيه غير ٥ ملايين من السكان على الأكثر[٢٦]. ويشهد

هذا الانحطاط الطويل انسحاب المسيحية من بلاد الرافدين الشمالية، التى كانت حتى ذلك الحين مركزها الرئيسى فى أرض الإسلام[٢٧]. فمصائر الكنيسة النسطورية والخلافة الإسلامية واحدة بشكل يدعو إلى العجب، حيث يكون انحدار إحداهما صدى لانحدار الأخرى.

فعند وصولهم، سوف يشجع المغول الجماعة المسيحية. والواقع أن هولاكو، زعيمهم، قد اتخذ لنفسه زوجة مسيحية ويقال إنه هو نفسه قد تحول سراً إلى اعتناق المسيحية. وربما لهذا السبب، يختار الخليفة نسطورياً، هو البطريرك ماشيشا الثانى، للتفاوض على استسلام بغداد. وخلال نهب المدينة الذى يقع بالرغم من ذلك (الاستسلام)، لاشك أن عدد الضحايا سوف يصل إلى عشرات الآلاف [٢٨]، لكن الأحياء المسيحية سوف تعفى من الدمار. على أن القدر يرتد بشكل لا فرار منه ضد النساطرة، عندما يتحول الخان، الذى يعتلى العرش المغولى، إلى اعتناق الإسلام رسمياً (١٢٩٦). وسوف يواجه المسيحيون العداوة شبه الدائمة من جانب السكان الأكراد، والتى تقترب، أكثر من مرة، من حد المذبحة[٢٩]. وسوف يواصل «بروتستانتيو الشرق» [٣٠] هؤلاء تقديم شخصيات فنية أو علمية رائعة، لكنهم سوف يكفون عن أن يكون لهم وزن هام فى الديموغرافيا. ففى القرن السادس عشر، لاشك أن العراق لن يضم سوى النسبة التى تتراوح بين ٢٪ و٣٪ وهى نسبة المسيحيين التى سوف يجدها العثمانيون بعد مائتى سنة.

تعايش المعتقدات فى الشام

كان تاريخ سوريا مختلفاً تماماً، فقد عاد على جماعتها المسيحية بالاحتفاظ حتى أيامنا بمكانة مرموقة فى لبنان وفلسطين وسوريا نفسها. وكان الأمويون قد نقلوا العاصمة من المدينة إلى دمشق. وهى لن تبقى مركزاً للإمبراطورية إلاَّ على مدار قرن واحد (٦٥٦ – ٧٥٠)، وهو بالضبط الوقت الذى احتاج إليه الخلفاء لرسم الخريطة شبه النهائية لدار الإسلام، الأرض التى يحكمها الإسلام، أى لرسم الحدود، بهذه اللمسات الجديدة أو تلك، التى تحتوى السكان الذين سوف يصبحون بالتدريج مسلمين.

وهى فترة حاسمة فى تاريخ البشرية سوف تجتازها المدينة الأموية، وخاصة سوريا الداخلية مع الحفاظ على ملامح بلد مسيحى، وهو أمر يدعو إلى العجب[٣١]. وبالفعل، كان

الاستيلاء على دمشق رمزياً. ويقال إن المسلمين قد اخترقوها عبر بابين، حيث أبدى الباب الأول مقاومة بينما آثر الباب الآخر الاستسلام. وفى منتصف الطريق، جرى من ثم تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا إلى قسمين: محراب للمسلمين ومحراب للمسيحيين. وهكذا تم إنشاء مسجد الأمويين على مثوى نصف الكاتدرائية وواصل المؤمنون بالديانتين الصلاة زمناً طويلاً فى مكانين متلاصقين. وفى حمص، سوف تكون الكنيسة الكبيرة أيضاً على مدار أربعة قرون مكاناً لأداء طقوس الديانتين. وكان لابد من الحروب الصليبية ومن أذيال الشكوك التى جرتها حتى تتلاشى هذه الممارسة التى شهدت على تسامح أصيل عظيم(٣٢).

وبعد قرن من الفتح، كان عدد العرب المسلمين مايزال ٢٠٠٠٠٠ نسمة، يضاف إليهم بضع آلاف من الموالى (المتحولين إلى اعتناق الإسلام) ذوى الأصل السورى (٣٣). وهو رقم لا مراء فى أنه رمزى، فهو يتطابق بشكل بالغ الغرابة مع الرقم الذى يسوقه كتاب الحوليات والمؤرخون بالنسبة لفتوحات بدوية أخرى: فالهلاليون الذين سوف يغزون أفريقيا الشمالية فى القرن التاسع سوف يكون عددهم ٢٠٠٠٠٠ أيضاً، شأنهم فى ذلك شأن الأتراك السلاجقة الذين سوف يهبطون فى الأناضول فى القرن الحادى عشر. لكنه يوحى تماماً بانفراس الإسلام وسط جماهير الجماعة المسيحية السورية: فمن بين ٤ ملايين من الأشخاص، ربما نجد ربع مليون من المسلمين، أى نسبة ٦٪ من السكان. والحال أن العدد الإجمالى لهؤلاء السكان لن يكون مصيره التغير كثيراً فى غضون قرن؛ فقد كان خاضعاً لمؤثرات متعارضة: نزوح المسيحيين إلى بيزنطة مع وصول قبائل من شبه الجزيرة العربية، تواتر الطاعون الدبيلى مع تدفق الثروات على مركز الخلافة، إغلاق أسواق العالم اليونانى مع فتح أسواق الهند والشرق الأقصى، التى أصبحت فى متناول تجار دمشق مع تجاوز حاجز فارس الساسانية، التى استوعبتها هى نفسها الإمبراطورية الإسلامية.

والواقع أن الفتح الذى يبدأ سياسياً، يصبح روحياً بحفز من الخليفة عمر الثانى. فبعد انتصار الدولة الإسلامية، يلوح فى الأفق من ثم انتصار الدين الإسلامى. والسلطة المركزية التى انتزعها العباسيون باللجوء إلى العنف، تهجر سوريا إلى العراق، تاركة الأولى فى أيدى حاميات أجنبية، بعضها استبدادية. وإذ يفرض الإسلام نفسه بفضل التمزيق السياسى، والإكراه الممارس فى عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ – ٨٦١)، فإنه يفوز عندئذ بجانب من السكان.

القبائل أولاً. فمنذ زمن بعيد، منذ زمن الفتح، كان الجيش الإسلامى قد اضطر إلى

تقديم بعض التنازلات حتى يحرز تقدماً: فقد جرى السماح لعدة قبائل مسيحية بالاحتفاظ بديانتها فى مقابل الخدمات العسكرية التى أدتها فى فارس إلى جانب جنود الإسلام. وبمرور الوقت، تتزايد صعوبة اعتراف الدولة بإمكانية تجنب العرب الأصلاء اعتناق الإسلام. والواقع أن الخليفة المهدى هو الذى سوف يلجأ، فى عام ٧٧٩، إلى إكراه إحدى آخر القبائل المسيحية، تنوخيى إقليم حلب، على اعتناق الإسلام. ويذكر بار هيبرايوس، المؤرخ اليعقوبى فى العصر الوسيط، أن «مائة ألف إنسان قد ارتدوا» (عن المسيحية) (٣٤).

وتتأسلم المدن بعد ذلك. ففيها أقامت الدولة إدارتها وجاور السكانُ الدين الجديد. وسوف تتبناه مدن الداخل بشكل أسرع وبشكل أكثر كثافة من مدن ساحل البحر المتوسط، لأن «العرب يخافون البحر»(٣٥) ولأن بيزنطة تحتفظ بعلاقات تجارية وكنسية عديدة مع الموانىء التى تمد أبصارها صوب اليونان. أما القرى فسوف تبقى لزمن أطول بمنأى عن الحركة، خاصة فى الجبال. «إن لبنان، الملاذ الأبدى للقضايا الخاسرة (...)، سوف يظل مسيحياً فى عقيدته وسريانياً فى لغته على مدار قرون. والمواجهة المادية هى وحدها التى يضع الفتح حداً لها. أما المواجهة الدينية والعرقية والاجتماعية وخاصة اللغوية فهى تبدأ للتو»(٣٦).

ويبدو أن سوريا فى مجموعها سوف تحتفظ بغالبية مسيحية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى. بل إن بوسع اليعاقبة الاستفادة من الهزيمة الساسانية لإرسال بعثات تبشيرية إلى الشرق الأقصى، الذى كان حتى ذلك الحين حكراً لنشاط النساطرة التبشيرى. ويستند هذا الحماس التبشيرى إلى حيوية ديموغرافية معينة، يقدم عنها الكاتب الجاحظ (القرن التاسع) شهادة ثاقبة النظر، فهو يلاحظ أن المسيحيين الذين لا يتزوجون إلا من امرأة واحدة، والذين يعتبرون أكثر تكاثراً من المسلمين الذين يتزوجون من أكثر من امرأة واحدة، «يملأون الأرض»(٣٧). ونحو عام ٩٠٠، نجد أن العدد الإجمالى لسكان سوريا، والذى لا مراء فى أنه لم يتغير كثيراً منذ الفتح (٣٨)، لابد أنه كان يتألف من مليونين من المسيحيين ومليونين من المسلمين.

وفى الأعوام الخمسمائة التى تسبق الحروب الصليبية، تتحدد الجغرافيا الطائفية للشرق الأدنى المعاصر. وبحسب اللحظات التاريخية، يصبح الجبل ملاذ جزء من الجماعة المسيحية أو موقعها الحصين. والواقع أن الموارنة، وهم جماعة ظلت مخلصة لقرارات مجمع خلقدونية، كانوا هدفاً للتيارات السائدة داخل الجماعة المسيحية الشرقية. فمن حيث كونهم

قائلين بواحدية طبيعة المسيح، رفضوا العقيدة الجامدة السائدة، ومن حيث كونهم ملكانيين، رفضوا طقوسها. وفى عام ٦٩٤، سوف ينهب البيزنطيون أديرتهم، وسوف يذبحون، فيما يقال، خمسمائة من رهبانهم(٣٩). وعندئذ يبدأ الموارنة فى مغادرة سهل العاصى للإقامة على الذرى الشمالية للبنان، فى وادى قَديشه.

وسرعان ما سوف ينضم إليهم مسيحيون آخرون، يسمون بـ «المردة(٤٠)» (المتمردين)، منذ زمن ثورتهم على بيزنطة. وهم يسكنون ساعتها جبل آمانوس، قرب أنطاكية، حيث كانت جُرجُمة، عاصمتهم، قد دكت من جانب فرسان الخليفة بما يشكل انتهاكاً لميثاق قديم عقد فى عام ٦٣٩ عند استيلاء جنود الإسلام على أنطاكيه. والواقع أن المسلمين، لكى ينتزعوا المدينة من البيزنطيين، كانوا قد وقعوا مع المردة اتفاقية تجعل من هؤلاء المحاربين الأشداء جواسيس لهم، وتسمح لهم بأن يظلوا مسيحيين دون إجبارهم على أداء الجزية؛ وعلى الرغم من كونهم «كفاراً»، فإنهم سوف يخدمون فى الجيش الإسلامى وسوف تكون لهم كافة حقوق الجندى، بما فى ذلك حق اقتسام الغنيمة(٤١). وإذ يستقرون فى لبنان، فسوف يتبنون ملة مضيفيهم. وهذه القوة الزمنية تدعم ركيزة الطائفة المارونية.

وبعد ذلك بخمسمائة سنة، سوف يؤدى قرب ممالك الفرنجة إلى توطيد الوجود المارونى فى شمال لبنان. لكن وجود الموارنة سوف يتعزز فى الجبل بفضل الصراعات فيما بين المسلمين، نحو أواخر العصر الوسيط. فسوف يحتلون آنذاك هذا «البلد المسيحى» الذى سوف يجربون فيه أيضاً الانكفاء على أنفسهم خلال الحرب الأهلية اللبنانية بين عامى ١٩٧٥ و١٩٩٠. والواقع أن الدولة المملوكية كانت قد قررت إخماد الانشقاقات فى ولايتها السورية والقصاص من التعاطفات مع الفرنجة: ففى عام ١٣٠٥، سوف تطرد إلى أقصى الشمال، فى مؤخرة اللاذقية، العلويين (الشيعيين الغلاة) الذين يسكنون وسط لبنان، وتوقف توسع الدروز (وهم غلاة آخرون منبثقون عن الشيعية) والمتاولة (شيعة اثنى عشرية) (٤٢) فى كسروان. ومما يدعو إلى العجب أن المماليك، عديمى التسامح إلى أبعد حد فى الشأن الدينى، قد فتحوا فرجات سوف يتجه الموارنة إلى ملئها. والواقع أنهم قد غرسوا بذلك، دون أن يدروا، بذور هيمنة مسيحية فى لبنان(٤٣).

وفى ظل المماليك أيضاً سوف تنفتح بيروت، التى ستصبح فى القرن التاسع عشر الحاضرة المسيحية الكبرى، على الغرب. فعكا وصور وطرابلس لا تنهض من رماد الحروب الصليبية. وخرابها هو الرضيد الأول للميناء اللبنانى، أما قرب قبرص فهو رصيده الثانى. فمنذ أن خسرت أوروبا مواقعها على الساحل السورى، أصبحت الجزيرة، «ملتقى رجال

الأعمال الغربيين»، بؤرة حقيقيةً للتجارة الدولية. وقبل أن تؤول إلى البندقية، كانت قبرص قد قضت بضع سنوات تحت سيادة مماليك مصر (١٤٢٦ - ١٤٧٢). وحرصاً منهم على تنمية علاقاتهم التجارية مع أوروبا، سوف يستفيد سلاطين القاهرة من الفاصل الزمني لتشجيع تجارة ترانزيت سوف تكون بيروت منفذها الطبيعي. وعندئذ سوف يحصل اللوسينان، وهم أرستقراطية قبرصية من أصل فرنسي، على حق امتلاك بنايات مختلفة في هذه المدينة - محال تجارية، منازل، كنائس. ومن العلامات المحددة بهذا الشكل تولد فيما بعد، مع سليمان القانوني وفرانسوا الأول، العلاقات المتميزة لمسيحيي الشرق مع غرب الرينسانس (النهضة).

وسوف يميز تناوب الانحدارات الديموغرافية العميقة والاستئنافات المترددة للسير إلى الامام تاريخ سوريا في العصر الوسيط. وكانت الحروب الصليبية قد سبقها سبات طويل يجد ترجمة له في منحنى أسعار المواد الغذائية: فانخفاض السكان وحده هو الذي يمكنه أن يجر في سقوطه المتواصل الطلب والأسعار[٤٤]. وما سوف يغزوه الفرنجة هو بلد خالٍ من قواه الحية: ٢٫٧ مليون من السكان عند الحملة الصليبية الأولى[٤٥]. وسوف تؤدي المواجهة التي تدوم قرنين مع الجماعة المسيحية الغربية إلى إنهاكه.

وكما في مصر، يبدو أن الديموغرافيا تنهض في ظل المماليك الأوائل: فلابد أن آثار نشاط تجاري رائع في أغلب الأحوال سوف تتغلب على آثار الحروب العنيفة ضد المغول. لكن سوريا لا تضم بعد في عام ١٣٤٣ غير ١٫٢ مليون من السكان [٤٦]. فالواقع أن السلطة المملوكية تجند في صيدا وفي بيروت وفي البقاع جندياً من بين كل ٢٥٠ من السكان؛ وهذه المناطق تقدم ٥٠٠ جندي، وهو ما يعني أن ١٢٥٠٠٠ شخص يسكنونها. ومع طرابلس، بوسع لبنان أن يضم ١٥٠٠٠٠ من السكان وتضم سوريا كلها ما يزيد عن هذا العدد بثماني مرات. ورغم إيجاز هذا التقدير، فإنه يتفق على نحو جد ممتاز مع نتائج التعداد الأول الذي سوف يجريه العثمانيون في عام ١٥٨٠: ١٫٤ مليون من السكان في ولايات [٤٧] حلب ودمشق وطرابلس. ويحدث آنذاك الطاعون الأسود لعامي ١٣٤٨ و١٣٤٩، والذي يميت ٢٠٠٠٠٠ شخص على الأقل، وربما أكثر من ذلك بكثير[٤٨]. ولا تضم سوريا بعد غير مليون من السكان على أقصى تقدير، ربما كان ١٠٠٠٠٠ منهم مسيحيين. ولابد أن هؤلاء الأخيرين يمثلون هناك نسبة قريبة من النسبة التي تشير إليها البيانات العثمانية لأن التحولات الكبرى الأخيرة إلى اعتناق الإسلام قد حدثت في ظل المماليك الأوائل. وفي ظل هذه السلالة الحاكمة اقتربت الجماعة المسيحية في الشام أكثر فأكثر من التلاشي (الجدول I . 2). وكان ذلك هو حال

اليهودية أيضاً: ففي أواخر القرن الخامس عشر، يذكر الرحالة ميشولام دو فولتيرا أن دمشق تضم أربعمائة إلى خمسمائة أسرة يهودية[49]، أي ما بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ شخص. ولعل البلد برمته لم يكن يضم من اليهود غير أقل من ١٠٠٠٠ شخص.

الانتشار السريع للإسلام في مصر

كان مصير مصر فريداً. فهذا البلد الذي تم فتحه بسهولة منذ الساعة الأولى، يبدو أنه كان موعوداً بأسلمة سريعة وتامة. لكن هذا البلد الأقل تمرداً والأقرب، خلافاً للمغرب، سوف يكون مع ذلك البلد الوحيد في أفريقيا الذي لا يفقد أبداً جميع مسيحييه.

إن البلد الذي يهبط عليه القائد عمرو ابن العاص من منفذ سيناء هو بلد منخفض السكان إصابه الوهن. ومن المؤكد أن فرسان عمرو الذين يصل عددهم إلى أربعة آلاف لا يكفون للمهمة البتة، لكن العشرين ألفاً الذين يطلبهم لمساعدته من شبه الجزيرة العربية سوف ينجزونها دون أن يقابلوا مقاومة حقيقية، خارج الإسكندرية. ويذكر المؤرخ عزيز عطية، مؤسس معهد الدراسات القبطية في القاهرة، أن المدينة، التي يدافع عنها خمسون ألف رجل والمنفتحة على المؤخرات البيزنطية «كان بوسعها الصمود إلى أجل غير مسمى، لولا ازدواجية سيروس[50]». وقد اضطر سيروس، الذي اقترفت بيزنطه خطأ تعيينه في آن واحد بطريركاً ووالياً، أي ممثلاً للمؤسستين المكروهتين، الدين الرسمي وإدارة الضرائب، إلى مواجهة عداوة قوية من جانب الأقباط، وهو يتفاوض على استسلام يجر إلى تسليم رهائن من بين صفوف السكان المدنيين.

ومنذ عام ٦٤١، تستقر إدارة ضرائب الدولة الجديدة. وتقدم لنا الجزية، ضريبة الرأس، عدد غير المسلمين، ويقدم الخراج، ضريبة الأرض المحصلة من ملاك الأرض المنتمين إلى الطائفتين، عدد السكان الريفيين. وعند إضافة المدنيين، الذين يشكلون آنذاك نحو ١٠٪ من السكان، نصل إلى العدد الإجمالي للسكان. والواقع أن هذه الأعداد، التقريبية بالتأكيد، تقدم لنا عدة نقاط لتتبع تاريخ طويل ووعر (الجدول 3 . I، الشكل 1 . I). ولكن ما أبلغها! فالجزية تهبط، بينما يحافظ الخراج على مركزه، بما يشير إلى انهيار الجماعة المسيحية بالرغم من الاستقرار الديموغرافي المحيط. وبعبارة أخرى، فإن الإسلام سوف ينتشر بأقصى سرعة تحت تأثير التحولات إلى اعتناق المسيحية وحده. إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة: ٢٦٪ بين عامي ٦٤٤ و٦٦١، ثم ٣٢٪ في عهد معاوية وحده، بين عامي ٦٦١ و٦٨٠.

ويشك عزيز عطية، وهو مرجع فى التاريخ القبطى، أن هذه الجماعة كان يمكن أن تنحدر بهذه السرعة. وإذا كان الأقباط، كما يتفق على الاعتراف بذلك جميع كتاب الحوليات، سوف يستقبلون ببالغ التسامح الفاتحين الذين يحررونهم من اضطهاد بيزنطة، فإن ذلك لن يكون من أجل التخلى بهذه السهولة عن العقيدة التى تمسكوا بها رغم أنف الملاحقات. فهل تكون الجزية عندئذ شاهداً زائفاً على عدد الدافعين لها؟ من الممكن أنها قد خضعت لتقلبات أخرى غير تقلبات السكان الخاضعين، كتقلبات الدخول مثلاً.

والواقع أن العرب لم يجيئوا طغاة كما أنهم يدركون قيمة المياه. ومعاهدة الاستسلام التى سوف يفرضونها فى بابليون (القاهرة القديمة) تنص على «التزام سكان مصر بدفع جزية من خمسين مليوناً فور وصول فيضان نهرهم إلى منتهاه. (...) وإذا لم يصل النهر لحظة الفيضان إلى مستواه العادى، فسوف يجرى تخفيف عبء الجزية عنهم بما يتناسب مع ذلك»(٥١). وفى سنوات معينة، كان بالإمكان من ثم أن ينجم انحدار الجزية عن هبوط لمياه النيل. وبدون أن تكون الديموغرافيا سبباً لأى منهما، فإن من شأن تدهور للزراعة أو إعادة تقييم للدينار أيضاً تفسير هذا التطور للإيرادات فى جانب منه(٥٢).

على أن والى مصر، الذى يشهد انهيار إيرادات الدولة، ينزعج من جهة أخرى من مثل هذا النجاح. ونجد أنفسنا أمام مفارقة قصوى، فسعياً إلى الحفاظ على مستوى الموارد العامة، يحث ممثل الدولة المسلمة نفسه الأقباط على التمسك بديانتهم!(٥٣) لكن تدابير أخرى تثنيهم عن ذلك: مثال ذلك التدبير الذى يفرض العربية كلغة إدارية ويختزل القبطية إلى الاستخدام الشعائرى والمنزلى (٧٠٥). والحال أن التفسير، الرومانسى، لأحد المؤرخين البريطانيين الأوائل للكنيسة القبطية، وهو بوتشر، يسقط أمام البرهان الضريبى. فهو يظن أن التبحر الصوفى كان السبب الحقيقى لأفول الجماعة المسيحية فى مصر، ويرصد بطء العملية: فتمشياً مع تراث رهبانية القديس أنطوان، لابد أن نزعات رهبانية جد عديدة قد أخذت فى ظل الإسلام بُعد رفض جماعى لإنجاب ذرية، بما يشكل «انتحار أمة(٥٤)» حقيقياً. ونحو عام ٨٠٠، لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢٪ من المسيحيين إلى جانب ٧٧٪ من المسلمين و١٪ من اليهود: وهو ما يسمح بتأكيد الدراية، فى آن واحد، بمبالغ ضريبة الرأس وضريبة الأرض. ثم تتوقف بيانات الجزية بعد ذلك. ومن القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر، يمكننا تتبع المراحل الكبرى للديموغرافيا المصرية، لكننا لا نستطيع تتبع المراحل الكبرى للتوزيع الطائفى.

ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية تواصل مسيرتها المنحدرة: ففي غضون أحد عشر قرناً، بين عامي ٨٠٠ و١٨٨٢، سوف تنتقل من نسبة ٢٢٪ إلى نسبة ٨٪ من السكان.

والواقع أن الفتح العربي لم يكن مؤاتياً للديموغرافيا المصرية بالدرجة التي يمكن تخيلها. ومن المؤكد أن توسيع أسواق الزراعة المصرية ومدها إلى الأقطار المجاورة في الإمبراطورية وإلى المدن التي تتشكل حول الإدارة الجديدة، يشجع النمو السكاني بلاشك. لكن أزمات الإنتاج المتكررة سوف تحول دون أي نهوض دائم. والفلاحون، الذين وُضعوا بسرعة تحت نير طبقة عسكرية لها جبروتها، يخضعون خضوعاً بالغ القوة لسلوك هذه الطبقة: فعندما تتفسخ قدرتها التنظيمية، وهو ما يحدث مراراً بعد انقضاء الساعات المجيدة لغداة الفتح، تسقط قنوات الري في الإهمال وينحدر الإنتاج. ويتأثر السكان بذلك. والارتفاعات والانخفاضات تؤثر على الجميع، دون تمييز بين الطوائف. وتشير جميع الدلائل إلى أن الجماعة المسيحية تحتفظ من ثم بثقلها الديموغرافي النسبي حتى زمن الفاطميين الأوائل، الذين سوف يؤيدون تراث الوفاق الطائفي. وسوف يدشنون، على سبيل المثال، ما سوف يصبح عادةً بتصعيدهم الأقباط إلى الإدارة العليا للدولة. وإلى ذلك الزمن يرجع شبه احتكار إدارة الشئون المالية الذي سوف يحتفظ به الأقباط حتى القرن التاسع عشر. لكنه وضع حرج من جهة أخرى، فسوف يعرضهم أكثر من مرة للسخط الشعبي: «إن بوسع المرء تكوين فكرة عن عددهم ونفوذهم في كافة العصور من الشكاوى المتواصلة من انعدام نزاهة الموظفين المسيحيين(٥٥)».

لكن السلالة الحاكمة الفاطمية سوف تنتهي مع واحد من أكبر الانهيارات في التاريخ الديموغرافي للبلد، في ظل الخليفين الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١). والمستنصر (١٠٣٦ – ١٠٩٤) فجنون الأول يغرق البلد في الفوضى ويجره إلى الحقد الطائفي واتساع المجاعة التي منحها الثاني اسمه ينتهي بإغراقه. وفي غضون قرن، تفقد مصر ثلث سكانها، في فيضان موازٍ تماماً لفيضان مياه النهر: من عام ١٠٢٢ إلى عام ١١٢١، يسجل مقياس النيل في القاهرة عجزاً متصلاً. وكانت الجماعة المسيحية كبش الفداء الذي أرسلته الأقدار في هذه السنوات القلقة.

لم تكن الحملات الصليبية الأولى قد مست مصر، وديموغرافيتها تستأنف النمو. وربما لهذا السبب سوف يحرز جيشها النصر عندما يزحف الفرنجة عليها. على أن مناخ التوتر الطائفي الذي خلقته هذه الحملات في الشرق الأوسط سوف يخترق مصر مع صلاح الدين.

ففى مستهل عهده، سوف يدفع الأقباط ثمن تقاسمهم مع الفرنجة ديانة واحدة. على أنهم لم يكونوا قد قدموا لهم قط أدنى مساندة. وسوف يجرى إذلالهم فى حياتهم اليومية، لكنهم لن يتعرضوا للملاحقة، وسوف تؤدى تحولات جديدة إلى اعتناق الإسلام، جماعية على ما يبدو[٥٦]، إلى اختزال عدد جماعتهم.

وسرعان ما يؤدى استرداد القدس فى عام ١١٨٧ إلى تهدئة المناخ ويكسب الأقباط ود صلاح الدين بل إنهم سوف يقدمون إليه المهندس المعمارى الذى سيبنى قلعة المقطم. وفى تلك اللحظة بالتحديد، يبدأ البلد فى العثور فى اقتصاد العالم على المكانة التى سوف يحرمه منها طريق رأس الرجاء الصالح إلى أن تعيدها له القناة المحفورة فى برزخ السويس. إن مصر، التى تربط بين البحر المتوسط والمحيط الهندى، وهما منطقتان لهما ثروات يكمل بعضها البعض لكنهما جد بعيدتان إحداهما عن الأخرى بحيث يتعذر عليهما ممارسة التبادل بشكل مباشر، سوف تصبح قوة تجارية. والإسكندرية، التى كان بريقها قد انطفأ عندما أدارت ظهرها للعالم اليونانى، تولد مرة أخرى من التجارة مع الشرق الأقصى.

ثم تعرف مصر فترتين مملوكيتين، متعارضتين فى كثير من النواحى، سوف تتجاوب خلالهما السياسة والاقتصاد والديموغرافيا تجاوباً تاماً. والواقع أن المماليك، حرفياً «المملوكين»، كانوا فى الأصل عبيداً مشترين من أسواق تركيا لتدريبهم على فنون الحرب. وترجع هذه الممارسة إلى زمن العباسيين. وهؤلاء العبيد، الذين شكلوا فى البداية فئة خاصة، يفوزون بسلطة متعاظمة على الجيش، إلى حد الاستيلاء على الدولة نفسها. والسلاطين الأوائل الذين ينبثقون من صفوفهم يعرفون باسم المماليك «البحرية» (١٢٥٠ - ١٣٨١). وهذا الاسم ليس اسم عائلة لأن السلالة الحاكمة المؤلفة من هؤلاء «المخصيين السياسيين»، فى بداياتها على الأقل، لا تتكاثر بالنسب. إنه مجرد اسم مكان، حيث كانت ثكناتهم على ضفة النهر، البحر[٥٧]. وسوف يرد المماليك البحرية إلى مصر عظمتها، الضائعة منذ العصر القديم. وبوصفهم الغالبين الحاسمين للصليبيين، فسوف يتمكنون من تعميق العلاقات التجارية مع من كانوا أعداءً لهم بالأمس، أهل جنوة والبنادقة والقطالونيين. وتتبع الديموغرافيا المنحنى الصاعد للثروات: ففى عام ١٣١٥، كانت مصر قد تجاوزت من جديد رقم الـ ٤ مليون من السكان. ويقال إن طاعون عام ١٣٤٨ الكبير قد أفنى آنذاك ثلث السكان.

وسوف يغير المماليك بعد ذلك ليس فقط اسمهم باختيار مقر لهم فى القلعة، البرج، فيصبحون بذلك «برجية» (١٣٨٢ - ١٥١٧)، وإنما أيضاً أصلهم العرقى، الذى يصبح منذ ذلك

الحين شركسياً، وخاصة سياستهم. فالدولة، بتدخلها فى اللعبة الاقتصادية، وبفرضها لضرائب لا تحتمل، تجعل من نفسها نهاباً. وتدخل البلاد فترة دسائس قصور ومحنة اجتماعية سوف تعيد رسم ملامحها، بعد قرن، كتابات المقريزى [٥٨]: فمجاعة ١٤٠٣ - ١٤٠٤ الكبرى تشهد فناء نصف السكان. وقد أدى الطاعون والقحط إلى ضعضعة الجيش المملوكى، الذى سوف يتقهقر أمام تيمورلنك فى دمشق (١٤٠٠)، ثم أمام البرتغاليين فى البحر الأحمر (١٥٠٠)، قبل أن يستسلم للأتراك العثمانيين (١٥١٧). والواقع أن سكان القاهرة، الذين كانوا قد تضاعفوا منذ القرن الحادى عشر، سوف يهبط عددهم من ٦٠٠٠٠٠ ساكن نحو عام ١٣٤٠ إلى ٤٣٠٠٠٠ فى أواخر عهد السلالة الحاكمة [٥٩]. وربما كانت القاهرة المعاصرة، مدينة الزحام غير المألوف، تجعلنا نقدر مدينة الماضى بأكثر مما كانت عليه. لكن ليون الأفريقى[٦٠]، الذى أقام فيها فى عام ١٥٢٦، يعد قائمة دقيقة لأحيائها، محدداً عدد الأسر فى كل حى: وعددها الإجمالى ٣٥٥٠٠ أسرة، وهو ما يتطابق مع نحو ٢٠٠٠٠٠ شخص. وإذا لم تخامرنا الشكوك فى ذلك، فإن الديموغرافيا كانت قد انهارت.

فماذا عن المسيحيين؟ لا جدال فى أن العصر المملوكى الذى يلى هزيمة الصليبيين كان فترة انبعاث للإسلام الأصولى[٦١]. فالمماليك، الأجانب من حيث أصولهم، لا يملكون ما يسمح لهم بالفوز باعتراف رعاياهم المسلمين بهم سوى الدين. ومن ثم فسوف يبدون كقاعدة عامة غير متسامحين تجاه المسيحيين. فالبحرية ثم البرجية لن يكبحوا جماح العوام حين ينهبون الكنائس. على أن وضع المسيحيين يتطور فى انسجام مع المحيط العام. ويصبح بيبرس، قاهر المغول فى سوريا، رئيس الدولة الظافرة فى القاهرة. ويتمكن عندئذ من دفن ماضيها. فالأقباط، الذين أبدوا حياداً ثابتاً خلال حروب الفرنجة، يستعيدون مواقع فى الإدارة. لكن نوعاً من الدورة الجهنمية ينفلت دائماً.

وإذ يتقدم الأقباط، فإنهم يراكمون الثروات؛ ولما كانت الثروة تستدعى القوة والفخفخة، فإن بروز هؤلاء «الكفار» يصدم التدين المتحمس لدى العوام، الذين يطالبون عندئذ بتنحيتهم. والسلطة تنفذ المطلوب عن طيب خاطر. ويؤدى كل عزل جماعى للأقباط إلى إصابة جهاز الدولة بالشلل. وفى ختام مدة معينة، تطلب السلطة المملوكية من جديد خدماتهم حتى تتمكن من السيطرة على الوضع[٦٢]. ولا يكون من شأن عداوة العوام غير التشجيع على تحولات جديدة إلى اعتناق الإسلام، هى الأخيرة فى تاريخ البلد.

ولم يكن المسيحيون الذميين الوحيدين فى مصر، فالبلد تسكنه أيضاً طائفة يهودية صغيرة، تتركز إلى حد بعيد فى القاهرة، ومواقف الحكام والسكان نحوهم هى عين المواقف التى يتخذونها تقريباً تجاه المسيحيين: حظوة نسبية حتى انقلاب الحاكم بأمر الله الذى لا يمكن توقع ما قد يصدر عنه، ثم تذبذبات بحسب الأحداث. وحين يزور بنيامين دو توديل مصر فى عام ١١٧١، فإنه يقدر عدد أبناء ملته[٦٣] فيها بما بين اثنى عشر ألفاً وعشرين ألفاً. ثم تؤدى الحروب الصليبية إلى اختزال طائفتهم اختزالاً قوياً، رغم أنهم غرباء عن رهاناتها: «كونهم غير مسلمين، كان يشك بحكم ذلك فى انحيازهم إلى صف الفرنجة. كما أن التخابر مع أعداء الإسلام تيمة متكررة من تيمات الهجوم على الذميين: «إن (اليهود) لا يحبون الصليبيين، لكنهم يصبحون ضحايا للسخط الذى راكمه المسلمون ضد الذميين[٦٤]». وفى عام ١٣٠١، بوجه خاص، يصبحون عرضة للملاحقات. وفى عام ١٤٨١، لا يقدر الرحالة ميشوللام دو فولتيرا عددهم بأكثر من ٥٠٠٠ [٦٥]. ومن ثم فإن الديموغرافيا اليهودية تتراجع بقوة فى ظل السلطة المملوكية. وعشية الفتح العثمانى، لامراء فى أن اليهود لن يمثلوا أكثر من نسبة ٢ر٠٪ من المصريين. لكن اليهود يهربون آنذاك من أسبانيا الملكين الكاثوليكيين. وسوف يجد عدد معين منهم ملاذاً فى مصر، حيث يعززون طائفة لم تكن قط بمثل هذه الدرجة من الضعف.

غزاة أم محررون؟

بضع سنوات فى شبه الجزيرة العربية، نحو ألف سنة فى مصر وفى سوريا. ذلك هو الوقت الذى احتاجه الإسلام لكى يحتل المكانة التى يحتلها اليوم تقريباً فى قسمة العالم. فكيف تسنى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوز بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العثور فى مصر وفى الهلال الخصيب على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التى مثلها التوسع الإسلامى والمقاومة المسيحية ؟

منذ محمد، جرى تحديد تمييز أساسى بين دار الإسلام: البلد الذى تديره الدولة المسلمة، ودار الحرب[٦٦]: البلد الذى يجب فتحه. والحرب توسع دار الإسلام على حساب دار الحرب، وسوف تستمر مدة جد قليلة من الزمن. فالوضع الذى سوف يصادفه المسلمون

الأوائل سوف يجعلها سهلة. وبمجرد توطيد سلطتهم، يندرج السكان بين عشية وضحاها فى دار الإسلام. ولا يرجع ذلك على أية حال إلى أنهم ينتمون إلى الإسلام. على الضد من ذلك تماماً، فالقانون ينص على أن غير المسلمين سوف يتمتعون بوضعية خاصة، ومن ثم فهو يقنن وجودهم الدينى. والانتقال إلى الإسلام يأخذ أجيالاً. ونحن نعرف أن الإكراه عليه كان غائباً فى أغلب الأحيان. وهو لن يحدث فى تاريخ الإسلام العربى إلاّ بصفة استثنائية. والواقع أن المؤسسات التى أقامها الفاتحون وخلفاؤهم، والعلاقات الاجتماعية التى سوف تتأكد على مر الزمن بين الجماعات الطائفية، والصدامات التى سوف تهز عالم البحر المتوسط سوف تفعل عندئذ فعلها البطىء.

والحال أن الحرب التى أنهمكت فيها بيزنطة وفارس بلا هوادة عشية الإسلام كانت قد أنهكت المقاتلين كما أنهكت المدنيين سواء بسواء. ولم يعد بوسع جيوش القسطنطينية وكتيسيفون مواجهة جنود الخلفاء إلاّ بدفاعات ضعيفة، وكان السكان، الذين ينتقلون بالتناوب من نير إلى آخر، لكنهم يتعرضون باستمرار للابتزاز لتمويل الحملات العسكرية، مستعدين لتغيير سادتهم. والصراعات على الهيمنة تدور على خلفية انقسامات دينية معقدة. ففى العراق، يحيا النساطرة فى وسط غير مريح، هو وسط دين مختلف عن دين الدولة: الزرادشتية (دين الدولة الفارسية). على أنهم يستفيدون من حماية معينة فى وجه هجمات بيزنطة. وفى سوريا وفى مصر، يتأجج التمرد. والسكان، بل والملكانيون، المخلصون للكنيسة الرسمية، البعيدون عن مركز الإمبراطورية، يعانون من هيمنة القسطنطينية الشديدة الوطأة. ويكابد الهراطقة، وهم الأغلبية، شتى صنوف الاضطهاد. وتحت سوط بيزنطة يتخذ من ثم الاحتجاج اللاهوتى للقائلين بواحدية طبيعة المسيح طابع نزعة قومية أولية، سورية عند اليعاقبة، ومصرية عند الأقباط. ويجرى قبول دخول العرب بشكل مصحوب بالأمل، إن لم يجر الإحتفاء به بحماس. وهو ما سوف تظل تحتفظ به الذاكرة اليعقوبية بعد خمسمائة سنة. فميشيل السورى، الراهب المعاصر للحملة الصليبية الثالثة، سوف يستحضر ذكرى «أبناء إسماعيل، الذين قدموا من الجنوب لتخليصنا[٦٧]».

ومن ثم فإن جزءاً من السكان يتبنى الإسلام بسرعة وبفوز بحكم تحوله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، ربما دون مكابدة قطيعة حقيقية، لأن الدين الجديد يقدم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية. وقد جاء فى لغة مألوفة بالفعل لقبائل سهوب شمال شبه الجزيرة العربية ولتجار المدن. ويكتب مكسيم رودنسون: «إن العادات العربية تجيز وتشجع تبنى

العشائر لأناس من كل جنس ومن كل أصل فيصبحون بذلك عرباً بشكل متميز تماماً. ويتزايد مد التحولات إلى اعتناق الدين الجديد ببطء ثم يصبح حاسماً لا سبيل إلى رده[٦٨]».

على أن آخرين سوف يحتفظون بدياناتهم وسوف يقبلون دون مقاومة كبيرة تغير السلطة. والواقع أن الأقباط واليعاقبة سوف يلتزمون الحياد. فبيزنطة قد صادرت في آن واحد حريتهم الدينية وحريتهم السياسية، بينما يعلن العرب اعتزامهم احترام الأولى، وإن كان في مقابل سلب الثانية. وسوف تعلن جميع معاهدات الاستسلام دون أدنى لبس أن « أي إكراه لن يمارس في شأن الدين». وسوف تكون محل احترامهم، على الأقل في البدايات. والواقع أن البطريرك القبطي بنيامين، الذي اضطر إلى الاختفاء في زمن البيزنطيين، سوف يعاود الظهور من ثم على الملأ في عهد القائد عمرو.

ومن المفارقات أن انشقاقات القائلين بواحدية طبيعة المسيح، والتي سهلت الفتح العربي إلى حد بعيد، سوف تعرقل الأسلمة: فلما كانوا قد جربوا سيطرة الملك البيزنطي، لن تجد مؤسساتهم الكنسية صعوبة في البقاء في ظل الإسلام. كما أن السبب نفسه يفسر توسع وحدود هذا الأخير. وفي مصر من جهة وفي سوريا من جهة أخرى، يوحد الإسلام جزئياً، علاوة على ذلك، مختلف الطوائف المسيحية التي يحكمها ويعزز التضامنات التي يمكنها مقاومته. فهو يتبنى موقفاً موحداً تجاه المسيحيين، أياً كانت ملتهم: فبوصفه ديناً جديداً، يعتبر الإسلام المسيحيين كافرين سواء بسواء. وبوصفه دولة جديدة، يعاملهم كذميين، يخضعون كلهم لأحكام واحدة. ثم إنه يقرب بينهم في عام ٧٤٠، عندما تفرض الحكومة الأموية على الملكانيين القطيعة مع بطريرك أنطاكية، الذي لجأ إلى القسطنطينية، ومن ثم إلى أرض عدوة، وانتخاب بطريرك محلي دون ارتباط مع بيزنطة.

مجتمع يصبح مسلماً بالتدريج

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (القرآن، سورة التوبة، الآية ٢٩). إن المسيحيين واليهود، الذين تطالهم ضريبة رأس، لا يمكنهم تفاديها إلاّ باعتناق الإسلام. ولن تُلغى الجزية إلاّ عن طريق إصلاحات عام ١٨٣٩ في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية، وفي عام ١٨٥٥ في مصر.

ويتفق مؤرخون عديدون على اعتبار التفاوت الضريبي الذى دشنه القرآن بين المسلمين وغير المسلمين الحافز الرئيسى إلى التحول إلى اعتناق الإسلام، حتى وإن كان حجمه فى هذا المكان أو ذاك وفى هذه اللحظة أو تلك ضئيلاً نسبياً(٦٩). وهو لن يمارس فعله بطريقة واحدة غداة الفتح، وعندما يكون خلف الدولة الإسلامية تاريخ وجود طويل، وتدشن معاهدات الاستسلام جزية ثابتة. على أن الإدارة التى كانت مكلفة بجباية هذه الضريبة تجبى أيضاً ضريبة أخرى، هى الخراج، وهى ضريبة أرض يخضع لها الجميع، مسلمين كانوا أم ذميين. وكان موظف إدارة الضرائب جابياً محلياً. فالعرب لم يجيئوا ومعهم إدارتهم، ولم يكن يهمهم غير المبلغ الإجمالى للإيرادات. ومن ثم فإنهم سوف يتركون تقسيمه بين الجزية والخراج لتقدير الجابى المحلى. وفى أرياف مصر حتى منتصف القرن السابع، يبدو أن الضريبتين كانتا غير متمايزتين الواحدة عن الأخرى، وكان المتحول إلى اعتناق الإسلام يعفى من الاثنتين، بما يعنى الأعفاء من الخراج (٧٠). والنتيجة الرئيسية لذلك هى التفاوت الضريبى الأقوى فى هذا البلد مما فى أى مكان آخر، الأمر الذى يبدو أنه يشجع التحولات إلى اعتناق الإسلام(٧١). وفى العراق، كان إيقاع التحول إلى اعتناق الإسلام سريعاً بحيث أن الوالى، سعياً منه إلى صون موارد الخزانة، يضطر إلى فرض ضريبة الرأس حتى على المتحولين إلى اعتناق الإسلام(٧٢).

لكن النظام الضريبى قد ترتبت عليه نتيجة أخرى، أكثر خبثاً. فهبوط عدد الدافعين الخاضعين للجزية يستتبع زيادة مبلغها الواجب الأداء عن كل فرد. ويمكن للضرائب أن تصبح غير محتملة بالنسبة لأولئك الذين يكابدون فى آن واحد الجزية والخراج، إلى درجة أنهم يضطرون إلى هجر الأولى أو الثانى. فسعياً إلى تجنب ضريبة الأرض، يهجر كثيرون من المسيحيين الثابتين على ديانتهم الريف عندئذ. وإلى هذا الزمن البعيد يرجع على الأرجح الانغراس الحضرى لجزء هام من المسيحيين. أما الجزية فهى تنتج أثر انتقاء اجتماعى غير متوقع.

فسوف ينتمى إلى الإسلام أولئك الذين لا يمكنهم دفعها، الفقراء بين المسيحيين. وفى المجتمع الإسلامى الأصلى، يصبح المتحولون غير العرب إلى اعتناق الإسلام موالى، تابعين للأقلية العربية المسلمة. وبالنسبة لغالبية الموالى المنحدرين من أصول دنيا، تمثل وضعية

التبعية هذه بالفعل صعوداً اجتماعياً (٧٣). وكان القساوسة الفقراء فى البداية، والقساوسة الأغنى شيئاً فشيئاً، هم وحدهم الذين يملكون الإمكانات المادية للحفاظ، إن شاءوا ذلك، على ديانتهم. وهكذا فإن ضرائب الإسلام قد شجعت، عبر عمليات انتقاء متعاقبة، على تكاثر مسيحية بورجوازية أكثر فأكثر. والواقع أنه بقدر انكفاء الجماعة المسيحية على نفسها، يظهر تقسيم عمل ذو أساس طائفى. وفى سوريا بأكثر مما فى مصر من جهة أخرى، سوف يتركز المسيحيون فى بعض المهن التى هجرها المسلمون، خاصة فى المهن الحرة والأعمال المصرفية(٧٤).

وفى بداية الأمر سوف يكون المتحولون إلى اعتناق الإسلام أقلية. فالانتماء إلى الإسلام يفصل المولى عن أصوله، عن أسرته، عن قريته أو عن حيه. لكن الحصار الاجتماعى يبدل معسكره بمرور الزمن. فبقدر امتداد سلسلة الإدارة الإسلامية وتزايد نسبة المسلمين، تصبح وضعية غير المسلمين أكثر هشاشة؛ فيصبح الشارع أكثر انغلاقاً على الأقليات، ويصبح الإسلام الرسمى أكثر فظاظة ويصبح العلماء، فقهاء الشريعة، أكثر انعداماً للتسامح. بل إنه يصبح من الأصعب على المرء التزوج من طائفته هو، فما أكثر الاختزال الذى تعرض له السكان القابلون للزواج. والشريعة، حول هذه النقطة التى تتميز بصرامة لا تلين، تناسب الديموغرافيا الإسلامية بشكل لا فرار منه: فالذمى لا يمكنه التزوج من مسلمة إلاّ بعد اعتناقه الإسلام، بينما يمكن للمسلم التزوج من ذمية لا تتحول إلى اعتناق الإسلام، تمنحه أطفالاً مسلمين.

ومن ثم فعن طريق نوع من أثر التضخم التدريجى، كان الضغط الاجتماعى مناوياً قوياً للجزية فى التحولات المتأخرة إلى اعتناق الإسلام. وهو يستتبع بدوره شكلاً آخر من أشكال الانتقاء، ليس الاجتماعى بعد، بل الدينى. فأولئك الذين يظلون مسيحيين كانوا أقل فأقل ميلاً إلى التحول إلى اعتناق الإسلام. وينتمى إلى الإسلام أولئك الذين، أكانوا أغنياء أم فقراء، يعتبر التحول بالنسبة لهم ممكناً من الناحية الأخلاقية(٧٥). وهكذا فإن الوضعية الاستثنائية للذميين تركب تباينات اجتماعية على التباينات الطائفية، وتفرز تباعد الملل، ولعلها تجذر المجتمع. فإذا كانت الدولة تضفى الشرعية على التفاوت، فإن المجتمع لايقبله دائما.

ومن ثم تقع بعض حوادث العنف، بعض التفجرات المثيرة للتعصب الشعبى، لكن الدولة لاتظهر البتة تقريباً فى دور المضطهد. والسلطة العامة تتخذ أحياناً تدابير تمييزية. ويرجع أصلها إلى «ميثاق عمر» الشهير، الذى جرى بموجبه إلزام الذميين بشروط متنوعة: «إننا لن

نحاول البتة محاكاة المسلمين فى ثيابهم. (...) ولن نمتطى متون الجياد. (...). وسوف نحلق مقدمة الرأس». وكان الخليفة عمر الثانى[76] قد فرض على المسيحيين هذه العلامات المميزة لتجنب احتمال الخلط بينهم وبين الجنود المسلمين، عندما أنشأ جيشاً نظامياً جرى استبعاد غير المسلمين منه بنص القانون. ومن الواضح أن بناء الدولة كان سبب هذه التدابير، التى سرعان ما سوف يطويها النسيان.

وفيما بعد، لن تعاود الظهور إلاً بسبب الأزمات فى جميع الحالات تقريباً. فسعياً إلى تهدئة صيحات الشارع، لن يتردد بعض الخلفاء فى الإشادة بغلو السكان فى تدينهم. إن هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) سوف يرد الاعتبار مثلاً لميثاق عمر بإجباره المسيحيين على ارتداء ثياب محددة. ويقال إن شرلمان قد انتهز هذه الفرصة السانحة لمد نفوذ إمبراطورية الغرب. وبعد تبادل للسفارات مع خلافة بغداد، يحصل على تصريح بإرسال مساعدة منتظمة إلى مسيحيى فلسطين وبتمويل مؤسسات كنسية مختلفة. ويكتب ميشليه: «يشاع أن زعيم الكفار قد نقل إلى شرلمان السيادة على القدس»[77]. وبذا سوف تغطَى المدينة المقدسة بالمبرات اللاتينية، فتصبح عبر هدف خيرى «محمية - بالمعنى الواسع - كارولينجية»[78] حقيقية.

وسوف تتصل قرارات أخرى باستبعاد غير المسلمين من الوظائف العامة. والمذهب الرسمى ليس فيه أدنى لبس: فالقرآن نفسه قد قرر هذا الاستبعاد، عبر أوامر متكررة بعدم اتخاذ «الكافرين أولياء»[79]. على أن الوقائع سوف تجرى بشكل شبه دائم على خلاف هذه الأوامر منذ زمن الخلفاء الأوائل، لأن الفاتحين، بوصفهم سياسيين حاذقين، يدركون قيمة الاستمرارية الإدارية. ويكتب ابن خلدون، المؤرخ الذى عاش فى العصر الوسيط: أن «القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون فى الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالى العجم[80]» . وبسرعة بالغة لابد لمستويات التعليم من التلاقى. وهو ما يسمح من الناحية النظرية للسلطات العامة بالاستغناء عن خدمات غير المسلمين. لكنها فى أغلب الأحيان تستجير بها من جديد. ويثبت حشد المراسيم التى ترد الاعتبار للأمر القرآنى إثباتاً كافياً أن هذا الأمر لم يكن محل مراعاة. وقد خدم المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) وزيران مسيحيان، فى حين أن خليفته، المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) قد طرد جميع المسيحيين من الإدارة.

ويتكرر التاريخ بتواتر بليغ. وكان لابد من ظروف استثنائية، متاعب سياسية أو أزمات اقتصادية، لتبرير عمليات التطهير، التى كانت فى أغلب الحالات قصيرة الأجل[81]. وسوف

تحتفظ الذاكرة المسيحية لزمن طويل بذكرى الاضطهاد الحقيقى الوحيد الذى أُنزله بالأقباط، كما بمسلمين عديدين، جنود الحاكم (بأمر الله) (٩٩٦ - ١٠٢٠). «قبل وقت من ذلك كان قحط بالغ القسوة قد أثار قلق السكان»، إلى هذا ينبه عجوز درزى من الجبل اللبنانى، قبل أن يحكى لنيرقال حكاية الخليفة الحاكم [٨٢]، الذى أصيب بالجنون نحو عام ١٠٠٠، والذى أعلن نفسه التجسيد الإلهى المنتظر بعد ألف سنة من ميلاد المسيح، وتزوج، فيما تزعم الأسطورة، أخته ست الملك وخلف شيعة سوف تلتف حول الداعية الدرزى، الذى يستمد الدروز اسمهم منه. والحال أن هذا الكاليجولا، الشاذ الأطوار بدرجة أكثر من أن يكون منهجياً، يحظر ذات يوم المواكب الدينية (المسيحية) ويدمر الكنائس، ويحرم الذميين من حق الاختلاط بالمسلمين، ثم يصرح للمسيحيين الذين أكرههم فى الليلة الماضية على الارتداد عن المسيحية باستعادة ديانتهم. وتذهب أسطورة أخرى إلى أنه لم يمت مطعوناً بخنجر مسلم، بل مات فى معتكفه بعد أن تحول إلى اعتناق المسيحية. ويجعل نيرقال من ذلك خاتمة حكايته: «يزعم الأقباط أن يسوع المسيح قد ظهر للحاكم، الذى طلب العفو عن ذنوبه وكفر عنها خلال سنوات طويلة عاشها فى الصحراء».

على أن المماليك سوف يبرهنون فيما بعد، بثبات أكثر من ثبات أسلافهم، أنهم قساة تجاه الجماعة المسيحية. وفى أواخر عهدهم، كان المسرح مهيئاً لاختفائها الكامل، كما حدث قبل ذلك بقرنين فى مغرب الموحدين. لكن التاريخ يشهد فى تلك اللحظة انقلاباً غير متوقع. فالإمبراطورية التى تزحف على أبواب سوريا ومصر ترد إلى هذه الجماعة الحياة.

جداول وأشكال الفصل الأول

الجـدول I . 1

الطوائف فى الأزمنة الأولى للخلافة العربية

(بالآلاف)

الاقلـيم	إجمالى السكان	المسـيحيون	اليهـود
شبة الجزيرة العربية	1000	100	10
سوريا	4000	3960	40
بلاد الرافدين	9100	9009	91
مصر	2700	2673	27
الإجمالى	16800	15742	168

المصادر : إجمالى السكان، جوسيا كوكس رسل، السكان فى أواخر العصر القديم والعصر الوسيط، مصدر سبق ذكره؛ اليهود : ١ % من إجمالى السكان، س . د . جواشتاين، المجتمع والمؤسسات اليهودية فى ظل الإسلام، مصدر سبق ذكره.

الجدول I . 2

السكان بحسب الطائفة في سوريا، من عام 633 إلى عام 1580
(بالآلاف)

السنة	الإجمالي	المسلمون	المسيحيون	اليهود
633	4000	0	3960	40
730	4000	250	3710	40
900	4000	2000	1960	40
1199	2700	n.d.	n.d.	n.d.
1343	1200	1068	120	12
1350	1000	890	100	10
1580	1419	1291	115	13

المصادر : انظر في النص ، فيماعدا 1570 – 1580 : التعداد العثماني لـ 1570 – 1590 ، في عمر لطفي برقان، «بحث حول الاستقصاءات الضريبية العثمانية»، مصدر سبق ذكره.

الجدول I . 3

تقدير سكان مصر، منذ العصر القديم حتى عام 1798
(بالآلاف)

العصر	مبلغ الجزية (بآلاف الدراهم)	السكان المسيحيون واليهود	مبلغ الخراج (بآلاف الدراهم)	إجمالي السكان
القرن الأول بعد المسيح				4500
القرن الرابع				3000
نحو عام 600				2600
الفتح العربي (641)	12000	2500		
عثمان (644 ـ 655)	13000	2500		
معاوية (البداية)		1875		
معاوية (النهاية)		1040		
هشام (743)			4000	2200
هارون الرشيد (787)		830		
هارون الرشيد (813)	4000	625	4857	2671
المأمون (813 ـ 833)	3000		4257	2365
المعتز بالله (869)			4800	2640
ابن طولون (884)			4300	2365
معز الدين (975)			3200	1760
المستنصر (1090)			3061	1683
صلاح الدين (1189)			4277	2351
محمد (1315)				4200
برقوق (1382)				3150
بونابرت (1798)				2498

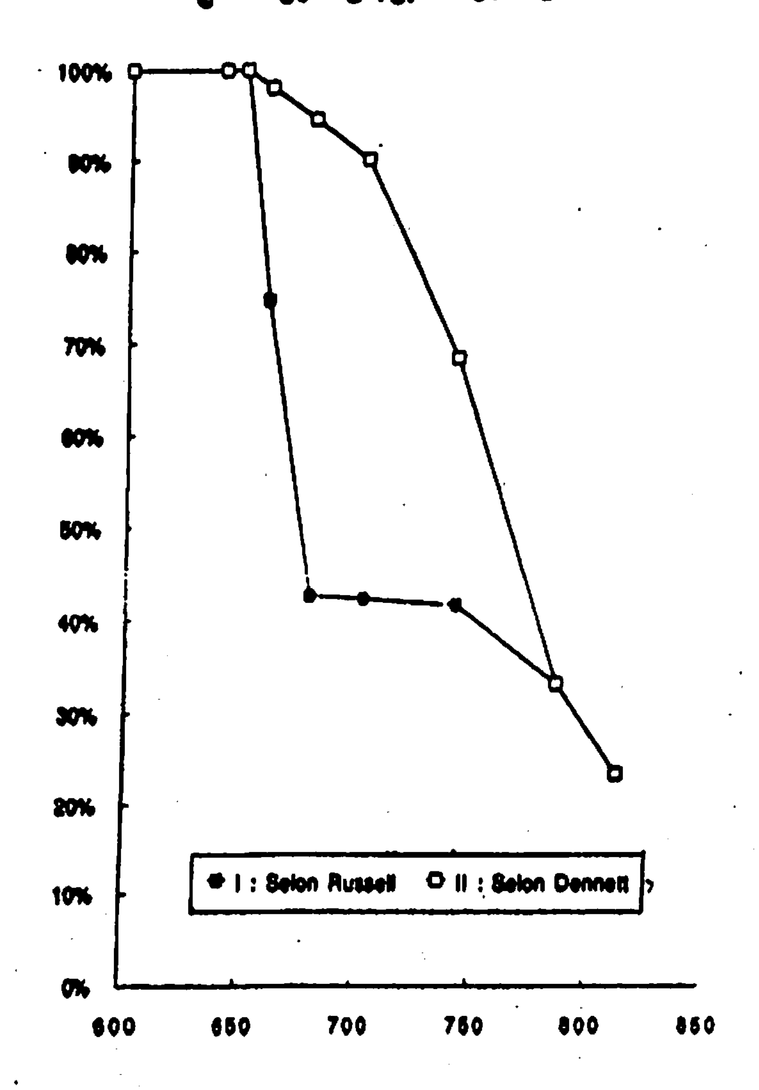
* تقدير بحسب مبلغ الخراج.

المصدر : جوسيا ك . رسل ، سكان مصر في العصر الوسيط ، مصدر سبق ذكره.

الشكل I.1

نسبة غير المسلمين فى مصر

(من القرن السابع إلى القرن التاسع)



حواشى الفصل الأول

1 - Cité dans Antoine FATTAL, *Le Statut Légal des non - musulmans en pays d'Islam*, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1958.

2 - Connu également sous le nom d'Aménophis IV, époux de la belle Néfertiti, Akhenaton avait fait du Soleil un dieu unique et universel. Pour Sigmund Freud, *L'Homme Moïse et la religion monothéiste. Trois essais, Paris*, Gallimard, 1990, le prophète Moïse aurait été égyptien et se serait directement inspiré de ce prédécesseur.

3 - S.D. GOISTEIN estime que les juifs représentaient 1% de la population dans l'ensemble de la région, "Jewish Society and Institutions under Islam", *Journal of World History*, Vol, XI, 1968.

4 - Le zoroastrisme, religion de l'Etat sassanide, était répandu sur le plateau iranien mais peu en Mésopotamie.

5 - Art. "Yemen", *The Catholic Encyclohedia*, McGraw- Hill, New York, 1967.

6 - Son texte est l'un des plus discutés, car il ne soumet pas les Nadjranis à la jizya: voir Antoine FATTAL, *Le Statut légal..., op. cit.*

7 - Phillip K. HITTI, *History of the Arbs (From the Earliest Times to the Present)*, 5e éd., Macmillan, Londres, 1953.

8 - Jusqu' aux Ottomans, bâtisseurs de la statistique, on ne possède aucune source directe d'information sur la population.

9 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of Medieval Egypt", *in Medieval Demography*, AMS Press, New York, 1987.

10 - Certains auteurs proposent une estimation double de celle de Russell, mais avec une argumentation plus mince. Par exemple Michael W. DOLS, *The Black Death in the Middle East*, Princeton U.P., 1977.

11 - Cité par Josiah Cox RUSSELL, "The Population of...", *op. cit.*

12 - Alfred J. BUTLER, *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, Oxford, 1902.

13 - Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient and Medieval Population*, Transactions of the American Philosophical Society, vol. 48 / III, 1958.

14 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, Calmann- Lévy, Paris, 1986.

15 - Le texte et l'esprit du traité ont Fait l'objet de multiples controverses: était-il un contrat de "protection", comme ceux conclus avec beaucoup d'autres tribus chrétiennes ou juives, ou un pacte entre deux partenaires égaux?

16 - Antoine FATTALL, *Le Statut légal..., op. cit.*

17- Art, "Bahraïn", *Encyclopedia Judaïca*, Keter Publishing House, Jérusalem, 1971.

18 - Art, "Aden", *Encyclopedia Judaïca, op. cit.*

19 - T.W. ARNOLD, *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith,* Archibald Constable, Westminster, 1896.

20 - Philip K. HITTI, *History of the Arabs... op. cit.*

21 - Josiah Cox RUSSELL *Late Ancient..., op. cit.*

22 - Merv n'est pas en Irak, Mais au centre de l'Empire sassanide (actuellement Mary, au Turkménistan).

23 - Cité par T.W. ARNOLD, *The Preahing..., op. cit.*

24 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval,* Ecole pratique des hautes études, VI[e] section, Paris, 1969.

25 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix..., op. cit.*

26 - Josiah Cox RUSSELL *Late Ancien..., op. cit.*

27- A.S. TRITTON, "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam. Dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples Musulmans,* Livraison 37, Brill, Leyden, 1928.

28 - 800 000 selon H. H. HOWORTH, *History of the Mongols,* Londres, 1927, Chiffre plus révélateur du traumatisme des mémoires que de la démographie réelle!

29 - Aziz S. ATIYA, *A History of Eastern Christianity,* Methuen & Co, Londres, 1968.

30 - Ainsi surnommés pour leur scepticisme à l'égard de la virginité de Marie.

31- Henri LAMMENS, *La Syrie. Précis historique,* 2 vol., Librairie orientale, Beyrouth, 1921, et Philip K. HITTI, *History of the Arabs..., op. cit.*

32 - J. SAUVAGET, *Les Monuments historiques de Damas,* Beyrouth, 1932.

33 - Henri LAMMENS, *La Syrie..., op. cit.*

34 - Cité par Antoine FATTAL, *Le lStatut legal..., op. cit.*

35 - Henri LAMMENS, *La Syrie..., op. cit.*

36 - Philip K. HITTI, *History of the Arabs..., op. cit.*

37 - Contrairement à ce qu' on affirme souvent la polygamie, dans sa forme arabo-musulmane, est effectivement un modérateur de la Fécondité; c'est ce qu' établiront des démographes... du xx[e] siècle.

38 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des Prix..., op. cit.*

39 - Chiffre rapporté par le patriache Al - Duwayhi (1630 - 1704), cité dans Aziz S. ATIYA, *A History..., op. cit.*

40 - C'est le nom que le maronite Souleiman Frangié reprendra pour sa milice au cours de la guerre civile libanaise (1975 - 1990).

41 - Antoine FATTAL, *Le Statut légal..., op. cit.*

42 - Le chiisme, principale scission dans l'islam, est lui-même divisé en branches. Voir Henri LAOUST, *Les Schismes dans l'islam,* Payot, Paris, 1965, ou Yann RICHARD, *L'Islam chiite,* Fayard, Paris, 1991.

43 - Henri LAMMENS, *La Syrie...*, *op. cit.*

44 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix...*, *op. cit.*

45 - Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient...*, *op. cit.*

46 - Estimation Fondée sur des registres de conscription, A. N. POLIAK, "The Demographic Evolution of the Middle East : Population Trends since 1348", *Palestine and the Middle East*, vol. X, n° 5, 1938.

47 - Province.

48 - Jusqu' à un tiers des habitants, selon Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East*, Princeton U.P., 1977.

49 - Art. "Syria", *Encyclopedia Judaïca...*, *op. cit.*

50 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*

51 - Texte conservé par Tabari (310 de l'hégire = 923 apr. J.- C.), cité par Antoine FATTAL, *Le Statut légal...*, *op. cit.*

52 - Le lecteur trouvera au graphique I.1 la courbe de la progression de l'islam indiquée par les relevés de la *jizya*, ainsi qu'une alternative plus lente, correspondant à l'hypothèse de Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the Poll Tax in Early Islam*, Harvard U.P., 1950.

53 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*, et art. "Coptes", *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, Maisonneuve & Larose, Paris, 1979.

54 - E. L. BUTCHER, *Story of the Church of Egypt*, L ondres, 1897, cité par Aziz S. ATIYA, art. "Coptes", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*

55 - A. S. TRITTON, art. "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*

56 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*

57 - Le mot signifie "mer", mais le Nil est très large!

58 - AL - MAQRIZI, *Description topographique et histotique de l'Egypte*, Ed. U. Bouriaut, Paris, 1895.

59 - M. CLERGET, *Le Caire*, *Le Caire*, *1934*.

60- Amin MAALOUF a ressuscité la mémoire de cet extraordinaire voyageur, *Léon l'Africain*, Lattès, Paris, 1986.

61 - Certains mouvements islamistes actuels se réclament d'Ibn Taymiyya, penseur de l'époque mamelouke.

62 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*

63 - Art. "Egypt", *Encyclopedia Judaïca*, *op. cit.*

64 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, *op. cit.*

65 - Art. "Egypt", *Encyclopedia Judaïca*, *op. cit.*

66 - Littéralement, "maison de l'islam" et "maison de la guerre".

67 - *Chronique de Michel le Syrien*, cité dans Georges C. ANAWATI, "Factors and Effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria", *in* Speros VRYONIS (éd.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975.

68 - Maxime RODINSON, *Mahomet*, Seuil, Paris, 1961.

69 - T. W. ARNOLD, *The preaching..., op. cit.*

70 - Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the poll Tax.., op. cit.*

71 - Se fondant sur l'existence de chroniques faisant état de nombreuses conversions sous le calife Umar II, mais sur l'absence de documents semblables pour la Période antérieure, Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the Poll Tax..., op. cit.,* et à sa suite Nehemia LEVTZION, "Toward a Comparative Study of Islamization", *in* Nehemia LEVTZION (ed.), *Conversion to Islam*, Holmes and Meier Publishers, New York, 1979, pensent au contraire qu' il n'y eut pas de conversions importantes en Egypte au tout début de l'islam. Les données fiscales nous semblent fournir une évidence collective plus probants que des témoignages nécessairement pointillistes.

72 - Dominique SOURDEL, art. "Irâq", *Encyclopédie de l'Islam..., op. cit.*

73 - Néhémia LEVTZION, "Toward a Comparative...", *op. cit.*

74 - Henri LAMMENS, *La Syrie..., op. cit.*

75 - Se demandant pourquoi l'islamisation ne fut jamais totale en Egypte, Georges C. ANAWATI, "Factors and Effecte...", *op. cit.,* avance qu' en dernier ressort "Cela revint à l'authenticité religieuse d'un noyau convaincu de chrétiens et de juifs qui, en dépit des avantages matériels et sociaux, préféra demeurer fidèle à la foi de ses ancêtres".

76 - Certains historiens arabes attribuent la convention à Omar I.

77 - Jules MICHELET, *Histoire de France*, tome I, Lacroix & Cie, Paris, 1876.

78 - L'expression est de Henri Lammens.

79 - Coran, III/ 28, IV/ 144, V/ 57, IX/ 23, LX/ 13.

80 - IBN KHALDUN, *Al- Muqaddima*, trad. Baron de Slane, Paris, 1862.

81 - T. W. ARNOLD, *The Preaching..., op. cit.*

82 - Gérard de NERVAL, *Le Voyage en Orient*, Garnier-Flammarion, Paris, 1980.

تعليقات الفصل الأول

٢ – إن إخناتون، المعروف أيضاً تحت اسم أمنحتب الرابع، زوج الجميلة نفرتيتي، قد جعل من الشمس إلهاً واحداً وكونياً. ويرى سيجموند فرويد، في كتابه «موسى والتوحيد» باريس، جاليمار، ١٩٩٠، أن النبي موسى كان مصرياً وأنه قد استلهم مبادىء دعوته من إخناتون مباشرة.

٣ – يرى س. د. جواشتاين أن اليهود كانوا يمثلون نسبة ١٪ من السكان في مجمل الإقليم.

٤ – إن الزرادشتية، وهي ديانة الدولة الساسانية، كانت منتشرة في الهضبة الإيرانية لكنها كانت قليلة الانتشار في بلاد الرافدين.

٦ – يعتبر نصه واحداً من أكثر النصوص إثارة للجدل، لأنه لا يخضع النجرانيين للجزية.

٨ – حتى زمن العثمانيين، مؤسسي الإحصاء، لا نملك أي مصدر مباشر للمعلومات عن السكان.

١٠ – يقترح بعض الكتاب تقديراً يمثل ضعف تقدير رسل، لكن حجاجهم أكثر ضعفاً.

١٥ – كان نص وروح العهد موضوعاً لمجادلات كثيرة: فهل كان عقد «ذمة» شأنه في ذلك شأن العهود المعقودة مع كثير من القبائل المسيحية أو اليهودية الأخرى، أم أنه كان ميثاقاً بين طرفين متساويين؟

٢٢ – إن مرو ليست في العراق، بل هي في قلب الإمبراطورية الساسانية (اسمها الآن ماري، في تركمينستان).

٢٨ – ٨٠٠٠٠٠ وفقاً لـ هـ. هـ. هوورث، في كتابه «تاريخ المغول»، لندن، ١٩٢٧، وهو رقم أكثر بياناً لصدمة الذاكرة مما للديموغرافيا الفعلية!

٣٠ – لقد جرت تسميتهم بهذا الاسم بسبب شكهم في عذرية مريم.

٣٧ – إن تعدد الزوجات، في شكله العربي – الإسلامي، خلافاً للاعتقاد الشائع، هو في واقع الأمر من عوامل اعتدال الخصوبة؛ وهذا ما سوف يبينه الديموغرافيون... في القرن العشرين.

٣٩ – رقم أورده البطريرك الدويهي (١٦٣٠ – ١٧٠٤)، وتم الاستشهاد به في كتاب عزيز عطية «تاريخ المسيحية الشرقية»، مصدر سبق ذكره.

٤٠ – ذلك هو الاسم الذي اتخذه الماروني سليمان فرنجية لميليشياه خلال الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ – ١٩٩٠).

٤٢ – إن الشيعية، وهي الانشقاق الرئيسي في الإسلام، إنما تنقسم بدورها إلى فروع.

٤٦ – تقدير مبنى على سجلات التجنيد.

٤٨ – حتى ثلث السكان، وفقاً لمايكل و. دولس، فى كتابه «الموت الأسود فى الشرق الأوسط» دار نشر جامعة برنستون ، ١٩٧٧.

٥٢ – سيجد القارىء فى الشكل I. 1 منحنى صعود الإسلام الذى تشير إليه بيانات الجزية، كما سيجد منحنى بديلاً أكثر بطئاً، يتمشى مع افتراض دانييل دينيه.

٦٠ – لقد أحيا أمين معلوف ذكرى هذا الرحالة غير العادى، فى كتابه «ليون الأفريقى»، لاتيه، باريس، ١٩٨٦.

٦١ – تتمسك بعض الحركات الإسلامية الحالية بتراث ابن تيمية، مفكر العصر المملوكى.

٧١ – استناداً إلى وجود حوليات تشير إلى تحولات عديدة إلى اعتناق الإسلام فى ظل الخليفة عمر الثانى، ولكن استناداً كذلك إلى عدم وجود وثائق مماثلة بالنسبة للفترة السابقة، فإن دانييل دينيه، وفى إثره نحميا ليفتزيون، يريان خلافاً لذلك أنه لم تكن هناك تحولات هامة إلى اعتناق الإسلام فى مصر فى البداية الأولى للإسلام . ويبدو لنا أن البيانات الضريبية تقدم دليلاً جماعيا أكثر حسماً من شهادات مسرفة بالضرورة فى تمييز الألوان.

٧٥ – إن چورج قنواتى، إذ يتساءل عن السبب فى أن الأسلمة لم تكن كاملة قط فى مصر، يرى أن ذلك يرجع، فى التحليل الأخير «إلى الأصالة الدينية لنواة مؤمنة من المسيحيين واليهود الذين آثروا، بالرغم من المكاسب المادية والاجتماعية (للتحول إلى اعتناق الإسلام) البقاء مخلصين لدين أسلافهم» .

٧٦ – ينسب بعض المؤرخين العرب الميثاق إلى عمر الأول .

٧٨ – يرجع التعبير إلى هنرى لا مينز .

الفصل الثانى

نزع المسيحية عن أفريقيا الشمالية

> «ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومى وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا فى بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم».
>
> تاريخ ابن خلدون، المجلد ٦، ص ١٠٦.

على مسافة أبعد من مركز الإسلام والعروبة، فى غربه الأقصى، تهيمن الأرثوزكسية السنية بلا منازع. فالماضى المسيحى يدفن هناك مرتين، بالنسيان الطبيعى وبالصمت الاختيارى.

إن ثمانية قرون تفصلنا عن الآثار الأخيرة لمسيحية أصيلة، لكن جيلين فقط يفصلاننا عن العنف الاستعمارى. وذكراه ما تزال جد حية بحيث إن التاريخ الرسمى يخفى، كما لو كانت عاراً، الألف سنة التى كان البربر خلالها مسيحيين والثلاثة آلاف سنة التى كان فيها آخرون يهوداً. والكنائس التى تلوح أمام أبصار الأجيال الشابة، والتى ما تزال سليمة على حالها وإن كانت آثار زمن راح بالفعل، تحمل علامة عمارة غريبة فى قطيعة جلية مع تراث الأسلاف. وتحت نظرة لافيچيرى[1] الجريئة وقد تحول إلى تمثال، تلعب فرق الحى فى المساء فى حوش كنيسة نوتردام دأفريك لعبة كرة قدم مرتجلة. إن ٧٠ فى المائة من سكان مدينة الجزائر كانوا جد صغار بما لا يسمح لهم برؤية أتباع ديانة أخرى غير ديانتهم وهم يدخلون إلى المعبد القديم الذى تحول إلى مسجد بعد نيل الاستقلال. ولم يمر غير ثلاثين سنة، لأول مرة

فى التاريخ، حتى تصبح أرض عربية شاسعة مسلمة بشكل متجانس. وهى أعوام ثلاثون تكتسب بُعْدَ أزليةٍ هادئة فى اللاوعى الجماعى.

القرطاجتان

بعد ثمانية أعوام من موت النبى فى عام ٦٣٢، تقتحم الجيوش العربية أفريقيا الشمالية عبر مصر. ولن تحتاج إلاّ إلى سبع سنوات أخرى حتى تلامس المغرب وإلى خمسين سنة أخرى بالكاد حتى تفتحه برمته. والحال أن السكان الذين سوف تخضعهم فى طريقها كان بينهم عنصر مسيحى قوى. وكانت ما تزال هناك طوائف يهودية إلى جانب قبائل لم تتبن قط العقيدة القائلة بوحدانية الرب أو تخلت عنها.

ولحظة الفتح الإسلامى، من المحتمل أن عدد سكان أفريقيا الشمالية كان يصل إلى مليونى نسمة، ولعله كان أكثر من ذلك إلى حد ما (٢). فكم كان عدد المسيحيين بينهم؟ لقد بدأ تنصير أفريقيا الرومانية منذ القرن الثانى على الساحل، الذى امتد منه بسرعة إلى الداخل: ونحو عام ٢٠٠، أكد ترتوليان القرطاجى، الأب الأول لكنيسة الغرب، والذى كان مؤسساً للاهوت اللاتينى، أن المسيحيين كانوا بالفعل غالبية فى المدن. ولامراء فى أن «المدن» لم تكن تضم آنذاك أكثر من عشر السكان. ومن المؤكد أنها، فى جميع الحالات، لم تكن تضم نسبة الـ٦٠٪ التى يقدمها مؤرخ من العصر الكولونيالى، يهمه تصوير المشروع الفرنسى فى صورة إحياء لنظام بربرى (نسبة إلى البربر) أجهز عليه الإسلام فى زمن غابر(٣).

أما فيما يتعلق بالأرياف، فإلى أية درجة من العمق طبعتها المسيحية بطابعها؟ إننا نعرف أن البربر سوف يسارعون منذ وقت مبكر إلى استخدام الكنيسة ضد الإمبراطورية الرومانية لتنمية عقيدة رافضة. والحال أن الدوناتية(٤) (مذهب دونا، أسقف قرطاج المنشق فى القرن الرابع)، إذ تُعلى من شأن ولاءٍ لطهارةٍ مسيحية أصيلة تتهم روما بخيانتها، إنما تصبح بذلك نوعاً من نزعة قومية تظهر قبل الأوان. وهى تستند، شأنها فى ذلك شأن حركات التحرر القومى بعد ستة عشر قرناً، إلى الاحتجاج الاجتماعى. وتستند الدوناتية بشكل خاص إلى تنظيم السيركونسيون، أولئك الفلاحين البربر المتمردين على كبار ملاك الأرض المترومنين. أما أن المسيحية سوف تتحالف مع سكان الأرياف فإن ذلك لا يعنى على أية حال التأكيد على أن هؤلاء السكان كانوا هم أنفسهم مسيحيين: «ليس بوسعنا تقدير عددهم استناداً إلى عدد عوام قرطاج بأكثر مما يسعنا تقدير نوعيتهم استناداً إلى نوعية عقيدة القديس أوغسطين (٥)».

وسوف يعيد القديس أوغسطين البربر إلى الخط السوى للعقيدة الرومانية. وهذا

القديس، الذى ولد فى تاجاست – سوق الأخرس اليوم فى الجزائر – سوف يموت فى عام ٤٣٠ خلال حصار أسقفية هيبّون التابعة له، قرب عنّابة الحالية. فآنذاك يشن الوندال الهجوم الذى سوف يزعزع المسيحية الأفريقية. والواقع أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا آريوسيين. والحال أن آريوس (٢٥٦ – ٣٣٦)، قس الإسكندرية الذى يتبعون مذهبه، كان قد دشن موكب الخلافات البيزنطية الذى لا آخر له: فهو إذ يرفض عقيدة وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة التى تتحدث عن وحدة جوهر الأب والابن والروح القدس، يرفض الطبيعة الإلهية للمسيح. وسوف يترتب على حرمانه رمى الهرطقة إلى الشمال، بين عشيرة الوندال الجرمانية. ومعهم تسترد (الآريوسية) الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. وسوف تؤدى صنوف الاضطهاد التى يلحقونها بالمسيحيين البربر إلى دفع هؤلاء إلى اللوذ بمعاقلهم الجبلية، لكن رفض مذهب المحتل يتعزز من مقاومة الأخير. بل إن من المتحمل أن إيمان البربر يزداد عمقاً فى المحنة.

وتبذل روما جهداً أخيراً. فهيلدريك، أول ملك وندالى محبذ للكاثوليكية، يجرى تنصيبه فى قرطاج. ويؤدى عزله من جانب جيليمير إلى دفع جوستينيان إلى إرسال جيش الجنرال بيليسير إلى الساحة (٥٣٣). والواقع أن إمبراطور بيزنطة المسيحى للغاية، الذى يعيد فتح أفريقيا المطلة على البحر المتوسط، يريد مد المسيحية إلى القبائل التى كانت ما تزال وثنية ويريد إحياء الأرثوذكسية اللاتينية لدى أولئك الذين حادت بهم الهرطقة الآريوسية عن سواء السبيل. وتجرى التحولات إلى اعتناق العقيدة الرومانية تحت حد السيف. ويتطلب الأمر من جوستينيان خمس عشر سنة لإخماد تمردات البربر ولفرض نظامه (٥٤٨). وفى مستهل القرن السابع، تضم أفريقيا الشمالية البيزنطية وطرابلس الغرب مجتمعتين ٤٧٠ أسقفاً.

على أن كثرة كبار رجال الدين لا تكفى لإثبات كثرة المؤمنين. وقد رصد مؤرخ من العصر الاستعمارى، هو إميل – فيليكس جوتييه، فى الانقسام قبل الإسلامى بين البدو الرحل والسكان المستقرين، بين البوتر والبيرانيين، استمرارية ترجع إلى زمن غابر. والأخيرون هم وحدهم الذين سوف يتحولون بالفعل إلى اعتناق المسيحية: «لقد كان البيرانيون على اتصال طويل الأمد مع القرطاجتين، قرطاج البونية وقرطاج الرومانية، أى مع الحضارة. وقد وجدهم الفتح العربى مسيحيين. وكان كثيرون من البوتر يهوداً أو فيتيشيين، «عبدة للأوثان»، كما يسميهم كتاب الحوليات العرب(٦) ». وهم لن يستقبلوا الإسلام بسرعة واحدة.

انقلابات القبائل، تحولات الأفراد من دين إلى آخر

عند وصولهم إلى أفريقيا الشمالية، سوف يجد العرب أنفسهم أمام تشابك معقد للمعتقدات والولاءات الروحية: «إلى جانب عبادات الطبيعة والعبادات الأرواحية التى ترجع إلى زمن غابر، وإلى جانب الآلهة القرطاجية، نجد أن المسيحية الأرثوذكسية أو الهرطوقية، واليهودية، التلمودية أو غير التلمودية، كان لكل منهما أتباعه[7]». أما ابن خلدون، الذى عاش بعد ستة قرون من الفتح العربى، فمن المؤكد أنه لا يستطيع أن يكون جازماً بشأن التوزيع الطائفى لأفريقيا الشمالية قبل الإسلامية. على أنه يشير إلى أن المسيحية كانت مهيمنة عليها بشكل بالغ الاتساع: «كان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذى اجتمعوا عليه مع الروم (البيزنطيين) [8]».

وعندما يطأ قادة الإسلام أرض المغرب، سوف يلقون هناك أغلبية مسيحية قوية، تصل إلى مليون ونصف مليون من المؤمنين، وأقلية يهودية صغيرة تتألف من نحو ٢٠٠٠٠ شخص[9]. وكانت الطائفة اليهودية قد وطدت مواقعها منذ الزمن الذى هيمن فيه الفينيقيون على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط منطلقين من صور وصيدا، لكن مما لا مراء فيه أن أحفاد دياسبورا قديمة نازحة عن فلسطين كانوا قليلين قياساً إلى البربر المهودين[10].

ولم يقض الإسلام قط على اليهودية – إن خضوعاً دنيوياً للسلطة المسيحية كان قد أنزل اليهودية إلى وضعية أقلية منذ زمن طويل – لكنه أباد المسيحية. فهل محاها مرة واحدة أم، بالأحرى، قرضها شيئاً فشيئاً؟ لم تجمع أية رواية معاصرة عن انتشار الإسلام من شأنها إطلاعنا على السرعة التى سوف تتبناه بها الشعوب. وتاريخ الفتح لم تبدأ كتابته إلاّ بعد ستة قرون من حدوثه[11]. وعلينا من ثم أن نتخيل ما كانت عليه حالة الدين والمجتمع فى أفريقيا الشمالية، عندما يظهر هناك هؤلاء السادة الجدد، مسلحين بدعوة دينية جديدة.

وإذا كانت المسيحية الرومانية قد تمكنت من البقاء برغم الإرهاب الوندالى، فهى تدين بذلك لمواردها الخاصة. وهى لا تدين به للكنيسة الأم التى لا تحتفظ معها بعد، بحكم قوة الأشياء، بعلاقات منذ قرن. ولم يجر استقبال البيزنطيين كمحررين، بل إن دخولهم قد أثار على الضد من ذلك معارضات حيوية عند البربر. فقد كانت بيزنطة تجسد الزمنى الدنيوى لا الروحى. وبتخلصه من الهيراركيات الكنسية، كان بوسع الدين الأفريقى من ثم أن يسلك طريقه الخاص، وأن يزدهر بوصفه طريقة فى التفكير بأكثر مما بوصفه ولاءً لمنظومة وصايا. وعلى أرضية الضعف المؤسسى هذه يتقدم الإسلام.

«عندما يخرج العرب، بعد توحدهم فى دولة وحول عقيدة، من شبه جزيرتهم الصحراوية، فإنهم سوف يتصرفون بوصفهم ورثة. والمسيحية الأفريقية، التى تطورت خارج أى اتصال مع الكنيسة، تتخذ شيئاً فشيئاً شكل عقيدة توحيد إلهى مجردة بوسعها أن تشفى غلتها من أى مذهب [١٢]». وبشكل ما، فإن الأسلمة قد شكلت امتداداً ذكياً للتطورات الداخلية للمسيحية الأفريقية الشمالية، إلى درجة أنها سوف تتم بشكل يكاد يكون غير ملحوظ من جانب السكان أنفسهم. وهذه الفكرة مغرية، لأنها تؤسس الإسلام المغربى، جد المنغرس اليوم فى الأفراد، على انتماء حر أصيل. وربما كان الواقع أكثر تعقيداً من ذلك إلى حد ما، يثبت ذلك اليوم تحفظ القبائل على الحركية الإسلامية وعلى التعريب المتعجل.

إن المغرب سوف يتأسلم بموجب عمليتين متمايزتين، لا يبدو أن مدة كل منهما كانت واحدة ولا أن عمق كل منهما كان واحداً: الانتماء الجماعى والتحولات الفردية إلى اعتناق الإسلام. فالفتح العسكرى يتبعه الخضوع السياسى من جانب قبائل بربرية بأكملها، تبعاً لدى استسلام زعمائها. وبمجرد إعلان ولائهم، يجرى تفسير هذا الولاء باعتباره اعترافاً إجماعياً وعاماً بالسيد وبدينه. لكن هذا الولاء يظل هشاً. ذلك لأن القبيلة تتمرد، وسرعان ما يعتبر عصيانها السياسى (الردة) ارتداداً عن الدين[١٣]. والمصطلحان مستمدان من جذر عربى واحد ويتميزان فى الواقع بمعنيين متقاربين. والإسلام ينجب فى الحقيقة ديناً ودولة فى آن واحد[١٤]. بل إن نبيه كان مؤسس إمبراطورية.

إن كل فتح يستثير مقاومة، وفتح العرب للمغرب ليس استثناءً. ذلك أن انتفاضات متكررة سوف تستقبل السلطة الجديدة. وسوف تحمل القبائل السلاح للذود عن المسيحية المهددة، أم على الأرجح عن حريتها؟ إن التردد بين الإيمان أو حمل السلاح، وحالات الانبعاث المتكررة لنزعات التوحيد الإلهى قبل الإسلامية، اليهودية والمسيحية، سوف تميز على أية حال القرون الأولى للهجرة. ويكتب ابن خلدون: «إن ساكنى هذه الأوطان (إفريقية والمغرب) من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذى كان لأبى سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً وعاودوا بعد ذلك الردة مرة أخرى وعظم الإثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة[١٥]».

وملحمة الكاهنة توحى تماماً بما لابد أن كان عليه تاريخ هذه الانضواءات الجماعية المثير. ففى رحلتهم صوب الغرب، لن يواجه جنود القائد العربى حسان بن النعمان جيوش بيزنطة وحدها، بل سوف يواجهون أيضاً مقاومة جبلية صلبة. فقبائل الأوراس، المتجمعة تحت

السلطة العسكرية والسياسية للكاهنة، «الملكة» و«الكاهنة» اليهودية، وهى شخصية تُعدُّ رمزاً فى نظر المثقفين الجزائريين الناطقين بالفرنسية كالكاتب كاتب ياسين، سوف تصد من ثم الجيش العربى على مدار أربع سنوات (٦٨٩ - ٦٩٣). وتقول الأسطورة أن الملكة عندما أدركت أن هزيمتها باتت محتمة اختارت المقاومة حتى الموت لكنها أمرت ولديها بالاستسلام للغالب. ومن ثم يكلف هذا الأخير كلا الولدين بتجنيد اثنى عشر ألف رجل من بين قبائلهم وتحويلهم إلى اعتناق الإسلام ثم وضعهم تحت قيادتهما وخوض الجهاد بهم إلى جانب العرب. ويشهد ابن خلدون بأن حساناً «استأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم إثنا عشر ألفاً مجاهدين معه فأجابوا وحَسُنَ إسلامهم (١٦)».

على اننا يجب أن نحذر من أن نرى فى هذه الحكاية المسار المألوف لأسلمة المغرب(١٧). فأسطورة الكاهنة، شأنها فى ذلك شأن أساطير أخرى، لا تساوى الكثير من حيث الصدق المشكوك فيه للوقائع التى تحكيها كما من حيث مختلف ضروب التفسير التى تحتملها. فالتراث اليهودى - البربرى لا يحتفظ إلاّ بمقاومة الأم، التى يجعل منها رمز الولاء الوطنى للطائفة اليهودية فى المغرب.

ومستنداً على الضد من ذلك إلى انقلاب الولدين، سوف يكتب جوتييه باطمئنان استعمارى تماماً، أن «البربرى (النسبة إلى البربر)، فى القرن العشرين كما فى القرن السابع، ليست لديه أية فكرة عن الوطن. والشيء الوحيد الذى يثور البربرى لأجله ويستعد لأن يهبه حياته، هو عشيرته، عائلته. ومنذ تلك اللحظة يصبح كل شيء واضحاً. ففى الكارثة المحدقة، التى لا مفر منها، هل يمكن إنقاذ الشيء الوحيد المهم بالفعل، العشيرة ؟ نعم بوضوح. والغالب، أكان عربياً أم فرنسياً، لن يطلب شيئاً أفضل من الاستفادة من خدمات عائلة اختبر نفوذها بشكل فائق الوفرة(١٨)». ونحن نعرف التكذيب الذى سرعان ما سوف تصدره على هذا الكلام الوطنية الجزائرية، البربرية والأوراسية بالتحديد.

فلم لا نر أيضاً مجاز الأسلمة فى تزاوج وجهى الحكاية، عزة الملكة وتحول ولديها؟ إن القبائل الطامحة إلى التحرر من سيدين بعيدين، روما ثم بيزنطة، سوف تدرك بلا ريب أن الإسلام سوف يحفظ لها استقلالها الذاتى، مادام مجرد الانتماء يكفى لجعلها تنتقل إلى معسكر السادة.

والواقع أن المعارضة الدينية الرئيسية للفاتحين العرب لن تكون يهودية ولا مسيحية وإن

ترفض الإسلام، فهي تتأكد على الضد من ذلك في داخله وباسمه، ضد ممارسات الدولة المركزية التي تنهض، وخاصة ضد ضريبة الأرض. وستعرف عندئذ قبائل مختلفة نفسها في الخوارجية[١٩]، التي يروجها دعاة قادمون من الطرف الآخر للإمبراطورية العربية - من العراق، حيث رفضت حفنة من المتمردين أن يخلف معاوية (٢٠) علياً، الخليفة الرابع. ويكمن هذا الاتجاه الرافض في منشأ الدويلات ذات الوجود العابر إلى هذا الحد أو ذاك - والتي كان بعضها مهيباً، كدويلتي سيجلماسة وتهرت - والتي لن توحد المنطقة قط في ظل سلطة واحدة. على أن تمرداتها سوف تسهم في إعادة استقلال ذاتي إلى المغرب، اقتصادي بين وجوه أخرى، كانت روما، والوندال ثم بيزنطة على التوالي قد حرمته منه. وسوف تتبنى أفريقيا الشمالية الإسلام لأنه يتيح لها الاستقلال إلى حد ما[٢١].

والأرجح أن الانتقال الجماعي إلى الإسلام كان نادراً في ظل الأمويين، الذين سيحكمون أفريقيا الشمالية حتى عام ٧٢٠ وسوف يتم بوجه خاص من جانب القبائل، البدو الرحل على الأخص، الذين يقربهم أسلوب حياتهم من الفاتحين الأوائل، الذين كانوا هم أنفسهم بدوا رحلاً في شبه الجزيرة العربية التي تركوها خلفهم. لكنه سوف يذهل الأذهان لزمن طويل. وهكذا، فعندما تزعم فرنسا الجمهورية، بعد اثنى عشر قرناً من الفتح العربي، أنها تستعيد استقلال البربر الذي خنقه العرب، سوف يشير التاريخ الرسمي إلى هذه الانتماءات الجماعية، لأن تلون البربر المزعوم يناسب المشروع الاستعماري.

لكن الإسلام قد انتشر أيضاً عبر عملية أبطأ، ولكنها أقل تقلباً، للتحولات الفردية إلى اعتناق الدين الجديد. فإلى جانب القبائل الجبلية والبدوية، المتلاحمة بما سوف يسميه ابن خلدون بـ «العصبية»، والتي لا يمكنها أن تحول (إلى الإسلام) غير جماعات بأكملها، كان يحيا شعب مديني وريفي بأكمله سوف ينضم إلى الدين الجديد بأسلوب آخر. فالروم، موظفو الإدارة البيزنطية، وتجار وحرفيو المدن، والفَرنج، الفلاحون المتلتينون، سوف ينتمون تدريجياً إلى الإسلام على أساس فردي أو عائلي.

ويلعب الإغراء في تحولهم إلى اعتناق الإسلام دوراً أكبر من دور القوة. ولا مراء في أنه ليس الاستيقاظ لذاكرة بونية قديمة، في سبات منذ أكثر من ألف عام، هو ما يدفع «متحضري أفريقيا القدماء إلى اتباع منحنى غرائزهم العميقة[٢٢]» بترحيبهم بهذا الدين الذي يجيء به أبناء عمومة هؤلاء الأجداد البعيدين الذين جاءوا من فينيقيا. فالواقع أن المزايا المادية والأدبية التي سوف يجدها البربر في ذلك، المزايا الضريبية أولاً - الإعفاء من ضريبة الرأس - ثم

المزايا الاجتماعية - الاندماج فى مجتمع مدنى وسياسى مؤسلم بشكل مطرد - سوف تكون الحافز الحقيقى إلى تحولهم إلى اعتناق الدين الجديد.

وفى أفريقيا الشمالية، كما فى كل أرجاء الإمبراطورية التى كانوا بسبيلهم إلى تكوينها، سوف يتعين على الأمويين إيجاد توازن حساس بين ضرورتين متناقضتين من ضرورات الاحتلال: كسب انتماء الشعوب إلى الإسلام، مع تدبير الدخول التى يحصل عليها الفاتحون تحديداً من «كفر» السكان المفتوحين، الجزية، الضريبة التى كان على المسيحيين واليهود دفعها للحفاظ على حق ممارسة عبادتهم. ونحن نعرف أن من المفارقات أن حرص الدولة الإسلامية فى مصر على الحفاظ على إيراداتها الضريبية قد دفعها إلى عرقلة إيقاع التحول إلى اعتناق الإسلام. ولا توجد شهادة مماثلة فيما يتعلق بالمغرب. ومن المحتمل من ثم أن أسلمة المغرب المدينى والريفى كانت بطيئة نسبياً.

ولا يتخيل المرء أنها كانت موجة عارمة سريعة إلاّ إذا صدق النصوص المكتوبة بعد أكثر من خمسمائة سنة من الفتح والتى تلعب فيها الأسطورة دورها، وهى نصوص ابن خلدون وابن عبد الحكم. فالأول يقول لنا «أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر سنة إحدى ومائة (٧١٩ ميلادية، أى بعد جيل واحد من الاستقرار العسكرى)(٢٣)». وقد اكتفى المؤرخون على مدار زمن طويل بمسايرة هذا الرأى؛ فجوتييه مثلاً يؤكد أنه اعتباراً من اللحظة التى اتجه فيها طارق ابن زياد إلى فتح أسبانيا، نجد أن المغرب، «الواقع بين مركزين للحضارة الإسلامية الرائعة، تونس من جهة والأندلس من جهة أخرى، لا يبدى بعد أية مقاومة للنفوذ الدينى والفكرى للإسلام؛ ويتم إنجاز التحول إلى اعتناق الدين الجديد(٢٤)».

ومن المحتمل تماماً أن جزءاً هاماً من السكان قد ظل مسيحياً، حتى نهاية الخلافة الأموية فى دمشق (٧٥٠). فقد وسع الفاتحون مجالهم السياسى دون أن يفرضوا عليه التجانس الدينى. وقد ظل تبنى الإسلام ضمن مجال الاختيار الحر، حتى وإن كان الدافع الاقتصادى قد اكتسب أحياناً طابعاً طاغياً. ويكتب المستشرق البريطانى بيرنارد لويس: «خلال القرون الأولى للسيطرة الإسلامية كانت هناك محاولات قليلة أو لم تكن هناك محاولات على الأطلاق للتحويل القسرى إلى اعتناق الإسلام، حيث ينتشر الدين بالإقناع وليس بالإكراه عليه(٢٥)». إلاّ أنه إلى جانب التحولات إلى اعتناق الدين الجديد، والتى تسنى لإيقاعها أن يظل معتدلاً، سرعان ما تلعب الديموغرافيا لحساب المسلمين، وذلك بحكم الزيجات المختلطة وحدها؛ فالقانون، الذى يتمشى فى كل شىء مع القانون السائد فى الشرق، يحظر فى الواقع زواج

مسيحى أو يهودى من مسلمة، لكنه لا يحظر زواج مسلم من ذمية(٣٦). وفى هذه الحالة الأخيرة، ينتمى أطفال الزوجين بشكل أوتوماتيكى إلى الإسلام. وفى الأوقات الأولى للفتح الذى يجىء بالرجال فقط، وبقدر ما يظل المسلمون أقلية، فإن ضيق سوق الزواج لابد له من أن يشجع على هذا النوع من الزيجات المختلطة، ومن ثم على مولد أجيال مسلمة بالتدريج.

ولن يفرض الإسلام نفسه إلاّ خلال فترة تبدأ بعد قرنين من الفتح، فى العصر الذى سوف يهيمن فيه الخليفة العباسى المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) على الشرق. إن حروب الخلافة المتواصلة منذ بداية القرن التاسع والهيمنة المتعاظمة على الجيش من جانب عناصر تركية منفلتة الزمام قد أوجدت فى بغداد مناخ رعب دائم، إلى الدرجة التى جرى معها نقل العاصمة إلى سامراء. وتتمزق السلطة الخلافية بشكل حاسم؛ وعندئذ تصعد إلى السلطة المركزية للفاتحين سلالات حاكمة محلية، يتعزز استقلالها الذاتى بمرور الزمن. وفى الغرب، سوف يخضع أدارسة فاس (٧٨٨ - ٩٢٦) أراضى جد شاسعة، بينما سوف يتوسع الأغالبة فى الشرق بدءاً من القيروان (٨٠١ - ٩٠٩). وبين الاثنين، تحتل ممالك المغرب الأوسط مساحات أضيق. وبمجرد قيامها، فإن هذه الكيانات، الأصغر بكثير من الإمبراطورية التى تفككت، سوف تتجه إلى الانكفاء على نفسها، وسرعان ما سوف تنشر التجانس بين ربوعها. ويبدو أن استيعاب الأقليات يصبح بالنسبة للسلطات الأقليمية وسيلة - واعية ؟ - لتوطيد أركانها. فاختزال التباينات يستبق فى روحه، وإن لم يكن فى نصه، ما سوف يصبح فى القرن العشرين مرحلة ضرورية لبناء الدول القومية.

الهلاليون والموحدون

إن وصول القبائل الهلالية، المنحدرة من شبه الجزيرة العربية، سوف يرمز إلى منعطف فى التاريخ المغربى. فسوف يكون مميتاً بالنسبة للجماعة المسيحية. فبنو هلال، النهابون الذين سبق لهم أن عاثوا فساداً فى أرياض الطائف، كان قد تم ترحيلهم إلى مصر فى عام ٩٣٠ للتكفير عن عصيانهم. وكانوا فى الواقع حلفاء لغلاة إسماعيليين، هم القرامطة، وهم نوع من السان كيلوت (العرايا، جماهير باريس الفقيرة الراديكالية خلال الثورة الفرنسية الكبرى. المترجم) الذين كان تمردهم قد زعزع الخلافة العباسية. لكن دعة وادى النيل لم تؤد إلى تهذيب أخلاقهم بشكل حقيقى؛ وبعد قرن من ذلك، سوف يحافظون على سمعتهم كقطاع طرق كما هى.

وسعياً إلى التخلص من هذا الفيض من البدو المشاغبين، فإن الخليفة المستنصر، الذى اعترضته عقبات كثيرة مع جوعاه هو، تراوده من ثم فكرة إرسالهم لتأديب تابعه المعز، الذى كان قد أعلن الانفصال فى القيروان (١٠٥٠). وسوف يتدفق مائتا ألف من الهلاليين على طرق المغرب. ويكتب ابن خلدون، قبل أن يحكى بعض الأساطير الجميلة التى سمعها بعد قرنين من ذلك: «اضطرب أمر إفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها[٢٧]». وما تزال باقية حتى أيامنا، عن ملحمة بنى هلال، بعض الحكايات، التى سوف ينقلها فى استقرارهم الوشيك آخر بدو الهضاب الجزائرية.

فهل سوف يُدخل بنو هلال انعدام الأمن إلى أفريقية أم أنهم سوف يجدون هذا الانعدام للأمن قائماً بالفعل؟ هل سيجرون المغرب – كما سيفعل المغول بعد ذلك حين يدمرون أرياف الشرق قبل أن ينهبوا بغداد – إلى فوضى مقيمة، تطمس فيها التجهيلية البدوية الحضارة المستقرة؟ إن ابن خلدون يميز بحزم بين الفتحين العربيين. فالأول، العسكرى، فى القرن السابع، قد حمل إلى المدن حاميات وإدارة، لكنه لم يهب السكان غير عُزاب كانوا متسرعين إلى إيجاد أسر مختلطة. وكان فتحاً مادياً وروحياً، لكنه لم يكن فتحاً إثنياً. أما فتح القرن الحادى عشر فقد كان على الضد من ذلك هجرة لأقوام بأكملها، معها لغتها ونساؤها وأطفالها: فبعد أربعة قرون من الفتح (الأول) يجىء الاستيطان.

وفى تبنيه للمقابلة التى أجراها المؤرخ العربى، وإن كان مَعَ التضخيم من الوزن الديموغرافى للهلاليين، سوف يجرى المؤرخ الاستعمارى جوتييه موازاة بين الاستيطانين، استيطان العربى البدوى، «عدو كل حكومة»[٢٨]، «الناهب الذى لا يبنى عشه بل يسكن فى عش الآخر[٢٩]»، واستيطان فرنسا الجمهورية، الذى ينظم البشر ويستثمر مواردهم. والواقع أن الجيل التالى، سعياً إلى مناقضة هذا السلف المزعج وفى حميته المعادية للاستعمار، سوف يلتزم على الضد من ذلك بالتقليل، إلى أدنى حد، من شأن دور البدو التدميرى، مع احتمال اختزال الغزو العربى إلى أبعاد أسطورة.

وأياً كان الأمر فإن بنى هلال سوف يقصون المعز عن مملكته. وإذ يفعلون ذلك، فإنهم سوف يسهمون، بشكل مباشر أو غير مباشر، فى إضعاف حدودها. فعلى أبواب العالم المسيحى، نجد أن صقلية، المسلمة منذ عام ٨٢٧، تنتقل، دون أن تصل قعقعة السلاح إلى القيروان، إلى أيدى النورمانديين. وهؤلاء الجنود الشماليون، الذين وظفهم البابا وأمراء لومبارديا لصد بيزنطة، سرعان ما سوف ينقضون على الخلافة الفاطمية لافريقية، حيث يطأون

باليرمو فى عام ١٠٧٢ لكى يحتلوا الجزيرة كلها بعد ذلك بعشرين سنة. وفى الزمن نفسه، شمال الأندلس، تدق بالفعل الخطوات الأولى لإعادة الفتح (الاسبانى). وتسقط طليطلة فى عام ١٠٨٥. وسرعان ما يدعو أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية. ومثلما كانت عليه الحال دائماً تقريباً فى التاريخ العربى والتركى، سوف تدفع الكتل الأخيرة من المسيحيين المحليين ثمن دين يتقاسمونه مع أعداء الإسلام، حتى وإن كانوا لن يتحالفوا معهم.

والواقع أن وضع الأقليات المسيحية واليهودية فى أفريقيا الشمالية سوف يتدهور بشكل محسوس عندما تتبلور هذه التهديدات الخارجية. وسوف تكابد آنئذ تمييزاً متعدد الأشكال، وليس ضريبياً فقط. وبشكل متقطع، سوف يجرى إخضاع أهل الكتاب لمحظورات ثيابية ومهنية، بل وسلوكية، كإلزامهم بامتطاء الدواب مع تدلية القدمين من جانب واحد حتى يتسنى تمييزهم من أول نظرة عن المسلمين، المسموح لهم وحدهم بفرشحة القدمين فى عزة على متون الجياد. بل لقد كانت هناك ملاحقات متقطعة. وسرعان ما تصبح التحولات إلى اعتناق الإسلام جماعية. على أن الحوليات لا تتحدث لا عن مذابح ولا عن ترحيلات إجبارية كتلك التى سوف تجتاح المسيحية الأناضولية بعد عشرة قرون، عند سقوط الإمبراطورية العثمانية.

على أن المغرب المسلم لن يكون له موريسكيوه ولا مارّانوه، المسلمون واليهود الأسبان الذين جرى إجبارهم بالقوة على التحول إلى اعتناق المسيحية فى ظل محاكم التفتيش، قبل طردهم إلى أفريقيا الشمالية فى مستهل القرن السابع عشر. وينتشر الإسلام على الضد من ذلك دون صدمات ديموغرافية. فعلى غرار الفتح، يبدو أن التحولات إلى اعتناق الإسلام قد فازت أولاً بالأقاليم الأقل بعداً عن مركز الإسلام، ثم امتدت إلى المناطق الأبعد: فالإشارت الأخيرة إلى جماعة مسيحية محلية ترجع إلى عام ١٠٤٩ فى ليبيا، وإلى عام ١٠٩١ فى تونس، وإلى عام ١١٥٠ فى الجزائر وإلى عام ١٣٠٠ فى المغرب الأقصى (٣٠). وعلى تخوم اختفاء هذه الجماعات المسيحية، نجد عهد الموحد بن تومرت، هذا الأصولى الذى أعلن نفسه، فى عام ١١٢١، مهدياً.

ومن بين الأقطار الواقعة إلى غربى النيل، كانت ليبيا هى القطر الذى انتشرت فيه الأسلمة بشكل أسرع، وذلك منذ دخول الجيوش المسلمة فى عام ٦٤٠. ويفقد البلد الجانب الرئيسى من جماعته المسيحية عندما ترحل قبيلة لواتا البربرية مع أسقفها إلى المغرب الأقصى(٣١). وسوف يتم محو كل أثر لها عندما يجتاز ليبيا بنو هلال فى زحفهم صوب الغرب.

وتتلوها تونس عن كثب؛ فقرطاج، التى كانت فى الزمن الغابر أسقفية مهيبة، يفتحها

العرب فى عام ٦٩٨. وفى عام ٦٤٦، كانت قد عقدت آخر مجمع مسكونى لها، هو الأخير فى سلسلة طويلة. على أن الكرسى الرسولى قد ظل هناك لعدة قرون أيضاً، حتى وإن كانت ذاكرتا أوروبا والمغرب قد اتفقتا على طمس هذه الذكرى البعيدة. ومما لا مراء فيه أن سلالة الفاطميين الحاكمة، التى اتخذت من القيروان مركزاً لها من عام ٩١٠ إلى عام ٩٧٣، كانت متسامحة هناك مثلما سوف تكون متسامحة فى مصر حتى عهد الحاكم (بأمر الله). وفى عام ٩٩٠، كانت ما تزال لكنيسة قرطاج ركيزة ديموغرافية وروحية كافية لإرسال أسقف لترسيمه فى روما. وتشهد رسائل ترجع إلى أعوام ١٠٥٣ و١٠٧٣ و١٠٧٦ وجهها البابا إلى أساقفة قرطاج على نشاط مسيحى معين [٣٢]. وتشهد على ذلك من جهة أخرى شخصية قسطنطين الأفريقى، الراهب البندكتى الذى ولد فى تونس نحو عام ١٠١٥ والذين ندين له بترجمات لاتينية عديدة لنصوص طبية عربية.

إلاَّ أنه عندما يقضى القديس لويس نحبه، فى عام ١٢٧٠، أمام مدينة تونس المحاصرة، كان قد مر بالفعل قرنان على انطفاء المسيحية هناك. فالفتح النورماندى لصقلية (١٠٧٢ – ١٠٩١)، حيث كانت اختراقات بيزنطية منذ خمسين عاماً بالفعل قد امتحنت الخلافة الفاطمية المقامة فى عام ٩١٠، كان قد وجه لها ضربات قاسية. وعندئذ يرد اختزال الجماعة المسيحية البربرية على عدم التسامح الذى لا يرحم والذى سوف يكابده مسلمو صقلية[٣٣]. وفى عام ١١٥٩، لن يكون بعد أمام الفاتح الموحد عبد المؤمن غير محو مقر الأسقفية فى قرطاج وإكراه آخر المسيحيين على الرحيل إلى المنفى أو الارتداد عن دينهم[٣٤].

أما الجزائر، مسقط رأس القديس أوغسطين، فقد احتفظت بطائفة كاثوليكية على مدار مجمل العصر الذى تقاسم فيه الخوارج، وهُم أتباع إسلام نقى، عزباً ثيوقراطية صغيرة. ويؤكد ابن خلدون أنه كان بالإمكان فى تلمسان، فى عام ٩٦٣، «رؤية آثار مختلفة قديمة، يوجد بعضها فى الكنيسة التى يسهر النصارى على خدمتها». والأرجح أن البلد يفقد هؤلاء المسيحيين بعيد دخول الموحدين (١١٥٢). لكننا نحوز مؤشراً محيراً. فبعد وقت طويل من هذه الأحداث، فى عام ١٥١٢، يعين البابا جوليان الثانى أسقفاً فى قسنطينية. وصحيح أن هذا الأسقف لن يبقى فى منصبه لعجزه عن العثور هناك على عدد كاف من المؤمنين[٣٥]. إلاَّ أنه كان هناك أيضاً مسيحيون آخرون فى زمن الإيالة العثمانية: وهؤلاء أوروبيون أسرهم الأخوان القراصنة (خير الدين وعروج) بارباروسا. إنهم، بلغة أيامنا، رهائن، كان أسرهم فى البحر المتوسط يعد بفدية مربحة. وفى عصر القرصنة الجميل، يمكن للمرء أن يعد آلافاً من الأسرى

المسيحيين، ربما يصل عددهم إلى ٣٠٠٠٠ فى سجون مدينة الجزائر وإلى ١٠٠٠٠ فى سجون مدينة تونس نحو عام ١٦٥٠[٣٦]، سوف يتحول بعضهم، وهم «مرتدون» فى نظر التاريخ المسيحى، إلى اعتناق الإسلام.

ويشهد استشهاد القديس مارسيللوس فى طنجة (٢٩٨) على إضفاء طابع مسيحى مبكر على موريتانيا التينجيتانية. ويذكر ابن خلدون أن إدريس الأول، أبا السلالة الحاكمة المؤسسة للمغرب الأقصى، كان قد قضى، منذ عام ٧٨٨، على اليهودية والمسيحية والسحرية فى سهول فاس وتادلا وشيللا. وبعد قرن من ذلك، فى ظل حفيده عمر بن إدريس الثانى، من المؤكد أن الكنيسة لا توجد بعد من حيث كونها مؤسسة منظمة، لكن المسيحية سوف تغيب فى جزء من السكان، يقوده بعض الكهنة العرضيين[٣٧]. وفيما بعد، نجد أن المرابطين، برغم كونهم أول من يتصدى للنهوض المسيحى فى أوروبا المسلمة، لن يزيلوا مع ذلك المسيحية البربرية بالكامل. ففى عام ١١٣٧، قبيل السقوط النهائى لسلالتهم الحاكمة، يظل بوسعنا رصد وجود العديدين من الجنود والتجار والعبيد المسيحيين[٣٨]. وسوف يتجه خلفاؤهم، الموحدون، إلى اختزالهم.

ليس دون مفارقات: ذلك أن الموحدين سوف يجندون أيضاً مرتزقة مسيحيين بموافقة البابا شخصياً. فالحق أن هذا الأخير لم يفقد الأمل حتى فى تحويل السلطان نفسه إلى اعتناق المسيحية، إذا ما صدقنا ما تقوله الرسائل التى وجهها إليه[٣٩]! وأياً كان الأمر، فإن الأساقفة الفرنسيسكان والدومينيكان سوف يغادرون المغرب الأقصى فى عام ١٢٣٧ للإقامة فى أسبانيا. واعتباراً من القرن الرابع عشر، لن نجد بعد مسيحيين محليين خارج طنجة وسبتة. فالوجود المسيحى الوحيد يتمثل، منذ ذلك الحين، فى الأسرى أو السفراء الأوروبيين. وسوف يكون لبعضهم أحفاد هناك. ففى أواخر القرن الخامس عشر، فى الرباط، نسمع فى أيام الآحاد دقات أجراس كنيسة سان فرانسوا وهى تدق لحرس السلطان المؤلف من أحفاد مسيحيين لمرتزقة قدماء[٤٠].

وعند عودة الفرنسيسكان فى عهد مولاى إسماعيل (١٦٧٢ – ١٧٢٧)، يمسكون دفتراً لقيد وفيات الأسرى فى المغرب الأقصى. وعدد هؤلاء الموتى ١٠٧٠ بين عامى ١٦٨٤ و١٦٩٣، وهو ما يوحى بجماعة يصل عددها إلى نحو ٤٠٠٠ شخص. وفى الأيام السعيدة للعلاقات مع أوروبا، تستطيع الجماعة المسيحية أيضاً استعادة عدد هام نسبياً. وهكذا فقد كانت قوية بما يكفى لإنشاء دير سانت كاترين فى عام ١٥١٧، فى أسفى.

ومن ثم فإن المسيحية البربرية تأخذ أكثر من خمسة قرون حتى تتلاشى من أفريقيا

الشمالية المسلمة. وسوف يكون التقسيم التدريجى للمغرب إلى ثلاث دول والمواجهة الضخمة مع الجماعة المسيحية فى أوروبا الرمسين الحقيقيين لها.

بقاء اليهودية

خلافاً للمسيحيين، لن يختفى اليهود البتة. وإذا كانوا أقلية هزيلة فى ظل بيزنطة (١ إلى ٢٪)، فإنهم سوف يظلون كذلك، بلا زيادة وبلا نقصان، فى ظل الإسلام. وفيما عدا بعض حالات التحول الجماعى إلى اعتناق الإسلام، كحالة جراوة الأوراس فى عام ٦٩٣، والنموذجية لأنها تسجل هزيمة الكاهنة، ستحتفظ القبائل اليهودية - البربرية بديانتها. ويرسم لها ابن خلدون قائمة دقيقة، وإن لم تكن شاملة: «بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بنى إسرائيل (...) كما كان جراوة أهل جبل أوراس (...) وكما كانت نفوسة من برابر إفريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز من برابرة المغرب الأقصى[٤١]».

وتجتاز اليهودية بلا متاعب تقريباً خمسة قرون من الأسلمة. وقد عرفت فى المغرب الأقصى أزمنة سعيدة فى ظل الأدارسة (٧٨٩ - ٩٧٤) حتى مستهل عهد المرابطين. وإذ تتقاسم مرة أخيرة مصير الجماعة المسيحية، تشهد من ثم تدهور وضعها مؤقتاً فى ظل تطهرية الموحدين. ففى عام ١٢٣٢، بسبب باعث، عبثى بلا مراء، نسيته الحوليات، جرى ذبح يهود فى مراكش[٤٢]. لكن المرينيين (١٢٤٨ - ١٤٦٥)، الذين وصلوا إلى السلطة بعد سقوط الإسلام فى قرطبة (١٢٣٦)، سوف يعيدون مناخاً مؤاتياً لليهود. فالسلاطين الجدد، الذين حاولوا وقف إعادة الفتح (الأسبانى) فى أسبانيا، واليهود، الذين جربوا فيه الملاحقات، سرعان ما سوف يتقاربون فى كره المسيحية الظافرة.

وتحت ضغط رعب المذابح، سوف يبدأ اليهود فى الهرب من قشتالة منذ النصف الثانى للقرن الرابع عشر ومن الأندلس عند سقوط غرناطة (١٤٩٢). وسيشمل ذلك من تحولوا عن دينهم، والذين كان تحولهم الجديد تماماً إلى المسيحية قد أثار الشبهات. وسوف يجدون الملاذ فى بلاد الإسلام خاصة، فى اسطنبول وفى فلسطين وفى أفريقيا الشمالية. وكان الأسبان، قبل ذلك بوقت قليل، قد دمروا تطوان (١٤٠١) بينما استولى البرتغاليون على سبتة (١٤١٥) قبل أن يستولوا على طنجة (١٤٧١). وفى البحر المتوسط الذى تمزق، أقام اليهود السيفارديون ردحاً طويلاً من الزمن على ضفاف الإسلام. وقد وصل الأمر بسلطان فاس، عبد الحق، إلى

حد تعيين يهودى، هو هارون بن بطاس، رئيساً للوزراء. وكان هذا السلطان هو آخر المرينيين: فالاغتيال المزدوج للسلطان ولوزيره يرمز إلى انتهاء السلالة الحاكمة.

ويبقى الوفاق دون صدع يذكر حتى منتصف القرن العشرين. ومن علامات الاندماج أن اليهود قد تبنوا لغة القرآن بنسبة أعلى من نسبة المسلمين أنفسهم. ففى عام ١٩٦٠، قبل نزوح طائفتهم مباشرة، كانت اللغة العربية هى اللغة الأم بالنسبة لـ ٨٨,٥٪ من المغاربة اليهود، لكنها لم تكن اللغة الأم إلاّ بالنسبة لـ ٦٤,١٪ فقط من المسلمين. أما البربر الذين لا يعرفون [illegible]ية فلم يكونوا يمثلون غير نسبة ٠,٣٪ من اليهود، فى مقابل ١٩,٠٪ من المسلمين(٤٣). وفى الجزائر وفى تونس، بل وفى ليبيا، حيث كان بربر جبل نفوسه مايزالون مهودين عند الفتح العربى، سوف تبقى أيضاً أقليات يهودية حتى النصف الثانى من القرن العشرين.

ومن المؤكد أن الطائفة اليهودية، التى تعودت منذ روما وبيزنطة على وضع الأقلية الصعب، قد استمدت من داخلها الموارد المعنوية والمعارف الفنية التى سوف تسمح لها بالحياة زمناً طويلاً كهذا فى ظل سلطة الإسلام. وعلى أية حال، فقد كان السياق الدولى مؤاتياً لها بشكل عجيب. فخلافاً للمسيحيين، لن تتذرع أية قوة خارجية مهددة للإسلام بدينها. على الضد من ذلك تماماً، فاليهود، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، سوف يتعين عليهم مواجهة عدم تسامح الملكين الكاثوليكيين: ففى اليوم الذى يسقط فيه فى غرناطة الحصن الأخير للمقاومة الإسلامية، سوف يجرى طرد اليهود من أسبانيا أو إكراههم على نبذ دينهم حتى يتسنى لهم البقاء فيها مؤقتاً، على أن يصبحوا «مارّين». ونحن نعرف أن طمأنينتهم النسبية فى المغرب سوف تستمر إلى اللحظة التى تتصادم فيها نزعة قومية يهودية مع نزعة قومية أخرى، عربية أو إسلامية. وكانت مراسيم كريميو، بمنحها يهود الجزائر مواطنة الفاتح الفرنسى (١٨٧٠)، قد دقت بالفعل الإسفين الأول بين طائفتهم والسكان المسلمين. وربما برغم أنفسهم سوف يبدون شركاء للكولون حتى فى النزوح.

ثم تنحبك الدراما الفلسطينية مع مولد إسرائيل التى سوف يصبح شجبها أحد نقاط الاتفاق النادرة، والوحيدة بلا مراء، بين النزعات القومية العربية. ومع فاصل زمنى من ألف سنة، فإن عين السبب الذى اختزل الجماعة المسيحية ببطء يجر اليهود إلى المنفى الفظ: الوفاق، الفعلى أو المفترض، مع العدو بحكم تقاسم الهوية الطائفية معه.

حواشي الفصل الثاني

1- Charles Allemand Lavigerie, archevêque d'Alger (1825 - 1892).

2 - 1,9 million selon Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient and Medieval Population,* Transactions of the American Philosophical Society, vol. 48 / III, 1958. Estimation "bien faible" pour Marcel REINHARD, andré ARMENGAUD et Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale,* Paris, Montchrestien, 1968.

3 - Charles COURTOIS, *Les Vandales et l'Afrique,* cité par Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse,* Paris, Maspero, 1982.

4 - Du nom de Donat, évêque dissident de Carthage (313-355).

5 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb...,* op. cit.

6 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation de l'Afrique du Nard. Les siècles obscurs du Maghreb,* Payot, Paris, 1927.

7 - G. DRAGUE, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confréries et Zaouïas,* Cahiers de l'Afrique et de l'Asie, n°2, Peyronnet, Paris, 1951.

8 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères..., op. cit.*

9 - 1% de la population selon S. D. GOISTEIN, "Jewish Society and Institutions under Islam", *Journal of World History,* vol. XI, 1968.

10 - Haïm ZAFRANI, *Mille ans de vie juive au Mâroc (Histoire, Culture, religion et Magie),* Maisonneuve et Larose, Paris, 1983.

11 - *Al- Bayân, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne* (compilation datant de la fin du XIII^e siècle), trad. E. Fagnan, Alger, 1901.

12 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb..., op. cit.*

13 - Nehemia LEVTZION, "Toward a Comparative Study of Islamization", *in* Nehemia LEVTZION (ed.), *Conversion to Islam,* Holmes and Meier Publishers, New York, 1979.

14 - Mohammed ARKOUN apporte à formule un nuance nécessaire, en reppelant l'indépendance que les oulémas préservèrent, aux premiers temps, vis - à-vis du pouvoir, en particulier sous le califat abbasside, qui connut une véritable sécularisation de la pensée: "Dîn, Dawla, Duniyâ", *L'Islam, morale et politique,* UNESCO, Paris, 1986.

15 - IBN KHALDUN, *Al- Muqaddima,* trad. Georges-Henri BOUSQUET, *Les Textes sociologiques de la Mouqaddima,* Marcel Rivière & Cie, Paris 1965.

16 - IBN KHALDUN, *Histoire des Bebères..., op. cit.*

17 - C'est ce que semble faire M. SHABAN: "Les mouvements de conversion les plus spectaculaires se produisirent en Afrique du Nord. De nombreux Berbères furent convertis et 12000 d'entre eux furent recrutés dans l'armée

arabe", "Conversion to Early Islam", *in* Nehemia LEVTZION, *Conversion to Islam..., op. cit.*

18 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation..., op. cit.*

19 - Sur le Kharijisme, qui ne survit plus de nos jours qu'en Afrique du Nord dans le Mzab et à Djerba, ainsi qu'à Oman et à Zanzibar, voir par exemple Henri LAOUSI, *Les Schismes dans l'islam,* Paris, Payot, 1965.

20 - Fondateur de la dynastie omeyyede.

21 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb..., op. cit.*

22- Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation..., op. cit.* Fernand BRAUDEL reprend à son compte cette idée d'un atavisme oublié, *La Méditerranée,* Garnier- Flammarion, Paris, 1986.

23 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères..., op. cit.*

24 - Emile - Félix GAUTIER, *L'Islamisation..., op. cit.*

25 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam, Calmann-* Lévy, Paris, 1986.

26 - Sur le statut légal des *dhimmi* et la question des intermariages, voir par exemple art. "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam,* Brill, Leiden, 1928.

27 - IBN KHALDUN, *Histoire des Bebères..., op. cit.*

28 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation..., op. cit.*

29 - *Ibid.*

30- Art. "libya", "Tunisia", "Algéria", "Morocco", *The Catholic Encyclopedia,* McGraw-Hill, New York, 1967.

31 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission Franciscaine,* Paris, 1934.

32 - *The Catholic Encyclopedia,* McGraw- Hill, New York, 1967.

33 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam, op. cit.*

34 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne..., op. cit.*

35 - *The Catholic..., op. cit.*

36 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane,* Paris, Sindbad, 1985.

37 - Henry KOEHLER, *L'Hglise chrétienne..., op. cit.*

38 - *The Catholic..., op. cit.*

39 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne..., op. cit.*

40 - R. BRUNSCHVIG, *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xv e siècle,* Paris, 1940.

41 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères... , op. cit.,* p. 209.

42- Art. "Morocco", *Encyclopedia Judaïca,* Keter Publishing House, Jérusalem, 1971.

43 - Direction de la statistique, *Recensement de la population de 1960,* Rabat, 1965, seul recensement à fournir le croisement religion- langue maternelle.

تعليقات الفصل الثانى

١ – شارل ألمان لافيجيرى، أسقف مدينة الجزائر (١٨٢٥ – ١٨٩٢).

٢ – ٩ر١ مليون وفقاً لجوسيا كوكس رسل. وهو «تقدير ضعيف» وفقاً لمارسيل راينهارد وأندريه أرمينجو وچاك دوپاكييه.

٤ – من اسم دونات، أسقف قرطاج المنشق (٣١٣ – ٣٥٥).

٩ – ١٪ من السكان وفقاً لـ س. د. جواشتاين.

١٤ – يدخل محمد أركون على الصيغة تعديلاً ضرورياً، بإشارته إلى الاستقلال الذى احتفظ به العلماء فى الأزمنة الأولى، تجاه السلطة، خاصة فى ظل الخلافة العباسية التى عرفت علمنة حقيقية للفكر .

١٧ – هذا هو ما يبدو أن م. شعبان يفعله :

«إن حركات التحول إلى اعتناق الإسلام الأكثر إثارة قد حدثت فى أفريقيا الشمالية. إن عديدين من البربر قد تحولوا إلى اعتناق الإسلام وقد تم تجنيد ١٢٠٠٠ منهم فى الجيش العربى» .

٢٠ – مؤسس السلالة الحاكمة الأموية .

الفصل الثالث

جماعتان مسيحيتان وجهاً لوجه في زمن الحروب الصليبية

«كان قد مر زمن طويل على افتراق هاتين الشقيقتين، هذين النصفين من البشرية، أوروبا وآسيا، الديانة المسيحية والديانة الإسلامية، عندما التقتا من جديد عبر الحروب الصليبية وتواجهتا. كانت النظرة الأولى نظرة رعب.»

چول ميشليه، تاريخ فرنسا، ١٨٧٦.

«في الأزمنة المعاصرة، يجد الإسرائيليون في الصليبيين أسلافاً لمشروعهم القومي؛ بينما يجد العرب، في نضال أسلافهم من أجل استرداد البلد، تشجيعاً لعزيمتهم المناوئة للصهيونية.»

كلود كاهن، الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، ١٩٨٣.

مع منعطف الألف عام الثانية يبدأ في الترسب بحر متوسط ثنائي، مسيحي في الشمال وإسلامي في الجنوب. وتبدو وحدة البحر الروماني ضائعة تماماً. أمّا المشروع الرامي إلى استعادتها ثانية تحت راية الإسلام فهو يبدي بالفعل علامات لهاث للأنفاس: إذ سرعان ما يتراجع العرب في الأندلس وفي صقلية، بينما يواصل الأتراك الهجوم على بيزنطة. وسوف

ينطلق مشروع مضاد من أوروبا مع الاقتحام الصليبي للأرض المقدسة. وفي نهاية الأمر، سوف يكون الفشل مصير الغزوين، الإسلامي في الشمال والمسيحي في الجنوب، ربما بسبب ضعف مشترك بين الغزاة – رفضهم المزدوج للغة ولديانة السكان الخاضعين لهم – بينما كانوا هم أنفسهم في وضع دونية عددية. ألن يترنح المشروع الثالث، الحلم الاستعماري الفرنسي في القرن التاسع عشر، على صخرة عقبات مماثلة، من جديد؟

مشتل دول مسيحية

أدرك أوربان الثاني، بابا الحملة الصليبية الأولى، أشكال الاعتماد السياسي المتبادلة التي ارتسمت في البحر المتوسط ورأى أن سلطة الكنيسة، في أوروبا نفسها، سوف تخرج معززة من نفوذ مستعاد في الشرق. وتسقط القدس في عام ١٠٩٩. ويدرك الصليبيون أنه، لأجل الاحتفاظ إلى الأبد بالمدينة المقدسة، لابد من إحاطتها بدولة مسيحية، عسكرية وقوية،على أرض فلسطين. وأهلية هذه الدولة اللاتينية، القادرة على رد الإسلام، تستند على جماعة سكانية مسيحية قوية. ومن ثم فإن تعزيز الجماعة المسيحية المحلية هو الفكرة المهيمنة الأولى للحملة الصليبية التي جرت الدعوة إليها قبل أربع سنوات من الاستيلاء على القدس (١). وقد أعلنها أوربان الثاني بأعلى صوته: «إن من الملح لكم المسارعة بتقديم العون الذي طالما جرى الوعد بتقديمه إلى إخوتكم في الشرق والذي يمثل ضرورة جد ملحة. لقد هاجمهم الأتراك والعرب (...) وعبر تغلغلهم أكثر فأكثر في بلد هؤلاء المسيحيين، غلبوهم سبع مرات في ساحة القتال، وقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً، وهدموا الكنائس وخربوا المملكة (٢)».

لكن استعمار الأرض المقدسة بسكان قادمين من أوروبا سوف يكون أكثر كفاءة وأكثر استمرارية بكثير من الاعتماد على مسيحيي الشرق. وكان الانفجار الديموغرافي الذي شهده العام الألف قد خلق في أوروبا اندفاعاً مؤاتياً للتوسع الإقليمي، وكانت نبالة لا مستقبل لها تبحث عن قضية جديدة وعن آفاق أوسع. ولحفزها على النزوح، لا يكتفي البابا بأن يعدها بـ «النعيم الأبدي». فهو يتحدث عن «نعيم الشرق» قياساً إلى «فقر العالم الغربي»(٣).

ويزحف الصليبيون على الشرق بأفكار بسيطة كانت منطلقاتها باطلة. فهم يتخيلون جماعة مسيحية ترزح تحت نير الاستبداد، وتشترك في المحنة وتترقب الخلاص على يد روما. أمّا واقع الأمر فهو يتمثل في أن المسلمين، في ذلك الزمن، كانوا يشكلون أغلبية طفيفة(٤) في

سوريا وفى فلسطين، لكنهم كانوا يحيون فى مناخ تعايش يصعب تصوره فى أوروبا. وعلى مدار القرون الأربعة للتحول إلى اعتناق الإسلام، كانت الحياة الاجتماعية والإدارية والفكرية تتشرب تدريجياً اللغة العربية والمناخ الإسلامى. وقد تم ذلك دون تمزيق لوضع غير المتحولين إلى اعتناق الإسلام ودون انحطاط مشين له(٥).

إن مسيحيى الشرق، الذين كانوا ساعتها عرباً(٦)، لا يشكلون كتلة متجانسة. فعاداتهم ومعتقداتهم وشعائرهم تتباين بعضها عن البعض الآخر. فالقداسات اليونانية الأرثوذكسية - تؤدى باللغة اليونانية والقداسات اليعقوبية تؤدى بالسريانية؛ وأتباع كل من الكنيستين يتكلمون كلهم بالعربية، على الرغم مما بينهم من تنافسات. والواقع أن المسيحيين، أكانوا منشقين كالجريك الأرثوذكس أم هراطقة كاليعاقبة والأرمن(٧)، سوف يحافظون على خصوصيتهم خلال الحروب الصليبية، فيما عدا موارنة لبنان(٨). فهؤلاء، وعددهم الإجمالى نحو أربعين ألفاً، سوف يتخلون عن عقيدتهم القائلة بوحدة مشيئة المسيح(٩) ويشايعون روما فى عام ١١٨٢. لكن عون هذا الشعب الشهير برماته يجىء فى وقت جد متأخر بالنسبة للصليبيين: فسادة القدس يتغيرون بعد خمس سنوات من ذلك. ونحن لا نعرف على وجه الدقة وزن هذا العون. وعدد الموارنة الضعيف، الذى يتعارض مع صعودهم الخاطف فى القرون التالية، إنما يفسر التحفظ البالغ من جانب كتاب حوليات الحروب الصليبية تجاههم. لقد كانت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، المرتبطة بالقسطنطينية، والكنيسة اليعقوبية، تضمان غالبية المؤمنين (المسيحيين)، الذين تضاف إليهم بضع طوائف، أرمنية أو نسطورية أو قبطية. وأخيراً فقد كان اليهود يحيون فى تعايش مع الديانتين الأخريين فى المدن وأحياناً فى الأرياف، فى الجليل أو طبرية أو صفد.

وتؤدى الحملة الصليبية الأولى إلى تغيير تركيب السكان المحليين. ففى القدس كما فى مدن الساحل، نجد أن المسلمين واليهود، المتحدين آنذاك، يقاتلون كتفاً لكتف ضد الصليبيين، الذين سوف يذبحونهم(١٠). ولن ينجو أحد من سكان بيروت من ذلك. وفى عام ١١١٠، ينزح سكان صيدا المسلمون - خمسة آلاف نسمة - إلى مصر وسوريا الواقعتين تحت السيطرة الإسلامية، على الرغم من أنه لن يسمح لهم بالبقاء إلاّ لقاء ضريبة. لقد تغير معسكر الجزية! أما فيما يتعلق باليهود، فإن الناجين النادرين سوف يباعون كعبيد. وفى الأرياف، لم يكن هناك مجال لمذابح مماثلة. فسمعة الصليبيين كانت قد سبقتهم إلى هناك، مما دفع طوابير من الفلاحين المسلمين إلى الهرب. وغداة الحملة الصليبية الأولى، بدا أن الجماعة المسيحية الغربية

قد حققت هدفها الأول: فمن خلال وقع أوانٍ غير مستطرقة، تجد نفسها وحيدة مع مسيحيين محليين فى مجال هجره الإسلام إلى حد بعيد. وسرعان ما يحل محل العملية العسكرية استيطان طويل الأمد. لكن ذلك الاستيطان يحتاج إلى دعائم اقتصادية لا يستطيع السكان المسيحيون توفيرها بمفردهم.

وفى ظل المسلمين، لم يكن وضع المسيحيين المحليين سيئاً إلى درجة حفز تدخل مسلح هبأ لنجدتهم. ففاطميو مصر، الذين كانوا يحكمون أنذاك القدس، قد حافظوا على «أحد أوسع أشكال التسامح التى عرفها أنذاك أى مجتمع»[11]. ولذا فإن المسيحيين المحليين سوف يبتعدون بحكمة خلال العمليات العسكرية[12]. لكن تعاونهم، الديبلوماسى على وجه الحصر، يكفى مع ذلك لإثارة ظنون الحكام المسلمين. والواقع أن مسيحيى المركز الصغير القريب من بيت لحم كانوا قد أرسلوا وفداً إلى الصليبيين، قبل الهجوم على القدس. وقد دفعت هذه المبادرة القائد الفاطمى للموقع إلى الأمر، كإجراء وقائى، بمصادرة ممتلكات المسيحيين ويطردهم إلى القرى المجاورة.

ولما كان الصليبيون مجهزين بجهاز تجسس بالغ الكفاءة، فقد لجأوا أحياناً إلى الاستعانة بخدمات مسيحيين محليين بل بخدمات مسلمين علاوة على ذلك. على أنهم سوف يخلطون بين عدد معين من المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين وسوف يذبحونهم: وهو ما يشكل أخذاً بالسحنة، بتعبير أيامنا. ويذكر شاهد: «لقد قتل الصليبيون عدة سوريين ملتحين على ديانة اليونان (منتمين إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية) وبسبب لحيتهم قتلوهم على أنهم ساراسينيين (مسلمين)»[13]. وفيما عدا بضع حالات معزولة، لم يكن هناك البتة تورط مؤكد. والواقع أن هذا الانعدام للاهتمام من جانب مسيحيى الشرق تجاه اللاتين إنما يكشف عن قطيعة، روحية بالتأكيد، لكنها أيضاً مادية: فالتبادلات التجارية بين ضفتى البحر المتوسط كانت قد نوت منذ زمن طويل. وكان التجار المشارقة قد تخلوا تدريجياً عن شركائهم فى الغرب لكى يتعاملوا مع شركاء آخرين، فى الهند وفى الشرق الأقصى [14]. وكان الحج إلى الأماكن المقدسة (المسيحية) وحده هو الذى يبقى على شىء من الاتصال بين الجماعتين المسيحيتين.

وينمو الثقل السكانى للمسيحيين العرب بصورة مؤقتة فى الممالك اللاتينية. على أن الحظ لن يبتسم لهم. «ففى سوريا، يصادف الصليبيون أيضاً مسيحيين، لكنهم مسيحيون ينتمون إلى كنائس «هرطوقية»، ويتحدثون باللغة التى يتحدث بها المسلمون، ولا تراود

(الصليبيين) فكرة معاملتهم بشكل أفضل من تعاملهم مع المسلمين»[١٥]. فلاعتبارات دينية واقتصادية على حد سواء، لم تكن لدى الصليبيين أية نية فى منحهم وضعية قانونية مساوية لوضعية الفرنجة، ولا حتى وضعية أعلى من وضعية المسلمين المحليين.

وسرعان ما يثبتون ذلك بإقامتهم لحاجز فاصل بين الفرنجة الفاتحين من جهة والمغلوبين غير الفرنجة من جهة أخرى. وتؤدى اختصاصات قضائية متمايزة إلى تأسيس اللامساواة بين المسيحيين ذوى الأصل الأفرنجي والمسيحيين ذوى الأصل العربى. كما أن اليهود الذين سوف يستقرون فى فلسطين منذ القرن الثانى عشر يحصلون على اختصاص قضائى مستقل. أما فيما يتعلق بالمسلمين، فلن يكون لهم أى اختصاص قضائى - وذلك بسبب ضعف عددهم فى المدن الأفرنجية وليس نتيجة لتفرقة محددة. وفى القرن الثانى عشر، عندما يصبح حضورهم هاماً من جديد، يستفيدون بدورهم من قضاة ينتمون إلى ملتهم. وفى الأرياف، يجرى إنزال الفلاحين المحليين المسلمين أو المسيحيين على حد سواء إلى مرتبة الحقراء؛ فهم يكابدون العبوديات المقننة، كالارتباط بالأرض أو السخرة أو دفع ضريبة (إقطاعية). أمَّا فى المدن، فإن المسيحيين يتمتعون على الضد من ذلك بوضعية الأحرار، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين واليهود القلائل الذين عادوا، ويلزمون بأداء ضريبة الرأس. ولا ينجو من أداء هذه الضريبة سوى الفرنجة.

ويتمثل أسوأ إذلال لرجال الدين المنتمين إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى خسارتهم لكنيسة قبر السيد المسيح فى القدس، التى يستولى عليها رجال الدين اللاتين. لكن كنائس الشرق لن تختزل كلها إلى المصير نفسه. وشأنهم فى ذلك شأن سابقيهم العرب، سوف يرتاب الصليبيون أساساً فى الكنائس التى تجد دعماً خارجياً. والهرطقة اليعقوبية القائلة بواحدية طبيعة المسيح أقل إزعاجاً من الانشقاق الأرثوذكسى.

والواقع أن الفرنجة، الذين كانوا فى البداية سافرى العداء للسكان المسلمين، سوف يبدون أكثر تسامحاً مع مر الأجيال، حين تتعزز الدول اللاتينية الشرقية فى الجنوب: مملكة القدس (١٠٩٩ - ١١٨٧) وكونتية طرابلس (١٠٩٨ - ١٢٨٩)، وفى الشمال: إمارة أنطاكية (١٠٩٨ - ١٢٦٨) وكونتية إيديس (١٠٩٨ - ١١٤٤)، وفى فلكها مملكة أرمينيا وقيليقيا (١٠٩٨ - ١٣٧٥). وشيئاً فشيئاً، سوف يرجع المسلمون واليهود إلى المدن التى يهيمن عليها الفرنجة. فقد حل «المُهرُ»، الفرنجة المولودون فى تلك المدن، محل الفاتحين الأوائل. والواقع أن ضعف عددهم، وهزال تدفقات المهاجرين الغربيين وانعدام الثقة الذى طبع علاقاتهم مع

المسيحيين الشرقيين، الذين يشكون من «عنف الفرنجة وطابعهم الخبيث» (١٦)، سوف تفرض التعايش مع الفلاحين المسلمين. وبعد الاستيلاء على صيدا فى عام ١١١٠، سوف يراعى الصليبيون سكاناً محليين أصبح لا غنى عنهم لتأمين إمكانات العيش للغالبين، أى لتمكينهم من البقاء فى الأرض المقدسة. وتنتهى المذابح وأعمال النهب التى ميزت أعقاب الحملة الصليبية الأولى.

لكن العنف الحربى يخلى مكانه عندئذ للعنف الاجتماعى. فالسكان المسلمون يمكنهم البقاء، إلا أنهم يجرى إنزالهم إلى أدنى درجات السلم (الاجتماعى). فالنظام العقارى يتعرض لانقلاب وملكية الأرض تنتقل من أيدى المسلمين إلى أيدى الفرنجة. وتتشكل سيادات أو عزب إقطاعية أفرنجية عادية فى أعقاب نزوح سادة الأرض السابقين، إلى مصر أو إلى سوريا. والواقع أن قوانين مملكة القدس تكفل لكل فارس حق امتلاك الأرض التى يتسنى له فتحها. ويشكل ذلك استباقاً، قبل ثمانية قرون، للقانون الخاص بممتلكات الغائبين الذى سوف تصدره إسرائيل فى عام ١٩٥٠.

فى السنوات الأولى للدول الصليبية، يسوى وضع المسلمين بالحضيض، لكنه يتحسن على مشارف انتهاء الحملات الصليبية. وتتكيف الأجيال الأخيرة من الفرنجة تكيفاً أفضل مع روح المكان: «ها نحن الغربيون قد تحولنا إلى سكان للشرق. فمن كان إيطالياً أو فرنسياً بالأمس يصبح، بعد نزعه من تربته وغرسه فى تربة جديدة، جليلياً أو فلسطينياً. والقادم من رانس أو من شارتر يتحول إلى سورى أو إلى مواطن من مواطنى أنطاكية. لقد نسينا بالفعل المكان الذى جئنا منه». (١٧) وامتثالاً للامبالاة الغرب المتعاظمة، يبدو أن هؤلاء الفرنجة الأواخر يتنازلون للفلاحين المحليين بشكل أسهل عن ملكية الأرض. لنستمع إلى الرحالة الأندلسى ابن جُبير:

«رحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع وقد أُشرِبت الفتنةَ قلوبُ أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق

وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله»[١٨].

وكثيراً ما جرى الاستشهاد بهذا النص خارج سياقه لتمجيد إدارة فرنسا الاستعمارية[١٩]. فمن الشرق الصليبى إلى أفريقيا الشمالية الفرنسية، سوف تكون إدارة قادمة من الخارج محل ثناء أكثر من مرة، حتى من جانب السكان الأصليين.

الاستيطان الأوروبى المستحيل فى الأرض المقدسة

لن يتمكن الاستيطان الأفرنجى أبداً من التغلب على العقبتين اللتين سوف تقضيان عليه: فهو لا يجتذب غير عدد قليل من الأوروبيين ولا يتمكن من ترسيخ جذوره. والواقع أن عدد المهاجرين الصغير وفتور همتهم فى التقارب مع المسيحيين الشرقيين سوف يحكمان عليهم بالذبول، بقدر ما أنهم يحرمون أنفسهم من العون الذى كان يمكن للمسلمين تقديمه عن طريق التحول (إلى اعتناق المسيحية).

وصحيح أن الصليبيين سوف يصلون إلى دولة كانت قد انتقلت إلى (دار) الإسلام قبل خمسة قرون. لكن الدين (الإسلامى) نفسه لم يكن قد تغلغل فى الأسر إلاّ منذ وقت أقصر من ذلك بكثير. وما أكثر عدد المسلمين الأحفاد لأجداد متحولين (إلى اعتناق الإسلام) منذ أجيال قليلة فقط [٢٠]. على أن الفرنجة سوف يتصرفون كما لو أنهم يجهلون ماضى المسيحية الطويل هذا، الذى ما يزال حياً فى الأذهان. فرجال الدين اللاتين يحولون عملياً دون التحول (إلى اعتناق المسيحية) بسبب صنوف الإذلال التى يربطونها به. فالمتحول (إلى اعتناق المسيحية) يتوجب عليه قبول البقاء فى العبودية أو الاندراج فى صفوف سلاح التركوبول، سلاح فرسان الفرنجة الخفيف، كجندى إضافى [٢١]. وهذا الموقف يتعارض بشكل أساسى مع براجماتية الإسلام، الذى جعل من التحول (إلى اعتناق الإسلام) وسيلة للصعود الاجتماعى وللترويج غير العادى لذلك الدين.

ومن جديد سوف يحث الصليبيون سكان أوروبا على الهجرة، المخرج الوحيد لتوطيد وجودهم فى الأرض المقدسة. وفى عام ١١١٠، بعد سنوات قليلة من اقتحامهم الشرق، لن يحشد الفرنجة فى الواقع غير عشرة آلاف فرد، يتألفون من ٣٠٠ فارس و١٢٠٠ من جنود المشاة وعائلاتهم. وكان هذا العدد غير كاف بشكل صارخ فى مواجهة مسلمى المنطقة

المفتوحة، وبشكل أكبر فداحة فى مواجهة جماهير المسلمين الغفيرة فى سوريا (٣ر٢ مليون نسمة فى المنطقة الباقية تحت السيطرة الإسلامية)، أو فى مصر (٥ر٢ مليون) أو فى الأناضول (٤ مليون)، المنقسمة فى الأوان المناسب إلى دول يدب بينها العداء فى تلك الأزمنة الأولى للحملة الصليبية.

وسوف تسمح ثلاثة أو أربعة أجيال للسكان الفرنجة بالتزايد وبالوصول إلى قرابة ١٢٠٠٠٠ نسمة قبل ضياع القدس فى عام ١١٨٧. لكنهم سوف يتوقفون عند هذا المستوى. والمحرك الرئيسى لهذا التزايد هو النزوح إلى الشرق الذى ساعد عليه النمو الديموغرافى فى أوروبا [٢٢]، خاصة النمو الديموغرافى للنبلاء، الذين جاء الصليبيون من صفوفهم. والواقع أن الممارسة، المتزايدة الانتشار، المتمثلة فى الإرضاع عن طريق مرضعات بالأجر، سوف تنشط الإنجاب فى صفوف عائلات النبلاء وتزيد عدد المرشحين لأن يكونوا فرساناً [٢٣]. وقد وعدت الحملة الصليبية بآفاق رائعة للثراء كانت المنافسة المتزايدة بين أبناء الأسرة الواحدة قد زادت من صعوبة بلوغها فى الوطن. والحال أن النبلاء الصليبيين، المنحدرين فى أغلب الحالات من أصول متواضعة [٢٤]، يمكنهم الفوز فى الأرض المقدسة بسيادات وعزب لم يكن بوسعهم أن يحلموا بها أبداً فى الغرب. ومع مشاركتهم فى السلطة السياسية فى الشرق، فإنهم يكتسبون علاوة على ذلك امتياز جباية الضرائب.

ولا يتغذىَ السكان الفرنجة من الحملات العسكرية بقدر ما يتغذون من الهجرة المنتظمة التى تحفزها هذه الحملات. فبالآلاف يخرج الحجاج، بمفردهم أو مع عائلاتهم، إلى عرض البحر سعياً إلى المغامرة. وهؤلاء «الفرنجة»، القادمون من أوروبا الغربية والجنوبية والوسطى، بل من سكانديناڤيا، يستقرون وينجبون. ومن بينهم، نجد أن القادمين من الشمال، الأقل دراية بأحوال الشرق والأقل استعداداً للتعايش السلمى، سوف يضفون على الحملة الصليبية روحها الحقيقية [٢٥]. ففى استعاضتهم عن عاداتهم كأجلاف ريفيين بعادات البورجوازيين، سرعان ما سوف يؤلف هؤلاء المهاجرون غالبية السكان المستوطنين: فهم مائة ألف شخص يضافون إلى عشرين ألفاً من الذين تجرى فى عروقهم دماء النبلاء. ولا ننسينَّ، فى هذه البانوراما للاستيطان الأفرنجى، قرابة الخمسمائة فارس المنتمين إلى الأخويات الرهبانية - العسكرية المنبثقة من الحملة الصليبية، أخوية فرسان هيكل الرب وأخوية فرسان الإكرام.

وفى الوقت نفسه تقريباً، وبشكل سيمترى يدعو للدهشة، فى أقصى غرب العالم الإسلامى يحمل زُهَّادٌ - جنودُ السلاح للذود عن الإسلام المهدد فى الأرض المسيحية.

فالمرابطون يعبرون مضيق جبل طارق متجهين إلى الشمال، بينما يعبر «فرسان المسيح المساكين» مضيق الدردنيل متجهين إلى الجنوب. هكذا كانت تسمى فى البداية أخوية فرسان هيكل الرب، التى أنشئت لأداء مهام الشرطة فى فلسطين. وإذ يستولون على عزب شاسعة، من بينها العزبة التى تطل على حصن الأكراد المنيع، سرعان ما يكف فرسان هيكل الرب وفرسان الإكرام عن أن يكونوا «مساكين».

إن النمو الطبيعى للجماعات السكانية الأفرنجية والقوى فى أوروبا يبدى علامات قصور فى الأرض المقدسة. فالواقع أن معدل الوفيات المرتفع يصيب المحاربين القادمين من صفوف النبلاء كما يصيب الطبقات الأخرى، فكلها تصبح ضحية لعدم تكيفها مع المناخ. ومتوسط عمر الأفرنجى - ٣٩ سنة - أقل من متوسط عمر السكان المسلمين، الذى يصل إلى ٥٨ سنة [٢٦]. ومعدل وفيات بهذا الارتفاع غالباً ما يقطع استمرارية الإدارة فى السيادات والعزب، حيث يجرى بشكل متواتر استدعاء قاصرين ما يزالون تحت الوصاية للحلول محل أب مات قبل الأوان. وهو يصيب أيضاً التكاثر الديموغرافى، لأن كثيرين يموتون قبل إنجاب أطفال. وأخيراً، فإن هرم الأعمار، الذى يهيمن عليه الرجال لدى الفرنجة ولكن ليس لدى السكان المحليين، يزيد من تباينات معدلات الإنجاب. فالآباء ينجبون ١٫٧٥ طفلاً لدى الفرنجة، فى مقابل ٢٫١٠ طفلاً لدى المسلمين [٢٧].

ولما كان الفرنجة مغمورين فى بيئة مناوئة، أو محايدة فى أحسن الأحوال، فإنهم يضطرون إلى تجميع قواهم الهزيلة فى مناطق قليلة من الأرض [٢٨]. وكما سوف يفعل ذلك المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر، فإنهم ينكفئون على أنفسهم. إن ثلاثة أرباع السكان الفرنجة فى مملكة القدس يتجمعون فى ثلاث مدن فقط: القدس (٢٠٠٠٠ نسمة)، وعكا (٤٠٠٠٠) وصور (٣٠٠٠٠). ويتفرق الربع الباقى فى كثير من المدن الصغيرة والدساكر والحصون. وفى الوسط الريفى، يظل الاستيطان الأفرنجى استثنائياً. على أن قرى أفرنجية نادرة - «انفراسات» بتعبير أيامنا - سوف تنشأ بعيداً عن القرى العربية. وسوف يتمتع الفلاحون الفرنجة فيها بوضعية بورجوازيين، خلافاً للعرب، المسلمين أو المسيحيين، الذين لم يكونوا غير فلاحين محتقرين [٢٩].

والواقع أن المحاولات التى يبذلها الفرنجة لتجاوز عتبة الـ ١٢٠٠٠٠ نسمة بالاغتراف من السكان الأوروبيين سوف تظل بلا طائل. إن أحداً لا يأتى بعد. ويصرخ كبار مملكة القدس بعد الاستيلاء على دمياط فى عام ١٢١٩: «يا صاحب الجلالة، احرصوا على إرسال الرسل

إلى فرنسا وإلى انجلترا وإلى ألمانيا وإلى كل جماعة مسيحية وعلى إعلان أنكم قد فزتم بهذه الأرض المفتوحة وعلى أن يرسل إليكم هذا المدد حتى يتسنى لكم استيطانها[٣٠]». إن نداءات الاستغاثة هذه الموجهة إلى مسيحيي الغرب من أجل تعزيز صفوف الصليبيين لن تثمر بما يكفى. فتيار الهجرة، الذى كان بالغ الأهمية حتى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٨) بدرجة أدت إلى تعويض الخسائر العسكرية، بل إلى تحقيق زيادات، يأخذ فى الضمور. وبدافع من إغراء الكسب أكثر مما بدافع من الروح الصليبية، سوف يفضل مهاجرو القرن الثالث عشر القسطنطينية أو قبرص أو البيلوبونيز، التى تنفتح على استيطان الفرنجة بعد الحملة الصليبية الرابعة وتأسيس إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية (١٢٠٣).

فهل سيستسلم الفرنجة عندئذ، على مضض، لقبول عون جماعة مسيحية شرقية وللاستجابة لعرض ملك أرمينيا إرسال ثلاثين ألفاً من رعاياه إلى مملكة القدس «سعياً إلى حماية البلد، واستعماره بمسيحيين، وضمان أمنه ودفع الساراسينيين إلى خارجه [٣١]»؟ إنهم سوف يحرمون أنفسهم من ذلك العون، مادام ارتيابهم فى الجماعة المسيحية الشرقية كان حاداً إلى هذه الدرجة. ويذكر صليبى لا نعرف اسمه مؤكداً: «لقد طردنا الأتراك والوثنيين، لكننا لم نتمكن من طرد الهراطقة، اليونانيين والأرمن، السوريين واليعاقبة[٣٢]». وسوف تؤدى نزاعات ملية إلى تأجيج نار العداوة بين فرعى المسيحية المتخاصمين. وعندما يصل الأمر بالفرنجة إلى مسائل المال، فإن القطيعة تصبح سافرة. ويحاول رجال الدين اللاتين، بحكم وضعهم المهيمن، فرض ضريبة العشر على الأرمن، الذين لا ينتمون كما هو واضح إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية). وإذ يتعرضون للرفض من جانب رجال الدين الجريجوريين[٣٣]، فإنهم يسقطون من حسابهم عندئذ مشروع التوطين (الأرمنى) هذا، الذى كان من شأنه إضفاء حيوية جديدة على مملكة القدس.

وسوف يظل الفرنجة أقلية. ففى مملكتهم، التى تضم ٤٠٠٠٠٠ نسمة، لا يشكلون ولو ثلث هذا العدد[٣٤]. وضعف ديموغرافيتهم، المحرومة من كل دم جديد من الغرب أو من الشرق، يضعهم فى وضع عسكرى يصعب الدفاع عنه. وقواتهم المسلحة تستنزف السكان بشكل يجاوز العقل. فلتسليح ٢٠٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ من جنود المشاة - الحد الأدنى الضرورى لمقاومة القوى المعادية- يتعين عليهم تعبئة كل الذكور البالغين فى المملكة[٣٥]. وحتى يتسنى لهم الإبقاء على المنتجين، كان يتعين عليهم العيش فى وفاق مع الجوار، أى قبول الذوبان والاختفاء من حيث كونهم جسماً غريباً. والواقع أنه لن يكون أمامهم خيار آخر غير الحرب، لأن صلاح الدين كان قد وحد سوريا ومصر فى تلك الأثناء.

وتؤدى الهزيمة العسكرية الأولى الحقيقية التى تلحق بالصليبيين، فى حطين، فى عام ١١٨٧، إلى إنهاء مملكة القدس الأولى. وبعد قرن لا أكثر من الزحف على الشرق، تعلن هذه الهزيمة انحدار الوجود الغربى. وسوف تمر مائة عام أخرى قبل هزيمة أنطاكية (١٢٦٨)، ثم هزيمة طرابلس (١٢٨٩)، ثم الضربة القاضية التى وجهت إلى عكا (١٢٩١). وعندئذ يختفى السكان الفرنجة كلياً عبر الهرب أو الأسر أو الذبح. ولا يبقى منهم غير عدة أبناء من زيجات مختلطة. وفى أيامنا هذه، مايزال بوسع المرء مصادفة آخر أحفادهم على منحدرات بلاد العلويين وجبل لبنان الوعرة، حيث، يقال، أن البطريرك سيمون كان قد رحب، من باب الفعل الخيرى، بعدد من الفرنجة بعد هزيمتهم [٣٦].

نهاية الحملات الصليبية والمغول: الجماعة المسيحية الشرقية تجد نفسها من جديد وحيدة مع الإسلام.

كان الفرنجة قد جاءوا لتقديم العون إلى المسيحيين الشرقيين. وبدلاً من تحقيق هذا المشروع الأولى [٣٧]، سوف تنتهى حملتهم بتدهور ملحوظ لوضع الجماعة المسيحية الشرقية.

وعندما يبدأ المسلمون فى استعادة الأرض المقدسة، فإنهم لن يتهموا الجماعة المسيحية المحلية بالتواطؤ (مع العدو). والواقع أن إعادات الفتح الإسلامية المتعاقبة قد لقيت حيادها، وأحياناً تعاونها. وكان الاحتلال الافرنجى قد أدخل نوعاً من التواطؤ فيما بين السكان المحليين المنتمين إلى مختلف الملل. ويصل الأمر بالمسيحيين العرب إلى حد اعتبار انتصارات نور الدين فى الشمال وانتصارات صلاح الدين فى الجنوب خطوة أولى نحو تحررهم من النير الدينى الأفرنجى. بل ويبدو أنهم سوف يذهبون فى القدس إلى حد التفاهم مع صلاح الدين، بهدف تسهيل الاستيلاء على المدينة: والواقع أن مسيحيى القدس والمدن الساحلية سوف يكون بوسعهم البقاء حيث هم وصون ممتلكاتهم، بشرط دفع ضريبة رأس. وهذه الأخيرة تنزلق من جديد من خزانة إلى أخرى، ولكن فى اتجاه مضاد: فهى تنتقل الآن من خزينة المملكة اللاتينية إلى خزينة المملكة الإسلامية. وفى المدن التى لم تكن قد سقطت بعد، فإن هذا العطف الذى يناله المسيحيون العرب يجعلهم يبدون فى أعين الفرنجة مشبوهين، مستعدين للتواطؤ مع أعداء

المسيحية (٣٨). على أن الفرنجة، بعد دخول صلاح الدين إلى القدس، وإدراكاً منهم لواقع أنهم لم يعد بإمكانهم الأمل فى الانتصار اعتماداً على قواهم وحدها، سوف يسعون إلى تأليب مسيحيى البلدان الإسلامية المجاورة على حكامهم. وفى أغلب الأحيان لن تجد هذه المحاولات صدى يذكر (٣٩).

وسوف يستفيد اليهود هم أيضاً من تسامح صلاح الدين. فالسلطان يرفع الحظر المفروض عليهم، والذى كان الصليبيون قد استعاروه من تقليد بيزنطى عتيق، وسوف يشجعهم على إعادة استيطان المدينة المقدسة (٤٠). وخارج حدود الدول الصليبية، ظل المسيحيون واليهود، الباقون تحت السلطة المسلمة، مخلصين لحكامهم..ولا تشكو أحوالهم من انحطاط يذكر (٤١).

وسوف يتداخل الاحتلال الأفرنجي الآخذ فى الزوال والغزوات المغولية. وعندئذ سوف تتوتر العلاقات بين المسلمين ومسيحيى الشرق، لأن هؤلاء الأخيرين يعقدون بعض التحالفات المحدودة مع الغازى الجديد. وفى قرننا العشرين هذا، الذى يهيمن عليه الغرب المسيحى، لا تخيف منغوليا بعد أحداً. وربما كان هذا هو السبب فى أن الإسلام، عندما يشعر أنه معرض للعدوان عليه، يكون أسرع إلى الاحتجاج على الصليبيين مما على المغول. وقد نسيت ذاكرة الشعوب أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد ارتدوا قناع مسيحية كاذب قبل أن ينتموا، بسرعة بالغة، إلى الإسلام وأنهم كانوا أكثر دموية بكثير من سابقيهم الصليبيين. وبالرغم من قصر تعاون مسيحيى الشرق مع المغول ومحدوديته المكانية، فإنه قد قضى على الكسب الذى كان يمكنهم تحقيقه من وراء تحفظهم الطويل تجاه الصليبيين(٤٢).

وكان الفرنجة أنفسهم قد حاولوا فى البداية التحالف مع هؤلاء الرحل الذين اندفعوا فجأة من سهوب آسيا، سعياً إلى الإيقاع بالإسلام بين فكى كماشة. وبينما لم يكن المغول قد وصلوا بعد إلاّ إلى أبواب الأناضول، فى عام ١٢٥٣، أوفد سان لويس الفرنسيسكانىّ جييوم دو روبروك إلى قلب آسيا الوسطى لاستكشاف نواياهم (٤٣). ويقال أن المغولى هولاكو، الذى يفتح بغداد فى عام ١٢٥٨، وجينراله كيتبوكا، كانت لهما تعاطفات مع المسيحية النسطورية (٤٤). على أن صليبيى الجنوب، المتجمعين حول عكا، يتجنبون التحالف معه، بل ويسهلون مرور القوات المملوكية المصرية إلى سوريا (٤٥). وفى المقابل، يتحالف صليبيو الشمال والمسيحيون المحليون، الأرمن أساساً، مع الخان، حيث يصل الأمر بهم إلى حد تزويده بجنود.

وإذ ينتصر المماليك على المغول فى عين جالوت فى عام ١٢٦٠، فإنهم يسوون الحساب مع المسيحيين على هذا التواطؤ[٤٦]. فهل كان مسيحيو الشرق يتصورون أن هؤلاء الفاتحين، الوحيدين الذين يبدون منتمين إلى الدين نفسه الذى ينتمون هم إليه، سوف يكون بوسعهم تحريرهم من الهيمنة، الإسلامية واللاتينية على حد سواء، التى يعانون منها؟ إن المماليك، الذين سوف يطيحون بالسلالة الحاكمة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين، سوف يتخلون بشكل حاسم عن تسامح أسلافهم الذين، بالرغم من الغزو الصليبى المزدوج لمصر، لم يجعلوا الحياة شاقة بشكل خاص بالنسبة للمسيحيين. وسوف يدمر المماليك مملكة قيليقيا الأرمنية وإمارة أنطاكية، دون أن يهتموا بالتمييز بين الفرنجة والمسيحيين المحليين. وفى ذلك الزمن يهرب الموارنة من الساحل اعتصاماً بالجبل، الذى لن يهبطوا منه إلاَّ فى القرن التاسع عشر.

والواقع أن الابتزازات المملوكية، المحدودة فى البداية، لن تتأخر فى استهداف مجمل المسيحيين العرب الذين يكابدون، على مدار ثلاثة قرون، تشدد الإسلام الشامل. وكان سادة مصر وسوريا الجدد، المنبثقون من صفوف فئة من العبيد الجنود المتحولين حديثاً إلى اعتناق الإسلام، مفعمين بحماسة الجدد على العقيدة. وهذه السلالة الحاكمة ذات الأصل الأجنبى تسهم فى انحطاط شروط حياة رعاياها العرب المسيحيين واليهود. والتعصب المحيط، الذى تضرم نيرانَه صدمةُ الغزوات الصليبية والمغولية، يتغلغل فى فكر الفقيه ابن تيميه (١٢٦٣ - ١٣٢٨). فهو إذ يسقط مقته للغزاة المسيحيين على إخوتهم العرب فى الدين، يدعو إلى اختزال المسيحية، بل واليهودية، ويهجم على كتبهما المقدسة ويعلن معارضته العنيفة لبناء وصون الكنائس والمعابد[٤٧]. وتنبثق بعض العناوين الموحية من إنتاجه الفلسفى الغزير: كتاب **الرد على النصارى، مسألة الكنائس، الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، تخجيل أهل الانجيل، مجانبة أصحاب الجحيم**. والواقع أن لوثر الإسلام هذا سوف يلهم فى القرن السابع عشر وهابيى شبه الجزيرة العربية ويواصل الإسلاميون السلفيون فى مصر الاستناد إليه [٤٨].

وفى سجل الأدب الشعبى، فإن حكاية بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) الشهيرة، وهى عبارة عن رواية تصور حياة المغامرين وملحمة تمجد زعيماً مملوكياً قاهراً للمغول والصليبيين، تقدم تصوراً إسلامياً للعالم. فالخصوم الذين يسحقهم، مسيحيين كانوا أم غير مسيحيين، يجب عليهم التحول إلى اعتناق الإسلام فى ساحة القتال؛ وإلاَّ، فإنهم يعدون آثمين موبوئين بجميع المفاسد ولايستحقون احتراماً أو شفقة [٤٩]. وتحكى لنا هذه الرواية: «مضى، يقتفى أثره بيبرس، إلى أن وصل إلى جبانة المسيحيين، وكانت هناك قبور فوقها حجارة ضخمة ضخامة

اللعنة التى تحيق بالكفار [٥٠]»، ونظل بعيدين عن مباهج ألف ليلة وليلة التى أبرزت صفاء زمن العباسيين، والتى تتميز بإيحاءات جد قوية بحيث أنه فى عام ١٩٨٥ أيضاً ينجح الضغط الإسلامى السلفى فى تحريمها فى مصر الرئيس مبارك.

وهكذا، فحتى فتح الشرق العربى على أيدى العثمانيين، نجد أن حكاماً استقووا بكونهم قهروا الغزاة المسيحيين فى زمن ولى وعواماً بجلوا فى سادتهم العبيدَ الذين أصبحوا ملوكاً، سوف يرفعون انعدام التسامح إلى ذرى جديدة. ففى دمشق، سوف يسوى الحساب مع المسيحيين الذين خصوا المغول بالترحيب عبر تدمير كنيسة مريم[٥١]. وفى مصر، سوف يواجه الأقباط محناً عديدة. ويندفع العوام المسلمون مرتين، فى عام ١٣٠١ وفى عام ١٣٢١، إلى اقتحام الكنائس وتدمير الأديرة. وفى عام ١٣٥٤، تصادر السلطة جانباً كبيراً من ممتلكات الأقباط [٥٢].

وبعيداً عن مسرح الحملات الصليبية، على أبواب ملكوت السلاطين المماليك، تهيمن الطائفية على العراق، حيث يسود المغول. فتعاطف الخانات الأول تجاه المسيحيين، الذين يعفونهم من أداء الجزية ويسمحون لهم بإعادة بناء الكنائس وبفتح المدارس، يثير العنف الشعبى فى عام ١٢٦٧. والطائفة اليهودية، التى وصل الأمر إلى حد تعيين أحد أفرادها على رأس الحكومة المغولية، تتعرض لسخط شعبى مماثل فى عام ١٢٩١. إلاَّ أن الخان غزّان، عندما يتحول إلى اعتناق الإسلام، فى عام ١٢٩٥، يفرض على غير المسلمين التمييزات الثيابية ويلزمهم من جديد بأداء الجزية. وفجأة يجد غير المسلمين أنفسهم محرومين من حماية الأمير[٥٣].

وفى عام ١٢٩١، يتم الاستيلاء على عكا. ومع طرد المغول من سوريا ثم تحولهم السريع إلى اعتناق الإسلام، فإن تاريخ الحملات الصليبية يتاخم نهايته. فما الذى يبقى من مغامرة الفرسان هذه؟ قليل من العيون الزرقاء، هى عيون المسيحيين الموارنة على ضفاف قديشة وعيون المسلمين العلويين فى جبل النصيرية. عدة أطنان من الأعمدة الرومانية مفككة وراقدة إلى الأبد داخل أسوار صيدا أو الكرك. اسم عائلة رئيس أسبق للجمهورية اللبنانية، هو سليمان فرنجيه (١٩٧٠ - ١٩٧٦). رغيف مستطيل الشكل، هو الرغيف الأفرنجى، يفضل عليه الذائقون الأذكياء من جهة أخرى الرغيف الخالى من الخميرة. وهى علامات جد هزيلة بما لا يسمح للشرق العربى بالاحتفاظ بآثار حضارة أفرنجية. ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية المشرقية تكابد آلاماً من هذه المغامرة. أما الإسلام الموجود فى السلطة فهو يكف لزمن طويل عن أن يكون عربياً.

حواشي الفصل الثالث

1 - Claude CAHEN, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Aubier Montaigne, Paris, 1983.

2 - Discours du pape Urbain II retranscrit par Foucher de Chartres, *in* Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, Jules Tallandier, Paris, 1982.

3 - Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade, op. cit.* Pour cet auteur, le pape n'aurait promis que les richesses éternelles. Son avis est néanmoins contesté par maints historiens.

4 - Voir chapitre I.

5 - Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

6 - On convient aujourd'hui d'appeler Arabes tous les arabophones, quelle que soit leur religion. Une argumentation précise est fournie par Maxime RODINSON, *Les Arabes*, Presses Universitaires de France, Paris, 1979.

7 - "Il ne semble pas que les Eglises orientales, dogmatiquement séparées et protégées des ingérences extérieures par la domination musulmane, aient jamais cherché à reprendre contact avec Rome", Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

8 - Selon Guillaume de Tyr, *in* Joshua PRAWER, "Minorities in the Crusader States", *in* Kenneth SETTON, *History of the Crusades*, Londres, University of Wisconsin Press, 1985.

9 - Doctrine selon laquelle le Christ est doté d'une double nature mais d'une seule volonté, divine. Elle fut déclarée hérétique par le concile de Constantinople en 680.

10 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin de Jérusalem*, CNRS, Paris, 1969.

11 - Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

12 - Claude CAHEN, art. "Croisades", *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, Paris, 1960, et Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.*

13 - Gérard de Montréal, cité par Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Corisade, op. cit.*

14 - "Il est impossible de croire à de notables relations directes entre l'Orient musulman et l'Europe avant la fin du x^{e} siècle", Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

15 - Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

16 - Claude CAHEN, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, 1940.

17 - Foucher de Chartres cité par Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade, op. cit.* Voir aussi André MIQUEL, *Ousama - Un prince syrien face aux croisades*, Paris, Fayard, 1988.

18 - Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade, op. cit.* Du même texte, Amin Maalouf donne une traduction un demi-ton au -dessous : "Or le doute pénètre dans le cœur d'un grand nombre de ces hommes quand ils comparent leur sort à celui de leurs frères qui vivent en territoire musulman. Ces derniers souffrent, en effet, de l'injustice de leurs coreligionnaires, alors que les Franj agissent avec équité", Amin MAALOUF, *Les Croisades vues par les Arabes*, Lattès, Paris, 1983.

19 - Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

20 - Voir chapitre premier.

21 - Elle comportait aussi quelques hommes nés de mariages mixtes.

22 - Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, Montchrestien, Paris, 1966.

23 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader States" *in* Kenneth SETTON, *History..., op. cit.* Facteur "intermédiaire" modérateur de la fécondité, l'allaitement au sein prolonge en effet les intervalles génésiques. Recourant aux nourrices, les femmes de la noblesse réduisaient donc leur aménorrhée *post partum*.

24 - Joshua PRAWER, "Social Classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Franks", *in* Kenneth SETTON, *History..., op. cit.*

25 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume latin..., op. cit.* Claude CAHEN, *Orient et Occident..., op. cit.*

26 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader...", *op. cit.* C'est ce qu'indiquent les stèles funéraires. Les niveaux sont manifestement surévalués, mais la différence est sans doute convaincante.

27 - *Ibid.*

28 - Claude CAHEN, *La Syrie du Nord..., op. cit.*

29 - Joshua PRAWER, "Social Classes...", *op. cit.*

30 - Requête au roi Amaury, *in* Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.*

31 - *Ibid.*

32 - Lettre d'un croisé, Claude CAHEN, *La Syrie du Nord..., op. cit.*

33 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.*

34 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.* La population rurale fut estimée à 250000 habitants, par comptage des villages existant actuellement (900) et sous les Croisades (1200), en distinguant petits (10 à 15 familles) et grands (20 à 40 familles) villages entre Beyrouth et Daron, Akaba et Amman, sur la base de 5 habitants par famille. 30000 non- Francs habitaient les villes.

35 - 22000 hommes en armes, soit le cinquième de la population totale, correspondent à la totalité de la population masculine d'âge militaire. Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.*

36 - Art. "Maronites", *New Catholic Encyclopedia, op. cit.*

37 - Claude CAHEN, art. "Croisades", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

38 - Joshua RAWER, *Histoire du royaume Latin..., op. cit.*

39 - "Il y eut peut-être (quelques tentatives de rapprochement) en Syrie et dans les pays voisins lors de la pénétration des missionnaires latins, dont les efforts restèrent vains justement en raison de l'impossibilité pour les chrétiens de ne pas devenir politiquement suspects s'ils se rapprochaient d'eux", *in* Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

40 - Kenneth SETTON, *History..., op. cit.*

41 - La non- appartenance des chrétiens d'Orient à l'Eglise latine les rendit méfiants envers les croisés. C'est pourquoi ils s'abstinrent de collaborer; voir Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

42 - Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

43 - Guillaume de RUBROUCK, envoyé de Saint Louis, *Voyage dans l'Empire mongol* (1253 - 1255), Payot, Paris, 1985.

44 - En fait, les Mongols combinaient toutes les religions d'Asie centrale, christianisme nestorien compris; cepenedant, Doqouz Khatoun, l'épouse de Hulagu, fort influente dans une civilisation où la femme participait à la vie publique, était chrétienne et antimusulmane. Bertold SPULER, *Les Mongols dans l'histoire,* Payot, Paris, 1961.

45 - Amin MAALOUF, *Les Croisades..., op. cit.*

46 - Voir chapitre premier.

47 - Mohamed BEN CHENEB, art. "Ibn Taïmiyya", *Encyclopédie de l'Islam*, 1re édition, 1913.

48 - Gilles KEPEL, "L'Egypte aujourd'hui: mouvement islamiste et tradition savante", *Annales, économie, sociétés, civilisations*, Paris, juillet- août 1984.

49 - R. PARET, "Sirat Baïbars", *Encylopédie de l'Islam, op. cit.*

50 - Roman de Baïbars, *Fleur de truands*, Sindbad, Paris, 1986.

51- R. HARTMANN, art. "Damas", *Encyclopédie de l'Islam*, 1re édition, 1923.

52 - Gaston WIET, art. "Kibt", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

53 - A.A. DUI, art. "Baghdad", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*, et Bertold SPULER, *Les Mongols dans l'histoire, op. cit.*

تعليقات الفصل الثالث

٣ – ريجين بيرنو، « رجال الحروب الصليبية»، مصدر سبق ذكره . ويرى هذا الكاتب أن البابا لم يعد إلاّ بالثروات الأبدية، على أن مؤرخين كثيرين ينازعون رأيه.

٤ – انظر الفصل الأول.

٦ – هناك اتفاق اليوم على تسمية جميع الناطقين بالعربية عرباً، أياً كانت ديانتهم. وقد قدم مكسيم رودنسون مناقشة محددة لهذا الموضوع فى كتابه «العرب»، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس، ١٩٧٩.

٧ – «لا يبدو أن الكنائس الشرقية، المنفصلة بشكل دوجماتى والمحمية من التدخلات الخارجية بالهيمنة الإسلامية، قد سعت قط إلى استئناف الاتصال مع روما». كلود كاهن، «الشرق والغرب...»، مصدر سبق ذكره.

٨ – وفقاً لجييوم الصورى.

٩ – مذهب يرى أن المسيح يتميز بطبيعة مزدوجة وإن كان يتميز بإرادة واحدة، إلهية. وقد اعتبره مجمع القسطنطينية فى عام ٦٨٠ مذهباً مهرطقاً.

١٤ – «من المستحيل تصور علاقات مباشرة ملحوظة بين الشرق الإسلامى وأوروبا قبل نهاية القرن العاشر»، كلود كاهن، « الشرق والغرب...»، مصدر سبق ذكره.

١٨ – ريجين بيرنو، «رجال الحروب الصليبية»، مصدر سبق ذكره. ويقدم أمين معلوف لهذا النص نفسه ترجمة أخف نبرة: «والحال أن الشك يتسلل إلى أفئدة عدد كبير من هؤلاء الناس عندما يقارنون حالهم بحال إخوتهم الذين يحيون فى أرض الإسلام. فالواقع أن هؤلاء الأخيرين يعانون من مظالم إخوتهم فى الدين، بينما يتصرف الفرنجة بإنصاف». أمين معلوف، «الحروب الصليبية فى نظر العرب» لاتيه، باريس، ١٩٨٣.

٢٠ – انظر الفصل الأول.

٢١ – كان سلاح الفرسان الخفيف يضم أيضاً عدداً من الرجال المنحدرين من زيجات مختلطة.

٢٣ – جوسيا كوكس رسل، «سكان الدول الصليبية» فى كينيث سيتون، «تاريخ...»، مصدر سبق ذكره. إن الإرضاع عن طريق الثديين، وهو عامل «وسيط» يؤدى إلى اعتدال الخصوبة، إنما يطيل فى الواقع مدة التباعدات التناسلية. ومن ثم فإن زوجات النبلاء، إذ تلجأن إلى المرضعات، إنما تختزلن فترة انقطاع طمثهن بعد الولادة.

٢٦ – جوسيا كوكس رسل، « سكان الدول الصليبية»، مصدر سبق ذكره. وهو ما تشير إليه شواهد القبور. ومن الواضح أن المستويات مبالغ فى تقديرها، لكن الفارق مقنع بلا شك.

٣٤ – چوشوا براور، «تاريخ مملكة القدس...»، مصدر سبق ذكره. جرى تقدير السكان الريفيين بـ ٢٥٠٠٠٠ نسمة، عبر عد القرى الموجودة حالياً (٩٠٠) وفى ظل الحملات الصليبية (١٢٠٠)، بتمييز القرى الصغيرة (١٠ إلى ١٥ عائلة) والكبيرة (٢٠ إلى ٤٠ عائلة) بين بيروت ودارون، والعقبة و عمان، على أساس ٥ أفراد للأسرة. وكان ٢٠٠٠٠ من غير الفرنجة يسكنون المدن.

٣٥ – إن ٢٢٠٠٠ رجل مسلح، أى خمس إجمالى السكان، يتناسبون مع إجمالى السكان الذكور فى عمر التجنيد العسكرى.

٣٩ – «ربما كانت هناك [بضع محاولات للتقارب] فى سوريا وفى البلدان المجاورة عند تغلغل المبشرين اللاتين، الذى ظلت جهودهم بلا طائل وذلك تحديداً بسبب استحالة الاً يكون المسيحيون مشبوهين إن هم تقاربوا معهم»، فى كلود كاهن، مادة «الذمة»، «موسوعة الإسلام»، مصدر سبق ذكره.

٤١ – إن عدم انتماء مسيحيى الشرق إلى الكنيسة اللاتينية قد جعلهم حذرين تجاه الصليبيين. وهذا هو السبب فى امتناعهم عن التعاون.

٤٤ – الواقع أن المغول قد جمعوا بين كافة أديان آسيا الوسطى، بما فى ذلك المسيحية النسطورية؛ وأياً كان الأمر، فإن دوكوز خاتون، زوجة هولاكو، ذات النفوذ القوى فى حضارة شاركت فيها المرأة فى الحياة العامة، كانت مسيحية ومعادية للإسلام.

الفصل الرابع

الإسلام تحت الهيمنة الاستعمارية

فـي المغـرب

«وإذ أنصت حزيناً إلى كل هذه الأمور، أتساءل عما يمكن أن يكون عليه مستقبل بلد يُسَلَّم إلى مثل هؤلاء الرجال وإلام سيقود فى نهاية الأمر هذا الشلال من العنف والمظالم، إن لم يكن إلى تمرد السكان الأصليين وإلى خراب الأوروبيين».

اليكسيس دو توكڤيل، ملاحظات حول الجزائر، باريس، ١٨٤١.

«يتمسك المرء بالحلم ويتساءل: وماذا لو كان فرنسيو الجزائر قد أرخوا آنذاك قبضة النظام، وسمحوا تدريجياً بتمثيل المسلمين وفكوا، فى توازٍ مع ذلك، ارتباطهم بالمتروبول؟ عندئذ تبدأ اليوتوبيا».

بيير نورا، فرنسيو الجزائر، باريس، ١٩٦١.

كانت أفريقيا الشمالية فرنسية على مدار مائة وثلاثين عاماً. أما الفرنجة فقد أقاموا فى الأرض المقدسة فترة أطول. ومن المؤكد أن فوارق واقعية تميز الحدثين.

أولاً، فارق المسافة. فقبل استعارة البوصلة من الملاحين العرب، كانت القدس فى أقصى العالم المعروف، على أبواب بلاد يأجوج ومأجوج. أمّا مدينة الجزائر فكانت أقرب إلى طولون من باريس. وسرعان ما سوف تؤدى الملاحة البخارية ثم التلغراف والطيران إلى اختزال غربى

البحر المتوسط إلى مستوى بحيرة. وهكذا فإن المغرب الكولونيالى كان على ارتباط وثيق بالمتروبول فى حين أن ممالك الشرق اللاتينية كانت مفطومة منذ مولدها. وعلاقات القوى الدولية هى أيضاً تنقلب. ففى قلب العصر الوسيط الأوروبى، انطلق الصليبيون إلى اقتحام شرقٍ كانت ماتزال تشع منه ثقافة رائعة؛ أمَّا حملة الجزائر، التى تهجم على الثغور الضعيفة للإمبراطورية العثمانية، فهى ترفع القوة الفرنسية، على الضد من ذلك، إلى ذروتها. وفى الشام، كان الفرنجة يتصورون أنهم سوف يجدون حليفاً فى الجماعة المسيحية العربية. لكن الفرنسيين، إذ يهبطون فى المغرب، كانوا يعرفون أن المسيحية قد انطفأت فيه منذ سبعمائة سنة.

لكن الملحمة الدينية (الصليبية) والفتح الاستعمارى (الفرنسى) يتميزان أيضاً بوجوه شبهٍ عميقة. إن كلاً منهما سوف يبدأ بمغامرة عسكرية قبل أن يعتبر نفسه، فجأة، مشروعاً استيطانياً. وفى كلتا الحالتين، فإن نداءات الرحلة سوف تتدفع من فرنسا لتمتد بسرعة إلى البلدان المجاورة، بما يوحد، فى وجه الإسلام، نوعاً من ائتلاف أوروبى – كاثوليكى. وقبل كل شىء، فإن الديموغرافيا توحد بين هاتين الحكايتين. فالصليبيون والكولون (الفرنسيون) سوف يظلون دائماً أقلية جد هزيلة. ثم إن حفيد المهاجر، فى جيب عكا أو جيب باب الواد، سوف يظل، بعد عدة أجيال، أجنبياً يمكن التعرف عليه بسهولة تامة. فهو لا يعرف الذوبان بأكثر مما تسنى لأسلافه. وفى دول الشرق اللاتينية كما فى المغرب، يحول رفض شامل ومتعدد الأشكال للثقافة العربية – الإسلامية لا سبيل إلى علاجه دون تأصل الجسم الأوروبى الغريب.

وهذا الفشل المزدوج يدعو إلى تأمل أسبابه، ولو لمجرد تخيل مصير الانغراس اليهودى فى شرقى البحر المتوسط، هذا الجسم الغريب الثالث فى الأرض العربية والذى ينكتب تاريخه تحت أبصارنا. وهو شاغل يتقاسمه من جهة أخرى العلماء الإسرائيليون، الذين قدموا دراسات ممتازة عن الحروب الصليبية [1] وعن أفريقيا الشمالية الكولونيالية [2]. فهل كان الفشل الأفريقى الشمالى كامناً فى جوهر المشروع نفسه، أم أنه ترتب على تراكم متكرر للأخطاء – على العنف والظلم اللذين تنبأ توكفيل، بعد عشر سنوات فقط من النزول إلى مدينة الجزائر، بأنهما سوف يدقان ناقوس الإياب؟ وبعده، سوف يزداد عدد المراقبين الذين سوف يعربون عن انزعاجهم من مجريات الأمور السياسية والديموغرافية للمستعمرة وسوف يتنبأون لها بمستقبل مظلم.

إلا أنه، حتى اللحظة الأخيرة، لم يتسن حتى لأكثر المراقبين تشاؤماً تصور اتساع وسرعة التقهقر. وحتى بينما كانت نتيجة الحرب التى تفجرت فى عيد جميع القديسين (أول

نوفمبر ١٩٥٤) ماتزال غير مؤكدة، كانوا يظنون أن ٢٥٠٠٠٠ فقط من فرنسيي الجزائر سوف يختارون العودة النهائية إلى فرنسا [٣]. أما جميع الآخرين فهم عازمون على البقاء أو غير جاسمين فى قرارهم. إلاّ أنه لن يبقى منهم، فى الواقع، غير عشرهم بالكاد.

حلم إعادة المسيحية

عندما هبطت قوات شارل العاشر إلى مدينة الجزائر، لم تكن أول قوات تقتحم أفريقيا الشمالية. ففى عام ١٤٩٧، فى معمعان إعادة الفتح (الأسبانى)، كان الأسبان قد طاردوا بالفعل «الكفار» حتى أرضهم الأصلية وأقاموا فى مملكة تلمسان محمية لن يجد الفرنسيون منها غير بقايا مجتمع انتقالى من «المرتدين» والمستعربين (نصارى الأندلس) [٤]. فهل كان يمكن لذكرى هذا الاندفاع المسيحى فى أرض الإسلام والذى دام ثلاثة قرون أن تختفى لو أن كريستوفر كولومبوس لم يكتشف، بالصدفة، قبل ذلك بخمس سنوات، شعوباً أكثر كفراً بكثير؟ لا مراء فى أن كل طاقات الغزو الأسبانية كانت سوف تنصب من الشاطىء الآخر لمضيق جبل طارق.

وأكيد أن الاستعمار الفرنسى قد دام فترة أقل، لكن تغلغله كان أعمق . فبينما اكتفت أسبانيا بالساحل، اخترقت فرنسا مجاهل الصحراء، وبثت لغة فى شعب بأكمله، وانقضت على تونس (١٨٨١)، ثم على المغرب الأقصى (١٩١٢). وهذا المشروع الفريد فى التاريخ الاستعمارى الفرنسى، يعبىء أكثر من مليون إنسان وموارد مادية ضخمة. ولم يحدث من قبل قط أن حشدت أوروبا المسيحية مثل هذه القوى لكى توطد أقدامها فى عالم البحر المتوسط الإسلامى.

وكان لابد لحملة واسعة النطاق أن تتغذى من مخطط واسع. فغداة الثورة الفرنسية، لم يأت النزول السريع التلاشى للجنرال بونابارت إلى مصر فى نهاية الأمر إلاّ بمادة كتاب، من المؤكد أنه ضخم [٥]. أما إعادة أفريقيا إلى فلك المسيحية [٦]، فقد كانت الهدف الذى عزاه إلى نفسه كليرمون – تونير، وزير الحرب، حتى يتغلب على تحفظات ملك فرنسا.

وأمام أعين سكان الجزائر، المؤسلمين منذ ألف سنة، يجرى تصوير العملية بوصفها احتلالاً مؤقتاً، لا يهدف إلاّ إلى مجرد طرد العثمانيين لرد البلد إلى العرب، سادته الشرعيين: إن بياناً محرراً بالعربية يجرى توزيعه لدى وصول القوات يؤكد أن الفرنسيين لم يجيئوا

لامتلاك المدينة. ومستبقاً بشيء من العبقرية، ولكن ليس دون ازدواجية، وعود لويس بونابارت للأمير عبد القادر (١٨٥٥) ثم وعود لورانس العرب لشريف مكة (١٩١٦)، أدرك الوزير أن بوسع نزعة قومية عربية أن تهدم السلطة التركية. ويؤكد العروى: «ان السياسة الفرنسية، برغم انتصارها (بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر)، قد ظلت ضمن إطار سياسة الأسبان، إذ لم يصدق أحد أن مناطق البلد الداخلية يمكن أن تكون لها أية أهمية بالنسبة للغزاة الجدد»(٧).

وسرعان ما تؤدى الواقعية إلى هجر حلم إعادة المسيحية، ويطول أمد الاحتلال، وتملى الظروف التحول إلى إنشاء مستعمرة استيطانية. والواقع أن الاستعمار الذى كان فى البداية عسكرياً وفرنسياً وموجهاً إلى الجزائر، سوف يصبح مدنياً وأوروبياً وسوف يمتد بعد ذلك إلى البلدان المجاورة. ويصبح من الشواغل الثابتة للإدارة توطيد المكونات المتباينة للمجتمع الاستيطانى، الذى يظل دائماً مجتمع أقلية واضحة بالرغم من حيويته الديموغرافية. وشيئاً فشيئاً تصوغ القوانين التى تصدرها الإدارة والتدابير التى تتخذها مجتمعاً أصيلاً، لكن هذا المجتمع، وهو كتلة مصمتة فى مواجهة المجتمع المسلم، يسمح لنفسه بالانجرار إلى دوامة الانفصال القاتلة.

ومنذ ملكية يوليو (١٨٣٠)، تكف الدعوة إلى إعادة المسيحية إلى أفريقيا الشمالية عن مسايرة الميول السائدة. فانتصار الأورليانيين على الشرعيين يمس الجزائر. ذلك أن الضباط والمسؤولين الاستعماريين، الذين يتميزون بروح علمانية، بل غالباً ما يعتبرون معادين عداءً سافراً للنزعة الإكليركية، سوف يمنعون الأنشطة التبشيرية ويحظرون التبشير الدينى ويتصدون بحزم لتحويل (المسلمين) إلى اعتناق المسيحية. ومن المفارقات أن الإدارة، فى ظل الجمهورية الثالثة، تبدى قدراً أقل من الصرامة المعادية للنزعة الإكليركية. فمنذ عام ١٨٨٢، تغض البصر عن نشاط البعثات التبشيرية، شريطة اتزانه واقتصاره على المناطق الداخلية من البلد. أما مطران مدينة الجزائر، شارل اليمان لافيجيرى، مؤسس أخوية الرهبان والراهبات المبشرين فى أفريقيا، فهو يجيز تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية (٨). بلا نجاح، ففى غضون مائة عام لن يتحول إلى اعتناق المسيحية غير أقل من ألف شخص (٩)، متناثرين فى قرى قليلة منزوية من قرى القبائل. وسوف يكون المتحولون القلائل إلى اعتناق المسيحية مرفوضين من المسلمين كما من الأوروبيين ولن يقيموا أى جسر بين المجتمعين. ألن تسميهم العامية الجزائرية بالماتورنى (من الكلمة الفرنسية: «Tourné» [الملوى]؟).

والحال أن من يحنون إلى إعادة المسيحية (إلى أفريقيا الشمالية) سوف يعبرون عن

أنفسهم من جديد في مناخ حمية استشهادية خلال الاحتفالات بمرور مائة عام على الاستيلاء على مدينة الجزائر، في عام ١٩٣٠: «إذا كانت فرنسا الجمهورية تعوزها الحكمة السامية التى تقضى برعاية المسيحية فى أفريقيا الشمالية رعاية سافرة وتامة بما يسمح للمبشرين بهداية السكان المسلمين إلى الإنجيل بدعم رسمى، فإنه ليس من الضرورى للمرء أن يكون من سلالة الأنبياء حتى يعلن أنه بالرغم من حجم الرساميل المثير الذى سكبته منذ قرن فى هذه الأراضى والأعمال الضخمة التى قامت بها، وبالرغم من التعليم الذى أتاحته بشكل واسع لقبائل البربر والعرب، بل وبالرغم من استيطان فرنسى أوسع انتشاراً، فإنه ليس من المؤكد أنها سوف تحتفظ إلى الأبد بالإمبراطوريات الشريفية والجزائرية والتونسية (١٠)».

والزيجات المختلطة، القليلة العدد هى الأخرى، لن تسهم بعدُ فى التقارب: فمن بين مائة ألف زيجة عقدها الأوروبيون فى الجزائر بين عامى ١٨٣٠ و١٨٧٧، لن نجد أكثر من مائة وعشرين زيجة كانت الزوجة فيها مسلمة. ويلاحظ أحد مراقبى المستعمرة «أن الإحصاءات تسجل بالكاد زيجة أو زيجتين قانونيتين، فى السنة، بين مسلمين وأوروبيين! وليس ذلك مجرد استثناء، فهو ظاهرة ديموغرافية غريبة (...). وإلى الآن ما تزال الزيجات بين الرجال الأوروبيين والمسلمات أقل عدداً (١١)». لقد كان الرفض متبادلاً. ولم يكن هناك من هو على استعداد لتقديم بناته. ينطبق ذلك على الأوروبيين، الذين كان عدد الذكور بينهم جد زائد، كما ينطبق على المسلمين، الذين واصلت الشريعة تنظيم أحوالهم الشخصية. ذلك أن الأب ينتهك الوصية الإلهية إذا ما ترك ابنته تتزوج من مسيحى أو من يهودى، لم ينطق أولاً بالشهادتين(١٢).

والدين وغياب الزيجات المختلطة ليسا وحدهما المسؤولين عن انفصال المجتمعين. فالجهل بلغة المستعمَر (بفتح الميم)، شبه الشامل بين المستوطنين، يزيد من توسيع الهوة. وكان ضباط عام ١٨٣٠ والمستوطنون الأوائل قد تعلموا العربية واهتموا بثقافة أفريقيا الشمالية. وكانت الدراسات الاستشراقية تملك آنذاك تراثاً شامخاً فى فرنسا وكان سلفستر دو ساسى قد نشر كتابه عن النحو العربى (١٨١٠). إلا أنه عندما يصبح اجتياز البحر المتوسط أمراً مألوفاً وواسع الانتشار، بحيث ينشأ مجتمع استعمارى معقد له هيراركياته وبحيث يتعين فى البداية على كثيرين من القادمين الجدد، الأسبان والإيطاليين خاصة، تعلم الفرنسية حتى يتسنى السماح لهم بالإقامة، فإن الآليات العادية للتنابذ تتحرك. وتنشأ أحياء منفصلة، ويجد تكافل الجاليات الأوروبية المختلفة تعويضاً سريعاً عن التقارب المتردد الذى كان قد ارتسم بين مستوطنى الزمن الأول والمسلمين.

وبحلول أواخر القرن، كان المستوطنون وأطفالهم قد تخلوا عن تعلم العربية. ويلاحظ شارل – أندريه جوليان دون مواربة «أن غالبية المستوطنين يرون أنه لا مجال هناك لاستيطان ممكن إن لم يظهر المستوطنون للسكان الأصليين أنهم أرقى منهم. ولذا فإنهم لايعاشرونهم ولا يتعلمون لغتهم (١٣)».

تخليق مجتمع استيطاني

إن هذا المجتمع الآخذ فى تأكيد سماته الاستيطانية تكشفه لنا الإحصاءات بشكل مزدوج. وكان لابد من انتظار التعداد السادس، تعداد عام ١٨٥٦، حتى تتجلى أخيراً الغالبية الضخمة للسكان الأصليين. فقبل ذلك التاريخ، لم يكن يجرى إحصاء أحد غير الفرنسيين واليهود المحليين والأجانب الأوائل القادمين من أوروبا. والواقع أن السكان المسلمين يدخلون فى الكتب السنوية الإحصائية كملحق لا مفر منه تقريباً. فلنقلب صفحات أحدها، وليكن، دون قصد، الكتاب السنوى الإحصائى لعام ١٨٧٨ مثلاً (١٤): إن عشر صفحات تكرس ببذخ تفصيلى لـ «حركات السكان» الفرنسيين والمنتمين إلى قوميات أوروبية أخرى، بينما لا يستأثر المسلمـون إلاّ بعدة سطـور. وتعداد عـام ١٨٥٦، بـرغـم مـا هـو عليه من إيجاز، يعرى اتساع انعدام التوازن: إن أقل من مائة ألف فرنسى يواجهون جمهوراً مسلماً قوياً قوامه ٢٫٣ مليون نسمة(١٥). ومثل هـذا العجز الديموغرافى لا يحتمل. ولكى يتفوق السكان الفرنسيون، يلزمهم الحصول على مدد، إما بإدماج السكان الأصليين، المسلمين أو اليهود، أو بالهجرة وفرنسة الأجانب، أو بمناشـدة فـرنسيى الأرومـة. ويكتب چـاك بيرك : «إن النظام الفرنسى، سعياً إلى الانغراس التام، إلى البقاء إلى الأبد على هـذه الأرض المغـربية، يختار دمج مواطنين فى المغرب(١٦)».

لقد تم التخلى بسرعة عن تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية. فهل يمكن لوسائل أخرى السماح بدمجهم دون دفعهم إلى التخلى عن ديانتهم ؟. لا مراء فى أن التعليم المدرسى الأكثر إنصافاً للجزائريين، والذين ظلوا فى غالبيتهم أميين فى عهد چول فيرى، سوف يسهل الدمج بتوسيعه الدراية بالفرنسية، لكنه سوف يبدل العلاقات الكولونيالية بشكل خطير. والحال أنه فى عام ١٨٨٠، من بين ٤٩٦١٠ من تلاميذ المدارس الابتدائية الحكومية لمعاهد مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة، لا نجد غير ٢٧٠٢ من المسلمين (٥٪)، من بينهم ٢٣٥ فتاة فقط

و٢١٠ من التلاميذ الملتحقين بالمدارس العربية - الفرنسية و٢٦٨٧ من التلاميذ الملتحقين بالمدارس الإسلامية [١٧]. وكان من شأن الاعتماد على السكان الناطقين بالبربرية، المفترض أنهم يتبعون إسلاماً أكثر تلفيقاً، والذين سوف يخرجون إلى شوارع مدينة الجزائر وتيزى - أوزو، بعد مائة وخمسين عاماً، للدفاع عن اللغة الفرنسية، أن يخفف من حدة الاستقطاب الثنائى الاجتماعى. إلاّ أنه لن يتخذ شيء فى هذا الاتجاه.

وكان يمكن لتوحيد الوضعيات القانونية أن يكون وسيلة أخرى. لكن السكان الأصليين المسلمين كانوا رعايا خاضعين لا مواطنين فرنسيين. ولم تكن أمامهم إمكانية للحصول على المواطنة إلاّ بالتخلى عن أحوالهم الشخصية القانونية، عن القواعد التى تنظم فى الإسلام الزواج والطلاق والميراث خاصة. وهو ما يعنى بشكل ما التخلى عن جانب من معتقداتهم الدينية ومن تقاليدهم. وأياً كان الأمر، فإن المستوطنين هم الذين سوف يعارضون بشكل ثابت منح الجنسية (الفرنسية) للمسلمين والذين لن يسمحوا البتة بأكثر من أربعين حالة منح للجنسية كل سنة حتى عام ١٩٤٠. ومكاتب السجل المدنى تعرقل بشكل منهجى الطلبات الفردية المتعلقة بنيل حق المواطنة [١٨].

وفى ختام أربعة عقود، تتجه الإدارة إلى جماعة جزائرية أخرى، اليهود، الذين لا تفصلهم عن المسلمين غير المعتقدات الدينية وحدها، لا أسلوب الحياة. ويكتب قنصل فرنسا فى سوس فى عام ١٨٤٥: «إن المرء يصادف هناك عدداً ملحوظاً من الإسرائيليين الذين يحيون حياة العرب عينها، فيتسلحون ويلبسون مثلهم ويمتطون الجياد مثلهم ويخوضون الحرب عند الضرورة مثلهم. وهؤلاء اليهود جد ذائبين فى بقية السكان بحيث يبدو من المستحيل تمييزهم عنهم [١٩]». ونجد أن الأفراد، فى البداية، بحكم قرار عام ١٨٦٥، ثم مجمل الجماعة اليهودية المحلية، بفضل مرسوم كريميو لعام ١٨٧٠ - المطبق خلال مجمل العصر الكولونيالى ما عدا فى عام ١٩٤٣ فى ظل حكومة ڤيشى - سوف يكسبون امتياز الجنسية الفرنسية. ويرى اليهود فى التفرنس الفردى تخلياً عن التقاليد، بحيث أن مائة فقط من بينهم سوف يطالبون به. وفى المقابل، سوف يستقبلون بترحيب تام مرسوم كريميو، الذى لا يربط الحصول على الحقوق المدنية والسياسية بالتخلى عن التقاليد المرتبطة بالدين. وهكذا فإن السكان الفرنسيين فى الجزائر - ١٢٢٠٠٠ مواطن فى عام ١٨٦٦ - سوف يضمون إليهم بشكل أوتوماتيكى ٤٤٠٠٠ آخرين بعد ذلك بأربع سنوات [٢٠].

وعلاوة على هذه اللعبة المضخمة (لعدد حاملى الجنسية الفرنسية)، فإن مرسوم كريميو

يوجد مواطنين حقيقيين، ويبدل بشكل عميق سلوك اليهود الجزائريين ويدمجهم بشكل نهائي في مجتمع الفاتحين. والواقع أنه بفضل المدرسة الإلزامية خاصة تنفصل الطائفة اليهودية عن جوارها المسلم، فتتخلى شيئاً فشيئاً عن تقاليدها الزواجية والثيابية، وأسلوب سكنها، بل وعن استخدام اللغة العربية. لكن اليهود المحليين لا يمكنهم أن يقدموا إلى الديموغرافيا غير المساهمة المتواضعة التي تملكها جماعة قليلة العدد إلى حد بعيد.

أما قانون التجنيس الأوتوماتيكي الصادر في عام ١٨٨٩ فهو يتميز بثقل مختلف تماماً. فهذا القانون ينص على أن أي طفل يولد في فرنسا أو في الجزائر لأب أجنبي ولد هو نفسه في فرنسا أو في الجزائر يعتبر فرنسياً منذ ولادته. وهو يسهل من جهة أخرى حصول أجانب آخرين على الجنسية الفرنسية، بموجب شروط إقامة معينة [٢١]. وهذا الإجراء الذي قصد به منح المتروبول أرصدة ديموغرافية في مواجهة ألمانيا بعد خسارة الألزاس واللورين، ينطبق أيضاً على الجزائر.

وقبل إصدار قانون التجنيس، كان المهاجرون الأوروبيون – الأسبان خاصة (٧٥٪)، الإيطاليون (٢٠٪) والمالطيون (٣٪) – في سباق مع الفرنسيين، بحيث أن الفرنسيين والأجانب – في تعداد عام ١٨٨٦ – كانوا متساوين في العدد. وقد انعش سباق الأعداد والمكانة الاجتماعية الريبة تجاه الأجنبي، والتي تتنازع على استهدافه حتى مع الريبة التي يجرى تحسسها تجاه ابن البلد، المهزوم عسكرياً لثاني مرة في القبايل [٢٢] (١٨٧١). وكان الأسبان هم أول المستهدفين بسبب قوة معدل الإنجاب بينهم وبسبب هجرة متواصلة تتركز في إقليم وهران، على أبواب وطنهم الأصلي. ويجرى اتهامهم بالسعي إلى استخدام ديموغرافيتهم لحفز تقسيم المستعمرة لحساب أسبانيا. فالأسبان، الذين يدانيهم الإيطاليون والمالطيون، ينجبون ما يصل إلى ٦٫٦ طفلاً في المتوسط في حين أن الفرنسيين لا ينجبون غير ٤ أطفال. والألمان وحدهم هم الذين ينجبون عدداً أقل من الأطفال. وإذا كان المعدل الوسطي للإنجاب الأوروبي، ٠٫٠٢٩٪، يظل معقولاً، فإن ذلك يرجع بشكل وحيد إلى أنه كان جد مرتفع عند الأسبان والإيطاليين (٠٫٠٣٦٪)؛ أمّا عند الفرنسيين، فقد كان منخفضاً بالفعل (٠٫٠٢٢٪)[٢٣].

ويقابل هذا التجنيس المعمم للأجانب استقبالاً سيئاً، فهو يسفر عن تزاحم بأكثر مما يسفر عن تعزيز. ويكتب المدعو لينورمين في عام ١٨٨٩ في كتابه: الخطر الأجنبي في الجزائر: «إن المجنس هو رائد وكشاف وحامي الأجنبي (...). ويصبح العامل الإيطالي أو الأسباني مصيبة أخطر من القحط أو من غزو الجراد [٢٤]». لكن المستعمرة تتهيأ، بطريقتها،

للتجنيسات. فالزيجات المختلطة توحد الفرنسيين والأجانب بأعداد كبيرة. وفى عام ١٨٨٤، نجد أن نحو ربع الزيجات فيما بين الأوروبيين تم عن طريق اختلاط الأجناس الأوروبية، فى مقابل نسبة ١٦٪ فقط فى الفترة الممتدة من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٨١. ويلاحظ أحد المعاصرين «أن اتجاه الشعوب المختلفة إلى الانصهار يتزايد قوة فى كل عام، بدلاً من أن يضعف [٢٥]»، والمدرسة الفرنسية، المحرمة على الجزائرين، تفتح أبوابها بشكل متزايد أمام أطفال الأجانب لإسقاط الحواجز.

وبعد عشرين سنة من إصداره، أدى قانون عام ١٨٨٩ إلى إثراء الجالية الفرنسية بـ ٢٠٠٠٠٠ مجنس. وقد تسنى لهذا النجاح أن يحدث بسبب تجاوب الحكومة الأسبانية، التى صرحت لمواطنيها بنيل الجنسية الفرنسية. فهل تخسر بذلك ١٥٠٠٠٠ من رعاياها، أى نسبة ١٪ من السكان الأسبان، أم تتخلص بتكلفة زهيدة من فلاحيها المفقرين ومن عاطليها؟ [٢٦] ويبقى أن هؤلاء الفرنسيين الجدد، الذين كانوا حتى وقت قريب مروعين بسبب ديموغرافيتهم، سوف يأخذون، بشكل منسجم، مكانهم فى القالب «اللاتينى الجديد» [٢٧]. وسوف يكفون عن إثارة الذعر. وإذ تتآكل مشكلة الأجانب من خلال التجنيس، فإن النسيان يطويها. وعند إعلان استقلال الجزائر، كان ٥٠٠٠٠ أوروبياً فقط (امن كل ١٥) هم الذين لم يطلبوا أو لم يحصلوا على الجنسية الفرنسية (الجدول والشكل1 ، IV).

والواقع أن مساهمة اليهود المحليين والأوروبيين ذوى الأصول الأجنبية إنما تشجع على مولد أمة تنصهر فيها عناصر متباينة فى بوتقة مجتمع واحد. وهذه الأمة، قبل تلاشيها، تظن أن بوسعها التباهى بأنها تتألف من مليون نسمة (٩٨٤٠٠٠ فى عام ١٩٥٤)، وهو رقم يشكل عتبة رمزية بالنسبة للأقليات فى الإسلام العربى والتركى. وفى مواجهة ديانة الأغلبية، نجد أن هذا المجتمع الجديد، الذى هو فى آن واحد نتاج خالص للثقافة الفرنسية والثقافة متوسطية كوزموبوليتية، سوف يعلى من مشروعيته متذرعاً بالتاريخ. فهو يتذرع بانتمائه إلى الإمبراطورية الرومانية ويتخيل أنه يعقد صلة، وراء عدة قرون من الإسلام، مع التراث الضائع لأفريقيا لاتينية ومسيحية. وقد رصد جاك بيرك بشكل بليغ استحضار أرواح الموتى: «إن (الواقع الاستعمارى)، فى تنافسه مع العريق الباحث عن الأصول، يميل إلى إغراقه فى اليم التاريخى. فإلى جانب الأسلمة التى شهدتها «قرون مظلمة»، يحاول أن يعيد إلى الحياة أفريقيا المسيحية (...) وفى هذه المنافسة على جميع المستويات، التى تضع المغربى فى مواجهة اللاتينى الجديد، يهب أوغسطين وسيبرين لنجدة فوكو تصدياً لفرسان عقبة» [٢٨].

والكيمياء السحرية الجزائرية – المستوطنون الفرنسيون أنفسهم يسمون أنفسهم بـ

«الجزائريين» – لا تنجح لا فى تونس ولا فى المغرب الأقصى. ففرنسا لا تراودها هناك عين الأطماع الإمبراطورية التى تراودها فى الجزائر. وجيرانها الأوروبيون يسهرون على احتواء توسعها. ويتكشف أن توحيد العناصر المتباينة غير المسلمة حول النواة الفرنسية هو مهمة أكثر صعوبة وذلك، بين أسباب أخرى، لأن إيطاليا وبريطانيا العظمى، الأقل تجاوباً من أسبانيا، تبديان تحفظاتهما تجاه الانفصال عن رعاياهما وعن رعايا التاج المنحدرين من مالطة ومن جبل طارق. ولن يمتد مرسوم كريميو وقانون عام ١٨٨٩ إلى محميتى تونس والمغرب الأقصى، حيث لا يتمتع الأجانب ذوو الأصول الأوروبية واليهود المحليون إلاَّ بحق اتخاذ تدابير فردية لنيل الجنسية (الفرنسية). ومن ثم فإن اليهود سوف يحتفظون بشكل أكبر بكثير مما فى الجزائر بتقاليدهم القومية، شأنهم فى ذلك، من جهة أخرى، شأن غالبية الأجانب غير المفرنسين.

وفى المغرب الأقصى، سوف يؤدى تقسيم الأرض إلى منطقتى وصاية قومية – فرنسية فى الجنوب وأسبانية فى الشمال وفى أقصى الجنوب (إفنى وطارفايا) – ومنطقة دولية (طنجة) إلى تعزيز تجزئة الجاليات الأجنبية. ففى عام ١٩٥١، مثلاً، كانت شبه غالبية الفرنسيين الـ ٢٧٠٠٠٠ تقيم فى منطقة الجنوب، التى لم تجتذب غير ٥٠٠٠٠ أجنبى، غالبيتهم من الأسبان. وقد فضل ثلاثة أرباع الأسبان الشمال أو طنجة.

عسكريون ومستوطنون وكادحون فى وجه ديموغرافيا الإسلام

كان الفاتحون العرب قد أمسكوا بزمام البلد من الصحراء، قبل وقت طويل من أسلمته وتعريبه. وبعد ذلك بألف سنة، نجد أن قوة الحملة الفرنسية، القادمة هذه المرة من البحر – ٣٦٠٠٠ رجل لحظة الاستيلاء على مدينة الجزائر، ثم ١٠٠٠٠٠ رجل مع المارشال بيجو – تظل أيضاً، على مدار أربعين سنة، السيد الوحيد للجزائر. ولا يتردد بيجو فى الإعلان أمام البرلمان فى عام ١٨٤٠: «لابد من غزو واسع فى أفريقيا يشبه الغزو الذى قام به الفرنجة، والغزو الذى قام به القوطيون». وهو يستولى على الساحل قبل أن يقترب من الصحراء. وتمشياً مع التراث البدوى، سوف يكفل الغزاة الجدد استقلال إمداداتهم عن طريق غارات السلب والنهب. لكنهم، خلافاً للعرب، الذين جاءوا من بلاد نائية وقليلة السكان، يرون أنهم أقوياء من الناحية الديموغرافية وبسبب قرب فرنسا.

وفى إثر الجيش مباشرة، سرعان ما سوف يتجمع بعض المدنيين الفرنسيين، التجار أساساً، فى مدينة الجزائر. وعندئذ يبدأ اختمار فكرة أن تؤدى الزراعة يوماً ما إلى توثيق عرى الارتباط بين عناصر الجيش والإدارة فى أعماق البلاد. وتُتْرَكُ المبادرة الزراعية لعدد من كبار الكولون الذين يمتلكون ويجهزون شيئاً فشيئاً مزراع تتألف من عدة آلاف من الهكتارات كما تُتْرَكُ لكادحين أسبان صغار، سوف يتعدون على أراضى جيرانهم العرب سعياً إلى توسيع الأراضى المحدودة التى حصلوا عليها مجاناً من الإدارة. والحال أن المشاعية القروية، التى تميز آنذاك نظام الأرض العربى، سوف تسهل المصادرة.

وفى عام ١٨٣٩، تكاد انتفاضة القبائل تهدد الفتح. فقد كانت الأرياف الإسلامية آنذاك حرة فى حركتها، مثلما سوف تكون حرة فى حركتها أيضاً فى فلسطين خلال انتفاضة عام ١٩٣٦. وتبدأ الإدارة العسكرية الفرنسية، مستندة إلى الكولون المسلحين، فى التخطيط لشكل جديد لاحتلال المكان. فمواردها وحدها لا تكفى لمساعدتها على تطويق البلد بشكل فعال، ومن ثم فإنها تتوجه بالنداء إلى السكان المدنيين وتفتح أبواب الهجرة بشكل واسع. وتخلياً عن تشجيع الممتلكات الزراعية الشاسعة المأهولة بعدد قليل من الكولون والتى ميزت فجر الاستيطان، تشجع خلق قرى أوروبية، مأهولة بشكل كثيف، على الأراضى المصادرة من القبائل، ثم تحفز سكانها على تشكيل أنفسهم على هيئة فيالق مسلحة.

وسوف يلاحظ ديمونتيه بعد ذلك «أن الجيش المحارب، يجب أن يكون متبوعاً بنوع من فيلق استيطانى، يتألف من شبان موفورى النشاط ومسلحين ومنضبطين: وهؤلاء يسكنون القرى ويزرعون الأرض وينشئون أسراً (...). وهو يحتل قرى يمكنها عند الضرورة صد هجمات السكان الأصليين، أى ينشىء قصبات محصنة ومأهولة بشكل كثيف (...). وبدلاً من الفردية المفرطة السابقة لابد من أن يسود بينهم شعور التضامن الاجتماعى الذى يربط جميع أفراد الجماعة فى وجه خطر واقعى ومتواصل[٢٩]».

ومما يدعو إلى الدهشة أن تشابك الأنشطة الزراعية والعسكرية، وصبغة الأفكار الاشتراكية وأفكار فورييه، خاصة بعد ثورة ١٨٤٨، سوف تستبق تنظيم الكيبوتزات التى سوف يجرى غرسها فى فلسطين بعد ذلك بقرن. والحال أن المساهمة المدنية لم تكن مجرد مساعدة إضافية، بل عُدةً أساسية فى وجه عدو قادر، بلا حدود، على تجنيد مقاتلين من بين صفوف جماعته السكانية، بل قادر على اللجوء، باسم التضامن الإسلامى، إلى الطاقات البشرية والعسكرية الأكثر ضخامة أيضاً فى المغرب الأقصى، الذى كان آنذاك مستقلاً. وعلى

غرار الكيبوتزات [٣٠]، فإن هذه «القصبات المحصنة» سوف تؤسس أسطورة بالنسبة للذاكرة الجماعية للمستوطنين بأكثر من أن تؤسس ركائز اقتصاد كولونيالى جزائرى.

والحال أن المستعمرة المدنية الأوروبية، القليلة العدد، كانت تحت رحمة أمراض غريبة عليها مثلما كانت تحت رحمة هجمات القبائل. وسرعان ما تجد نفسها مهددة بالفناء. ففى حين أن متوسط العمر لا يكف عن التزايد فى المتروبول، نجد أن معدل الوفيات بين صفوفها يبلغ مستوى يليق بعصر وسيط مظلم: أكثر من ٠٫٠٥٠٪ حتى عام ١٨٥٥. ومعدل المواليد، بالرغم من ارتفاعه بين عامى ١٨٣٠ و١٨٥١، لا يكفى لتأمين التعويض (عن هذا المعدل للوفيات) [٣١]. وفى العقود الأولى، كان من شأن النمو الطبيعى السلبى بصورة منتظمة (-٠٫٠١٣٪ بين عامى ١٨٣٠ و١٨٥٦) أن يجر المستعمرة إلى التلاشى بشكل لا مفر منه لولا المساهمة الخارجية. ومن مفارقات التاريخ أن مرارات المتروبول، الثورات والحرب خاصة، هى التى سوف تسمح للمستعمرة الفرنسية بالبقاء. فثورة ١٨٤٨ ترسل إليها ٦٠٠٠٠ من ضحايا السياسة والاقتصاد، الذين يتألفون من عمال باريسيين مفلسين أو عاطلين، وسكان مدن مهمومين غالباً بحيازة ملكية لا تتيحها لهم فرنسا. «بشكل أو بآخر، كانت وراء جميع من جاءوا للإقامة فى الجزائر حياة فاشلة» [٣٢].

أمَّا مشروع إقامة «مملكة عربية» فى الجزائر، والذى صيغ فى ظل الإمبراطورية الثانية، فهو يميز توقفاً مؤقتاً فى الهجرة قبل أن يتلاشى. وكان نابوليون الثالث قد ارتأى إنشاء مملكة عربية تحت الوصاية الفرنسية وخفَّف الاستيطان تخفيفاً ملحوظاً بحمايته للأراضى الجماعية التى تملكها القبائل من خلال قرار عام ١٨٦٣ [٣٣]. على أن الحرب الفرنسية - الألمانية فى عام ١٨٧٠ ثم كومونة باريس سوف تؤديان بعد ذلك إلى استئناف نشيط للاستيطان. فأهل الألزاس واللورين الذين جردوا من أراضيهم، والكومونيون «المنقولون» [٣٤] خارج مدينتهم، سوف يتدفقون كلهم على أراضى القبائل الغاضبة، التى توضع بتحسب شديد تحت الحراسة فى عام ١٨٧١. وهى أكثر من ٤٥٠٠٠٠ هكتار فى منطقة القبايل وحدها، سوف يسلم ١٠٠٠٠٠ هكتار منها على الفور للقادمين من الألزاس واللورين [٣٥]. (الشكل IV.2).

وهذه الهجرات هى أكثر الهجرات أهمية فى التاريخ الفرنسى فى الجزائر. وبعد أن تصل إلى الذروة مع وصول نحو ١٥٠٠٠ قادم جديد فى السنة (أى بمعدل ٠٫٠٤٢٪)، فإنها سوف تضعف تدريجياً، بل سوف تنقلب خلال الحربين العالميتين. وهذا البطء يحبط سياسة

تكثيف النسيج القروى الأوروبى. وبالنسبة للإدارة العسكرية، كان إيجاد انغراس أوروبى كثيف فى أعماق البلاد وليس فقط على السواحل شاغلاً مؤرقاً، وشرطاً لعدم تكرار خطأ السلف الأسبانى. وخلافاً لآمال الآباء المؤسسين، فإن جماعة فلاحية أوروبية وفيرة العدد لن ترى من ثم النور أبداً؛ فالزراعة الكولونيالية تتطور على الضد من ذلك بخطوات عملاق نحو الملكية الكبيرة، التى لا تتطلب الكثير من الأيدى العاملة. «منذ الجيل الثانى للكولون، تندمج ثلاث أو أربع قطع من الأرض فى استثمارة واحدة. والملكية الصغيرة تتطور فى اتجاه الملكية المتوسطة أو الكبيرة، ويقل عدد سكان قرى الاستيطان [٣٦]». وهكذا، فنحو عام ١٩٣٠، يملك ٣٤٠٠٠ مالك أوروبى ٣ر٢ مليون هكتار، بمتوسط ٦٧ هكتارا للمالك الأوروبى، فى مقابل ٥ر٥ هكتار بالنسبة للمسلمين.

وسوف يهجر الأوروبيون الريف شيئاً فشيئاً متجهين إلى المدن، خاصة المدن الكبرى، الجزائر ووهران (الجدول IV.2). وفى عام ١٨٨٦، ولأول مرة، يبلغ معدل سكان المدن بينهم نسبة ٥٠٪. وإذا كانت الإدارة قد تسنى لها تصديق نجاح التأطير الأوروبى للأرياف، فإن تفاؤلها لا يدوم طويلاً. فبين صفوف المهاجرين الذين جاءت بهم الحرب وكومونة باريس، يتزايد عدد أولئك الذين سوف يتخلون بسرعة عن الأرياف، التى لا تجد منذ ذلك الحين من يخلفهم فيها، لأن القادمين الجدد سوف يقيمون فى المدن. وهذا الحب للمدن لن يتوقف. فعشية الاستقلال، كان اثنان من كل ثلاثة فرنسيين ساكنى مدن، وكان نصف هؤلاء من سكان مدينة الجزائر أو وهران.

أما فى القرن العشرين، فإن انحدار السكان الريفيين الأوروبيّين - ٢٠٠٠٠٠ نسمة موزعين توزيعاً سيئاً على الأرض - قد كف عن جذب الاهتمام، فيما عدا اهتمام عدد قليل من المراقبين. ومن هؤلاء، مثلاً، شارل - أندريه جوليان، الذى رصد بالفعل، فى عام ١٩٣١، فشل الاستيطان الأوروبى فى الأرياف، مما أثار هياجاً عارماً فى المستوطنة [٣٧]. وقد أعلن باحثان إحصائيان تجنبا الحديث عن البعد السياسى لاستنتاجهما: «ليس من المجازفة التأكيد على أن المدينة تشكل ملاذاً للسكان الأوروبيين، وهو ما يرمز، بحكم ظروف متباينة - ذات طابع اقتصادى بوجه خاص ، إلى اتجاه إلى هجر الأرياف» [٣٨]. ومن المؤكد أن البواعث الكلاسيكية للنزوح عن الريف كانت تمارس فعلها: التردد على المدارس فى الأرياف وجاذبية المدينة. ولكن لم لا نرى أيضاً ارتكاس أقلية تأخذ فى التجمع؟ فنحو ذلك الزمن نفسه، كان مسيحيو سوريا متواجدين هم أيضاً فى المدن. وبعد ذلك بوقت قصير، فإن أقباط مصر،

شأنهم فى ذلك شأن فرنجة الممالك اللاتينية قبل ذلك بسبعمائة سنة، وعدة طوائف مسيحية فى أرض الإسلام العربي، سوف يتحسسون فى لحظة أو أخرى حرج التبعثر الزائد عن الحد. وفى تلك اللحظة تصحو الديموغرافيا الإسلامية من سباتها فى المغرب.

والواقع أن الاندفاع الأوروبى الجديد، بحكم مجرد احتفاله بالذكرى المئوية له فى عام ١٩٣٠، كان قد تجاوز من حيث المدة مدة مملكة القدس الأولى. إلاّ أنه، بينما كانت الجالية الاستعمارية تحتفل فى صخب بالاستيلاء على مدينة الجزائر وبينما كانت الإدارة الفرنسية فى الرباط تعلن المرسوم الخاص بالبربر (٣٩)، وبينما كانت الكنيسة – فى مناخ مؤتمر استشهادى يشار فيه إلى ذكرى الحملات الصليبية – تجدد الارتباط فى قرطاج بتراث المجامع المسكونية الضائع منذ روما، تبدأ الأرقام فى كشف النهوض الإسلامى الذى لا يقاوم. وتكتب صحيفة صادرة فى مدينة تونس: «إن الحرب الصليبية تبدأ من جديد: هكذا تعلن اللافتات أو الثياب التى يجرى إلباس آلاف الأطفال الأوروبيين بها. والمسلمون أيضاً يفكرون فى الحروب الصليبية التى أراقت الكثير من الدماء وألقت بكثير من البشر فى البربرية (٤٠)».

فهل كانوا يحسون آنذاك أنهم أقوياء استناداً إلى يقين العدد، أولئك المسلمون الذين جرى التنبؤ فى أواخر القرن التاسع عشر بزوالهم القريب؟ يكتب طبيب فى القرن الماضى: «إن اعتقادى المدروس هو أن السكان الأصليين، بدلاً من أن يتزايدوا، سوف يتناقصون بلا توقف، إلى الدرجة التى يمكن بها التنبؤ بزوالهم بعد قرن أو قرنين من الآن. فكيف يمكن التسليم بحيوية المسلمين الذين يزيد عدد موتاهم بشكل منتظم عن عدد مواليدهم ؟». (٤١) وفى عام ١٩٢٥، بينما كانت تقنيات التنبؤ الديموغرافى تحرز تطوراً مشهوداً، يسقط الديموغرافى الأمريكى رايموند پيرل ضحية لقصر نظر مماثل. فهو يتوقع أن يصل عدد الجزائريين المسلمين فى عام ١٩٨٠ إلى ٤ر٥ مليون (٤٢)، فى مقابل الـ ٦ر١٨ مليون الذين سوف نجدهم بالفعل فى ذلك التاريخ، أى بفارق ٧٠٪. وفى اللحظة نفسها، يستخدم كتاب موهوبون قلما ساحراً لرسم ما يعتقد العلماء أنهم يتنبأون به. إن هنرى مونترلان، مثلاً، يكتب عن: «بؤس الإسلام، افتقاره إلى القيم، افتقاره إلى الموهبة، روحه الخائبة وغير المحددة، ذلك هو الجنس البائس المقهور بامتياز. إنه جنس يشرف على الموت، يجهز عليه اتصالنا به، يبكيه دون عويل، دون حرارة(٤٣)».

والحال أن معدل إنجاب المسلمين، الذى كان مايزال معتدلاً غداة الحرب العالمية الأولى،

لن يتخلف عن الارتفاع بقوة: ٠.٠٢٥٪ فى عام ١٩٣٥، وفق الأرقام الرسمية (٠.٠٤٢٪ فى الواقع).[٤٤] وآنذاك يجرى إدراك أن معدل الإنجاب الأوروبى قد تم تجاوزه وأن انخفاض معدل الوفيات قد بدأ يفيد المسلمين، بما يحقق انقلاباً فى هيراركية النموين الديموغرافيين (الإسلامى والأوروبى) (الجدول والشكل IV.3). والواقع أن الإحصاء الذى كان، فى العشرينيات، قد أوجد اطمئناناً بإشارته إلى أن النمو الطبيعى للمسلمين أقل بنسبة واحد إلى اثنين من النمو الطبيعى للأوروبيين [٤٥]، سوف يبدأ فى إثارة الانزعاج منذ العقد التالى بتوضيحه لانقلاب العلاقة. فالمسلمون ينمون الآن بمعدل يزيد مرتين ونصف مرة عن معدل نمو الأوروبيين، فى لحظة تتراخى فيها الهجرة من أوروبا أو يهجر فيها الكولون الأرياف.

وتنقلب الصورة بين الحربين العالميتين. والجالية الاستعمارية تتجاهل ذلك بكبرياء فهى «تعجز عن أن تميز، فى صعود المنحنى الذى يتسارع منذ عام ١٩٣٠ وبشكل أكبر منذ عام ١٩٣٥، هذا الانتقام الكمى الشرقى الذى يغرق من ثم السلطة الاستعمارية [٤٦]». لكن العلماء والسياسيين يميزونه. وهم يدققون فى الأرقام التى تتنبىء بالاندحار. «إن مثل هذا الوضع الديموغرافى يطرح فى المجال الاقتصادى – وأضيف: وفى المجال السياسى – مشكلات سوف يكون من الصعب بشكل متزايد فى المستقبل حلها. فهل سوف تجد فرنسا نفسها مغلوبة – من الناحية الديموغرافية – بفتحها ؟ [٤٧]» إن «الرعب الديموغرافى» ينتشر انتشار نثار البارود.

ويفصل عقد بالكاد بين نبوءة بيرل وتقرير متشائم جرى عرضه أمام مؤتمر لديموغرافيين دوليين، فى عام ١٩٣٧. ففى تقريره الذى يحمل عنوان «التراجع النسبى للأوروبيين فى الجزائر»، يعبر مينار، قبل وقت طويل من أمثال فوجت [٤٨] وعرافين آخرين، عن انزعاج المترفين فى وجه «الأجناس المنحطة»: «إن هذه الظاهرة (ظاهرة «انحسار الإنجاب») لا تستثنى الجماعات السكانية «الأوروبية» ذات الاتصال العددى السائد أو الأدنى مع الجماعات السكانية من النوع شبه المتحضر. وسواء أكان الحديث يدور عن الولايات المتحدة (الزنوج) أم عن نيو زيلنده (الماورى) أو حتى عن أفريقيا الجنوبية حيث توجد مع ذلك المستعمرة الأكثر حيوية بكثير بين المستعمرات الأوروبية فى العالم، فإن الجماعة السكانية الأكثر تحضراً تشهد تناقص نسبتها فى إجمالى السكان. (...) وهذه الظاهرة، الطبيعية تماماً، تجد تفسيرها بسهولة فى واقع أن الأجناس التى نسميها بالأجناس المنحطة تستفيد الآن استفادة تامة من الخيرات (المادية) لحضارتنا فى حين أننا نجد أنفسنا مسممين

بتجاوزاتها (الاشتراكية، المادية، إلخ). وهكذا فبدلاً من أن تغرق الموجة الأوروبية العالم، كما كان بالإمكان الظن من قبل، تتراجع هذه الموجة أمام موجة أخرى، هى الآن أقوى بكثير. (...) وفيما يعنينا بشكل شخصى، باستثناء حالة كاليدونيا الجديدة التى ما تزال تافهة، فإن المجال الوحيد المتاح لنا للاستيطان يوجد فى أفريقيا الشمالية (٤٩)».

والثلاثينيات هى أعوام الانقلابات الكبرى. الانقلاب الديموغرافى ولكن أيضاً الانقلاب السياسى. والأسئلة الحقيقية، المطروحة لأول مرة دون مداراة، سوف تظل بلا إجابة. وهى أيضاً أعوام فرص ضائعة. وتلك هى حالة مشروع قانون ڤيوليت، الذى قدم لأمانة سر البرلمان فى عام ١٩٣٠ وتبنته حكومة ليون بلوم فى عام ١٩٣٦، والذى كان من شأنه منح حق التصويت على الفور لـ ٢١٠٠٠ مسلم من «الصفوة المفرنسة» على قدم المساواة مع ٢٠٢٠٠٠ فرنسى فى الجزائر. وكان يمكن للسكان المسلمين أن يحصلوا بعد ذلك شيئاً فشيئاً على حق المواطنة. لكن الكولون حاربوا هذا المشروع بعنف، على الرغم من تردده النسبى. ويقدم حكام المدن على حمل مسؤولية الاستقالة الفادحة. وتبريراً لهذا الرفض، يجرى من جديد استحضار تاريخ الرومان، «الذين وجدت إمبراطوريتهم نفسها على الفور فى ورطة بمجرد نيل جميع الشعوب الخاضعة حق المواطنة واضمحل طابعها القومى عندما منح أنطونين كاركالا هذا الحق لكل من هب ودب (٥٠)».

وقد خلقت الجبهة الشعبية (الحاكمة فى فرنسا آنذاك – المترجم) دينامية مؤاتية لتبديل وضعية الغالبية المسلمة والسماح لها بالصعود تدريجياً إلى غالبية سياسية. وكان بوسع المدرسة أن تشكل بؤرة لسياسة جزائرية جديدة. فباجتذابها للشبيبة على نطاق أوسع، كان بوسعها توسيع نيل حق المواطنة الذى ارتآه قانون ڤيوليت. وكان ٦٪ من السكان الذين هم فى عمر الدراسة مسجلين فى مدارس فى عام ١٩٢٩، وهذه النسبة لا تزيد فى عام ١٩٤٤ عن ٨ر٨٪؛ أما فى عام ١٩٥٤، فى بداية حرب الجزائر، فهى لا تزيد عن ٤ر١٥٪. وبينما كان مايزال هناك وقت، فإن الفرانكفونية، التى – ويا للمفارقة! – سوف يتعين عليها الانتظار إلى نيل استقلال الجزائر كى تبلغ الجماهير (٥١)، كان يمكن لها رفع حواجز سوء التفاهم الثقافى. والخلاصة أن عملاً من هذا النوع كان يمكن له دون ريب تحويل مسار الديموغرافيا الجزائرية، بقدر ما أن هذا الديموغرافيا قد أثبتت فيما بعد تأثرها بالتعليم، خاصة تعليم النساء.

ومنظوراً إليه من المتروبول، فإن الاستيطان الأوروبى فى أفريقيا الشمالية لم يُعد بعد ما

يدعو إلى الانزعاج. ذلك أن «أجزاءه الجديدة [٥٢]» – تونس والمغرب الأقصى، المتاحين بشكل متأخر للاستيطان – تعوض مالا تصل الجزائر بعد إلى بلوغه. وإذ يجيء الدور عليهما، فإنهما يسمحان مؤقتاً للسكان الأوروبيين بتأكيد حضورهم. وهكذا فإن المجال الاستعمارى، الموسع ليشمل المغرب كله[٥٣] يُحيى، وذلك دون علم بُناته، كياناً منسياً منذ زمن الأمويين. فالنضالات من أجل الاستقلال، بشكل عابر، ثم البحث، بآفاق مستقبلية أوسع، عن سوق مشتركة، اتحاد المغرب العربى، الذى جرى تدشينه فى عام ١٩٨٩ فى مراكش، سرعان ما سوف تؤدى إلى تعزيز تضامنه.

ومع مراعاة تفاوت الظلال، يتكرر التاريخ الجزائرى فى تونس وفى المغرب الأقصى، ذلك أن الاستيطان الأوروبى، بالرغم من هيمنة المدينيين عليه – نحو ثلاثة أرباع السكان الأوروبيين فى المحميتين – يفتح الأرياف أيضاً. فقلقاً من تقدم الإيطاليين وارتياباً فى نوايا حكومتهم، تشجع الإدارة الفرنسية الكولون على احتلال الأرض الزراعية. ففى تونس، بعد أن كان الاستيطان الريفى قد أهمل فى البداية، يجرى تدشينه نحو عام ١٩٠٠ ويكتسب اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى. وبين عامى ١٩١٠ و١٩٢٩، سوف يجرى توزيع ٢٧١٠٠٠ هكتار على ١٤٠٠ من الكولون. وفى المغرب الأقصى، فى الثلاثينيات، سوف يجرى توزيع ٢ مليون هكتار من الأراضى الجيدة توزيعاً شبه متساوٍ بين الفلاحين (٨٠٠٠٠٠ هكتار) والكولون (٧٢٢٠٠٠ هكتار)، حيث يترك مازاد عن ذلك للمخزن، خزانة السلطان، أو للمجتمعات المحلية[٥٤]. وهكذا، ففى مغرب عام ١٩٣٠، كان ثلث المساحة المنزرعة قد انتقل إلى أيدى الأوروبيين. وهذه الركيزة الزراعية المتينة إنما تخضع لمنطق سياسى – تأمين دوام الوجود الاستعمارى – بأكثر مما تخضع لمنطق اقتصادى. ويكتب العروى: «إن هذه القاعدة العقارية قد اعتبرت ضرورة سياسية، وفى هذا تواصل الأيديولوجيةُ العتيقةُ المترومنةُ التأثير على الأذهان[٥٥]».

وفى تنافس ظاهرى مع جزائر الأوج الاستعمارى، يقترب عدد المستوطنين غير المسلمين فى المحميتين من المليون: أكثر من ٣٠٠٠٠٠ فى تونس (١٩٥٦) ونحو ٧٠٠٠٠٠ فى المغرب الأقصى (١٩٥١) أى ١١٪ من إجمالى السكان فى تونس و٧٪ من إجمالى السكان فى المغرب الأقصى، فى مقابل نحو ١٤٪ فى الجزائر (الجدولان IV.4 و IV.5 والأشكال IV.4 وIV.5 وIV.6 و IV.7). وهذه الأرقام تتضمن اليهود المحليين. لكنه لا التشريع ولا السوسيولوجيا يسمحان بمثل هذا التجميع. فهذه الجماعات السكانية لا يجمع بينها غير عدم الانتماء إلى

الإسلام. وهى فى مجموعها تشكل فئة مصطنعة فى هذين البلدين حيث كان الأوروبيون أقل انغراساً مما فى الجزائر وحيث كان الأجانب واليهود المحليون أقل تفرنساً. والوجود الاستعمارى نفسه، والذى يتخذ مجرد شكل محمية، لم يكن يتمتع بإرادة جد قوية فى الدوام. وفى عام ١٩٢٦، يكتب صحفى، دون أن تخامره أية أوهام: «لم تمر سنوات كثيرة على إدراك السكان الفرنسيين فى المغرب الأقصى لواقعهم الاجتماعى. فهم لم يكونوا فى البداية غير ملحق تابع للسلطة المركزية (٥٦)».

أمّا فيما يتعلق بالطائفة اليهودية المغربية، وبحسب رأى أحد أفرادها، فإنها «قد ظلت فى غالبيتها الساحقة غريبة عن غوايات الغرب، ومتشبثة بقيم يهوديتها التقليدية ووفية فى آمالها؛ وقد وجدت نفسها جاهزة، عندما حانت اللحظة، للهجرة بشكل جماعى إلى إسرائيل، متجاهلة اعتبارات الواقع السياسى، ومستجيبة لنوازع خلاصية - روحية ومحققة بذلك حلماً ألفياً (٥٧)». وسوف يجرى بعد ذلك بوقت طويل رصد التباعد الذى كان قائماً بين فرنسيى ويهود المغرب الأقصى، حين يستقر هؤلاء الأخيرون فى إسرائيل، بينما يؤثر يهود الجزائر الاستقرار فى فرنسا.

الإسلام دين وحيد بعد ألف وثلاثمائة سنة

إن تتمة الحكاية ماثلة فى ذاكرة الجميع. فغداة اتفاقيات إيفيان (١٩٦٢)، سوف ينزح الكولون كلهم تقريباً إلى فرنسا. وفى معمعان السعار الوطنى، سوف يُسمى بـ «العائدين إلى الوطن» تلك الأسر التى ولدت فيما وراء البحار، والتى انحدر أجداد أكثر من نصفها من أسبانيا أو من إيطاليا.

وعشية الصدمة المزدوجة التى مثلتها الاستقلالات (المغاربية) وإنشاء إسرائيل، كان يحيا فى المغرب مليونان من غير المسلمين، من مسيحيين ذوى أصول أوروبية ومن يهود عاشوا فيه منذ زمن سحيق. وهذا الوجود، الذى كان يراد له البقاء إلى الأبد، يختفى من الناحية الفعلية. والمائة ألف أوروبى الذين يسكنون الآن المغرب ليسوا بعد، فيما عدا حالات خاصة، بقايا أثرية للجالية الاستعمارية السابقة، بل هم أجانب، غالبيتهم من المهاجرين، لا يختلف وضعهم فى شىء، بقدر من التغاضى، عن أى قادم أجنبى آخر (٥٨).

وفى شرقى البحر المتوسط، كانت قد وقعت مأساة من نوع آخر قبل ذلك بنصف قرن،

وأدت هي الأخرى إلى اختفاء طائفة غير مسلمة، هي ملايين اليونانيين والأرمن الثلاثة في تركيا. وبين الحدثين، توجد نقطة مشتركة. ففي الإمبراطورية العثمانية كما في المغرب الكولونيالي تمتع أهل الكتاب بوضعية استثنائية. أما أن الإسلام قد منحها في الحالة الأولى وأن المتروبول المسيحي هو الذي فرضها في الحالة الثانية فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً: فقد كان هناك اختلاف في الوضعية من الناحية القانونية. وربما لأن هذه الطوائف تمثل استثناءً، من حيث المعتقدات والسلوك، فإنها سوف تخسر مكانها في الدولة القومية التي تعمل على تحقيق التجانس.

واليهود أنفسهم، الذين تواجدوا بعد الاختفاء الأول للجماعة المسيحية عندما كانت جماعة محلية، في القرن الثالث عشر، لن يتواجدوا بعد اختفائها الثاني، حيث أصبحت أجنبية الأصل. ولا يبقى منهم الآن غير أسر قليلة، يوشك بعضها على الرحيل. وسوف يحسم مصير هذه الطائفة عبر آخر اندفاعين عظميين لأوروبا، الأول، المحلي، إلى المغرب، والثاني، الأبعد، إلى شرقي البحر المتوسط. فالاحتلال الفرنسي، بدمجه الطائفة اليهودية الجزائرية في القوام الاستعماري دمجاً تاماً، سوف يرغمها على مشاطرته مصيره النهائي: الخروج[٥٩]. وإسرائيل، من جهتها، لم يكن بوسعها اكتساب قاعدة ديموغرافية راسخة إلاَّ بالاعتماد على المستودع البشري (اليهودي) الثري في البلدين المغربيين الآخرين. وفي المغرب الأقصى، مثلاً، أدت الحروب العربية – الإسرائيلية المختلفة إلى توضيح تآكل الطائفة اليهودية: فمن ٢٦٥٠٠٠ نسمة في عام ١٩٤٨، لم يعد اليهود غير ٢٢٢٠٠٠ في عام ١٩٥١، بعد إنشاء إسرائيل، و١٦٠٠٠٠ في عام ١٩٦٠، بعد حملة السويس، و٣١٠٠٠ فقط في عام ١٩٧١، بعد حرب ١٩٦٧.

والآن وقد انتهى الوجود الديموغرافي لأوروبا، ما الذي يبقى من وجودها الثقافي، من هذه «الجماعة اللاتينية التي أعيد إدخالها إلى أفريقيا الشمالية في العصر الكولونيالي [٦٠]»؟ إذا حكمنا على الأمر من زاوية اللغة، فإن التقدم يعتبر ملحوظاً. فعندما تترك فرنسا المغرب، تنفصل عن أربعة وعشرين مليون مسلم، يتحدث مليونان منهم بالفرنسية. واليوم، تكذب الأرقام انطباعاً واسع الانتشار، مؤداه أن اللغة الفرنسية تتراجع في المغرب [٦١]. ففي الجزائر، على سبيل المثال، حيث تتكرر المجادلات حول استخدام لغتين وحول التعريب، لم تكن هناك غير نسبة ٣١٪ لمن يتحدثون بالفرنسية في الأجيال المتعلمة قبل الاستقلال، وترتفع نسبتهم إلى ٧٥٪ في الأجيال التي التحقت بمدارس الجمهورية الجزائرية، بعد عام ١٩٦٢[٦٢].

ومنذ نيل الاستقلال إلى الآن، أسهم توسع التعليم بالفرنسية فى زيادة المتحدثين بالفرنسية بضعف إسهام الديموغرافيا فى هذه الزيادة الناجمة عن إرادة سياسية بأكثر من أن تكون ناجمة عن آليات الإنجاب (٦٣).

وبفضل المدرسة، التى ظلت ثنائية اللغة، بالرغم من بعض التحولات المفاجئة، وبقدر أقل بفضل الديموغرافيا، يتحدث بالفرنسية اليوم ٢٣ مليوناً من إجمالى السكان المغاربة الذى يصل إلى ٦٠ مليوناً (٦٤). وبعد فرنسا، تتصدر الجزائر قائمة المتحدثين بالفرنسية (الجدول IV.6). وقد كتب مؤخراً جان بورجوا - بيشا: «إن جميع من قادوا فرنسا، فى الماضى، فى مغامراتها الاستعمارية سوف تذهلهم هذه النتائج. لقد كانوا يحلمون بإمبراطورية، لكننا جنينا ما هو أفضل بكثير: الفرانكفونية (٦٥)». ومن السابقتين، الأفرنجية فى الأرض المقدسة والأسبانية فى المغرب، تقابل الأولى اليوم بالاستنكار بينما يطوى النسيان الثانية. وخلافاً لذلك، نجد أن التاريخ الكولونيالى قد قاد إلى سيميترية مُفَارقة: إن مليونين من المغاربة فى فرنسا يخلفان المليونين من الفرنسيين اللذين كانا فى المغرب. وتتواجد الأسس الديموغرافية والثقافية التى تسمح بدوام التبادل.

جداول وأشكال الفصل الرابع

الجدول IV . 1

سكان الجزائر بحسب الديانة والجنسية

(بالآلاف)

السنة	فرنسيون	أجانب	مسيحيون	يهود	مسلمون	الإجمالى
1833	4	4	8	40	1952	2000
1836	6	9	15	41	1945	2000
1841	17	21	37	41	1922	2000
1845	46	49	95	42	1891	2028
1851	66	65	131	42	2324	2497
1856	93	67	159	43	2307	2509
1861	112	81	193	43	2733	2969
1866	122	96	218	44	2652	2914
1872	130	116	245	45	2125	2415
1876	141	155	297	48	2463	2808
1881	178	181	360	53	2843	3255
1886	204	203	407	58	3287	3752
1891	252	216	468	63	3577	4108
1896	299	212	510	68	3783	4362
1901	341	218	559	75	4089	4723
1906	433	166	599	81	4478	5158
1911	473	189	662	90	4741	5493
1921	503	189	692	99	4923	5715
1926	553	176	729	105	5151	5984
1931	623	148	772	110	5588	6470
1936	704	127	831	116	6201	7147
1948	746	46	792	130	7.679	8601
1954	796	50	846	138	8449	9433
1966	65	16	81	3	12018	12102
1977	53	13	65	2	16881	16948
1987	40	9	49	1	22989	23039

المصادر : تعداد الفترة الاستعمارية وفترة الجزائر المستقلة. جاك طيب، يهود المغرب...، مصدر سبق ذكره؛ الموسوعة اليهودية، مادة «الجزائر»، مصدر سبق ذكره .

الجدول IV . 2

التركز الحضرى للسكان الأوروبيين فى الجزائر
(بالآلاف)

السنة	1866	1886	1906	1926	1931	1936	1948	1954
مدينة الجزائر	52,0	80,8	134,5	193,2	214,5	230,2	247,7	276,6
وهران	31,0	56,1	89,0	126,5	131,8	155,6	174,0	181,6
قسنطينة	14,0	19,9	26,0	41,5	48,2	50,5	37,2	40,7
بون	11,1	20,7	30,0	31,1	37,2	45,0	44,5	46,1
سيدى بلعباس	6,2	14,5	19,4	28,0	27,7	30,3	28,3	31,9
مستغانم	6,5	5,9	10,7	12,9	12,8	17,6	18,0	19,2
تلمسان	7,1	8,3	11,9	11,6	11,7	12,6	12,9	11,8
فيليبڤيل	10,8	17,4	15,9	20,8	23,2	32,8	27,5	28,3
ستيف	3,4	3,7	6,3	8,9	9,9	8,2	8,4	7,9
المجموع الحضرى	142,1	227,3	343,7	474,5	517,0	582,8	598,5	644,1
الأوروبيون	218,0	464,8	680,3	833,4	881,6	946,0	922,3	984,0

المصدر: تعددات الفترة الاستعمارية.

الجـــدول IV . 3

معدل المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في الجزائر (1922– 1935)

السـنة	1922	1926	1930	1935
معدل المواليد ($^0/_{00}$)				
الأوروبيون	28	25	25	21
المسلمون	25	28	30	35
العلاقة (%)	89	112	120	167
معدل الوفيات ($^0/_{00}$)				
الأوروبيون	19	16	15	14
المسلمون	21	16	14	18
العلاقة (%)	111	100	93	129
معدل الزيادة الطبيعية($^0/_{00}$)				
الأوروبيون	9	9	10	7
المسلمون	4	12	16	17
العلاقة (%)	44	133	160	243

المصدر : بيانات غير مصححة للحالة المدنية الكولونيالية.

الجدول 4 . IV

سكان تونس بحسب الديانة والجنسية

(بالآلاف)

السنة	فرنسيون	أجانب	مسيحيون	يهود	مسلمون	الإجمالي
1881	1	18	19	25	1476	1520
1886	4	26	29	27	1520	1577
1891	10	33	43	29	1566	1638
1896	16	66	82	32	1612	1726
1901	24	87	111	35	1661	1806
1906	35	94	129	38	1710	1877
1911	50	126	176	41	1722	1939
1921	55	102	156	48	1889	2094
1926	71	102	173	54	1932	2160
1931	91	104	195	56	2087	2338
1936	108	105	213	60	2336	2608
1946	144	96	240	71	2898	3209
1956	180	75	255	58	3470	3783
1966	17	16	33	8	4501	4541
1975	12	9	21	5	5605	5631
1984	7	6	13	3	7001	7017

المصادر : تعدادات وتقديرات الحماية وتونس المستقلة؛ جاك طيب، يهود المغرب ....، مصدر سبق ذكره؛ الموسوعة اليهودية، مادة «تونس»، مصدر سبق ذكره.

الجـدول IV . 5

سكان المغرب الأقصى بحسب الديانة والجنسية
(بالآلاف)

السـنة	فرنسـيون	أجانـب	مسيحيون	يهـود	مسـلمون	الإجمالى
1912	2	2	4	115	4881	5000
1921	52	77	128	116	4716	4960
1926	67	83	150	142	5339	5631
1931	117	106	223	152	5833	6207
1936	137	124	260	191	6773	7223
1947	233	168	401	224	8036	8660
1951	267	181	449	222	8529	9200
1960	172	132	304	160	11163	11626
1971	48	37	85	31	15263	15379
1982	27	20	47	15	20358	20420

المصادر :تعددات وتقديرات الحمايتين الفرنسية والإسبانية لمنطقة طنجة الدولية والمغرب المستقل؛ جاك طيب، يهود المغرب ....، مصدر سبق ذكره؛ الموسوعة اليهودية، مادة «المغرب»، مصدر سبق ذكره.

الجـــدول IV . 6

السكان الفرانكوفونيون في المغرب عند الاستقلال واليوم
(بالآلاف)

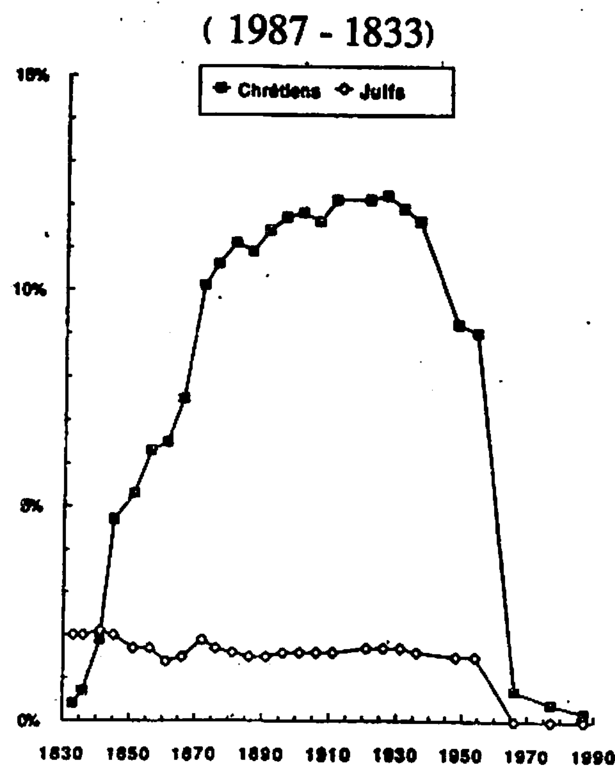
البلـــد	عند الاستقلال	اليوم
الجزائر (1962)	1400	12800
المغرب الأقصى (1956)	430	6700
تونس (1956)	470	3400
المجمـــوع	2300	22900

المصدر : حساب أجراه المؤلفان استناداً إلى بيانات التعددات.

الشكل 1 . IV

نسب المسيحيين واليهود في الجزائر

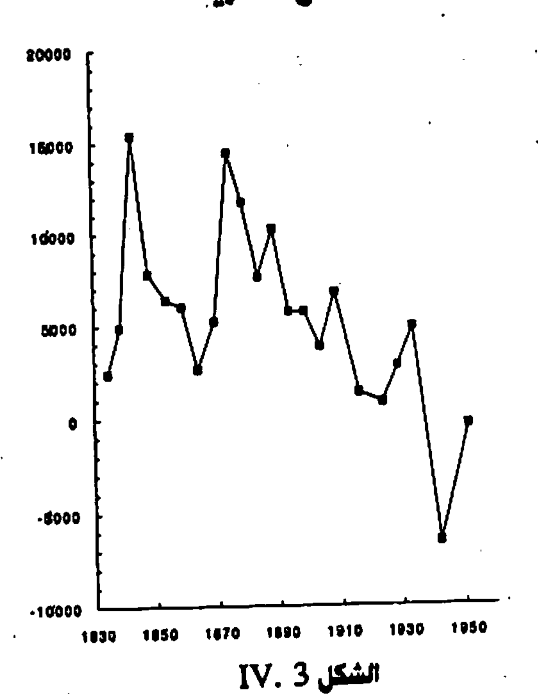
(1987 - 1833)



الشكل IV.2

الهجرة الأوروبية إلى الجزائر (1830 - 1860)

(النتائج السنوية)



الشكل IV. 3

معدل زيادة

الجماعات السكانية في الجزائر (1830 - 1954)

(0/00)

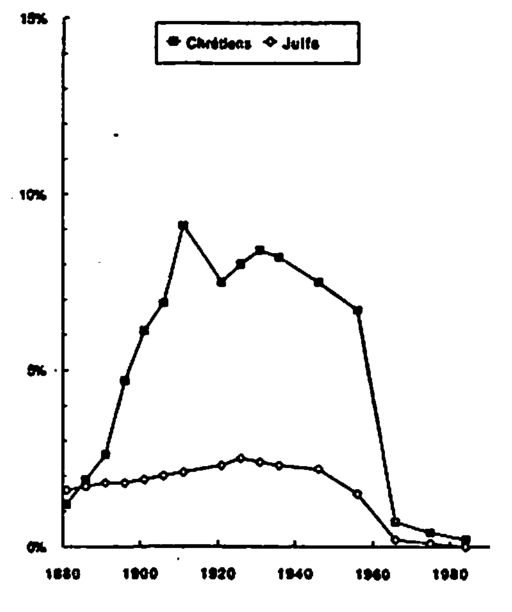
Européens (accroissement global)
Européens (accroissement naturel)
Musulmans (accroissement naturel)

80
70
60
50
40
30
20
10
0
-10
-20
1830
1850
1870
1890
1910
1930
1950

الشكل 4 . IV

السكان المسيحيون واليهود فى تونس

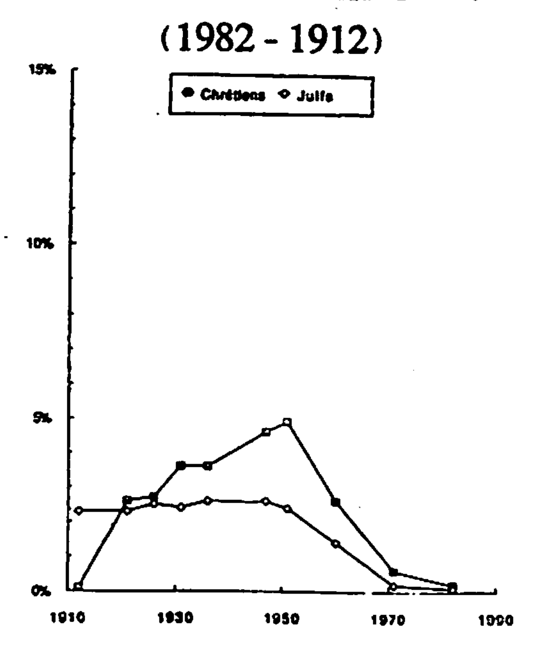
(1984 - 1881)



الشكل 5 . IV

نسب المسيحيين واليهود فى المغرب الأقصى

(1982 - 1912)

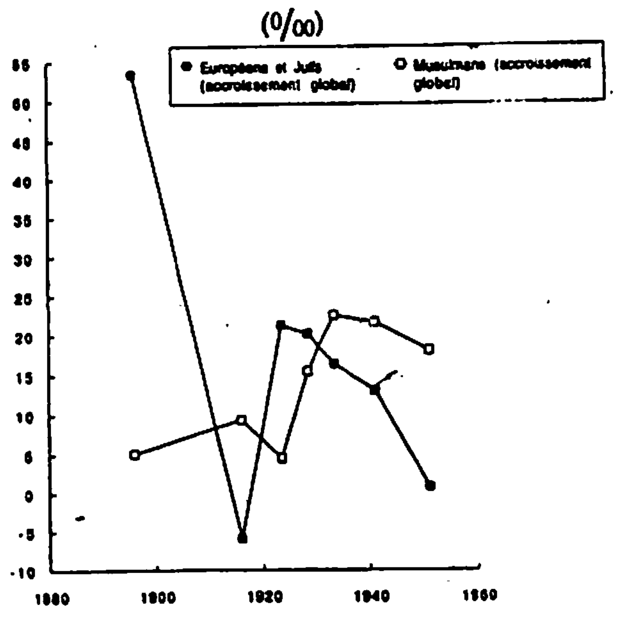


الشكل6 . IV

معدل زيادة الجماعات السكانية فى تونس

(1956 - 1882)

(0/00)

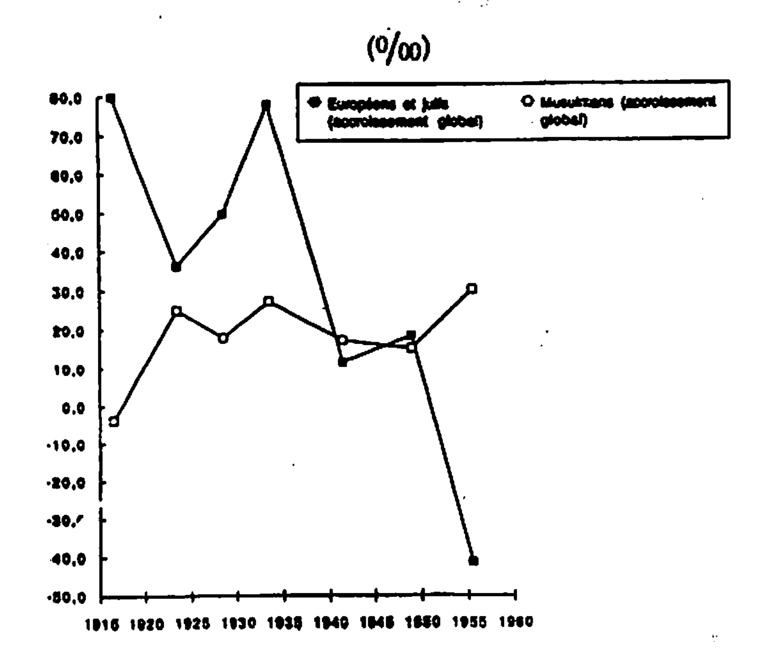


الشكل 7 . IV

معدل زيادة الجماعات السكانية فى المغرب الأقصى

(1960 -1912)

(0/00)



حواشي الفصل الرابع

1 - Le fil qui rattache les Croisades à l'irruption de L'Europe au XIX^{e} siècle puis à la naissance de l'Etat hébreu n'a pas échappé à l'historien israélien des Croisades, Joshua PRAWER: "Le pays (la Palestine) lui-même sombra dans un long oubli jusqu' à ce que le fracas du canon, au XIX^{e} siècle, rappelle à l'Europe l'époque de la grandeur des Croisades, et que le labour profond du paysan juif fraie la voie à une nouvelle installation", *Histoire du royaume Latin de Jérusalem,* CNRS, Paris, 1969.

2 - Par exemple André CHOURAQUI, *Les Juifs d'Afrique du Nord entre L'Orient et l'Occident,* Paris, 1965.

3 - Sur 800000 personnes de nationalité française; Pierre NORA, *Les Français d'Algérie,* Paris, Julliard, 1961.

4 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol dans l'Algérie occidentale", *Bulletin de Géographie d'Aix- Marseille,* n°1, 1955.

5 - *La Description de l'Egypte,* œuvre de nombreux savants et graveurs français.

6 - Marc BAROLI, *Les Français en Algérie,* Hachette Paris, 1967.

7- Abdallah LARAOUI, *Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse,* Maspero, Paris, 1982.

8 - Art. "Lavigerie", *New Catholic Encyclopedia,* McGraw- Hill, New York, 1968.

9 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres,* Seuil, Paris, 1962. Peut-être furent- elles plus nombreuses: l'auteur prend en effet sa source au journal *L'Humanité,* enclin dans les années 1930 à la dérision envers l'Eglise.

10 - Chanoine P. REPETICCI, *L'Algérie chrétienne - Esquisse Historique,* Alger, 1930. Le chanoine Jules TOURNIER exprime une idée similaire : *La Conquête religieuse de l'Algérie,* Paris, 1930.

11 -Victor DEMONTÈS, *L'Algérie, économique. Un siècle de colonisation: Evolution historique de la colonisation de l'Algérie,* Imprimerie algérienne, Alger, 1930.

12 - Profession de foi musulmane, requise pour l'adhésion à l'islam : "Il n'est de dieu que Dieu et Muhammad est son Prophète".

13 - Charles- André JULIEN, "Introduction", *in* Pierre NORA, *Les Français d'Algérie, op. cit.*

14 - Ministère de l'Algriculture et du Commerce, *Annuaire statistique de la France,* Paris, 1878.

15 - Algérie du Nord seulement: chiffre officiel, mais sous- estimé.

16 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

17 - Gouvernement général civil de l'Algérie, *Etat de l'Algérie, Alger,* 1881.

18 - G. YVER, art. "Algérie", *Encyclopédie de l'Islam,* 1re édition, 1913. Pierre NORA, *Les Français d'Algérie, op. cit.*

19 - Cité par Jacques TAIEB, "Les Juifs du Maghreb au XIXe siècle. Aperçus de démographie historique et répartition géographique", *Population,* n°2, Paris, 1992. Ce constat fait en Tunisie vaut sans doute pour l'ensemble des juifs du Maghreb, avant le décret Crémieux.

20 - La quantification du judaïsme algérien devint de ce fait difficile. Les recensements ne distinguèrent plus les juifs naturalisés des Français d'origine. Jusqu'en 1936, les Formulaires des recensements conservèrent pourtant la rubrique suivante: "Etes- vous israélite naturalisé par le décret de 1870 ou issu d'israélites naturalisés par ce décret?" Jacques TAIEB, *ibid.*

21- Yvonne QUENEY, "Les Etrangers non musulmans en Algérie au recensement de 1954- Comparaison avec le recensement de 1911", *Bulletin de la section de géographie,* Paris, 1965. G. ACHER, "Le peuplement espagnol...", *op. cit.*

22 - Les Kabyles se révoltèrent entre autres contre le décret Crémieux et l'élimination de Napoléon III.

23 - René RICOUX, *La Population européenne en Algérie pendant l'année 1884,* Philippeville, 1885. Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique,* tome II : *Les populations algériennes,* Imprimerie algérienne, Alger, 1923.

24 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol...", *op. cit.*

25 - René RICOUX, *La Population européenne en Algérie..., op. cit.*

26 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol...", *op. cit.*

27 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

28 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.* La même opinion est émise par Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb..., op. cit.,* et par Marc BAROLI, *Les Français en Algérie..., op. cit.*

29 - Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique..., op. cit.*

30- A leur apogée, les Kibboutz regroupèrent seulement 5% de la population israélienne.

31 - Le taux brut de natalité passa de 26 0/00 en 1830- 1834 à 41, 4 0/00 en 1856 - 1862, il déclina ensuite jusqu' à 29, 1 0/00 en 1897- 1904. Quant au taux brut de mortalité, il avoisina 50 à 51 0/00 jusqu'en 1855 et se situa autour de 330/00 durant l'autre moitié du siècle; Victor DÈMONTÈS, *L'Algérie économique, t ome* II: *Les populations algériennes, op. cit.*

32 - Pierre NORA, *Les Français d'Algérie, op. cit.*

33 - Philippe MARÇAIS, art. "Algérie", *Encyclopédie de l'Islam,* 2e édition, *op. cit.*

34 - Ainsi nomma-t-on les partants de la métropole.

35 - Philippe MARÇAIS, *ibid.*

36 - P. BERTHAUT, *Rapport présenté au congrès des ingénieurs agricoles à l'Exposition coloniale de 1931*, cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

37 - Charles- André JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 1re édition, Payot, Paris, 1931.

38 - René HOFFHERR et Lucien PAYE, "Evolution du Peuplement en Afrique du Nord", *Congrès international de la population*, Paris, 1937.

39 - Décret de 1930 soustrayant les Berbères au droit musulman.

40 - Cité par Jacques BERQUE, *Le maghreb entre deux guerres, op. cit.*

41 - René RICOUX, "Recherches sur la mortalité de la première enfance en Algérie", *Annales de démographie internationale*, Paris, 1882.

42 - Raymond PEARL, *The Biology of Population Growth*, Knopf, New York, 1925.

43 - Cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.* qui relève "à quel point l'esthétisme littéraire, même bienveillant, peut méconnaître le mouvement de l'histoire".

44 - Pour une approche critique des taux de natalité, voir Jacques BREIL, "Essai de détermination du niveau et des tendances de la fécondité des musulmans d'Algérie", *Congrès mondial de la population- Rome 1954*, New York, 1955, et Jean- Noël BIRABEN, "Essai d'estimation des naissances de la population algérienne depuis 1891", *population*, n°4, Paris, 1969.

45- En fait, la statistique française sous-estimait alors la croissance démographique de la population musulmane.

46 - Jacques BERQUE, *le Maghreb entre deux guerres, op. cit.* L'auteur dit ailleurs: "Dans l'entre- deux - guerres, de plus en plus l'indigène devient, en tant que tel, affaire de spécialiste. Sa vérité n'intéresse plus que le révolutionnaire, le chrecheur ou de rares attardés de l'Avant. pour l'Européen qui est-il ou plutôt qu'est-il? Une menace, Une attente, Une chose à utiliser, au mieux à ménager."

47- La citation est de René HOFFHERR et Lucien PAYE, *Evolution du peuplement..., op. cit.* G. MESNARD y a ajouté: "et j'ajoute politique".

48 - William VOGT, *Road to Survival*, William Sloane, New York, 1948. Le premier et le plus célèbre des essais qui relancèrent le malthu sianisme.

49 - G. MESNARD, "La Régression relative des Européens en Algérie", *Congrès international de la Population*, Paris, 1937.

50 - Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique..., op. cit.*

51 - Voir *infra* la conclusion de ce chapitre.

52- L'expression est de G. MESNARD, "La régression relative des Européens en Algérie", *op. cit.*

53 - Autant que la circulation des colons et des fonctionnaires, l'agriculture coloniale favorisa celle du salariat musulman. Cest ainsi que 200000

Marocains d'origine seraient toujours établis en Algérie : CERED, *Situation démographique régionale au Maroc*, Rabat, 1988. Réciproquement, une élite algérienne francisée participa à l'administration du Maroc.

54 - Au Maroc, les progrès de la colonisation étrangère auraient fait reculer la propriété indigène de 9,2 millions d'hectares en 1917, à 8,3 en 1927 et à 7,5 en 1936; jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

55 - Abdallah LARAOUI, *L'Hsitoire du Maghreb..., op. cit.*

56- *Le Cri du Maroc,* mars 1926, cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

57 - Haïm ZAFRANI, *Mille ans de vie juive au Maroc, Histoire, culture, religion et magie,* Paris, Maisonneuve et Larose, 1983.

58 - Plusieurs centaines de chrétiens d'origine européenne restérent après l'indépendance et prirent la nationalité algérienne. Quelques descendants de Kabyles convertis au christianisme ne rejoigniret pas la religion de leurs aïeux. Il n'existe pas d'incompatibilirté entre la nationalité algérienne et la religion chrétienne.

59 - Aprés l'indépendance de l'Algérie, moins de 7% des juifs algériens émigrèrent en Israël, contre 93% en France.

60 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres, op. cit.*

61 - Exprimée par exemple par Francine VAN de WALLÉ, "Qu'est- ce qu'un francophone?", *Colloque de démographie et destin des sous- populations,* Ordina, Liège, 1981.

62 - Données du recensement algérien de 1987.

63 - Voici désagrégées les composantes de l'augmentation de la population francophone en Algérie: 69% reviennent à l'élévation du taux de scolarisation bilingue franco-arabe, 31% à l'accroissement démographique.

64 - Reconstitution par les recensements proches des indépendances et du plus récent, pour l'Algérie 1954, 1966 et 1987, pour la Tunisie, 1956 et 1984 et pour le Maroc 1951, 1960 et 1982. Ces recensements classent la population alphabétisée selon la langue ou les langues lues et écrites: francais, arabe, français et arabe, etc. Les données ont été interpolées pour estimer les francophones à l'indépendance et extrapolées pour fournir la mesure actuelle. Les enfans de moins de dix ans (ou de moins de six ans) sont supposés atteindre le même taux de francophonie que leurs aînés immédiats (d'où une lérgère sous-estimation en raison de l'augmentaton de la francophonie au fil des générations). Ces données, qui portent sur la langue lue et écrite, sont plus restrictives que celles que l'on aurait pu obtenir à l'aide de la langue parlée (environ le tiers en moins en Algérie) ou compris.

65 - Jean BOURGEOIS- PICHAT, "La France dans le monde", *population,* n°s 4-5, Paris, 1990.

تعليقات الفصل الرابع

١ – إن الخيط الذى يربط الحملات الصليبية بهجمة أوروبا فى القرن التاسع عشر ثم بمولد الدولة العبرية لم يغب عن بال المؤرخ الإسرائيلى للحملات الصليبية، جوشوا براور: «لقد غرق البلد نفسه [فلسطين] فى نسيان طويل إلى أن ذكر قصف المدافع أوروبا، فى القرن التاسع عشر، بعصر عظمة الحملات الصليبية، وإلى أن فتح عمل الفلاح اليهودى الكثيف السبيل أمام استيطان جديد». «تاريخ مملكة القدس...»، مصدر سبق ذكره.

٣ – من ٨٠٠٠٠٠ نسمة يحملون الجنسية الفرنسية.

٩ – جاك بيرك، «المغرب بين حربين»، سوى، باريس، ١٩٦٢. ربما كانت التحولات أكثر عدداً: فالواقع أن الكاتب يستمد مصدره من صحيفة «لومانيتيه»، المبالة فى الثلاثينيات إلى السخرية من الكنيسة.

١٥ – الجزائر الشمالية فقط: رقم رسمى، لكنه أقل من الواقع.

١٩ – إن هذا التقرير الذى كتب فى تونس إنما ينطبق بلا شك على مجمل يهود المغرب، قبل مرسوم كريميو.

٢٠ – لهذا يصبح عد يهود الجزائر صعباً. فالتعدادات لم تميز بين اليهود الحاصلين على الجنسية عن فرنسيى الأصل. على أن استمارات التعدادات قد احتفظت حتى عام ١٩٣٦ بالخانة التالية: «هل أنت إسرائيلى مجنس بمرسوم عام ١٨٧٠ أم منحدر من إسرائيليين مجنسين بهذا المرسوم؟».

٢٢ – تمرد رجال القبائل، بين أمور أخرى، ضد مرسوم كريميو وإزالة نابوليون الثالث.

٢٨ – جاك بيرك، «المغرب بين حربين»، مصدر سبق ذكره. ويعبر عن الرأى نفسه عبد الله العروى، «تاريخ المغرب...»، مصدر سبق ذكره، ومارك بارولى، «الفرنسيون فى الجزائر...»، مصدر سبق ذكره.

٣٠ – فى أوجها، لم تجمع الكيبوتزات غير نسبة ٥ ٪ فقط من السكان الإسرائيليين.

٣١ – انتقل المعدل الإجمالى للمواليد من نسبة ٠.٠٢٦٪ فى ١٨٣٠ – ١٨٣٤ إلى ٠.٠٤١/٤٪ فى ١٨٥٦ – ١٨٦٢، ثم هبط فيما بعد إلى ٠.٠٢٩،١٪ فى ١٨٩٧ – ١٩٠٤. أما فيما يتعلق بالمعدل الإجمالى للوفيات، فقد اقترب من ٥٠ إلى ٠.٠٥١٪ حتى عام ١٨٥٥ واستقر حول نسبة ٠.٠٣٢٪ خلال النصف الآخر من القرن.

٣٤ – هكذا سمى الراحلون عن المتروبول.

٣٩ – مرسوم ١٩٣٠ الذى يخلص البربر من القانون الإسلامى.

٤٢ – نقلاً عن جاك بيرك، «المغرب بين حربين»، مصدر سبق ذكره، الذى يبين «إلى أية درجة يمكن للجمالية الأدبية، حتى وإن كانت حسنة النوايا، أن تسىء فهم حركة التاريخ».

٤٥ – الواقع أن الإحصاء الفرنسى قد قلل أنذاك من قدر النمو الديموغرافى للسكان المسلمين.

٤٦ – جاك بيرك، «المغرب بين حربين»، مصدر سبق ذكره. ويقول الكاتب فى مكان آخر: «فى فترة ما بين الحربين، يصبح ابن البلد الأصلى باطراد، بصفته هذه، شاغلاً للأخصائى. ولا تهم حقيقته بعد غير الثورى، أو الباحث أو المتمسكين النادرين بتراث الرواد. فمن هو بالنسبة للأوروبى، أو بالأحرى ما هو؟ تهديد، توقع، شىء يجب استخدامه، الحرص عليه فى أحسن الأحوال».

٥١ – انظر أدناه خاتمة هذا الفصل.

٥٣ – شأنها فى ذلك شأن توزيع الكولون والموظفين، كانت الزراعة الكولونيالية مؤاتية لتوزيع الأجراء المسلمين. وهكذا فإن ٢٠٠٠٠٠ من المراكشيين الأصليين سوف يقيمون على الدوام فى الجزائر. وبالمقابل، فإن صفوة جزائرية مفرنسة قد شاركت فى إدارة المغرب الأقصى.

٥٤ – فى المغرب الأقصى، كان من شأن تقدم الاستيطان الأجنبى اختزال الملكية الأهلية من ٩٫٢ مليون هكتار فى عام ١٩١٧ إلى ٨٫٣ مليون هكتار فى عام ١٩٢٧ وإلى ٧٫٥ مليون هكتار فى عام ١٩٣٦.

٥٨ – بقيت عدة مئات من المسيحيين ذوى الأصول الأوروبية بعد الاستقلال وحصلوا على الجنسية الجزائرية. ولم يعد بعض المنحدرين من القبائل المتحولين إلى اعتناق المسيحية إلى ديانة أجدادهم. ولا يوجد تعارض بين الجنسية الجزائرية واعتناق الدين المسيحى.

٥٩ – بعد استقلال الجزائر، نزح أقل من ٧٪ من اليهود الجزائريين إلى إسرائيل، فى مقابل ٩٣٪ رحلوا إلى فرنسا.

٦٢ – بيانات التعداد الجزائرى لعام ١٩٨٧.

٦٣ – إليكم توزيع مكونى زيادة السكان الناطقين بالفرنسية في الجزائر: إن نسبة ٦٩٪ ترجع إلى ارتفاع معدل التعليم المدرسى الثنائى اللغة الفرنسى – العربى، بينما ترجع نسبة ٣١٪ إلى الزيادة الديموغرافية.

٦٤ – إعادة تركيب عبر التعدادات القريبة من أزمنة نيل الاستقلال والتعدادات الأحدث. فبالنسبة للجزائر، تعدادات أعوام ١٩٥٤ و ١٩٦٦ و١٩٨٧، وبالنسبة لتونس، تعداد عام ١٩٥٦ وتعداد عام ١٩٨٤، وبالنسبة للمغرب الأقصى، تعدادات أعوام ١٩٥١ و ١٩٦٠ و ١٩٨٢. وهذه التعدادات تصنف السكان غير الأميين بحسب اللغة أو اللغات التى يقرءون ويكتبون بها: الفرنسية، العربية، الفرنسية والعربية، إلخ. وقد جرى توليد البيانات لتقدير عدد الناطقين بالفرنسية وقت الحصول على الاستقلال وجرى استقراء لها لتقديم حجمهم الحالى. وجرى افتراض أن الأطفال الذين يقل عمرهم عن عشر سنوات (أو عن ست سنوات) قد بلغوا ذات معدل الفرانكوفونية الذى بلغه من يكبرونهم مباشرة (ومن هنا انخفاض تقدير طفيف بسبب زيادة الفرانكوفونية على مر الأجيال). وهذه البيانات، المتصلة باللغة التى تتم القراءة والكتابة بها، أكثر محدودية من البيانات التى كان بالإمكان الحصول عليها استناداً إلى اللغة التى يتم الكلام بها (نحو الثلث على الأقل فى الجزائر) أو المفهومة.

الفصل الخامس

النهوض المسيحى فى الشرق العربى العثمانى

«بين نصيرية الشمال ودروز الوسط، يسكن شعب صغير عرف منذ زمن بعيد بالموارنة. و(الظرف السعيد) الأول هو الدين، الذى، إذ أقام حاجزاً لا سبيل إلى التغلب عليه بين الموارنة والمسلمين، منع الطامعين من التحالف مع الأجانب لاستعباد أمتهم. والثانى هو طبيعة البلد (...). و(الثالث) هو عين ضعف هذا المجتمع، الذى لم يتمكن، منذ نشأته، لكونه محاطاً بأعداء أقوياء، من مقاومتهم إلاَّ بالحفاظ على الوحدة بين صفوف أفراده (...) وهكذا فعبر قيام الأعراف مقام القوانين، تمكن الموارنة من الحفاظ على أنفسهم إلى الآن من عسف الاستبداد ومن تقلبات الفوضى».

ڤولنى، رحلة إلى مصر وإلى سوريا، ١٧٨٧.

يخيم الشبح العثمانى على واقع نهاية القرن العشرين التى نشهدها. فمع عودة مسألة القوميات فى البلقان وعدد من الأمم فى الشرق، تخترق الفكرة الإمبراطورية من جديد فضاء الزمن. وذكرى آل عثمان لا تدع أحداً غير مبالٍ، أكان من أعدائهم السابقين أم من رعاياهم السابقين. وبالنسبة للأوروبيين، فإنهم (آل عثمان) يجسدون انحطاط الإسلام. وبالنسبة لمسيحيى الشرق، فإنهم يمثلون زمن النهوض الذى ولى الآن. أما اليهود فإنهم لم ينسوا حسن

الضيافة، الذى تكرر مرتين، عندما بدت أوروبا المسيحية مصدر تهديد بالغ لهم، فى ظل الملكين الكاثوليكيين (فيرناندو وإيسابيللا) فى إسبانيا وبعد ذلك بثلاثمائة سنة، مع صعود معاداة السامية فى فرنسا الجمهورية وروسيا القياصرة. وبعد ثلاثة أرباع قرن من سقوط الإمبراطورية (العثمانية)، تجد مدافعين عنها فى الشرق العربى: إن مسيحيين ويهوداً ما زالوا يرون فى الكيمياء السحرية الإمبراطورية الفرصة الوحيدة للتعددية الطائفية، فهى تفصل وضعية الأشخاص عن وضعية الأرض.

وقبل فتح الولايات العربية، كانت لسكان الإمبراطورية العثمانية غالبية مسيحية وأوروبية قوية. وكان بوسع الإدارة الاعتماد على الفنار [١] (حى البطريركية الأرثوذكسية اليونانية فى اسطنبول)؛ وقد تعلمت فن التوافق مع الشعوب غير المسلمة. وفى غضون عشرين سنة بالكاد، سوف يقلب سليم الأول ثم سليمان القانونى خريطة الشرق. فسوف ينتزعان من المماليك سوريا (١٥١٦)، ومصر (١٥١٧) والمناطق التابعة لهم فى شبه الجزيرة العربية. وبعد ذلك بوقت قصير، سوف يحصلان على الجزائر، هدية من القرصان برباروسا، ويختطفان العراق، الذى كانت تهيمن عليه آنذاك فارس (١٥٣٤). وسوف تجعل هذه الانتصارات من السلطان قائد أعظم دولة مسلمة فى ذلك العصر. ومع شىء من التباين الإقليمى، تولد بيزنطة جوستينيان من جديد، ولكن تحت سلطة سُنّية.

وكان المماليك قد تركوا الجماعة المسيحية فى حالة من الضعف. ولا مراء فى أن هذه الجماعة كانت موعودة بذات الفناء الذى حدث لها فى أفريقيا الشمالية. لكن العثمانيين، على منحنى خط الألف عام المقابل، سوف يسمحون لها بنهوض غير عادى: فالهلال الخصيب [٢] الذى ورثوه كان يضم نسبة ٧٪ من المسيحيين، أما الهلال الخصيب الذى سوف يردونه بعد ذلك بأربعة قرون، غداة الحرب العالمية الأولى، فقد كان يضم نسبة ٢٠٪ إلى ٣٠٪ إذا ما استثنينا العراق (الجدولان V.1 وV.2 ، والشكل V.1). وعند انهيار الإمبراطورية، كانت الأقليات الطائفية ماتزال موجودة فى كل مكان وجدوها فيه: بدرجة أقل فى الشرق، ولكن بدرجة أقوى بكثير فى الغرب. وكان اليهود يمثلون نسبة ١ر٣٪، وكانوا يتركزون فى العراق بشكل خاص (١ر٦٪) أما مصر، المتمردة دوماً على الإمبراطورية، فإنها لم تعرف تطوراً مماثلاً (نسبة ٠ر٨٪ للمسيحيين).

كانت اسطنبول تهيمن على أرض شاسعة وعلى شعوب جدُ متباينة. وحتى يتسنى للباب العالى ممارسة صلاحياته، فقد كان بحاجة إلى معلومات عن كل ولاية. وقد سمحت التعدادات السكانية الدورية له بالتعرف على عدد دافعى الضرائب وعدد الجنود الذين يمكن تجنيدهم. لكن إمساك الدفاتر كان يتطلب إدارة فعالة لا تكفلها غير دولة قوية. وهذه الدفاتر، التى هى فى أن واحد سبب ونتيجة السلطة المركزية المفروضة على الولايات، سوف يجرى ملؤها وحفظها بالشكل الصحيح مادامت اسطنبول تسيطر على السلطات المحلية.

لكن هذا الوضع قلما يدوم. ففى الهلال الخصيب، سوف يجرى الاضطلاع بحملة إحصاءٍ عامٍ واحدة فى القرن السادس عشر (١٥٧٠ - ١٥٩٠)، عندما يتمكن العثمانيون من فرض إدارتهم الخاصة. وهذا هو أول إحصاء فى تاريخ الإسلام، بعد ألف عام من الهجرة (٣). فسعياً إلى توطيد السيطرة العثمانية، مهد السلاطين لهذه الحملة بعدد من العمليات المنضبطة. وهكذا نجد أن كاتب أخبار دمشقياً يروى أن مدينته قد أحصيت عن بكرة أبيها منذ الأحد، ٢ رمضان ٩٢٢ (١٥١٦)، أى صبيحة دخول جيش السلطان سليم الأول(٤). والواقع أن الأمر لابد وأنه قد تطلب أكثر من انقضاء ليلة لترك السلاح انكباباً على التعداد! لكن هذا التشوش للذاكرة يوضح إلى أى مدى أثار العثمانيون عجب الناس بحزمهم وبتنظيمهم. فهذا وذاك يتميزان بالروعة.

ومنذ القرن التالى، سوف يحول استرخاء القبضة العثمانية دون الاضطلاع بأية عملية ذات اتساع مماثل. فالضرورة الضريبية لذلك كانت أقل إلحاحاً، وذلك بسبب تعميم نظام الالتزام (٥). وبحكم هذا النظام، كان ملتزم الضريبة (الملتزم) يشترى وظيفته لقاء مبلغ محدد، ثم يستوفى حقه، مع مكاسب تالية، عن الإيرادات الضريبية، التى يحدد أشكال جبايتها. وكان رجال الملتزم يعرفون رعاياهم فرداً فرداً ولم تكن هناك حاجة إلى إجراء تعداد. ومن ثم فلن يجرى الاضطلاع بأية تعدادات قبل التعداد الذى اضطلع به فى عام ١٨٣١ السلطان محمود الثانى، المجدد الأول للإمبراطورية. وسوف تفلت سوريا وفلسطين والعراق من ذلك التعداد. وبعد الحمى التحديثية والمؤكدة للمركزية فى زمن التنظيمات (الإصلاحات)، نجد أن الإمبراطورية، التى كانت قد تفككت، تحاول إعادة صوغ وحدتها من خلال إحصاء

جماعاتها ودافعي الضرائب لها: وفي أعوام ١٨٨١ - ١٨٨٣، يجرى الاضطلاع بآخر تعداد عثماني يغطي مجمل المشرق (٦). ومجموعة الوثائق هذه(٧) الفائقة الثراء تستعيد رسم صورة توزيع سكان(٨) كل قضاء (٩) بحسب العقيدة، وتحدد ظلال ملل الشرق التي ينتمي إليها المسيحيون.

وكان العثمانيون، بعد فتحهم مصر، قد تركوا الإدارة المملوكية في مكانها. وهذه الأخيرة لا تتردد في انتزاع استقلالها وفي تحدى سلطة الباشاوات المعينين من الباب العالي. وعزوفاً منها عن أن تترك لاسطنبول أية ذريعة لممارسة السلطة، فإنها تنشيء نظاماً لا مركزياً لجباية الضرائب، يستند إلى لجان قروية مكلفة بتوزيع أداء الضريبة على السكان. وهذه الإدارة المشتركية المباشرة لا تتطلب أي تعداد عام. وعندما يفكر السلطان في عام ١٧٨٥ في اتخاذ تدابير عسكرية ضد المشاكسة المملوكية، فإنه يطلب إلى (أحمد باشا) الجزار، والي صيدا (لبنان)، تقديم تقرير عن مصر(١٠). لكن هذه الوثيقة لا تقدم أية معلومات رقمية عن السكان.

ويجرى الاضطلاع بأول تقييم ديموغرافي شامل من جانب العلماء الفرنسيين الذين سوف يكتبون وصف مصر. فمدفوعين بفضول علمي هائل، سوف ينكبون على جرد دقيق للمواقع المأهولة بالسكان وعلى إعداد كشوف بيانات كثيرة عن الكثافات السكانية المدينية، سوف يبنون عليها تقديرات للسكان. على أنهم لم تكن لهم أية سلطة لإحصاء البشر أنفسهم بحسب انتمائهم الديني. ومن ثم فإنهم سوف يقيمون التوزيع الطائفي بدقة أقل من دقة تقييمهم لإجمالي السكان. والحال أن مؤسس الحداثة المصرية، محمد علي، هو الذي سوف يدشن العصر الإحصائي عبر تعدادٍ أولٍ في عام ١٨٤٦. ولن يتخلف خلفاؤه أبداً عن الاضطلاع بمثل هذا العمل.

أمّا في الشام، فإن الإحصاء العثماني، جد المبكر في السهل وفي المدن، سرعان ما يتحطم على المتراس الذي يقدمه الجبل للطوائف التي لا تعتنق إسلام الغالبية، أي للمسيحيين وللمسلمين المنشقين. وأكثر هذه الجبال ازدحاماً، وهو جبل لبنان، يعرف تعدادات القرن السادس عشر (١١)، لكنه لا يعرف تعدادات القرن التاسع عشر. فالسكان، المتملصون من التعداد، لا يتهربون فقط من غايته الجماعية - كشف عدد، أي قوة الجماعة - بل يتهربون أيضاً من غايته الفردية: تحديد جدول الضريبة. وفي هذا البلد الذي وجد فيه المسيحيون ضيعتهم، كانت ضريبة الرأس التي فرضها عليهم القانون الإسلامي بشكل انتقائي قد كفت

فى الواقع عن أن تجبى بالمثابرة ذاتها التى تجبى بها فى السهل، حيث كانوا أقلية. «بالنسبة لأفراد الأقليات الذين لاذوا به، كان إخفاء عددهم يمثل أيضاً وسيلة لتأمين التنظيم الاجتماعى الذى سمح لهم بصون وتأبيد نوع البنية التى تصوروا فيها وجود وهوية الفرد فى جماعته(١٢)».

وعندما تستعيد إسطنبول زمام الإحصاء فى الولايات، تتفجر الأزمة فى لبنان. وفى نهاية الفترة القصيرة التى حكمته خلالها مصر (١٨٣٢ - ١٨٤٠)، كان البلد قد أصبح هدفاً للقوى الأوروبية الحامية لأقليات الشرق. وسعياً إلى التحكيم بين الطوائف المتنافسة، كان يتوجب التعرف على أعدادها: وتصبح الديموغرافيا محل رهان. وتتناثر التقديرات، المستندة إلى تخمينات بقدر استنادها إلى استغلال السجلات التى تحتفظ بها الطوائف: إن كل فرد يسعى إلى إثبات شىء ما. وبينما تعطى المصادر الفرنسية تقديرات متماسكة، فإن المعنيين أنفسهم يضخمون الأرقام. أما فيما يتعلق بالسلطات الكاثوليكية الأوروبية، والمتأثرة بالأحداث التى تجرى على الجانب الآخر للبحر المتوسط، فإنها تنخرط فى المزايدة. ولا يتم الاتفاق إلاّ على نقطة واحدة، لكنها أساسية: إن جبل لبنان يضم آنذاك مسيحيين بنسبة ٨٠٪ تقريباً من مجموع سكانه (الجدول V.1) (١٣).

الركود الديموغرافى النسبى

فى عام ١٥٨٠، كان الهلال الخصيب يضم مسلمين بنسبة ٩٢٪ ومسيحيين بنسبة ٧٪ ويهوداً بنسبة ١٪. وهكذا فإن ما يقرب من ألف عام من الإدارة الإسلامية قد أدى عمله التدريجى. ومن ثم فإن التحولات إلى اعتناق الإسلام بشكل سلمى، عن طريق الإغراء أو عن طريق تجاوب بسيط، كان لها ثقل مختلف تماماً عن نوبات العنف النادرة ولكن المباغتة التى سممت الأجواء فى عهد المماليك. وكان التنوع الطائفى يستند إلى البحر المتوسط، الذى حافظ برغم كل العقبات على الاتصال مع البندقية وجنوة وأوروبا المسيحية.

إن أقليات الشرق، أكانت تتألف من مسلمين منشقين أم من أهل الكتاب، تسكن الأماكن التى تشكل فيها التضاريس الجغرافية قلعة حصينة. وولاية طرابلس (١٤)، المطلة على البحر، تضم نسبة ٢٨٪ من المسيحيين. وفى مواجهة الصحراء، فإن الجهة الأخرى للجبل تنتمى بشكل أكثر رسوخاً للمجال الإسلامى: ٨٪ فقط من المسيحيين فى ولاية دمشق، ولكن

الطائفة اليهودية الأولى (٢٪ من السكان)، المتقدمة كثيراً على طائفة بغداد. والحال أن جبالاً أخرى، جد نائية عن طرق أوروبا البحرية، قد حافظت على وجود مسيحى فى إقليم الموصل. وفى أعماق السهوب السورية، يسود الإسلام فى المقابل دون منازع تقريباً: فالمسيحيون أقل من ٣٪ فى ولاية حلب، حيث سوف يولدون من جديد بالمعنى الحرفى للكلمة فى ظل إدارة اسطنبول المباشرة.

وبعد أربعة قرون من السلطة السنّية العثمانية، تسترد الطوائف غير المسلمة فى الهلال الخصيب ثقلاً ديموغرافياً ملحوظاً. فاليهود قد زادوا مرتين والجماعة المسيحية تتزايد ثلاث مرات: إن أكثر من ٢٠٪ من السكان يصبحون منذ ذلك الحين مسيحيين و٢٪ يصبحون يهوداً! ويزيد المسيحيون بمعدل ٩ر٣ واليهود بمعدل ٩ر٢، لكن المسلمين لا يزيدون إلاّ بمعدل ٢ر١. وكانت اليهودية قد حصلت، عند بدايات الإمبراطورية، على دعم آخر المنفيين من أسبانيا، الذين جاءوا لتعزيز الطائفة الصغيرة التى كانت موجودة دائماً فى فلسطين. أمّا الجماعة المسيحية فقد تعاظمت خلافاً لذلك دون مدد خارجى، بما يجعل من العقود العثمانية استثناءً طويلاً: فلأول مرة فى تاريخ دار الإسلام، زادت ثقلها النسبى نتيجة لمواردها الخاصة (معدل المواليد، معدل الوفيات) وليس نتيجة لمدد خارجى كمدد الصليبيين فى الزمن الغابر وكمدد الكولون فيما بعد (الجدول V.3).

وتزيد جغرافية الأقليات المسيحية من تأكيد تبايناتها. فهى إذ تزدهر فى مناطق الرخاء الاقتصادى والاتصال بالعالم الخارجى – الغرب أكثر من الشرق – تهجر ببطء المناطق الداخلية؛ ويتأكد التركز على الساحل ويتسع. وهكذا فإن الجماعة المسيحية، المنبثقة من لاجئى الجبال فى اتجاه البحر المتوسط فى الغرب وصوب المشارف التجارية للبادية [١٥] فى الشرق، تمثل فى عام ١٨٨١ نسبة ٤٠٪ من سكان الأقاليم المطلة على الساحل (ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان) و١٢٪ و١٥٪ من سكان ولايتى حلب ودمشق. أمّا مسيحيو حلب، الأكثر قرباً من اسطنبول، ومن ثم الأكثر تمتعاً بالحماية من جانب النظام الإمبراطورى، فقد شهدوا النهوض الأكثر إثارة للدهشة – ٩ر٥٪ كمعدل سنوى للنمو الديموغرافى – فى حين أن المسلمين لم يزيدوا إلاّ بنسبة ٢ر٠٪. وفى أيامنا، تذكر العائلات الكاثوليكية فى حلب أن السلطان سليم الأول، الذى أحزنه ألاّ يجد فى المدينة غير عدد جد قليل من المسيحيين، قد أمر، فى القرن السادس عشر، بإعادة توطين الطائفة فيها: وهكذا نجد تفسيراً جزئياً للتنوع المدهش للأصول الذى كان مايزال بالإمكان رصده فى عام ١٩١٤: إن نسبة ٥٢٪ من الحلبيين

المسيحيين تتألف من يونانيين كاثوليك أو أرثوذكس، وتتألف نسبة ٣٢٪ من أرمن، بينما تتألف نسبة ١٤٪ من سوريانيين [١٦]. ومثل هذا النهوض يعوض هبوط الطوائف المسيحية الأكثر شذوذاً، وهي الطوائف التي سوف تختفي تدريجياً من ولاية بغداد.

ومن المؤكد أن النمو الديموغرافي لم يكن متواصلاً على مدار القرون الأربعة للحكم العثماني. ففي إثر الاندفاع القوى للسكان الذى يجتاز القرن السادس عشر فى مجمل عالم البحر المتوسط وفى الشرق العربي، يجيء ركود طويل. وفى عدة أسابيع تؤدى الأوبئة والمجاعات إلى إلغاء عشرات السنين من التراكم الديموغرافي. ونحو أواسط أو أواخر القرن التاسع عشر، ينتظم النمو ثم يتسارع. وخلال هذه الفترات الثلاث، لا مراء فى أن الجماعة المسيحية لم تكن تملك ميزة متواصلة.

ونحن لا نملك غير معلومات جزئية عن التطور فى الأزمنة الأولى للإمبراطورية. ونعرف أن النمو الديموغرافي يصل إلى أقصى مدى له نحو أواسط القرن السادس عشر فى ثلاثين من المراكز المختلطة التابعة لولاية دمشق. وكان النمو الديموغرافي للمسيحيين آنذاك ضعف النمو الديموغرافي للمسلمين: ٢٠ر٣٪ فى السنة فى مقابل ٩ر٨٪ فى ١٥٣٣ - ١٥٥٩ [١٧]. وفى تلك الأزمنة الرحيمة بالنسبة لجميع السكان، لابد من ثم أن معدل مواليد المسيحيين كان أقوى من معدل مواليد المسلمين، أو أن معدل وفياتهم كان أضعف، مثلما سيحدث فى القرن التاسع عشر. أمّا فيما يتعلق بالمدن، المعرضة لهجرات قوية، فهى تقدم كل حالات التصور الممكنة: صعود الجماعة المسيحية فى دمشق والرملة، الثبات النسبى فى بيروت ونابلس وغزة، الهبوط فى القدس (الجدول 9 .V).

أما معدل الوفيات العادى، الوفيات التى تحدث دون كوارث كبرى، فهو ينتظر ما يحدث من تقدم اقتصادى وتقنى فى القرن التاسع عشر حتى يهبط. وعندئذ فإن المسيحيين واليهود سوف يتقدمون على المسلمين بنصف قرن؛ فالعصر الحديث يقتحم الشرق العربى عبر أقلياته وليس عبر المسلمين. وبرغم بقاء معدل مواليدها على حاله، يتسارع نموها. ويمس الانتقال الديموغرافى الطبقات الميسورة قبل العوام، والمدينيين قبل الريفيين. والحال أن الطوائف المسيحية واليهودية كانت مزدهرة ومدينية نسبياً. وهكذا فإن الاقتصاد والجغرافيا، لا الدين نفسه، هما اللذان سوف يكونان مؤاتيين لها. إن عين السبب الذى سيجعلها تخلى الساحة فى القرن التالى، لأنها ستكون من جديد أول من يواصل الانتقال عبر انخفاض لمعدل المواليد، هو الذى دفعها فى البداية إلى أعلى.

وتكاثر العمليات الإحصائية نحو أواخر العهد العثماني يقدم مجهراً لرصد سوريا ولبنان وفلسطين. فبين عامي ١٨٨١ و١٩١٤، في هذه البلدان الثلاثة، يتزايد المسلمون كل سنة في المتوسط بنسبة ١٠٪، لكن المسيحيين يتزايدون بنسبة ٢١٪ إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نموهم الطبيعي وبنسبة ١٤٪ في الحساب الصافي (١٨) (الحساب الصافي* يساوي معدل النمو الطبيعي مطروحاً منه معدل النزوح). وكانت هذه المعدلات مرتفعة نسبياً. ثم تضيق الفجوة التي تفصل المسلمين عن المسيحيين، لأن النزوح إلى العالم الجديد يمتص بشرائح ضخمة الفوائض الديموغرافية للجبل اللبناني، وهي فوائض مسيحية أساساً: إذ يجرى تسجيل ٣٠٠٠ مغادر في السنة بين عامي ١٨٦٠ و١٨٩٩، ثم ١٥٠٠٠ بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٣ (١٩). واتساع السحب يكفي لتوضيح اتساع زيادة المواليد على الوفيات.

فهو سحب، لكنه أيضاً بالون أو كسيجين، لأن لبنانيي الشتات، في الأزمنة الأولى على الأقل، لا ينسون جذورهم. فالمدخرات التي يحولونها إلى البلد تحرك بدورها اقتصاد الجبل وتسمح بمعدل مواليد مرتفع، بالرغم من ضغط أرض مشبعة: فموارد الزراعة الجبلية ما كان يمكن لها أن تكفي لذلك. وعبر آلية مضادة، نجد أن اليهود (الذين ينمون بنسبة ٠.٢٣٪ في السنة في المتوسط) سوف يبرزون في الصدارة، وذلك بالرغم من نمو طبيعي أدنى من النمو الطبيعي للمسيحيين. فالواقع أن الهجرة اليهودية كانت تتدفق على فلسطين، التي تستقبل أكثر من ٨٠٠٠٠ قادم من أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى (٢٠). وتوجد ديموغرافيا الأقليات الطائفية تباينات قوية في المجال السوري. فولاية بيروت تستقطب منذ ذلك الحين القوة المسيحية على حساب ولاية دمشق، حيث تصبح الجماعة السكانية المسلمة أكثر دينامية، ولكن أيضاً في حلب، حيث سرعان ما تصل الجماعة المسيحية إلى أقصى ارتفاع لها.

وبحكم استقرارها، تتباين الجماعة السكانية في مصر عن الجماعة السكانية في الهلال الخصيب. فمنذ زمن المماليك، كانت نسبة المسيحيين قد وصلت إلى أدنى مستوى لها، واحد من كل نحو ١٤ في القرن الثالث عشر (٢١). وفي وجه معدل الوفيات ومعدل المواليد، كان الأقباط والمسلمون يملكون أرصدة واحدة أو واحدة تقريباً، إذ قلما كان هناك تباين بينهم من حيث مستوى المعيشة والعلاقات الزراعية.

ويذكر جومار، أحد كتاب وصف مصر الرفيع المكانة: «إن حالة السكان هي أحد الجوانب الأقل مؤاتاة في المسألة المصرية. فبدلاً من أن يتزايد السكان أو يظلوا في حالة ثابتة، نجد أنهم يتناقصون. ودون الرجوع إلى العصر القديم، فإنني أنطلق من الحملة الفرنسية.

ووفقاً لأرجح الحسابات، فقد كانت القاهرة تضم آنذاك ٢٦٣٠٠٠ نسمة، بينما كانت بقية البلد تضم ٢٢٢٥٣٠٠ نسمة. أى، إجمالاً، أقل من مليونين ونصف مليون [٢٢]، بما يشكل نتيجة محزنة لحكم المماليك والغزو العثمانى. ومنذ رحيل الفرنسيين، تفجر وباء الطاعون بشكل عنيف ثلاث إلى أربع مرات [٢٣]». ثم يقدم جومار جدولاً لـ «مختلف الأمم التى تسكن مصر»، خارج المسلمين من أهل البلاد الأصليين: الأتراك: من ٣٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠، المماليك والعبيد البيض: ٨٠٠٠، الأقباط: ١٦٠٠٠٠، النوبيون والزنوج: من ١١٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠، الأرمن: ٢٠٠٠، الشوام: من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠، اليونانيون: ٥٠٠٠، اليهود: من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠. ومن ثم فإن إجمالى المسيحيين يصل إلى ١٧٠٠٠٠، أى نسبة ٦ر٧٪ من السكان بحسب تقدير جومار [٢٤].

وسوف تقدم التعدادات الأولى فى عامى ١٨٤٦ و١٨٨٢ نسبة مئوية أكثر ارتفاعاً بدرجة طفيفة: ٨٪. ولا مراء فى أن المجتمع الذى يشهد تحديثاً سافراً فى تركيا وفى الشام قد شهد اندفاعاً مسيحياً.

وسوف تتمايز الطوائف أولاً بمعدل الوفيات. فحتى القرن التاسع عشر، كان معدل الوفيات العادى أقل تأثراً بالملة، فى تلك الأزمنة التى كان الطب مايزال فيها غير فعال. لكن المسيحيين واليهود يجدون أنفسهم فى وجه الأزمات - المجاعات، الأوبئة وأحياناً الحروب - فى وضعٍ مصون نسبياً. فالأماكن التى يحيون فيها تكفى بالفعل لأن تكون مؤاتية لهم. ففى هذه المشارف الصحراوية، حيث كانت نزوات الماء طاغية، كان الريف معرضاً لافتقارات متكررة إلى الإنتاج؛ وكانت المجاعة تتربص بالفلاح. إلا أنه كان لابد لها أن تكون رهيبة حتى تصيب ساكن المدينة، خاصة فى المدن التى كانت التجارة البعيدة فيها تخفف من تقلبات الإنتاج الزراعى. وفى سوريا كما فى فلسطين، فإن المسيحيين واليهود، الأكثر تركزاً فى المدن من المسلمين، كانوا يجدون أنفسهم لذلك أكثر حصانة ضد انهيارات الإنتاج الزراعى.

وفيما يتعلق بالمدن، فقد كانت الأوبئة تصيبها على فترات متقطعة. وكان تداخل الأزقة الضيقة ووخامة قنوات صرف المياه المكشوفة يناسبان انتشار الأمراض المعدية. وكان تصرف البشر وحده هو القادر على وقف انتشارها. والحال أنه، فى مواجهة الطاعون، وهو سبب انهيارات كبرى، فإن المسلمين والمسيحيين المحليين لا يتخذون موقفاً واحداً: فالأوائل يتصدون له بشكل جماعى: والعلاقات التى تحتفظ بها العائلات إحداها مع الأخرى تعرضهم كلهم للعدوى. أما الأخيرون فإنهم يعزلون أنفسهم، على العكس من ذلك. وعلى غرار «الفرنجة»، الدبلوماسيين أو التجار أو الحرفيين الأوروبيين، ينسحب المسيحيون بعيداً عن المدينة الموبوءة أو يحبسون أنفسهم فى منازلهم إذا كان الوباء لا يدع لهم فرصة للهرب.

والحال أن بيير پلان، وهو تاجر فرنسى فى حلب عشية الثورة، يصف الانعزال الذى سمح للمسيحيين بالإفلات من الموت المتكرر: «إنه يتمثل فى عدم الخروج من المنزل وعدم السماح لأحد بدخوله. (...) وتلك هى الاحتياطات الوحيدة التى اتخذها كافة الفرنجة وعدد من المسيحيين واليهود، ولذا لم يحدث أن أحداً منهم قد أصيب بالطاعون (٢٥)». كما أن بيروت، فريسة الكوليرا، سوف تشهد نزوح المسيحيين بينما سوف يبقى المسلمون. وتذكر رسالة تجارية مؤرخة فى عام ١٨٦٥ فى بيروت «أن المسيحيين قد هربوا كلهم تقريباً إلى الجبل ومرة أخرى، فى أيام عودة الوباء هذه، تصيب الكارثة المسلمين بوجه خاص (٢٦)». وهذه الكوارث الكبرى، وهى أمراض الفقراء، لا تدفع إلى الفرار غير الأغنياء، فهم وحدهم الذين يملكون الإمكانات المادية للهرب. فهل كانت هشاشة المسلمين الكبرى راجعة من ثم إلى أنهم يشكلون جمهرة عوام المدن (٢٧)؟

وفى لبنان وربما فى العراق، كانت التضاريس الجغرافية سبباً آخر لحماية المسيحيين. فالمنحدرات الوعرة التى يتحصنون على جناحها سوف تحميهم من الهجمات الحربية، ولكن أيضاً من أمراض السهل والمدن، الملاريا والكوليرا، التى يقتل الارتفاع جراثيمها: «بفضل الملاذ الجبلى، تكتسب الصحة والمرض طابعاً طائفياً أيضاً (٢٨)». ونجد التباينات نفسها على الضفة الأفريقية للمشرق: فطاعون عام ١٨٣٥ يقتل ٣٥٪ من السكندريين، ولكن بتفرقة هائلة: ٥٥٪ من المسلمين المصريين، ٨٥٪ من «البرابرة والزنوج»، ومجرد ١١٪ من الأتراك، و١٢٪ من الأقباط والأرمن واليهود، و١٤٪ من اليونانيين و٦٪ من الأوروبيين. وينزف الإسلام بينما تفلت الجماعة المسيحية نسبياً من الكارثة (٢٩).

كما أن انفصال أماكن اللقاء يلعب دوراً. ففى هذا المجتمع المتعدد الطوائف، يظل الدين معلماً أساسياً للهوية الجماعية. وأفراد الأقليات والمسلمون، المتجاورون فى التبادلات الاقتصادية، يحتفظون بمجالاتهم السكنية الخاصة. فكل مدن المشرق الكبرى، فيما عدا بيروت، لها حيها المسيحى وحيها اليهودى بما يحمل علامة انفصال مقبول غالباً بحرية. وفى القاهرة، نجد أن نوعاً من الهيراركية التلقائية يجعل المسلمين العرب الآخرين، المغاربة والشوام، فى أذهان المسلمين المصريين، أكثر قرباً منهم. ثم يجيىء الأتراك، الذين يصعب مع ذلك فهم لغتهم، ولا يجيىء بعدهم غير المسيحيون العرب، أكانوا أقباطاً مصريين أم كاثوليك شوام، أى ماثلين أزليين فى التاريخ المصرى أو مهاجرين منذ زمن قريب (٣٠). وهكذا فإن الأوبئة التى تصيب البعض من الممكن ألا تصيب البعض الآخر، لأنهم لا يتزاورون كثيراً.

ولم تكن الحروب سبباً لمعدل الوفيات الزائد وجد الهام بين المسلمين فى الولايات العربية للإمبراطورية كما فى الأناضول. فحتى حملات محمد على ضد الباب العالى، سوف تظل الوحدات المقاتلة العربية على هامش العمليات العسكرية الكبرى. وعندما تنشب فى القوقاز والبلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٨) بوجه خاص حروب تدعى إلى خوضها جميع ولايات الإمبراطورية، فإنها سوف تصبح سبباً للتمايز. والواقع أن الرعايا، منذ زمن التنظيمات، كانوا يعتبرون من الناحية النظرية قابلين كلهم للتجنيد، يشمل ذلك المسيحيين واليهود. لكن هؤلاء كانوا يعفون أنفسهم من التجنيد عن طريق دفع البدل (البدلية) (وهى ضريبة إعفاء)، بحيث إن المسلمين كانوا يجدون أنفسهم وحيدين من الناحية العملية فى ساحة القتال. أمّا فيما يتعلق بالخسائر المدنية، فإن الشرق العربى لم يعرف منها سوى القليل فى العصر العثمانى، لأن أى نزاع عسكرى واسع لم يكن يدور فى المدن، فيما عدا النزاعات التى كانت تدور بين الجماعات الطائفية.

وفى القرن التاسع عشر، فى أوروبا أولاً، ثم خارجها عبر إشعاعات متتالية لتقدم الطب، يتعلم الإنسان السيطرة بشكل أحسن على الأمراض. وتتباعد المسافة الزمنية بين الكوارث الطبيعية الكبرى فى البداية ثم تختفى، بينما تتشكل تفاوتات جديدة: فالمعرفة واليسر الاقتصادى والصحة تبدأ فى تقرير بعضها البعض بشكل تبادلى. ومما لا مراء فيه أن ذلك كان عاملاً حاسماً فى التقدم الديموغرافى، فى أواخر الأزمنة العثمانية، للمسيحيين واليهود، لأنهم كانوا ممثلين بشكل أحسن فى البورجوازيات المدينية وأفضل تعليماً من المسلمين. ويقدم معدل وفيات أطفال الأرمن فى القاهرة [٣١] مؤشراً على تقدم أقلية مدينية: معدل بنسبة ١٤٠..٪ بين عامى ١٨٥٠ و١٩٠٠ وبنسبة ١١٥..٪ فى ١٩٠٠ - ١٩١٩، وهو مستوى لن تبلغه المدينة بمجملها بحسب الترتيب إلاّ فى عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٠. وبالنسبة لبعض الأقليات المسيحية، فإن المسافة الاجتماعية التى تفصلها عن الجمهرة المدينية كانت فى ذلك الزمن مورداً ديموغرافياً هاماً بالنسبة لها.

أما فيما يتعلق بتباينات معدل المواليد، فإن المؤشرات أكثر مراوغة والشواهد غير متوافرة. وفى ناحية مختلطة فى جبل لبنان، نجد أن المسيحيين كانوا موزعين إلى ٣٤٫٨٪ من الرجال و٢٥٫٥٪ من النساء و٣٩٫٧٪ من الأطفال، وأن الدروز كانوا موزعين إلى ٣٠٫٨٪ من الرجال و٣٢٫٢٪ من النساء و٣٧٫٠٪ من الأطفال [٣٢]. وتكشف هذه الأرقام عن هبوط إنجاب الدروز - ١٫١٥ طفل لكل امرأة فى مقابل ١٫٥٥ عند المسيحيين - الذى سوف تؤكده

استقصاءات القرن العشرين. لكن الدروز لا يمثلون إسلام الأغلبية. على أن بوسعنا تصور أن عدم استقرار الزواج الإسلامي كان عاملاً من عوامل اعتدال الإنجاب: فتعدد الزوجات، كما لاحظ ذلك بالفعل بعبقرية الكاتب العباسي الجاحظ (٧٧٦ – ٨٦٨)، والطلاق يحدان من معدل الإنجاب بين المسلمين. وفي مستهل القرن العشرين، نجد أن الطلاق قد أجهز على ٣٠٪ من الزيجات في مصر، وعلى أكثر من ٤٠٪ في الجزائر [٣٤]. ومن الواضح أن المرأة المطلقة تضع نفسها من جديد في سوق الزواج، ولكن بعد تأخر في الأهلية (للزواج) وبفرص أقل في العثور على زوج جديد. وفي هذا المجتمع التطهري، فإن عليها أن تحيا طلاقها في وحدة جنسية. وهكذا فإن السهولة التي تتيحها إجراءات الطلاق يمكنها أن تعرقل، باستمرار، الدينامية الديموغرافية للإسلام [٣٥]. وخلافاً لذلك نجد أن العائلة المسيحية تنجو من الطلاق، الذي لا يتم إلاّ بصعوبة قصوى أو تحرمه كنائس الشرق ببساطة.

الانتشار المسيحي الجديد في الشام

يترافق توزيع جديد للمكان مع الاندفاع المسيحي. وترجع إلى العصر العثماني أربع حركات ديموغرافية كبرى سوف تعيد صوغ خريطة توزيع القوام السكاني بما يؤدي إلى رسمها بالشكل الذي تبدو به في أيامنا. وكانت الحركة المرتبطة على نحو مباشر أكثر بالنمو الديموغرافي هي الانتشار صوب الجنوب، انطلاقاً من المربع المحدد بنهر قديشه وبنهر الكلب. أما الحركة الثانية فهي الهجرة بالمعنى المحدد للكلمة، والتي انبثقت من تصدع ديني، هو الانشقاق الكاثوليكي المضاد في الكنيستين الأرثوذكسية والجريجورية. وأما الحركتان الثالثة والرابعة فلهما أصل سياسي: العنف الطائفي الذي نشب في دمشق وفي كردستان.

وفي لبنان الأوسط، كان الموارنة قد استفادوا في السابق من القمع المملوكي السني لاحتلال بلاد الشيعة، وهي مواقع سوف يعززونها في ظل العثمانيين. وسوف تترافق بعض البطولات مع عمليات نزوح محدودة، خاصة في كسروان (١٦٧٧ و١٦٨٤)، لكن الاقتصاد يلعب الدور الرئيسي في الأمر. فالشيعة، وهم فلاحون صغار، لا يكفون عن الاقتراض من تجار الساحل الذين يسددون لهم ما عليهم من دين بالتنازل عن الأرض ويرحلون للحاق بغالبية أبناء طائفتهم على الجهة الأخرى للجبل. ولن يعبروها من جديد إلاّ في الشطر الثاني من القرن العشرين، وسوف يخلقون عندئذ حزام فقر على أبواب بيروت.

والحال أن الموارنة سوف يجدون الفائدة التى كانوا قد حصلوا عليها فى السابق من التطويق الذى فرضه الإسلام المملوكى الصارم، ولكن فى وضع مقلوب. فبينما كانوا قد انتشروا فى زمن المماليك بفضل إجراء عسكرى من جانب الدولة، فإن عدم تدخل السلطة العامة فى زمن العثمانيين فى شؤون الجبل، خلافاً لذلك، هو الذى يتيح لهم سلسلة من الفرص. فالآن سوف ينتشرون صوب الجنوب، فى الشوف، بلد الدروز. فمنذ القرن السابع عشر، وبدافع من ديموغرافية نشيطة، سوف يقيم فلاحون موارنة على أراضى الإقطاعيين الدروز. وإذ كانوا فلاحين مؤاجرين عاديين عند وصولهم، فإنهم يستفيدون من قاعدة عقارية تقدمية بشكل غريب، هى المغارسة (المزارعة)، والتى يحصل العامل الزراعى بموجبها، بعد وقت معين، على جزء من الملكية. وبدلاً من أن يكون ذلك «استعماراً مارونيا حقيقياً للبنان[٣٦]»، فقد كان تسللاً بطيئاً، بإيقاع تتعاقب فيه الأجيال على الأرض.

وهو يجرى دون أن يلحظه الدروز إلى أن يجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أقلية واضحة فى ضياعهم. وعندئذ يقع حادث حاسم بالنسبة لتاريخ البلاد، هو المعركة التى يتقاتل فيها الدروز فيما بينهم، فى عام ١٧١١، فى عين داره. فعلى مدار الأزمنة، كان الدروز موزعين تحت سلطتين متزاحمتين: القيسيين القادمين من الشمال، واليمنيين، القادمين من الجنوب. وهذا التوزيع، الأسطورى بأكثر من كونه واقعياً، يخترق جميع القبائل القادمة منذ زمن غابر من شبه الجزيرة العربية. وفى عين داره، تدور رحى معركة بين الأشقاء، ماتزال ذكراها حية فى الذاكرة الجماعية، بين هذين الفرعين الدرزيين المحتشدين حول عائلتين متزاحمتين: آل شهاب وآل علم الدين. وسوف يؤدى الانتصار الذى يحرزه الأوائل إلى حسم صفحة من صفحات التاريخ المارونى. فالمقهورون والسكان الذين دعموهم سوف ينزحون إلى المنفى فى واقع الأمر وراء جبل حرمون، فى حوران. وكان المكان خالياً أمام المؤاجرين الموارنة الجدد.

والواقع أن الديموغرافيا المارونية قد خرجت فائزة من الصدامات التى قسمت الدروز كما خرجت السياسة فائزة أيضاً منها. ذلك أن الشهابيين، أمراء الدروز وإن كانت عقيدتهم سنية، سوف يعرفون أول تحولاتهم إلى اعتناق المارونية فى عام ١٧٥٦ [٣٧]. ومنذ عام ١٧٧٠، ولأول مرة منذ مجىء الإسلام وكواقع فريد فى الشرق العربى، سوف يتم حكم لبنان من ثم من جانب مسيحى، هو الأمير يوسف شهاب. ومنذ ذلك الحين لا يكف لبنان عن أن يجد نفسه تحت حكم أحد المسيحيين [٣٨]. والواقع أن الأمير، السنى من الناحية الرسمية، شأنه فى ذلك شأن خلفائه، قد حافظ على دينه الجديد فى سرية محترسة.

والحظوات التى سوف يهبها الأمراء للمسيحيين سوف تجعل من لبنان الملاذ الآمن لطوائف مختلفة هاربة من المحن. ففى أعقاب التوسع المارونى، تجيىء هجرة باكملها من سوريا الداخلية لتعزيز العنصر المسيحى فى لبنان. ويتعلق الأمر إلى حد بعيد بعائلات منتمية إلى الطائفة اليونانية الكاثوليكية، ذلك المسمى الجديد الذى يتميز بنبرة مفارقة، والذى يشير إلى المنشقين البابويين عن الأرثوذكسية، المؤازرين لروما، والذين يشكلون أنفسهم فيما بعد فى كنيسة خاصة (١٧٠١). فعداوة الأرثوذكس لهؤلاء المرتدين تنحط إلى تهديدات ومضايقات وأعمال شغب: إن كنائس مسيحية سوف تحرق على أيدى مسيحيين آخرين. وهذه الحوادث تدفع جزءاً من البورجوازية المدينية إلى النزوح إلى مصر ولبنان. وسوف يتبعهم يونانيون أرثوذكس، للانضمام إلى النواة الصغيرة التى كانت قد استقرت منذ زمن بعيد فىَ سهل طرابلس الشام. وفى اللحظة نفسها تقريباً، سوف تستقر فى لبنان (١٧٣٧ - ١٧٤٨) طائفة أرمنية أولى، تتألف من الكاثوليك الجدد الذين طردتهم من قيليقيا حوادث مماثلة.

أما دخول مسيحيين آخرين من سوريا إلى لبنان، فى عام ١٨١٠، فقد كان له أصل مختلف تماماً. إن جماعة من الأصوليين المنحدرين من شبه الجزيرة العربية، هى جماعة الوهابيين (٣٩)، المتأثرين بكتابات ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨)، سوف تهدد دمشق بعد تخريب الأماكن المقدسة للشيعة فى العراق. والحال أننا أمام ديمومة غريبة لمشروع يعتبر نفسه، فى أواخر القرن العشرين ولكن انطلاقاً من نجد دائماً، مصلحاً للإسلام الذى لا يُراعى. وفى العاصمة السورية وفى جميع المدن التى انتشر فيها الإرهاب الوهابى، فإنه يعيد إحياء التدابير التمييزية العتيقة التى كان النسيان قد طواها منذ زمن بعيد. وإذ يجد المسيحيون أنفسهم معرضين من جديد لكل أنواع المضايقات، فإنهم يهجرون سوريا هجرة جماعية إلى بيروت وجبل لبنان. ويشجعهم على ذلك الأمير بشير الثانى (٤٠)، وهو نفسه مسيحى فى السر.

وهكذا فإن الخريطة الطائفية لما سوف يصبح لبنان الأكبر كانت قد رسمت بالفعل تقريباً منذ الثلث الأول للقرن التاسع عشر. والحال أن كولونيلاً بريطانياً كان قد اطلع على سجلات الضرائب (١٨٣٥) يجرى عندئذ الحساب: إن الإسلام يهيمن فى السهل والمسيحية تهيمن فى الجبل. والمدن الساحلية كلها تتميز باغلبية سنية وباقلية يونانية أرثوذكسية قوية، لكن بيروت تضم منذ ذلك الحين مسيحيين بقدر ما تضم مسلمين. وفى شرق المسيف اللبنانى، كانت سوريا سنية فى غالبيتها الساحقة. ولا مراء فى أن القرن الثامن عشر قد كثف تجانسها، ذلك أن تآكل السلطة العثمانية كان قد سمح بتقدم البداوة. والواقع أن هذه الأخيرة قد اقتحمت فى الغرب حد البيداء والأراضى المزروعة واقتحمت معهما التباين الطائفى.

وبعد وقت قصير من الفصل الوهابى تندرج سوريا تحت سلطة السلالة الحاكمة المصرية التى أسسها محمد على، وهو ألبانى الأصل. ومنذ دخول ابنه إبراهيم باشا إلى دمشق (١٨٣٢)، فإنه يرفع التمييزات التى ترجع إلى عصر آخر. ولما كان عاشقاً للحداثة الاجتماعية، فإنه يدشن قدراً أكبر من المساواة بين الطوائف، خاصة فى واجب أداء الخدمة العسكرية؛ فالمسلمون و - لأول مرة - المسيحيون يدعون كلهم إلى حمل السلاح. وهذا الإجراء يصطدم مباشرة بالزمرويات القبلية لمجتمع لا تُعرف فيه التعبئة إلاّ من أجل الذود عن عزبة.

وبتشجيع من الباب العالى وبريطانيا العظمى، يبدأ الدروز بالثورة على إبراهيم باشا، الذى يتهمونه بمحاباة المسيحيين. وكانوا واثقين من أن الشيعة سوف يمدون إليهم يد العون فى ساحة خسروا الصدارة فيها منذ القرن الثامن عشر. وعشية المعركة، يكتشفون تمايز صفوفهم: فالحدث السياسى يكشف فجاة زمن الديموغرافيا الطويل. ومن اللاذقية إلى طرابلس الشام ومن صيدا إلى حوران يواجه الوالى المصرى تمرد طوائف متعارضة إحداها مع الأخرى حول جميع الأمور، ماعدا الرفض الجماعى للتجنيد.

وما كان بوسع نزع السلاح الشامل، الذى تقرر بشكل جد متأخر (١٨٤٠)، أن يوقف الانتفاضة. فالأزمة تُدخل بسلطة أكبر فى اللعبة الطائفية الدول العظمى، التى يصبح قناصلها محركين حتميين: فقناصل فرنسا والنمسا ينحازون إلى صف الكاثوليك، وقناصل روسيا وإنجلترا ينحازون إلى صف الأرثوذكس والدروز بحسب الترتيب. ودعاية الأب ريبو، وهو فرنسى يشق طريقه إلى الجبل مشجعاً المسيحيين على الثورة على الدروز، تؤجج النار [٤١].

وسعياً إلى تجنب صدامات جديدة، تصوغ اسطنبول مشروعاً أول للفصل بين المتحاربين المحتملين. ويعين الباب العالى قائمقامين، أحدهما مارونى والآخر درزى، لكل منهما سلطة على أفراد طائفته دون أن تكون له أرض محددة. ومثل هذا المفهوم، الذى يفصل وضعية الأشخاص عن وضعية الأرض، يصدم أفكار أوروبا، التى لا تحلف عندئذ إلاّ بالدولة القومية. وبموجب توصيات أوروبا، يجرى من ثم تقسيم لبنان إلى وحدتين إداريتين، حيث يحكم كل قائمقام كل سكان وحدته، أكانوا من طائفته أم من طوائف أخرى. «لقد كان ذلك تنظيماً رسمياً للحرب الأهلية فى البلد[٤٢]». فللمرة الأولى، ولكن ليس للمرة الأخيرة، يجرى تحويل طريق بيروت - دمشق، إلى «خط أخضر [٤٣]»، إذ كان من المفترض أن يقسم البلد إلى إقليمين متجانسين، إقليم مارونى فى الشمال وإقليم درزى فى الجنوب. وهذه جغرافية سياسية إجمالية إلى حد ما. فعدة قرى درزية تتواجد بشكل مبعثر فى المتن [٤٤] المسيحى، بينما كان الموارنة أكثرية ليس فقط فى قائمقاميتهم الخاصة، وإنما أيضاً فى قائمقامية الدروز.

وزيادةً لتعقيد التداخل، فإن أكبر مدينة مسيحية آنذاك، وهي دير القمر، تجد نفسها في قلب الإقليم الوحيد ذي الغالبية الدرزية، وهو إقليم الشوف. وهناك سوف يتكبد الموارنة أفدح خسائرهم خلال الحرب الأهلية التي تنشب في عام ١٨٦٠: إن ٢٠٠٠ مدني سوف يُقتلون في يوم ٢٠ يونيو وحده. وبعد أربعة أسابيع من العمليات، فإن وهم التجانس الطائفي الذي تأسس عليه تقسيم البلد إنما يصبح واقعاً: فلم يعد هناك من الناحية العملية مسيحيون في القائمقامية الدرزية، بل ١٥٠٠٠ قتيل و١٠٠٠٠٠ لاجيء [٤٥].

وعلى الساحة، فإن مواجهات عام ١٨٦٠ تتحول بلا جدال لصالح الدروز. على أن الدعم الذي سوف يلقاه المسيحيون من الخارج إنما يجعل من هزيمتهم أداة توسع قوي. فالواقع أن المذابح قد أثارت سخط أوروبا. وقد أرسلت فرنسا قواتها إلى بيروت ولجأت القنصليات الأوروبية إلى ممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لكي تمنح «لبنان الصغير» [٤٦] حكماً ذاتياً، تحت ضمانة أوروبا. وسوف يتعاقب ثمانية متصرفين من عام ١٨٦١ إلى عام ١٩١٥، كلهم كاثوليك تم اختيارهم من زهرة عناصر الإدارة العثمانية: فقد كان الأول والأخير من الأرمن،وبين هذا وذاك، تم تعيين ثلاثة من الحلبيين وألباني وإيطالي وبولوني في هذا المنصب الرفيع. ويعرف البلد أطول فترة للسلم الأهلي فيه وتشهد الجماعة المسيحية أنشط نهوض لها.

وفي نهاية العالم التي مثلتها مناطق الموصل الداخلية، كان تعايش قديم آخر قد اهتز هو الآخر من جراء تدفق رجال الدين الأوروبيين. فلم يكن هناك ما يميز النساطرة عن الأكراد سوى العقيدة. وإذ كانوا ممتزجين في جبل واحد، حيث كان الأوائل مسيحيين وكان الأخيرون مسلمين، فقد تحملوا كلهم قسوة حياة فظة. لكن الكنيسة الكالڤينية، البريطانية في البداية ثم الأمريكية، سوف تخرج النساطرة من النسيان الذي طواهم. فالإرساليات التبشيرية التي تتعاقب عليهم منذ عام ١٨٢٠ سوف تقربهم من الدول الغربية، لكنها سوف تستثير ريبة الأكراد.

والحال أن مذبحة أولى للقرويين المسيحيين تقع في عام ١٨٤٣، ولا يتمكن جيش والي الموصل، الذي أرسل تحت ضغط من جانب القنصل البريطاني، إلاَّ من الفرجة عليها. وهكذا فإن عشرين ألفاً من النساطرة وبعض الكلدانيين يهلكون [٤٧]، بما يشكل بداية للاختفاء شبه الكامل لطائفتهم من الشرق في عام ١٩٣٣ [٤٨]. فهل كانت نزعة قومية كردية أولية مسؤولة عن ذلك [٤٩]؟ يبدو بشكل أرجح أن المسؤول عن ذلك هو الفوضى، التي انتشرت في هذه الجبال المنزوية، قبل السيطرة على الموقف من جانب السلطة المركزية في اسطنبول في عام ١٨٦٩.

وإذا كان اليعاقبة لا يعانون البتة من قدر جذرى كهذا، فإنهم سوف يعانون مع ذلك من مناخ العنف الطائفى الذى سوف يهيمن على بلاد الأكراد نحو أواسط القرن التاسع عشر. وكانوا هم أيضاً مندمجين من الناحية الاجتماعية فى بيئتهم [٥٠]، لكن واقع مشاطرتهم دين النساطرة سوف يعرضهم للتعصب المحيط بهم. وسوف يشهد اليعاقبة انحداراً ديموغرافياً بطيئاً: فمن ٣٠٠٠٠٠ نسمة فى أواخر القرن السابع عشر، سوف يهبط عدد أفراد طائفتهم إلى ١٢٠٠٠٠ نسمة فى أواخر القرن التاسع عشر [٥١]. وفى عام ١٩٢٠، يغادر بطريركهم العراق لكى يستقر فى حمص، فى سوريا، البلد الذى يوفر اليوم مأوى للجانب الرئيسى من طائفتهم (٨٦٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٩٢، من إجمالى ١٦٧٠٠٠ نسمة) [٥٢].

أوراق الأقليات الرابحة

كانت عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام هى الوسيلة الأساسية لتوسع الإسلام. وقد توقفت مثل هذه العمليات من الناحية العملية فى ظل العثمانيين، لأن أسبابها كانت قد تلاشت. على أن ضريبة الرأس، الجزية، تستمر سارية المفعول من الناحية النظرية حتى زمن إلغاء التنظيمات الرسمى لها، لكنها كانت قد فقدت طابعها المرهق: فالضريبة الرئيسية هى الضريبة المفروضة على رأس المال والإنتاج دون تمييز على أساس الدين.

وفى الجبل اللبنانى، حيث لم تكن الإدارة العثمانية تمارس بشكل مباشر، كان الأمير ملتزماً، متولياً لالتزام جباية الضرائب، وكان يقتسم مسؤوليته من الباطن مع أعيان محليين. وكانت الهيراركيات القائمة داخل المجتمع تسمح لمفوضين، هم أنفسهم من الموارنة أو الدروز، بحسب العقيدة السائدة فى الموقع، بجباية الضرائب. وفى الأقاليم التى يسكنها مسيحيون، كان جابى الضرائب من ثم مسيحياً. وبحكم هذا الواقع، فإن الجباية التمييزية للضرائب، والتى ساعدت كثيراً فى الماضى عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام، تفقد تدريجياً شفافيتها الأصلية. وتأخذ الضريبة شكلاً عاماً هو «الميرى» [٥٣] (من «الأمير»). وسوف نقول اليوم أننا أمام خزانة عامة: فهى تكتسب طابعاً غير دينى. ويأخذ المصطلح نفسه فى الإشارة إلى مجموعة متنوعة كبيرة من الضرائب: على الأرض وعلى الإنتاج وعلى صكوك الحالة المدنية، إلخ. ومن ثم فإن جابى الضرائب إنما يقوم بعملية واحدة لجباية الضرائب. والحفاظ على دينه يكف منذ ذلك الحين عن أن ينظر إليه بوصفه ثمناً مميزاً وقابلاً للترجمة إلى لغة الأرقام.

وكان الوضع مختلفاً بشكل محسوس فى مصر، حيث كان جابى الضرائب، المتصل على نحو مباشر بدافع الضرائب المسلم أو المسيحى، قبطياً دائماً تقريباً. وكان القانون يحدد الإطار الإدارى للجباية، مثلما كان يحدد الحصص المخصصة لكل من الباشا العثمانى - ممثل السلطان - والجيش والحكومة المحلية، أى المماليك، إلاّ أنه لم يحدد قواعد محددة لفرض الضرائب. فالشيء المحدد وحده هو المبلغ الإجمالى للضريبة المفروضة على القرية، حيث كان يجرى توزيع حصص دفعها على السكان بموجب تحكيم تقرره لجنة ثلاثية مكونة من جابى الضرائب القبطى (الصراف)، وعمدة القرية (شيخ البلد) والمحامى المدافع عن مصالح القرويين (الشاهد).

وهذا التوزيع للأدوار يضع الصراف فى وضع ملتبس، حيث يتنافس انعدام شعبيته مع سوء سمعته. وغالباً ما كان يجرى اتهام الصرافين بالجشع، مع تقدير نزاهتهم فى النزاعات القروية، التى غالباً ما كان شيخ البلد طرفاً فيها على العكس من ذلك. ويقدر رحالة فرنسى - بمبالغة واضحة - بثلاثين ألف نسمة عدد الأشخاص الذين يحيون فى مصر من جباية الضرائب، ويصل به الأمر إلى حد تحميلهم المسؤولية عن هبوط عدد السكان: فالصراف، بشكل أكثر فداحة من المملوك، قد ثبط من ثم عزيمة الفلاح على الإنتاج (٥٤). وكانت قاعدة إدارة الشؤون المالية قبطية بوجه عام. بل يحدث أن قمة الإدارة تصبح قبطية أيضاً. وعلى مدار أربع سنوات، اتخذ محمد على جرجس الجوهرى وزيراً للمالية، وهو وجيه من البورجوازية القبطية اجتنب تعاطف الشعب بسياسته الضريبية المعتدلة، وإن كان الوالى قد اضطر إلى التخلص منه لهذا السبب عينه (٥٥).

وفضلاً عن إدارة الضرائب، فإن مجمل الجهاز المؤسسى للإمبراطورية العثمانية يأخذ فى التحول. إن الأقليات الطائفية لن تشكل أبداً أمماً بالمعنى الذى نفهمه اليوم من كلمة أمة، تتمتع بأرض (٥٦)، لكنها سوف تستفيد من إنشاء نظام الملل، والذى تفوض السلطة العثمانية بموجبه سلطتها إلى الرئيس الروحى لكل طائفة من الطوائف التى تعترف بها، فى جميع المسائل التى لها دخل بوضعية الأشخاص. فمن الزواج إلى الميراث مروراً بالمدرسة، ترجع جميع شؤون العائلة بشكل خاص إلى صلاحيات الملل. ووضعية الذمى التى كانت تربط بشكل فردى الأقليات فى السابق بالسلطة المسلمة تتحول إلى ميثاق جماعى بين السلطان والطوائف. ومن ذرات من أفراد - كما كانوا فى السابق - يتحول المسيحيون واليهود إلى جماعات من المجتمع معترف بها.

وخلافاً لنظام الملل، الذى يعزز الطوائف من الداخل، فإن الامتيازات (الأجنبية) تشدها صوب الخارج. ففى عام ١٥٣٥، يقدم سليمان القانونى لفرانسوا الأول امتيازات تجارية، مكافأة له على إدخاله الإمبراطورية فى اللعبة الأوروبية. وسعياً إلى ضمان احترام أشخاص ومصالح التجار الفرنسيين، يأخذ قناصل فرنسا فى توسيع صلاحياتهم فى المجال التجارى والمدنى والجزائى. وسرعان ما تستفيد فرنسا من هذه الامتيازات لتجعل من نفسها حامية، ليس فقط لرعاياها فى شرقى البحر المتوسط، وإنما أيضاً لأولئك الذين يعتنقون نفس ديانتها، الموارنة وكاثوليك الملل الشرقية. وإذ يجدون أنفسهم «محميين» حماية مزدوجة، من جانب السلطان ومن جانب ملك فرنسا، فإنهم يصبحون الوسطاء المشار إليهم بالبنان بين الإسلام والجماعة المسيحية، خاصة فى المجال الاقتصادى: والامتيازات تشكل مؤسسة رئيسية لصعود بورجوازيات تجارية بين مسيحيى الشرق.

وهكذا، فبعد ثمانى عشر سنة فقط من فتحهم لسوريا، يقبل العثمانيون، حول مسألة الأقليات، تخلياً أول عن السيادة. وفى عام ١٧٤٠، سوف تفقد الامتيازات فى الواقع طابعها الذى يتميز بالسخاء السلطانى لتصبح التزاماً خالصاً وصرفاً حيث يتعين على السلطان، بناءً على طلب من ملك فرنسا، وليس بناءً على مبادرة من جانب الأول، تمديد العمل بالمعاهدة. وفى تلك الأثناء، كانت دول أوروبية أخرى قد حصلت على تنازلات مماثلة، خاصة بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا، حيث جعلت كل واحدة منها نفسها حامية لأقلية طائفية.

وشيئاً فشيئاً سوف تؤدى الامتيازات إلى حفز الريبة تجاه الطوائف المسيحية، وهى ريبة تتفجر بشكل متقطع، وإن كانت تتفجر فى جميع الأحوال تقريباً بمناسبة مواجهة بعيدة بين الإسلام والجماعة المسيحية. وهكذا، ففى عام ١٧٩٩، يجرى ارتكاب اعتداءات على المسيحيين فى دمشق «انتقاماً» من دخول بونابارت إلى مصر. وفى أواخر حياته يذكر بونابارت ختاماً لحديثه: «لو تسنى الاستيلاء على عكا، لأمكن للجيش الفرنسى الانقضاض على دمشق وحلب، ولكان على بعد خطوة من الفرات؛ عندئذ كان مسيحيو سوريا والدروز ومسيحيو أرمينيا سوف ينضمون إليه؛ وكانت الجماعات السكانية ستتعرض لهزة عنيفة. (...) عندئذ كان سيكون بوسعى بلوغ القسطنطينية والهند، وتغيير وجه العالم ! [٥٧]». والحال أن التمرد اليونانى (١٨٢١) ونزول الفرنسيين إلى الجزائر والهجمات البريطانية على إمبراطورية المغول الهندية ومختلف الأحداث الأخرى التى أذلت الإسلام عبر العالم سوف يكون لها صداها أيضاً على العلاقات بين الطوائف فى سوريا [٥٨].

وعندما يفتح العثمانيون سوريا ومصر، من المؤكد أن الشرق الأدنى لم يكن قد أدرك أنه بسبيله إلى أن يصبح على هامش الطرق الكبرى للتجارة. وسوف يؤدى اكتشاف أمريكا إلى فتح السبيل إلى موارد خرافية، فى حين أن طريق رأس الرجاء الصالح سوف يسمح بالتخلص منذ ذلك الحين من تقديم ضريبة لوسطاء النقل الجمالين. وسوف يكف شرق البحر المتوسط عن أن يكون ملتقى طرق ليكتسب طابعاً إقليمياً مهمشاً. على أنه لن ينعزل مع ذلك. فالعثمانيون يصبحون سادة لإمبراطورية مترامية الأطراف. ودفعة واحدة، يجد الشرق العربى نفسه غارقاً فى شبكة تبادلات واسعة. وصحيح أنها تبادلات داخلية، ولكن ما أوسع نطاقها! فمن تونس إلى سالونيك ومن حلب إلى بلجراد يجرى تداول أكثر السلع تنوعاً وأكثرها تكاملاً على الطرق الإمبراطورية.

وتواضع الصفقات مع الغرب المسيحى يخفى كثرة التبادلات التجارية الداخلية، بما يشوه من جراء ذلك فكرتنا عن حجم الانتقاش العثمانى. وعشية حملة بونابارت، كانت أوروبا غير العثمانية آخر شريك أصغر بين شركاء مصر (١٤٪ من تجارتها)، بما يبعد كثيراً عن الشرق (٣٦٪) وخاصة البحر المتوسط العثمانى (٥٠٪) (٥٩). ومن السفن الفرنسية التى استأجرها العثمانيون فى الإسكندرية، كانت نسبة ٢٫٥٪ فقط تبحر إلى أوروبا: فمن آسيا الصغرى إلى المغرب، كانت جميع السفن الأخرى تبحر داخل البحر العثمانى (٦٠). وعدة مدن عربية تحتل، أو بشكل أدق تعرف الفوز بمكانة محورية. وهكذا فإن المدن التى تربط بين السفن والقوافل، الإسكندرية ثم بيروت، من جهة البحر، وحلب والموصل ودمشق والقاهرة، من جهة الصحراء، سوف تشهد نمواً اقتصادياً، ومن ثم، ديموغرافياً، لا يتناسب مع الموارد الهزيلة التى كان بوسعها الحصول عليها من البيئة الريفية المحيطة بها (٦١). والحال أن عدد خانات رجال القوافل فى القاهرة ينتقل من ٥٧ فى زمن السلاطين المماليك إلى ٣٦٠ فى أواخر القرن السابع عشر (٦٢).

وفى الشمال، نجد أن فشل حصار ڤينا (١٦٨٣) ينبىء بالمصاعب التى تواجهها الإمبراطورية وسرعان ما سوف ينبىء بتفككها فى أوروبا. ومن ثم فإن كتلتها التجارية تنتقل صوب الشرق: وتصبح الإسكندرية وحلب بؤرتين جديدتين لها. والبحر الأحمر، «بحر المسلمين المقدس المحظور على المسيحيين (٦٣)»، يكف عن أن يكون الطريق الملكى للتوابل لكنه يجد منتجاً بديلاً: بن شبه الجزيرة العربية، المصدر من مخا، حيث تنقله الزوارق العربية إلى السويس. وهناك، يأخذ الوسطاء الشوام والأرمن واليونانيون واليهود شحنته، بينما لا يصل التجار الفرنسيون إلا فى نهاية الشوط.

وكانت آسيا العثمانية، الأكثر انتفاشاً من مصر، أكثر انغلاقاً. فمناطقها الداخلية لا تجتذب التجار الأوروبيين، الذين لا يدخلون إلاّ إلى الواجهات البحرية ومؤخراتها القريبة. وتتوقف علاقاتهم عند دمشق وحلب، حيث يبدأ جبروت قوافل التجارة الإسلامية. ومن ثم فإن التجار المتواجدين فى الموقع يشكلون حلقة اتصال ضرورية. وبينما يتولى المسلمون الجانب الرئيسى من التبادلات الداخلية، فإن المسيحيين وبعض اليهود يتخصصون فى المعاملات مع «الفرنجة». وهكذا تتطور بورجوازية مسيحية ترنو ببصرها إلى أوروبا، ليس ضد الإمبراطورية وإنما لأجلها. ودور الوسيط هذا، المتواضع على مستوى العالمين اللذين يوجدانه – الإمبراطورية وأوروبا – كان هاماً على مستوى طوائف الشرق المسيحية، المهيئة للتجارة مع هؤلاء الشركاء الجدد الغربيين، بحكم تقاربها الدينى معهم.

وعلى تخوم الصحراء، حيث يضع الجمّال قدمه على الأرض، نجد أنّ بعض المدن الكبرى تشهد من ثم نمو جماعاتها السكانية المسيحية واليهودية. وإذا ما اقتصرنا على دمشق، فقد كان هناك فى عام ١٥٦٩ ، ٦٣٠٠ مسيحى و٢٣٠٠ يهودى من أصل ٥٢٤٠٠ نسمة [٦٤] (الجدول V.8). وبعد ذلك بقرنين، زاد عدد المسيحيين ثلاث مرات (٢٢٠٠٠)، فى حين أن عدد سكان المدينة لم يصل حتى إلى ضعف ما كان عليه (٩٠٠٠٠) وأن عدد اليهود كان راكداً من الناحية العملية (٤٠٠٠) [٦٥]. ولا يعنى ذلك أن هذه الطوائف كانت مؤلفة من تجار فقط. ففى القدس، فى القرن السادس عشر، نجد مسيحيين ويهوداً، إلى جانب المسلمين، فى جميع الحرف العادية فى المدينة: حرف الحدادين والبنائين والخبازين والغزالين [٦٦].

وقبل بيروت بزمن، ولكن باندفاع أقل، كانت حلب قد شهدت أيضاً بروز جماعتها المسيحية. فالقنصليات التى أقامها هناك البنادقة والفرنسيون والإنجليز والهولنديون بين عامى ١٥٤٨ و١٦١٣ سوف تفتح هذه المدينة الداخلية على أوروبا. وسلطة اسطنبول المباشرة تكفل التعايش الطائفى. والحال أنّ المسيحيين العثمانيين – الملكانيين والكاثوليك السوريين، وكذلك أيضاً الموارنة والأرمن – لكونهم المتعاملين الطبيعيين مع إخوتهم «الفرنجة» فى الدين، سوف يقومون بنشاط مزدهر، ماتزال تشهد عليه أبهة مساكن حى الجديدة وحى العزيزية. ولما كان التعامل بالمثل ضرورياً، فإن الحلبيين سوف يقيمون لهم جالية فى ليفورنو.

وفى مصر، لن يشكل الأقباط أبداً بورجوازية مزدهرة ازدهار البورجوازية التى شكلها المسيحيون فى سوريا. فجماهيرهم تظل ريفية وإقليمية. وفى القاهرة، نجد أنهم لا ينخرطون فى التجارة الدولية، بل يحتلون غالباً مكانة لا وزن لها، فهم كتبة لدى الإدارة أو لدى

الأرستقراطية المسلمة، أو تجار تجزئة أو صغار حرفيين. وتشير قوائم الوراثة إلى تواضع حالهم بالقياس إلى حالة المسلمين: فممتلكات حرفي قبطي متروكة لورثته تصل بالكاد إلى ثلث ما يتركه مسلم من الحرفة نفسها من ممتلكات لورثته (٦٧).

أما الطبقة المسيحية السائدة الحقيقية في مصر فقد كانت سورية الأصل. فهرباً من توتر علاقاتها مع الأرثوذكس، تجيء عائلات ملكانية عديدة من دمشق وبالأخص من حلب. وشأنها في ذلك شأن العائلات القادمة من حلب أيضاً، والتي سوف تشق طريقها إلى بيروت بعد قرنين، فإن هذه العائلات تشكل صفوة مالية وفكرية تهجر سوريا. وفي غضون جيل، سوف تنجح في الفوز بدور اقتصادي واجتماعي بالغ العظمة في القاهرة. وسرعان ما سوف تحل محل اليهود في التزام الجمارك وتلعب دوراً ملحوظاً في الاستيراد والتصدير. وسوف يتمتع كاثوليك مصر السوريون بنفوذ بالغ يمكنهم من التفاوض، بدعم من محمد علي - الذي لا يطلب غير اجتناب اسطنبول - على انفصالهم عن الملة الأرثوذكسية (١٨١٦).

ولم تكن بيروت غير بندر صغير عندما اقترب العثمانيون منها: ٤٢٠٠ نسمة، لا يشكل المسيحيون بينهم غير نسبة ١٠٪ (٦٨). وبعد ذلك بقرنين ونصف قرن، لن يصادف فولني هناك أيضاً غير ٦٠٠٠ نسمة، لأن «عيبين يحكمان على بيروت بألاّ تكون أبداً غير مكان سيئ: فهي من جهة يهيمن عليها ستار من الروابي، (...) ومن جهة أخرى يعوزها الماء في داخلها (٦٩)» وكان لابد من عزم وإرادة إبراهيم باشا، ابن محمد علي، للتغلب على ذلك. فمنذ الاحتلال المصري، تنخرط المدينة في صعود اقتصادي وديموغرافي فريد في العالم العربي (٧٠). وفي الوقت نفسه، تصبح بيروت أكثر العواصم الإقليمية مسيحية (الجدول V.10). ونحو منتصف القرن التاسع عشر أو ربما قبل ذلك إلى حدما (٧١)، يكسب المسيحيون لأول مرة تناظراً (عددياً) مع المسلمين، ثم يكسبون أغلبية الثلثين التي سوف يحافظون عليها حتى الانتداب الفرنسي. وتصبح المدينة قطباً للازدهار الاقتصادي والإشعاع الثقافي سواء بسواء. ويسود السلم الأهلي فيها، حتى وإن كانت الحوليات تسجل من حين لآخر بروز مشاجرات بين القبضايات، فتوات الطوائف المختلفة (٧٢).

وسوف يجد الموارنة في بيروت ملاذاً يلجأون إليه، أحياناً، من هزات الجبل. لكن البورجوازية المسيحية في بيروت كانت أرثوذكسية بالدرجة الأولى. ومنذ القرن التاسع عشر، تكتسب جميع سمات طبقة رأسمالية حديثة وتنشيء بنوك إيداع وبنوكاً تجارية. ومن شأن نشاط عقاري قوي يمتد إلى أركان الإمبراطورية الأربعة على طول تشعب الفروع العائلية أن

يكفل لها في آن واحد رأس مال عقارى وانغراساً عبر قومي. وتنهل بيروت من أعماق الأرثوذكسية العثمانية، كما يشهد على ذلك تنوع أصول أسماء العلائلات.

وهذا الإشعاع غير العادى [٧٣]، إنما تدين به الطائفة الأرثوذكسية لواقع الانتماء إلى أول جماعة مسيحية فى الإمبراطورية، وهى الجماعة الوحيدة التى تملك بطريركية قائمة فى قلبها، فى اسطنبول، والجماعة الوحيدة التى لا تسعى أبداً إلى الفوز بحماية روما. وربما كان اليونانيون الكاثوليك والموارنة وجميع الطوائف ذات الملة اللاتينية أقرب من القنصليات الأوروبية، لكنها الأقرب فحسب: ومن المؤكد أن الحظوات التى تلقاها هناك هذه الطوائف المحمية بنظام الامتيازات بأكثر مما بنظام الملل العثمانى تسهل صلاتها التجارية، لكنها تضر بالثقة العامة. أمَّا فيما يتعلق بالبورجوازية السنية البيروتية، والتى تستقوى بانغراسها فى غالبية الشرق العربى والتركى السنية الساحقة، فإنها تمد شبكتها التجارية إلى أعماق الإمبراطورية وإلى مصر. ويتزايد اختلاط المجتمع البيروتى الجميل كله؛ ليس بعد عن طريق الزواج، بل عن طريق الأعمال التى يتعاطاها.

ولم تكن المدن التجارية وحدها هى التى قدمت للديموغرافية المسيحية فوائد انفتاح على أوروبا. إذ يسهم فى ذلك أيضاً الجبل اللبنانى، الذى يخرج فى ظل السلطة العثمانية من اكتفائه الذاتى [٧٤]. فزراعة أشجار التوت وتربية دود القز، والموجهتان إلى أسواق أوروبية منذ رفع الإدارة المصرية للحظر على التصدير (١٨٣٣)، سوف تقدمان لطوائفها الموارد التى سوف تحررها من تقلبات إنتاج المواد الغذائية. وهكذا يقتحم الموارنة حدود ديموغرافيا تقليدية. ولا يعود إنتاج الحرير مجرد نشاط زراعى، بل يصبح تجارة، ومنذ عام ١٨٥٠ يصبح صناعة صغيرة. والبيوت التجارية، الفرنسية غالباً، واللبنانية أحياناً، والتى ترسل من بيروت الحرير الخام أو خيوط الحرير إلى مرسيليا أو إلى مصانع ليون، ترسى أسس اندماج جديد للطائفة المارونية: ففرعاها المدينى والفلاحى يجدان نفسيهما متوحدين من جديد فى دائرة اقتصادية واحدة ويندمج كلاهما فى فلك دولى.

ويبلغ النهوض السكانى مدى بعيداً بحيث إن الجبل يصبح بدوره ضيقاً للغاية. وعندما يدخل إنتاج الحرير فى أزمة، فإن الجبليين الأكثر تواضعاً يضطرون إلى النزوح إلى ما وراء البحر؛ وهناك يؤسسون بسرعة هوائيات ازدهار جديد. وهؤلاء المهاجرون الأوائل، الذين يشارك بعضهم بنشاط فى بناء الرأسمالية فى أمريكا اللاتينية، يذكروننا إلى حد ما بالبارسيلونيت الفرنسيين [٧٥].

وكان تحديث الشرق العربى ثقافياً بقدر ما كان اقتصادياً. إن مسلمين ومسيحيين،

رعايا عثمانيين عديدين يتعاملون فى واقع الأمر مع تقدم أوروبا على الإمبراطورية، البالغ الوضوح فى القرن التاسع عشر، بوصفه تحدياً. وكان لابد من كسب العلم من جديد، إلى الدرجة التى سوف يكون من الطبيعى تماماً معها أن تجد العلاقات الثقافية مع أوروبا مكاناً لها إلى جانب التجارة. وكان العمل التأسيسى لذلك هو افتتاح كلية روما المارونية (١٥٨٤) فى ظل البابا جريجوار الثالث عشر.

وبعد ذلك بزمن طويل، سوف تؤدى مجموعات المبعوثين المصريين الذين أرسلهم محمد على لمواصلة دروسهم فى فرنسا إلى توسيع الانفتاح (٧٦). إلاّ أنه مع إنشاء المؤسسات المدرسية الدينية الأولى (١٨٣٤ فى لبنان، ١٨٥٤ فى مصر) على أيدى المبشرين الأمريكيين، الذين سرعان ما سوف يتلوهم فرنسيون وإيطاليون وإنجليز، سوف يأخذ النفوذ الغربى فى التغلغل بين السكان ويسهم فى صوغ سلوكهم، خاصة أنماط السلوك التى من شأنها تعديل منحنيات معدل الوفيات. وسوف تلعب البعثات الكاثوليكية دوراً كبيراً فى نشر التعليم. ولن يقتصر تأثيرها على الموارنة واليونانيين الأرثوذكس وحدهم، بل سوف يكون مفيداً أيضاً للطوائف المجاورة لهم، أكانت من الأرثوذكس أم من المسلمين. إلاّ أنه سرعان ماسوف تظهر تباينات شاسعة فى التعليم المدرسى بين الأقاليم و ، فى داخلها، بين الطوائف (٧٧). وفى جميع الأنحاء يحرز المسيحيون تقدماً على المسلمين (الجدول V.7). أما فيما يتعلق باليهود، فقد كان مسلكهم أكثر استمرارية: وإذ كانوا أقل تعليماً من المتوسط فى الولايات التى كان التعليم فيها بالغ الانتشار (بيروت، بغداد، الموصل)، فإنهم يجيئون على رأس القائمة فى الولايات الأكثر تخلفاً (حلب، البصرة). وهو وضع هزيل، إذا ما قورن بوضع يهود أوروبا فى الفترة نفسها.

على أن هناك وجهاً مقابلاً للوحة: فالمواجهة بين الأغنياء والفقراء تتخذ هنا طابعاً طائفياً. وسوف تؤدى التنظيمات إلى آثار غير متوقعة. فالبورجوازية المسيحية التى تشكلت منذ بضعة أجيال من الاتصال بأوروبا تؤكد ازدهارها. وخراب طبقة من المتعهدين الصغار، المسلمين غالباً، مسؤول جزئياً من جهة أخرى عن ثروتها، كما يرصد ذلك شاهد أوروبى: «إن الصناعة الأوروبية المستوردة قد قضت من الناحية العملية على الإنتاج اليدوى المحلى (٧٨)». وكان الحسد الذى ولدته المواقع الاقتصادية للنخبة المسيحية قد تم تخفيفه فى السابق عن طريق عطف معين بسبب وضعيتها الخاضعة. ومع المساواة السياسية التى أعلنت فجأة، فإن التفاوت الاقتصادى يصبح استفزازاً. ويفقد الحسد الثقل المضاد له والمتمثل فى العطف. ويهب العلماء ضد تبديل الطابع الإسلامى للدولة والذى تمثله هذه الإصلاحات العلمانية. ويهب العوام

ضد حرية العبادة التى يتفاخر بها المسيحيون، وضد الأجراس التى تدق من جديد، وضد عمل عبيد مسلمين عند سادة مسيحيين، وباختصار، ضد العجرفة التى تحل محل المسكنة. ويتصاعد سخط الشارع. وخلال حرب الجبل، تشهد بيروت بداية نزوح صوب كسروان، بينما تشهد دمشق مذابح حقيقية: إن ٥٥٠٠ مسيحى سوف يقتلون. ومن المرجح أن عددهم كان يمكن أن يزيد عن ذلك بكثير لولا أن الأمير الجزائرى عبد القادر، الذى استقر في دمشق بعد نفيه من الجزائر، قد قدم وساطته لوقف المجزرة. وقد أشار بذلك إلى أن بوسع المرء، فى آن واحد، أن يعلن الحرب المقدسة على فرنسا وأن يحمى الجماعة المسيحية العربية.

لقد حدث النهوض الاقتصادى والديموغرافى للجماعات المسيحية الشرقية فى سياق دولى فريد، سوف يتلاشى مع الحرب العالمية الأولى. وكان غرب التوسع الاستعمارى قد أكد هيمنته بإعلان سمو مسيحيته. وسار الفتح الاقتصادى والتبشير جنباً إلى جنب. إلاَّ أنه، مع التنوير، سوف تتسرب الأفكار التى سوف تنتصر عند منعطف القرن العشرين. فالعلمانية، وفيما بعد بوقت طويل، الديمقراطية سوف تصبحان العقيدتين الجديدتين. وسوف يعطيان كلاهما للديموغرافيا حقاً على السياسة (٧٩). وعبر آليات معقدة، سوف يوقفان الصعود المسيحى.

جداول واشكال الفصل الخامس

الجدول V . 1

الجماعات السكانية للولايات العربية للإمبراطورية العثمانية فى 1570 – 1590 و 1881 – 1882

الولاية	السكان فى 1580			السكان فى 1881 – 1882**		
	مسلمون	مسيحيون	يهود	مسلمون	مسيحيون	يهود
حلب	643285	16930	1165	690184	99269	9913
طرابلس ، بيروت*	195070	58840	1535	537388	367701	3541
دمشق	452155	39335	10440	338931	61576	6368
بغداد	319990	20175	3015	298704	3326	25364
الموصل				329186	14464	8572
البصرة	98305	0	0	158496	758	880
الإجمالى	1708805	135280	16155	2352889	547094	54638

* بما فى ذلك جبل لبنان، الذى فصل عن ولاية بيروت فى 1881 – 1882.
** 1887 بالنسبة للبصرة.

المصادر : 1580 : ع . ل . برقان، 1881 – 1882 : بحث حول الاستقصاءات الضريبية العثمانية. مصدر سبق ذكره، ك . كربات، السكان العثمانيون ،... مصدر سبق ذكره ؛ فيما عدا جبل لبنان : انظر حاشية الجدول V . 2.

الجدول V . 2

الجماعات السكانية في سوريا ولبنان وفلسطين في 1580 و 1882 و 1914

الطائفة	الأعداد المطلقة			النسبة %			الزيادة (‰ في السنة)	
	1580	1882	1914	1580	1882	1914	1580 - 1882	1882 - 1914
المسلمون	1290510	1536441	2150569	91,0 %	74,2 %	71,6 %	0,6	10,3
المسيحيون	115105	507939	794131	8,1 %	24,5 %	26,4 %	4,9	13,8
اليهود	13140	27382	58644	0,9 %	1,3 %	2,0 %	2,4	23,4

المصادر : التعددات العثمانية لولايات بيروت ودمشق وحلب؛ 1570 - 1590 : ع . ل . برقان، بحث حول الاستقصاءات الضريبية العثمانية، مصدر سبق ذكره؛ 1881 - 1883 : ك . كريات ، السكان العثمانيون ...، مصدر سبق ذكره ؛ جبل لبنان : استخلاص قام به الجيش الفرنسي / كينيه بالنسبة لعام 1882 (ى . كرباج وف . فارج، الوضع الديموغرافي في لبنان، مصدر سبق ذكره)، 1914 : الجدول V . 4 .

الجدول V . 3

معدل الزيادة بحسب الطائفة والولاية
بين 1570–1590 و 1881–1882
(معدل الزيادة الوسطى السنوى ‰)

الولايــة	مسـلمون	مسـيحيون	يهـود
حلـب	0ر2	5ر9	7ر1
طرابلس / بيروت *	3ر4	6,1	2ر8
دمشـق	-1ر0	1ر5	-1ر6
بغـداد	-0,2	-6ر0	7ر1
البصرة **	1ر5		
الإجمـالى	1ر1	4ر6	4ر0

* بما فى ذلك جبل لبنان فى 1881 - 1882.

** 1580 - 1897 بالنسبة للبصرة.

الجدول 4 . V

سكان الهلال الخصيب فى 1914
(البلدان فى حدودها الحالية)

البلد	الولايــة	القضاء/ السنجق	مسلمون	مسيحيون	يهــود	الإجمالى
الأردن			123172	13016	0	136195
	دمشق	الكرك (س)	66023	8205	0	74228
		عجلون (ق)	57156	4811	0	61967
الضفة الغربية / غزة			354838	36504	19183	410525
	بيروت	نابلس (س)	151552	2982	29	154563
	القدس	القدس (ق)	70270	32461	18190	120921
		الجليل (ق)	55720	3	721	56444
		غزة (ق)	77296	1058	243	78597
إسرائيل			160643	32952	12488	206083
	بيروت	عكار (س)	97885	52609	10383	133877
	القدس	يافا (ق)	62758	7343	2105	72206
لبنان			364413	502101	4647	871161
	بيروت	بيروت (س)	145848	63819	4568	213871
		طرابلس (ق)	50004	17293	72	67369
		عكار (ق)	19920	21968	0	41888
	دمشق	حاصبيا (ق)	9405	5843	6	15254
		راشيا (ق)	5490	4139	0	9629

		بعلبك (ق)	18667	6429	1	25097
		البقاع (ق)	19113	10226	0	29339
	جبل لبنان (أوهان/ سمنا)		96330	372384	0	468714
سوريا			1173473	134546	20181	1328200
	بيروت	اللاذقية (س)	134738	11393	0	146131
		صافيتا (ق)	32254	5162	0	37416
		قلعة الحصن (ق)	16477	13281	0	29758
	حلب	حلب (س)	286183	34795	10046	331024
	دير الزور	دير الزور (س)	65770	522	2	66294
	دمشق	دمشق (ق)	197507	14988	10129	222624
		الزبدانى (ق)	14329	1690	0	16019
		وادى الشام (ق)	13528	2770	0	16298
		القنيطرة (ق)	33534	1378	4	34916
		دوما (ق)	35350	3008	0	38358
		النبق (ق)	40139	6205	0	46344
		حماه (س)	176509	29763	0	206272
		حوران (عجلون)	112517	9577	0	122094
	أورفا	الرقة (ق)	14638	14	0	14652
العراق			1030222	33608	69240	1133070
	بغداد*		414045	5612	54322	473980
	البصرة*		188478	997	1311	190786
	الموصل*		427698	26999	13607	468304
إجمالى الهلال الخصيب			3206,768	752727	125739	4085234

* ولايات لم يجر تعداد لها فى عام 1914: توقعات 1881 - 1882 (بغداد) و 1897 (البصرة، الموصل).

المصدر: التعداد العثمانى لعام 1914.

الجدول V . 5

التوزيع الطائفى فى مصر ، 1914

المحافظات	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى
القاهرة	600777	121587	26529	748893
الإسكندرية	307898	90571	21808	420277
بورسعيد	50005	16923	535	67462
السويس	22131	4764	132	27028
دمياط	22947	484	7	23438
الدقهلية	939680	23516	841	964037
الشرقية	911905	20085	291	932280
القليوبية	488477	11360	281	500118
الغربية	1573460	31436	1479	1606375
المنوفية	1009436	32364	45	1041845
البحيرة	838902	13568	216	852686
الإسماعيلية	10494	3904	70	14468
الجيزة	489582	14951	349	504882
بنى سويف	404281	24353	82	428716
الفيوم	464071	23310	71	487453
المنيا	603592	128974	143	732709
أسيوط	747577	210128	99	957804
سوهاج	704659	137347	112	842118
قنا	753795	66030	90	819916
أسوان	240315	6733	113	247161
الصحراء	29742	392	2	30136
الإجمالى	11213725	982780	53296	12249801

المصادر : استخلاص من تعدادى 1907 و 1917.

الجدول V . 6

تقدير التوزيع الطائفي في جبل لبنان في القرن التاسع عشر

التاريخ	الكاتب	إجمالي السكان	المسيحيون: الموارنة	المسيحيون: الكاثوليك	المسيحيون: الأرثوذكس	المسيحيون: البروتستانت	إجمالي المسيحيين	المسلمون: الدروز	المسلمون: السنة	المسلمون: الشيعة	إجمالي المسلمين
1816	كورانسيه							70000			
1833	دوان	215000	130000		10000		140000	65000	2500	3000	70500
1840	لورين	218622					173586	30170		*** 14866	45036
1847	بوريه	193935					153030	26445	8775	5395	40615
1847	جي	300919					237726	40624		** 22569	63193
1847	الشدياق*	107593					77682	12911		***17000	29911
1860	كرم	441500	350000				350000	40000			40000
1860	كاتب مجهول الاسم *	105055					84569	12607		***7897	20486
1860	الجيش الفرنسي	269980	172500	20400	27100		220000	28560	7795	13220	49575
1863	الموارنة	262000	206000		**24000		230000	24000		***7000	31000
1895	كينيه	399530	229680	34670	54208	738	319296	49812	13576	16846	80234

* : الرجال فقط . ** : المسيحيون غير الموارنة . *** : السنة والشيعة.

المصادر : من 1816 إلى 1863، دومينيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان ....، مصدر سبق ذكره ؛ 1895 : فيتال كينيه، سوريا ، لبنان ... ، مصدر سبق ذكره.

الجـدول V . 7

التعليم المدرسى بحسب الطائفة فى أواخر القرن التاسع عشر

الإقليم	الأعداد: إجمالى السكان	الأعداد: التلاميذ	معدل التعليم المدرسى *
ولاية بيروت			
المسلمون	336468	30933	40ر0 %
المسيحيون	166443	21496	64ر6 %
اليهود	25136	1908	38ر0 %
متصرفية جبل لبنان			
المسلمون	80234	3580	22ر3 %
المسيحيون	319297	30172	47ر2 %
ولاية حلب			
المسلمون	465346	11599	12ر5 %
المسيحيون	117809	3770	16 %
اليهود	19265	1180	30ر6 %
ولاية الموصل			
المسلمون	264280	4190	7ر9 %
المسيحيون	30000	2355	39ر3 %
اليهود	6000	40	3ر3 %
ولاية بغداد			
المسلمون	789500	9700	6ر1 %
المسيحيون	7000	650	46ر4 %
اليهود	53500	1467	13ر7 %
ولاية البصرة			
المسلمون	939650	4940	2ر6 %
المسيحيون	5850	115	9ر8 %
اليهود	4500	140	15ر6 %

* معدل التعليم المدرسى : التلاميذ / 20 % من إجمالى السكان.

المصادر : إجمالى السكان والتلاميذ، فيتال كينيه، مصدر سبق ذكره.

الجدول V . 8

التوزيع الطائفي في دمشق في القرن السادس عشر

السنة	1543	1548	1569
الأعداد المطلقة			
المسلمون	43706	49243	42822
المسيحيون	3307	4320	6290
اليهود	3084	3096	3332
الإجمالي	50097	56659	52444
النسب			
المسلمون	87ر2 %	86ر9 %	81ر7 %
المسيحيون	6ر6 %	7ر6 %	12ر0 %
اليهود	6ر2 %	5ر5 %	6ر4 %
الإجمالي	100ر0 %	100ر0 %	100ر0 %

المصدر : م . أ . بخيت، « سكان ولاية دمشق » مصدر سبق ذكره.

الجـــدول V . 9

التوزيع الطائفى فى القدس فى ظل العثمانيين
(1525 ــ 1914)

التاريــخ	المســلمون	المســيحيون	اليهـــود
القرن السادس عشر			
1525	66ر0 %	12ر7 %	21ر3 %
1538	76ر0 %	9ر4 %	14ر6 %
1553	75ر5 %	12ر2 %	12ر2 %
1562	78ر3 %	12ر1 %	9ر5 %
1596	97ر2 %	2ر8 %	0ر0 %
القرنان التاسع عشر والعشرون			
1882	67ر1 %	24ر2%	08ر8 %
1914	58ر1 %	26ر8 %	15ر0 %

المصادر : التعددات العثمانية؛ 1525 ــ 1596 ، أ . كوهين و ب . لويس، 1882 ــ 1914 : ك . كربات، مصدر سبق ذكره.

الجـدول V .10

نسبة المسيحيين فى بيروت ، القرن السادس عشر – القرن العشرون

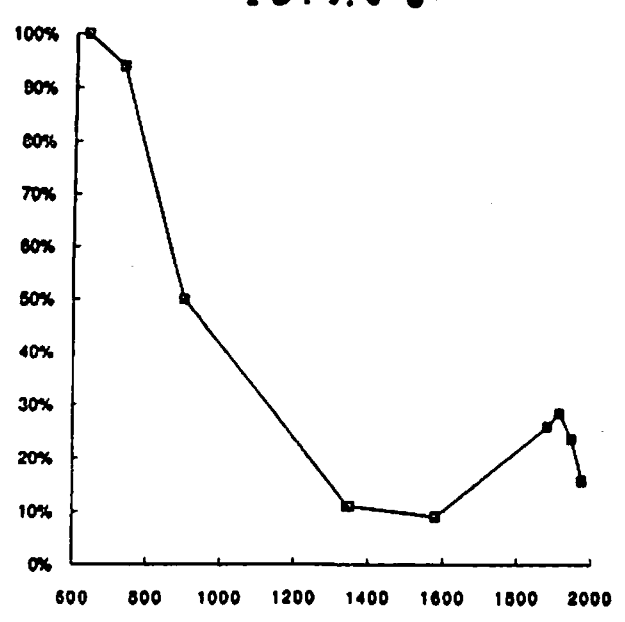
القرن السادس عشر	%	القرن XX - XIX	%
1523	9ر7	1838	45ر0
1530	11ر0	1846	47ر0
1543	3ر3	1860	58ر0
1568	14ر8	1881	57ر0
1596	13ر1	1882	58ر0
		1889	64ر0
		1889	66ر0
		1895	63ر0
		1908	48ر0
		1912	54ر0
		1917	60ر0
		1920	66ر0
		1922	45ر0

المصادر : القرن السادس عشر : م . أ . بخيت، «سكان ولاية دمشق»، مصدر سبق ذكره، القرن التاسع عشر – العشرون : ل . طرزى فواز، التجار ....، مصدر سبق ذكره.

الشكل V . 1 a

نسبة المسيحيين فى سوريا ولبنان وفلسطين

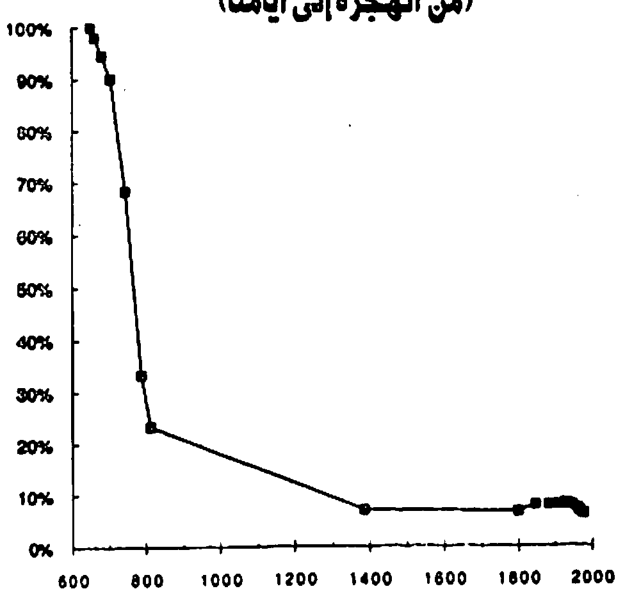
(من الهجرة إلى أيامنا)



الشكل V. 1 b

نسبة المسيحيين فى مصر

(من الهجرة إلى أيامنا)



حواشي الفصل الخامس

1 - Quartier du patriarcat grec orthodoxe à Istanbul.

2 - Entendu ici comme l'ensemble territorial aujourd'hui formé des Etats et territoires occupés suivants: Irak, Israël, Jordanie, Liban, Syrie, Gaza et Cisjordanie.

3 - Ömer Lûtfi BARKAN, "Research on Ottoman Fiscal Surveys", *in* M.A. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East From the Rise of Islam to the Present Day,* Oxford, Oxford University Press, 2nd edition, 1978, publie les données brutes du recensement: des effectifs de ménages. Nous en avons tiré les effectifs de population totale en estimant à 5 personnes la taille moyenne du ménage. Gilles VEINSTEIN, "Les Registres de recensement ottomans. Une source pour la démographie historique à l'épopue moderne", *Annales de démographie historique,* Paris, 1990.

4 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus in the Sixteenth Century", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews in the Ottoman Empire,* vol. II, New York, Holmes and Meier, 1982.

5 - André RAYMOND, "Les provinces arabes (XVI[e] - XVIII[e] siècle)", *in* Robert MANTRAN (dir.), *Histoire de l'Empire ottoman,* Fayard, 1990.

6 - Les recensements suivants, en 1897, 1906 et 1914, portèrent sur une parite seulement des *wilaya.*

7- Exhumés par Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830-1914, Demographic and Social Characteristics,* Madison, The University of Wisconsin Press, 1985.

8 - En réalité, le sexe masculin (tous âges) fut mieux recensé que le sexe féminin. Les chiffres du recensement de 1881/82-1893 que nous fournissons en annexe sont Obtenus en observant la règle suivante : données brutes du recensement ottoman lorsque l'effectif féminin est supérieur ou égal à l'effectif masculin, sinon deux fois l'effectif masculin.

9- La division administrative de l'époque distingue, par ordre d'emboîtement successif, la *wilaya* (province), le *sandjak* (département) et le *caza* (canton). Deux provinces ont des statuts spéciaux d'autonomie, les *moutassarifiyya* du Mont- Liban et de Jérusalem.

10 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...,", *op. cit.*

11 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population..., ", *op. cit.* a dépouillé certains d'entre eux.

12 - Dominique CHEVALIER:, *la Société du Mont- Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe,* Paris, Geuthner, 1971.

13 - Dans les tableaux de l'annexe, nous avons retenu les chiffres les plus détaillés, fournis par Vital CUINET, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie*

administrative, statistique et raisonnée, E. Leroux, Paris, 1896. Voir nos quelques réserves au chapitre VIII.

14 - Elle s'étendait alors de l'embouchure de l'Oronte à la Palestine.

15 - L'espace de nomadisation.

16 - Recensement de 1914.

17 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus...", *op. cit.,* fournit un état brut des registres. En nous limitant aux seuls villages (et non les villes, sujettes à une intense migration à l'époque: voir tableaux V. 12 à V. 15) qui avaient fait l'objet de 5 compatges au cours du siècle, voici notre récapitulation:

	1523	1543	1548	1569	1596
Musulmans	7 546	9 718	10 467	15 885	9 261
Chrétiens	6 914	9 428	15 885	11 816	10 556

Série perturbée on le voit, dont il est difficile de tirer mieux qu'un taux moyen combinant les observations.

18 - Solde net égal taux de croissance naturelle moins taux d'émigration.

19 - Elie SAFA, *L'Emigration libanaise,* Université Sant-Joseph, Beyrouth, 1960.

20 - Voir chapitre VII.

21 - Doris BEHRENS - ABOUSEIF, "The Political Situation of the Copts, 1578-1923", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews...., op. cit.*

22 - Jomard sous- estime la population égyptienne de plus d'un million de perosnnes: le premier recensement démographique d'Egypte (1846) donnera 4,176 millions. Il ne paraît cependant pas tromper beaucoup sur la répartiton proportionnelle des communautés confessionnelles.

23 - Edms François JOMARD, *Coup d'œil impartial sur l'état de l'Egypte comparé à sa situation antérieure,* Paris, Plan, 1936.

24 - Ailleurs, Jomard semble avoir obtenu, par des moyens mathématiques et non par un comptage sur le terrain, une estimation sensiblement supérieure: 215 à 220000 non- musulmans; M.A. EL- BADRY, "Jomard et la démographie d'Egypte", *Population,* n°6, Paris, 1991.

25- Léttre de Pierre Plane, 13 juillet 1787, citée par Daniel PANZAC, *Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient,* Aix-en-Provence, Edisud, 1986.

26 - Citée par Dominique CHEVALLIER, *la Société du Mont- Liban..., op. cit.*

27 - Leïla TARAZI FAWAZ, *Merchants and Migrants in Nineteenth- Century Beirut,* Cambridge, Harvard University Press, 1983.

28 - Dominique CHEVALIER, *La Société du Mont- Liban..., op. cit.*

29 - La Veme KUHNKE, *Lives at Riske. Public Health in Nineteenth-Century Egypt,* Berkeley, University of California Press, 1990.

30 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane,* Paris, Sindbad, 1985.

31 - Haroutune ARMENIAN, "Health Information System: Diversity of Data and Need for Integration", communication au séminaire de l'Union internationale pour l'étude scientifique de la population, *Measurement of Maternal and Child Mortality,* Le Caire, 1991.

32 - Les chiffres originaux de ce recensement effectué par deux filateurs français nous sont parvenus grâce à Dominique CHEVALLIER, *La Société du Mont- Liban..., op. cit.*

33 - Voir chapitre premier.

34- Philippe FARGUES, "La démographie du mariage arabo-muslman: tradition et changement", *Maghreb - Macbrk,* n°116, Paris, 1987.

35 - Les relation entre répudiation et fécondité sont complexes et n'agissent pas toutes dans le même sens. *Ibid.*

36 - Kamal ALIBI, *Histoire du Liban du XVII^e siècle à nos jours,* Naufal, Paris, 1988.

37 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban..., op. cit.*

38 - A deux brèves exceptions près: l'éphémère Omar Pacha (1842) et le moussarrif Ismaïl Haqqi Bey (1917).

39 - Dynastie régnant aujourd'hui à Riad.

40 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban..., op. cit.*

41 - Kamal ALIBI, *Histoire du Liban..., op. cit.*

42 - *Ibid.*

43 - C'est le nom qu'on lui donnera durant la guerre civile de 1975- 1990.

44 - District situé au nord-est de Beyrouth.

45 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban..., op. cit.*

46 - Sur une surface deux fois plus petite que le Liban actuel, il comportait la montagne et sa façade maritime, à l'exception notable de Beyrouth et des principales villes côtières.

47 - Aziz S. ATIYA, *A History of Eastern Christianity,* Methuen & Co, Londres, 1968.

48 - Voir Chapitre VIII.

49 - C'est ce que suggère Aziz S. ATIYA, *A History..., op. cit.*

50 - C'est ce que notera le diplomate britannique Mark SYKES, *The Caliph's Last Heriage,* Londres, 1915.

51 - R. JANIN, *Eglises orientales*, Paris, 1962, mais 200000 selon une source orthodoxe: A. Diomedes KYRIAKOS, *Geschichte der Orientalischen Kirchen von 1453 - 1898,* Leipzig, 1902.

52 - Voir Pierre RONDOT, *Les Cbrétiens d'Orient*, Paris, Peyronnet, 1955 et tabeau VIII. 18.

53 - Dominique CHEVALLIER, *La Société du Mont- Liban..., op. cit.*

54 - H.A.R. GIBB & H. BOWEN, *Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Muslim Culture in the Near East*, vol, I, *Islamic Society in the XVIII the Century,* Oxford U.P., Londres, 1950.

55 - Aziz S. ATIYA *A History..., op. cit.*

56 - A l'exception du Liban, qui fut partagé, de 1842 à 1960, en deux *caïmacamiyya.*

57 - Emmanuel DE LAS CASES, *Le Mémorial de Sainte-Hélène*, Paris, Seuil, 1968.

58- Moshe MA'OZ, "Communal Conflict in Ottoman Syria during the Reform Era: the Role of Political and Economic Factors", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews..., op. cit.*

59 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...", *op. cit.*

60- Daniel PANZAC, "Affréteurs ottomans et capitaines français à Alexandrie", *Revue de l'Orient et de la Méditerranée modernes,* Aix-en-Provence, 1982.

61- Un thème voisin est développé par Samir AMIN, *La Nation arabe*, Paris, Minuit, 1976.

62 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...", *op. cit.*

63 - Fernand BRAUDEL, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XI^e^- XVIII^e^ siècle,* tome III, *Le Temps du monde,* Armand Colin, Paris, 1967.

64 - Registres ottomans, *in* Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus...", *op. cit.*

65 - C'est la reconstitution d'André RAYMOND, *Grandes Villes arabes.., op. cit.,* qui fournit une série d'estimations pour d'autres villes: Alep, 120000 habitants, 12000 chrétiens, peu de juifs. Mossoul, 55000 habitants, 6000 chrétiens, 1000 juifs. Bagdad, 90000 habitants, 10000 juifs. Le Caire, 260000 habitants, 10000 coptes, 5000 syriens, 5000 grecs, 2000 arméniens, 3000 juifs.

66 - Amnon COHEN, "On the Realities of the Millet System: Jerusalem in the Sixteenth Century", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews in the Ottoman Empire,* vol. II, New York, Holmes and Meier, 1982.

67 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes..., op. cit.*

68 - D'après le registre ottoman de 1523: 3715 musulmans, 407 chrétiens, 72 juifs, *in* Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Provinc of Damascus...", *op. cit.*

69 - VOLNEY, *Voyage en Egypte et en Syrie* (1787), paris, Mouton, 1959.

70 - Sur la démographie de Beyrouth, voir Youssef COURBAGE et philippe FARGUES, *La Situation démograpique au Liban*, tome II, Beyrouth, Université libanaise, 1974.

71- Henri GUYS, consul de France à Beyrouth, estime qu'en 1830 la population de Beyrouth se compose déjà à 50% de chrétiens et 50% de musulmans. *Beyrout et le Liban. Relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays*, Paris, Comptoir des Imprimeurs, 1850.

72 - Lëla TAWaZ, *Merchants and Migrants..., op. cit.*

73 - May DAVIE, "Ville, notables et pouvoir: les orthodoxes de Beyrouth au XIX^e siècle", colloque *Bourgoisies et notables au Maghreb et au Machreq*, Grasse, 1991.

74- Dominique CHEVALLIER, art. "*Lubnân*", Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, 1966.

75 - Emigration vers le Mexique, à la fin du XIX^e siècle, de nombreuse familles d'une vallée des Alpes françaises.

76 - Anouar ABDEL-MALEK, *L'Egypte moderne, idéologie et renaissance national*, Paris, Anthropos, 1970.

77- C'est ce qu'indique la statistique des élèves recueillie par Vital CUINET, *Syrie, Liban et Palestine..., op. cit.* Pour un bilan sur le Liban, voir surtout Boutros LABKI, *Education et mobilité sociale dans la société multicommunautiare du Liban. Approcbe socio-historique*, Francfort, Deutsches Institut für Internationale Pädagogische Forschung, 1988.

78 - Cité par Moshe MA'OZ, "Communal Confict...", *op. cit.*

79 - Voir chapitre VIII.

تعليقات الفصل الخامس

١ - حى البطريركية الأرثونكسية اليونانية فى اسطنبول.

٢ - مفهوماً هنا بوصفه الكيان الإقليمى الذى يتألف اليوم من الدول والأراضى المحتلة التالية: العراق، إسرائيل، الأردن، لبنان، سوريا، غزة والضفة الغربية.

٣ - نشر عمر لطفى برقان، فى بحثه «بحث حول الاستقصاءات الضريبية العثمانية»، البيانات الإجمالية للتعداد: أعداد الأسر. وقد استخلصنا منها أعداد السكان الإجمالية بتقدير الحجم المتوسط للأسرة بـ ٥ أشخاص.

٦ - تتصل التعدادات التالية، فى أعوام ١٨٩٧ و ١٩٠٦ و ١٩١٤، بجزء واحد فقط من الولايات.

٨ - الواقع أن الجنس المذكر (جميع الأعمار) قد حسب بشكل أفضل من الجنس المؤنث. وقد تم الحصول على أرقام تعداد ١٨٨١/١٨٨٢ - ١٨٩٣ التى نقدمها فى ختام الفصل بمراعاة القاعدة التالية: البيانات الإجمالية للتعداد العثمانى عندما يكون عدد الإناث أكبر أو مساوياً لعدد الذكور، إن لم يكن ضعف عدد الذكور.

٩ - إن التقسيم الإدارى فى ذلك العصر يميز، عن طريق تركيب متتال، بين الولاية و السنجق و القضاء. وكان لولايتين وضعيات استقلال خاصة، هما متصرفية جبل لبنان ومتصرفية القدس.

١١ - درس محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون...»، مصدر سبق ذكره، بعض هذه التعدادات.

١٣ - فى الجداول الواردة فى ختام الفصل، احتفظنا بالأرقام الأكثر تفصيلاً، والتى قدمها فيتال كينيه. انظر بعض تحفظاتنا فى الفصل الثامن.

١٤ - كانت تمتد آنذاك من مصب نهر العاصى إلى فلسطين.

١٥ - مجال حياة البداوة.

١٦ - تعداد عام ١٩١٤.

١٧ - يقدم محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون لولاية دمشق...» مصدر سبق ذكره، كشفاً إجمالياً للسجلات. واقتصاراً منا على القرى وحدها (لا المدن، المعرضة لهجرة كثيفة فى ذلك العصر، انظر الجداول من V.12 إلى V. 15)، التى كانت موضوعاً لخمسة تعدادات خلال القرن، إليكم الخلاصة التى توصلنا إليها:

	1523	1543	1548	1569	1596
المسلمون المسيحيون	7 546 6 914	9 718 9 428	10 467 15 885	15 885 11 816	9 261 10 556

ومن الواضح أننا أمام سلسلة مشوشة، يصعب أن نستخلص منها ما هو أفضل من معدل وسطى يركب بين الملاحظات.

١٨ - الرصيد الصافى يساوى معدل النمو الطبيعى مطروحاً منه معدل النزوح.

٢٠ - انظر الفصل السابع.

٢٢ - يقلل جومار تقدير السكان المصريين بأكثر من مليون نسمة : فالتعداد الديموغرافى الأول لمصر (١٨٤٦) يشير إلى وجود ٤٫١٧٦ مليون نسمة. إلاّ أنه لا يبدو أنه قد أخطأ كثيراً فيما يتعلق بالتوزيع النسبى للجماعات الطائفية.

٢٤ - فى مكان آخر، يبدو أن جومار قد حصل، عن طريق مناهج رياضية وليس عن طريق تعداد ميدانى، على تقدير أعلى بشكل محسوس : ٢١٥٠٠٠ إلى ٢٢٠٠٠٠ غير مسلم.

٣٣ - انظر الفصل الأول.

٣٥ - إن العلاقات بين الطلاق والخصوبة علاقات معقدة ولا تسير كلها فى الاتجاه نفسه.

٣٨ - فيما عدا استثنائين قصيرين تقريبا: عمر باشا الذى حكم بشكل عابر (١٨٤٢) و المتصرف إسماعيل حقى بك (١٩١٧).

٣٩ - السلالة الحاكمة الآن فى الرياض.

٤٣ - ذلك هو الاسم الذى أطلق عليه خلال الحرب الأهلية بين عامى ١٩٧٥ و ١٩٩٠.

٤٤ - ناحية تقع فى شمال - شرقى بيروت.

٤٦ - إن لبنان الأصغر، الذى كان يمتد على مساحة أصغر مرتين من لبنان الحالى، كان يضم الجبل ووجهته البحرية، وذلك بالاستثناء الهام الذى تمثله بيروت والمدن الساحلية الرئيسية.

٤٨ - انظر الفصل الثامن.

٤٩ - ذلك ما يشير إليه عزيز عطية، «تاريخ...» مصدر سبق ذكره.

٥٠ - ذلك ما يشير إليه الديبلوماسى البريطانى مارك سايكس، «تركة الخليفة الأخيرة»، لندن، ١٩١٥.

٥٦ - فيما عدا لبنان، الذى جرى تقسيمه، من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٨٦٠، إلى قائمقاميتين.

٦١ - طور سمير أمين فكرة مشابهة، فى كتابه «الأمة العربية»، باريس، مينوى، ١٩٧٦.

٦٥ - تلك هى إعادة التركيب التى قام بها أندريه ريمون، «المدن العربية الكبرى...»، مصدر سبق ذكره، الذى يقدم سلسلة من التقديرات بالنسبة لمدن أخرى : حلب، ١٢٠٠٠٠ نسمة، ١٢٠٠٠ مسيحى، عدد قليل من اليهود. الموصل، ٥٥٠٠٠ نسمة، ٦٠٠٠ مسيحى، ١٠٠٠ يهودى. بغداد، ٩٠٠٠٠ نسمة، ١٠٠٠٠ يهودى. القاهرة، ٢٦٠٠٠٠ نسمة، ١٠٠٠٠ قبطى، ٥٠٠٠ سورى، ٥٠٠٠ يونانى، ٢٠٠٠ أرمنى، ٣٠٠٠ يهودى.

٦٨ - وفقاً للسجل العثمانى لعام ١٥٢٢: ٣٧١٥ مسلماً، ٤٠٧ مسيحيين، ٧٢ يهودياً، فى محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون لولاية دمشق...»، مصدر سبق ذكره.

٧١ - قدر هنرى جيس، قنصل فرنسا فى بيروت، أن سكان بيروت كانوا يتألفون فى عام ١٨٣٠ بالفعل من مسيحيين بنسبة ٥٠٪ ومسلمين بنسبة ٥٠٪.

٧٥ - نزوح نحو المكسيك، فى أواخر القرن التاسع عشر، قامت به عائلات عديدة من أحد وديان الألب الفرنسية.

الفصل السادس

من الإمبراطورية المتعددة القوميات والطوائف
إلى الجمهورية العلمانية:
اختفاء المسيحية من تركيا

«إن الدولة العثمانلية هى الإمبراطورية الأوسع والأكثر تمييزاً للإمبراطوريات التى وجدت فى الشرق الأدنى. وهى فى انحدارها الحالى ليست غير ريح مدمرة لجميع البلدان والشعوب التى ماتزال تحت سيطرتها، لكنها أبدت فى البداية قدرة قوية على الحكم كانت تتجاوب مع أسمى حاجات الجماعات السكانية المقسمة فى الشرق الأدنى. وكان ذلك هو سر قدرتها الهائلة على الاحتواء، كما أن هذه القدرة تزيد بدورها من قدرتها على التنظيم، لأنها تسمح للعثمانليين باحتكار جميع آثار العبقرية السياسية التى بقيت فى الشرق الأدنى».

أرنولد توينبى فى الكتاب الأزرق للحكومة البريطانية بشأن معاملة الأرمن فى الإمبراطورية العثمانية (١٩١٥ - ١٩١٦)، پايو، باريس، ١٩٨٧.

بعد أقل من ثلاثة أرباع قرن من مولد تركيا الحديثة، تتقهقر الذكرى المسيحية بالفعل إلى مصاف الأشياء التى يجب التنقيب عنها. وقد نسى الشعب هذه الذكرى. ومن معركة مينتزيكرت (١٠٧١)، حيث تصدى الأتراك السلاجقة للبيزنطيين، إلى الحرب العالمية الأولى،

التى تشهد استسلام العثمانيين، كان الأتراك قد أقاموا تدريجياً دولة متعددة القوميات ومتعددة الطوائف على الضفاف الشرقية للبحر المتوسط. وفى ظل العثمانيين، خرجت الإمبراطورية التركية من مهدها الأناضولى [1] لكى تكسب أوروبا البلقانية، حتى قبل أن تنقلب على أجنحتها العربية والمسلمة. والحال أن السلطان، الذى يخضع جماعات سكانية مسيحية متزايدة العدد بلا توقف، لا يجبرها على التحول إلى اعتناق الإسلام، بل يشركها فى السلطة. وسوف يكفى عقد واحد، بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٤، حتى تتوصل الدولة العلمانية المولودة من حطام الإمبراطورية إلى تدمير هذا البنيان لحساب أمة تركية ومسلمة فقط. إن ألف سنة من التاريخ المتعدد الطوائف سوف يجرى محوها فى عشر سنوات.

ففى تركيا التى تتميز اليوم بتجانس دينى، من الذى يتذكر وجوداً مسيحياً كان مايزال حتى زمن غير بعيد ضخماً؟ من الذى يتذكر بوجه خاص أن الأقليات لم تتزو على حدود الإمبراطورية ولا فى الأحياء الكوزموبوليتية فى العاصمة، بل كانت راسخة الوجود حتى فى أعماق الأناضول (الشكل VI.1) ؟

تحول الجماعة المسيحية إلى أقلية

بعد أربعة قرون من مولد الإسلام، كانت الأناضول مسيحية فى مجملها تقريباً. فقد صمدت بيزنطة للضغوط المتقطعة من جانب جيوش الخلافة. وعلى مقربة من ١٥ مليوناً من العرب، كان ١٠ ملايين منهم مسلمين، يسكنون الهلال الخصيب ومصر وشبه الجزيرة، كان سكانها الذين يتراوح عددهم بين ٧ ملايين و٨ ملايين نسمة [2] يعطون وهم أنهم يشكلون كتلة متجانسة. لكن الجماعة المسيحية الأناضولية قد تفتت بالمعنى الحرفى للكلمة بعد ذلك بأربعة قرون. وفى عام ١٤٥٣، عندما تسقط القسطنطينية، لن نجد فيها غير ٤٠٠٠٠ من المؤمنين (بالمسيحية).

وهذا التحول، فى حد ذاته، ليس فيه ما يدعو إلى الاستغراب. فالشرق الأوسط وشمال أفريقيا سوف يشهدان تحولات مثيرة مثله. لكنه، فى التاريخ التركى، شىء فريد. فالبلقان المحتلة بلا انقطاع تقريباً على مدار خمسمائة سنة سوف تبقى فى الواقع مسيحية، فيما عدا ثلاثة أقاليم تأخذ شكل جيوب: ألبانيا والبوسنه ودوبروجا. وروميليا [3] التى تسقط دفعة واحدة تقريباً، سوف تستفيد على الفور من تنظيم فعال، هو تنظيم جهاز الدولة العثمانية، الذى يحمى

هويتها المسيحية [٤]. ولن يحدث شيء من ذلك في الأناضول، التي لا يتم الفوز بها عبر أية معركة حاسمة، بل يهزها تآكل متواصل. فالفوضى التي غرق فيها الإقليم قبل التوحيد العثماني وتدفقات وارتكاسات السلالات الحاكمة التي هزته والهجرات غير المنتظمة التي اجتازته سوف تشكل هناك عقبة أمام المؤسسات التي سوف يحافظ الإسلام العثماني من خلالها فيما بعد على المسيحية.

ومن المؤكد أن تآكل الجماعة المسيحية في الأناضول لم يكن مفاجئاً. فقبل أن يحتل الأتراك السلاجقة الأناضول بشكل حاسم، كانوا يعرفون الأقليم بالفعل، حيث مارسوا من حين لآخر غاراتهم انطلاقاً من ممتلكاتهم الفارسية [٥]. وعندما يغزونه بشكل نهائي، كان بالإمكان أن يكتسبوا صبغة بيزنطية. إلا أنهم على العكس من ذلك تماماً سوف ينزعون الطابع الهيليني عن الشعوب التي يخضعونها وسوف يؤسلمونها شيئاً فشيئاً. وكتاب العجائب الذي كتبه ماركو پولو عن هذا البلد [٦] يروي كيف أن الأتراك كانوا هناك أقلية في عالم ظل يونانياً وأرمنياً بعد قرنين من معركة مينتزيكرت. ولم تكن العلاقات الطائفية مصطبغة بروح العداوة وبالاستبعاد اللذين سوف تكتسبهما بعد ذلك بوقت طويل. وبشكل لا مفر منه تؤدي الغارات وسبي النساء والتناسل إلى خلق أواصر دم، قرابة بين المسلمين والمسيحيين سوف تختفي تماماً عندما تأخذ الطوائف في الانعزال إحداها عن الأخرى. ولم يكن العوام وحدهم هم الفاعل الوحيد لهذا الاختلاط. فالعائلات الأرستقراطية المسلمة التي سوف تحكم في القرن الرابع عشر «سلطنة روميه» كانت في نصفها يونانية الأصل [٧].

فهل كان الأتراك يكنون احتراماً لا حد له للعدو السابق المهزوم ؟. بعد ثلاثة قرون من فتحها، سوف يواصلون تسمية بلادهم بـ «رومية»، حتى عندما تحرص الجماعة المسيحية، منذ الحملات الصليبية، على تسميتها بـ «تركيا». ومن المؤكد أن الأتراك السلاجقة لم يفاقموا بالفعل الأحوال المعيشية للمسيحيين، لكنهم ترددوا كثيراً في تجنيدهم كموظفين. ومنذ توطد سلطتهم على الأناضول وابتعاد الخطر البيزنطي، تأخذ العلاقات بين الطوائف في الاستقرار[٨]. على أن السلاجقة لم يستولوا على القسطنطينية، بحيث إن الأناضول تجد نفسها معزولة بخط حدود. وانقطاع الاتصالات مع المدينة التي كانت المنارة الروحية لغالبية السكان الأرثوذكس في الأناضول، يحفز فصيلاً أول بينهم إلى تبني اللغة التركية والدين الإسلامي.

وفيما بعد سوف يتدفق من الشرق ومن الغرب غزاة عديدون لن يتأخروا في الدخول في نزاع: بدو تركمانيون، صليبيون، مماليك مصر، مغول مشبعون بالمسيحية في ظل هولاكو

ومشبعون بالإسلام بعد ذلك فى ظل تيمور لنك. كلهم على أساس مقاومة بيزنطية منظمة من حصون القسطنطينية ونيقيه وتريبيزوند. ويؤدى تصادم الرايات إلى تمزيق الأناضول. والجماعة المسيحية فى الإقليم، المقسمة بالفعل بين أعراق[9] وهرطقات متباينة، لا تصمد جيداً لتحول التحالفات المحلية مع هذا الغازى أو ذاك كما لا تصمد جيداً للقمع الذى ينزل بها بشكل قاتل عندما يخسر الغازى الحليف المعركة. وتذهب التقديرات إلى أنه عشية هذه الهزات الكبرى، نحو عام ١٢٠٠، كانت نسبة ٤٣٪ من السكان ماتزال مسيحية (١٠). وآخر هذه الهزات، فى نهاية القرن الرابع عشر، هو غزو المغولى تيمور لنك، الذى يعمق الأسلمة التى كان هولاكو قد حاول على العكس من ذلك تقييدها (١١). وعلى مدار قرون التفكك هذه، تمحى الحدود فى آسيا الصغرى، وتنفتح الهضاب. وهناك يوسع التركمانيون المؤسلمون مجال نشاطهم البدوى ويتكاثرون بسرعة. وفى إثرهم تفرض نفسها اللغة التركية، التى تحل تدريجياً محل اليونانية، على الأرمنية وعلى الفارسية، كما يفرض نفسه الدين الإسلامى.

هجرة الأتراك وتحول المسيحيين إلى اعتناق الإسلام

هل سيسوق الأتراك أمامهم الجماعات السكانية المحلية نفسها، أم أنهم سوف يسوقون أمامهم مجرد لغتها وديانتها؟ إن المجادلة التى أعاد مصطفى كمال فتحها ماتزال لها حاليتها: هل الجذر الحقيقى للقوام السكانى لتركيا تركى أم هيلينى؟ هل تمت الأسلمة عن طريق الاستيراد أم عن طريق التحويل إلى اعتناق الإسلام؟

لقد أسست دولة القرن العشرين القومية شرعيتها على الفرضية القائلة بانتشار بدو تركمانيين فى آسيا الصغرى. وباسم هذه الفكرة الرئيسية، أعلنت عدم ولاء الشعوب التى لم تكن فى آن واحد تركية ومسلمة: الأرمن، اليونانيين، الأكراد. وقبل ذلك بوقت قصير، كان دعاة الجامعة التركية ودعاة الجامعة الطورانية[12] قد بنوا أسطورة أمة متجانسة. إذ كيف كان يمكن لهم أن يعتبروا أنفسهم أحفاداً لـ «الإيكديش» – اليونانيين المؤسلمين – الذين يشير إليهم العرف الشعبى والإدارى باسم هجين بالغ الإهانة كـ «البغل» ؟ وخلافاً لهم، واصل دعاة الجامعة العثمانية الإيمان بإمبراطورية متعددة الأعراق. والحال أن هذا الشعور كان بالغ الاتساع بحيث إن جماعة تركيا الفتاة نفسها سوف تعبر عنه عندما تحرز انتصارها، فى عام ١٩٠٨. وذلك أيضاً هو موقف ذلك النائب، الحريص على الإبقاء على تعليم الأدب اليونانى

الكلاسيكي، لأنه ليس ميراث اليونانيين وحدهم، كما أنه موقف ذلك النائب الآخر الذى يعلن افتخاره بأن الجمعية الوطنية العثمانية تضم مترجم الإلياذة إلى العربية، اللبنانى سليمان البستانى [١٣].

وتؤكد عقيدة الدولة الكمالية [١٤] بلا تردد أن القوام السكانى التركى جاء «من حركات هجرة على نطاق واسع ومن تعديلات فى التركيب العرقى للسكان، لأن الأتراك لم يكتفوا قط بأن يديروا كمستعمرات غالبية البلدان المفتوحة عبر إيجاد جيوش احتلال وإرساليات فيها. فهم، على العكس من ذلك، قد أقاموا فيها، وقاموا بفلاحة الأرض، حيث خلفوا فيها ذرية وفيرة العدد، وجعلوا منها وطنهم [١٥]». وعلى الرغم من هزال الحجة، فإن مجلة فرنسية تستضيف على أعمدتها هذه الفكرة المزعجة. ويضيف المؤرخ برقان على صفحات مجلة آنال : «نرجو أن نكون قد وفقنا فى إثبات وجود جماعة سكانية وفيرة العدد فى الأناضول عبر الحاجة التى تحسسها الأتراك إلى الانتشار صوب الغرب والاستقرار فى الأناضول الغربية وفى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة البلقانية، وهى أقاليم حولوها إلى وطن حقيقى. [...] إننا لا نعتقد أن المسلمين الذين فتحوا واحتلوا فى السابق أسبانيا وجزر البحر المتوسط لم يضموا غير بضع قبائل من البربر المطرودين من أفريقيا ومن العرب البدو [١٦]». والسؤال هو، هل تعرضت الجماعة السكانية البيزنطية التى لم يكن أمامها مكان تنزح إليه للذبح أم أنها اندمجت مع الفاتحين ؟ إن التاريخ الرسمى، العاجز عن قبول أى من الافتراضين، يؤثر الصمت.

وخلافاً لذلك، فإن مؤرخين آخرين يذهبون إلى أن التحولات إلى اعتناق الإسلام، وهى وحدها تقريباً، هى التى كان من شأنها أن تضفى على آسيا الصغرى لونها الدينى الجديد. ويؤكد چيبونز: «إن يونانيى بيزنطة سوف يبدون أمام التاريخ، بعد أن غيروا اسمهم وديانتهم لا أكثر، بوصفهم جنساً وأمة جديدين تحملا واجبات جديدة، وسوف يكفلون استمرار بيزنطة، تحت مظهر إسلامى». وكانت بيزنطة جد ضعيفة، بحيث إن قبيلة من «٤٠٠ خيمة» سوف تغلبها. ويستطرد چيبونز: «إن من الخطأ اعتبار العثمانيين أتراكا. وقد جرى تكرار هذا الخطأ كثيراً بحيث إن العثمانيين أنفسهم قد وقعوا ضحية له، بينما كانوا يعتبرون أنفسهم دائماً مختلفين عن الأتراك [١٧]».

وربما تقدم الديموغرافيا مرشحاً لحساب جرعة الهجرة وجرعة التحول إلى اعتناق الإسلام. إن أحد الشهود الأوائل، العمرى، وهو رحالة عربى فى بداية القرن الرابع عشر، يقدر

عدد التركمانيين بما بين ١٥٢٠٠٠ و٥٥٥٠٠٠ نسمة [١٨]. أما كاهن، المتخصص فى التاريخ قبل العثمانى، فهو يقدم رقم ٢٠٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠ تركمانى ويتحدث عن بضع عشرات آلاف من التتار وعن بضع آلاف من الفرس. أولئك هم كل المسلمين الذين، على موجتين، سوف يغزون الأرياف فى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر.

وقلة الأعداد لا تحتمل الجدل: «من الصعب بشكل عام تصور أن انزياحات الشعوب فى ذلك العصر كان يمكن لها أن تؤثر دفعة واحدة على أكثر من عدة عشرات آلاف من الأفراد، وعلى الأكثر على مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف، حتى وإن كانت النصوص توحى بجماهير ضخمة». [١٩] وهل من الضرورى أن نذكر بأن كل هجرة إنما تكون محددة بمدى سعة المستودع الذى يغذيها ؟ لقد كان اقتصاد البرارى التى جاء منها هؤلاء البدو مختزلاً. وفى أية حالة لم يكن بوسعه إعاشة جماعة سكانية كثيفة، ومن ثم، لم يكن بوسعه إفراز حشود ضخمة[٢٠]. ونحن على ثقة من أن الهجرة قد توقفت فى القرن التالى، لأن الطاعون الدبيلى فى آسيا الوسطى كان قد اختزل بشكل حاسم صفوف التركمانيين [٢١]. ومن ثم فإن العنصر العرقى التركى لم يكن بوسعه بأى شكل أن يمثل نسبة الـ ٧٠٪ التى تحدث عنها منذ سنوات مؤرخ تركى [٢٢].

ومن جهة أخرى فإن هجرات بدوية أخرى قد قدمت وهماً عددياً مماثلاً، للسبب نفسه: إنها تقابل الفوضى. فالعرب فى الشرق الأدنى وفى أفريقيا الشمالية، والبربر فى أسبانيا، والهلاليون فى المغرب والمغول فى مجمل فضاء نصف العالم المعروف، كل هؤلاء الغزاة كانوا قليلى العدد، لكنهم كانوا منظمين تنظيماً أرقى. وعندما يعبر الزعيم العثمانى أورخان (١٣٢٦ – ١٣٥٩) مضيق الدردنيل لكى يتغلغل فى أوروبا، فإنه يجند قواته من الأناضول: نصف مليون رجل فيما يقال. وما كان يمكن للبدو القادمين من آسيا الوسطى أن يقدموا له هذا العدد من الرجال، حيث كانوا معزولين عن المناطق الداخلية لبلادهم. ومن ثم فإنه قد جند جنوده من صفوف الشعوب المفتوحة، خاصة اليونانيين [٢٣]. لقد كانت الأسلمة تجرى على قدم وساق.

وفى وجه الأتراك الأوائل، لاشك هناك فى الوفرة المسيحية: سبعة ملايين نسمة فى ظل بيزنطة، فى القرن الحادى عشر. وفيما بعد بكثير، فى عام ١٥٢٠، بعد عصر من الفوضى وتآكل السكان، سوف يشهد تعداد عثمانى على أن نحو ٥ مليون نسمة كانوا مايزالون

يسكنون الأناضول. ولا يعنى العدد وحدة الصفوف المسيحية (٢٤). فقد كانت بيزنطة موزعة بين شيع ولغات ومراتب اجتماعية، من الأرستقراطية العقارية إلى الفلاحين الأقنان. والواقع أنه لم تكن هناك جبهة عسكرية حقيقية. ففى الأماكن التى حاولت فيها بيزنطة تفادى الضربات التركية، كان محاربو المعسكرين يتصالحون. إن الأكريتاى المسيحيين والمغازين المسلمين يعملون على ازدهار «ثقافة حدود بدائية (٢٥)» حقيقية. ولم يكن هناك أى سد يقف فى طريق دخول دين جديد. وكانت الساحة مفتوحة أمام الدعوة إلى الانتقال من دين إلى دين. وكان يكفى، فى كل جيل، أن يترك مسيحى من سبعة مسيحيين ديانته، بملء إرادته، عن طريق التحول إلى اعتناق الإسلام، أو دون أن يكون له اختيار، بحكم ولادته من زيجة مختلطة [بين مسلم ومسيحية]، حتى يصبح الـ ٧ مليون مسيحى الذين عرفهم عام ١٠٧١ الـ ٤٠٠٠٠٠ الذين عرفهم عام ١٥٢٠ وبالمقابل، لكى يصبح الـ ٢٠٠٠٠٠ مسلم مهاجر، دون أى دعم إضافى من آسيا الوسطى، ٦ر٤ مليون مؤسلماً (الشكل VI.2).

ومن ثم فإن المسيحيين يتحولون إلى اعتناق الإسلام بشكل فردى. وكذلك بشكل يشمل أحياناً عائلات أو قرى باكملها. والانقلاب يتم عبر الإيمان أو الانتهازية، كما يتم عبر القسر بالنسبة للأسرى المستعبدين. والشهادات جد متناقضة ومتحيزة، لكنها كلها تتحدث عن اختلاط عظيم.

وبالنسبة لماركو بولو، الرحالة المكلف من قبل البابوية،فإن المسيحيين يظلون السادة، بينما يجد الأتراك أنفسهم فى أسفل السلم الاجتماعى: «فى ولاية تركمانيا (وسط الأناضول) توجد ثلاثة أنواع من الناس: فهناك التركمانيون الذين يجلون محمداً ويتمسكون بشريعته وهم يحيون حياة البهائم فى كل شىء؛ إنهم شعب جاهل يتكلم لغة بربرية جد مختلفة عن لغات الآخرين. [...]. ويتألف الآخرون من الأرمن، وهم مسيحيون غير كاملين إلى حد بعيد، ومن اليونانيين، الذين مايزالون مزدحمين فى المدن والقرى ويحيون من التجارة والحرف. وهؤلاء لهم ممتلكات عظيمة. و[الأرمن] يفرطون فى الأكل والشرب، ولديهم وفرة من النبيذ الأبيض والأحمر وهم مدمنون للسكر (٢٦)».

أمّا المراكشى ابن بطوطة، «رحالة الإسلام»، الذى وصل إلى هناك من مغربه الأقصى بعد بضع سنوات، فهو ينظر نظرة جد مختلفة إلى المسيحيين الخاضعين والمستعبدين: «وأكثر الصناع بها [لاذق، دينزيلى الآن] نساء الروم، وبها من الروم كثير تحت الذمة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها. وعلامة الروم بها القلانس الطوال. [...] وأهل هذه المدينة لا

يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الإقليم كله. وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركوهن للفساد، وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه إليه (٢٧)».

وتتزوج مسيحيات، أحرار أو رقيق، من أتراك. وتسهم ذريتهم، المسلمة بحكم الشريعة، في زيادة صفوف الإسلام. ولن تؤدى المجازر وانزياحات الجماعة السكانية المسيحية خارج الأناضول أبداً إلى نتائج تتميز باتساع مماثل لنتائج الاختلاط [الزواجى]. وسوف تستهدف الانزياحات بشكل خاص الأرستقراطيين اليونانيين؛ وتتجنب عموماً الأرمن والعرب المسيحيين، الأقل ميلاً إلى خدمة بيزنطة. وشأنهم فى ذلك شأن عرب المشرق فى الزمن الغابر، فإن هؤلاء الفاتحين المسلمين لن يفرضوا الأسلمة، وذلك لحرصهم على الإبقاء على الجزية (٢٨). على أن التفسخ التدريجى للسلطة التركية، من جهة، وتفتت سلطة الكنيسة البيزنطية، من جهة أخرى، سوف يحفزان عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام فى الأراضى المفتوحة. والواقع أن المغلوبين، ورثة اليونان وروما، سوف يفقدون بشكل نهائى وهم أنهم يحتلون مركز الكون. فمن أرجاء بيزنطة الشاسعة، لا يمسك أخوتهم فى الدين بعد إلاً بمدينة القسطنطينية، على الجهة الأخرى من الحدود، وبمشارف نيقيه وتريبيزوند. ومن ثم فإن عدداً منهم سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام بسبب فتور الهمة، «لأن الناس على دين ملوكهم»، كما يبين ابن بطوطة عند زيارته الأناضول فى القرن الرابع عشر، وذلك قبل بضعة عقود من تعميم ابن خلدون لهذه القاعدة على البشرية برمتها (٢٩).

وإذ يجد المسيحيون أنفسهم منذ ذلك الحين معزولين عن مركزهم الروحى، فإنهم يرون أنهم علاوة على ذلك مهملون من جانب رجال دين تخلوا عن رعية فقيرة ونزحوا دون أمل فى العودة إلى القسطنطينية. وكانت الكنائس الموجودة فى الأرض التركية قد أصبحت جد فقيرة بحيث إنه لم يكن بوسع رجال الدين الأرثوذكس الحفاظ هناك على مقامهم (٣٠). والواقع أن هؤلاء، الذين كانوا يدعون أحياناً من جانب السلاجقة إلى العودة إلى رعيتهم، عندما كان يتم عقد صلح مع بيزنطة، كانوا يرفضون العرض فى أغلب الأحيان. ومع رفضهم العودة، كانت أراضيهم تعتبر شاغرة وعندئذ يجرى دمجها فى الأوقاف، ممتلكات الإسلام التى لا يجوز نزعها، ويتم استثمارها لحساب أعمال خيرية أو مؤسسات اجتماعية وثقافية يتصل الإسلام من خلالها بالجماعات السكانية: وهكذا تنتقل تركة الكنيسة الأرثوذكسية إلى خدمة نشر الإسلام (٣١). كما أن الدين الجديد ينجح تماماً فى احتلال الأماكن التى تركها الدين القديم، وهو ما يغرى الشعوب.

والواقع أن الإسلام المقترح على «الكفار» المهزومين كان متسامحاً إلى أبعد حد، حتى مع الهراطقة. فالسنية الرسمية لا تسود إلاّ فى المدن حيث تصبغ الإدارة. وفى جميع الأماكن الأخرى، يتجاور المسيحيون مع دين شعبى، متسامح، مصطبغ بالشامانية وبالبوذية وبالمانوية، بل وبالمسيحية النسطورية، وهو أمر غريب (٣٢). ويحدث أن المسلمين والمسيحيين يتقاسمون أماكن العبادة، ويعترفون بقديسين مشتركين، ويحتفلون بأعياد واحدة، بل ويشتركون فى طقس التعميد. ويتقدم الإسلام بفضل تحولات صادقة إلى اعتناقه، لكنه يتقدم أيضاً بفضل مسيحية مستترة. وسوف تستمر تلك الأخيرة حتى الحرب العالمية الأولى (٣٣). وقد كان لصوفية وتوفيقية طريقتى مولوية جلال الدين الرومى وبكتاشية حاجى بكتاش (٣٤) دور أكبر فى انتشار الإسلام من دور الجزية الأميرية (٣٥). والحال أن جهاز التحولات إلى اعتناق الإسلام، بما يتميز به من اتساع وتعقيد، سوف يمتد إلى جميع الأقاليم وجميع فئات المجتمع. وهكذا نجد أن جانباً كبيراً من أتراك تركيا هم، فى نهاية الأمر، من أصل بيزنطى.

وتستحق هذه التحولات إلى اعتناق الإسلام خلال الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر التوقف أمامها، وذلك بسبب تشابه غريب مع تجارب أخرى. فشأنها فى ذلك إلى حد ما شأن التحولات فى القرنين العاشر والحادى عشر إلى اعتناق الإسلام فى أفريقيا الشمالية، تسنى لها أن تجد حافزاً من تفتت السلطة المركزية. فالأناضول، المتنازع عليها بلا توقف تقريباً بين الأتراك السلاجقة والبدو التركمانيين والأتراك الدانشمانيين والبيزنطيين والمغول وأرمن أرمينيا الكبرى والصغرى وفرنجة أنطاكيه وإيديس ولاتين القسطنطينية، ناهيك عن دزينة من القبائل التركية المتنافسة، إنما تفرز معتقدات تلفيقية قليلة الحرص على الأرثوذكسية [التمسك بعقيدة مستقيمة]، ومهيئة للتحول بمرور الأجيال إلى العقيدة الإسلامية. والخلاصة أن تسامح الإسلام قد أضعف المسيحية. ومن المفارقات أن المسيحية لن تبقى فحسب، بل سوف تتعزز من جراء الأرثوذكسية السنية للعثمانيين، الذين سوف يتجهون إلى فرض النظام وسط كل هذه الفوضى.

نهوض الجماعة المسيحية فى إطار نظام الملل العثمانى

عندما يهجر البيزنطيون عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية السابقة، سوف يتركون فى القسطنطينية بندراً تعساً، لا يضم أكثر من ٧٠٠٠٠ نسمة (٣٦). وغداة الفتح،

سوف تفقد أيضاً ٥٠٠٠٠ يونانى، جرى سوقهم إلى العبودية وتشتيتهم عبر مختلف أرجاء الإمبراطورية. لكنها سرعان ما تزود نفسها بعدد كبير من السكان. إن قرناً من السلطة الإسلامية لا يجعل من إسطنبول المتروبول الأول فى العالم فحسب – ٧٠٠٠٠٠ نسمة (الجدول VI .1)[٣٧] – بل يجعل منها أيضاً، وهذه مفارقة تاريخية، إحدى أكبر ثلاث مدن مسيحية: فاكثر من ثلث سكانها أرثوذكس. وحتى الحرب العالمية الأولى، نجد أن نسبة سكان اسطنبول غير المسلمين، المسيحيين واليهود، تصل إلى نحو ٤٠٪.

ومع القضاء على بيزنطة [٣٨]، سوف يسعى العثمانيون إلى كسب مشاركة أعدائهم السابقين. والإمبراطورية، المسلمة رسمياً، تتحول، من الناحية الفعلية، إلى نوع من مملكة ثنائية يونانية – تركية، سوف تستمر حتى ثورة واستقلال اليونان (١٨٢١ – ١٨٣٠) [٣٩]. ومنذ غداة الاستيلاء على القسطنطينية، جرى تكريسها من خلال تنصيب بطريرك يونانى أرثوذكسى على رأس أولى الملل [٤٠] المسيحية فى الإمبراطورية. ومنذ ذلك الحين، كان رجل الدولة الرفيع المقام هذا يفرض سلطته الروحية والزمنية على جميع أرثوذكس الإمبراطورية، من البحر الأدرياتى إلى الخليج الفارسى. «فخلافاً للفترة البيزنطية، لم يعد البطريرك خادماً صاغراً للإمبراطور، بل أصبح عضواً معترفاً به ومحترماً من أعضاء بيروقراطية السلطان، ويتمتع بسلطة كاملة على اتباع ملته [٤١]». والواقع أن ترقية البطريرك وتاكيد الصدارة اليونانية على الجماعات المسيحية الأخرى إنما يدلان على تقدير استراتيجى. فالسلطان يكافىء فى شخصه رئيس الحزب المناوىء للكنيسة الرومانية [الكاثوليكية]، وذلك فى لحظة كان الخطر يجىء فيها من الكاثوليكية، من البابوية، ومن ذراعها المسلح، البندقية، اللتين تسعيان إلى طرد الإسلام من البلقان. وكانت الإمبراطورية أنذاك إمبراطورية أوروبية بالدرجة الأولى.

لكن الإمبراطورية كانت تسترشد أيضاً بحماسة روحية إسلامية: توسيع دار الإسلام على حساب دار الحرب، أى محاربة الجماعة المسيحية الخارجية. ويكتب برنارد لويس، المتخصص فى التاريخ التركى: «إن الإمبراطورية العثمانية، من تأسيسها إلى سقوطها، تكرس نفسها لتوسع الإسلام أو لحماية قوة الدين الإسلامى. وعلى مدار ستمائة سنة، كان العثمانيون بشكل شبه متصل فى حرب مع الغرب المسيحى. [...]. وهذه المواجهة المتواصلة منذ زمن بعيد، والمتأصلة بعمق فى الإسلام التركى، لم يكن من شأنها ألاَّ تؤثر على مجمل بنية المجتمع والمؤسسات التركية [٤٢]». إن النظام برمته، تنظيمه العسكرى والمدنى، تنظيمه الضريبى وهياكله العقارية، كان مدفوعاً بضرورات التوسّع، بالفتح وباستيطان أراضى

العدو المسيحى. والعماد الرئيسى للبنيان يجب أن يتمثل فى زيادة سكان العالم المسلمين على حساب السكان المسيحيين. لكن السلطة العثمانية، فى جميع أصقاعها الآسيوية، بما فى ذلك الأصقاع العربية، تعمل بشكل محير فى اتجاه مضاد.

ففى اسطنبول وحتى فى أناضول مؤسلمة بشكل عميق، تنبثق الجماعة السكانية المسيحية واليهودية من جديد بعد الأسلمة التى شهدتها القرون الأربعة السابقة. وتنبعث الجماعة المسيحية من الداخل بفضل الأمن والاستقرار اللذين يوفرهما نظام الملل: فهى تنتقل من نسبة ٨٪ فى الأناضول فى تعدادات عام ١٥٢٠ وعام ١٥٧٠ إلى نسبة ١٦٪ فى القرن التاسع عشر (الجدول VI .2 و VI .6)[٤٣]. والانخفاض المثير لحالات التحول إلى اعتناق الإسلام والنمو الديموغرافى يسببان هذا الانقلاب غير المتوقع. فتأسيس ثلاث ملل رئيسية، يونانية أرثوذكسية (١٤٥٤) وأرمنية (١٤٦١) ويهودية، يضع حداً للتعسف والفوضى. وكانت السلطات الدينية المسيحية واليهودية تحتكر السيطرة على شؤون العبادة والمدارس والنظام القضائى (المللى). وهى تسيطر على ملكيات أصبحت هى الأخرى غير قابلة للنزع (أوقاف) كملكيات الإسلام. ومن ثم فلم يعد هناك مبرر لحالات التحول إلى اعتناق الإسلام الناشئة عن الخوف أو عن الضغط الاجتماعى أما الحالات الناشئة عن دوافع اقتصادية فقد حدثت بالفعل قبل الاستيلاء على القسطنطينية[٤٤].

وخارج نظام الملل، يكتفى السلاطين العثمانيون باحترام المبادىء القرآنية تجاه غير المسلمين[٤٥]. وهم يفعلون ذلك بإخلاص وباستقامة يزيدان عن إخلاص واستقامة أى خليفة عباسى[٤٦]. وفى تفسيرها[٤٧] المؤاتى لأهل الكتاب، تكفل هذه المبادىء منع الإكراه فى الدين والأسلمة القسرية. على أن العثمانيين سوف يدخلون استثناءً ملحوظاً مع الديفشرمة، وهى صيغة سلطوية لتجنيد مسيحيين تفرض عليهم الارتدادعن دينهم.

وضعف الديموغرافيا العثمانية فى وجه جماهير الجماعة المسيحية الخارجية يملى على السلطان محاباة جماعته المسيحية فى الداخل. «استقامة أدبية[٤٨]» أم حكمة عسكرية ؟ إن البحر المتوسط الغربى، حيث يوجد أكثر من ٣٨ مليون مسيحى فى أواخر القرن السادس عشر، إنما يتميز بثقل مختلف عن ثقل أرض الإسلام العثمانى، التى لا تضم غير ٢٢ مليون نسمة، غالبيتهم من المسيحيين علاوة على ذلك. «رجال كثيرون من جهة ولكن دون جياد كثيرة، ومن الجهة الأخرى جياد كثيرة ولكن دون رجال كثيرين! وربما نجم تسامح الإسلام عن هذا الانعدام للتوازن: والواقع أنه سوف يسعده تماماً قبول الرجال، أياً كانوا، شريطة أن يجدهم رهن إشارته[٤٩]».

وعلى الجهة الأخرى للبحر المتوسط، كانت حماسة دينية مصطبغة بمقاصد ميركانتيلية [تجارية] قد حركت السلطات والعوام الفقراء، عندما طردوا من أسبانيا المسلمين واليهود لأول مرة (١٤٩٢ - ١٤٩٥). إلاّ أنه سرعان ما سوف يؤدى انعدام توازن ديموغرافى مضاد لانعدام التوازن الديموغرافى العثمانى إلى تعزيز إعادة الفتح [الأسبانية] فى تأكيد انعدام تسامحها: فبين عامى ١٥٣٠ و١٥٩٤، تزايد عدد السكان الأسبان مرتين (٥٠). والملوك الكاثوليك يكررون الجرم بالاتجاه إلى طرد الأحفاد الموريسكيين (١٦٠٩ - ١٦١١) والمارّان المسلمين واليهود الذين تسنى لهم تجنب سفن الترحيل الأولى، وهو طرد سوف يتم بالرغم من تحولهم إلى اعتناق المسيحية. وبحماسة مماثلة، نجد أن الإمبراطورية العثمانية، المنخفضة السكان آنذاك، سوف تستقبل عدداً كبيراً من هؤلاء المنفيين.

والحال أن العثمانيين، المتنبهين بقوة إلى عجز ديموغرافيتهم، يسيئون فهم اختلالاتها الداخلية. وسوف يزودون أنفسهم بأداتين موجهتين إلى إعادة تنشيط جماعتهم السكانية، السورجون والديفشرمة، اللتين سوف تنتجان آثاراً متأخرة على التوزيع الطائفى. فالسورجون - ترحيل جماعات بأكملها، بناءً على قرار إدارى - سيكون عليه إعادة تنشيط الأقاليم التى طالها الخراب، ومن بينها اسطنبول، وإعادة العظمة الماضية إليها. «لقد أمر السلطان بأن ترسل إليها دون نقاش عائلات، غنية أو فقيرة، من كل ولاية. [...] ولم تقتصر هذه السياسة على الأتراك والمسلمين وحدهم. فقد جرى التصريح ليونانيين ولمسيحيين آخرين بالإقامة فى المدينة، وجرى أحياناً تشجيعهم على ذلك (٥١)». ومن الواضح أن السورجون لم يكن على هوى الأشخاص المرحلين، لكن الدولة كان لديها مفهوم شامل عن تنظيم المكان، حركت به الأفراد كما لو كانت تحرك بيادق (٥٢). وفى نهاية المطاف، سوف يعود السورجون بنتائج غير متوقعة، مؤاتية لليهودية وللجماعة المسيحية العثمانية، وذلك لمجرد أنه يقرب من السلطة يهود سالونيك ويونانيى البيلوپونيز وأرمن أنجورا.

أما الديفشرمة - انتزاع الأولاد المسيحيين الذين تجرى أسلمتهم وتجنيدهم قسراً، فى قوة الإنكشارية بالنسبة للأقل حظاً، وفى الإدارة بالنسبة للأسعد حظاً - فمن المؤكد أنها كانت ممارسة وحشية. على أن الجماعات السكانية المستهدفة، الألبانية أو البوسنية أو اليونانية، لن تتأخر فى أن ترى فيها وسيلة لتحسين حالتها الاجتماعية. ويقال أن الأمر كان يصل إلى حد أن قرويين فقراء كانوا يتطوعون وكانوا يلتمسون من رقيب التجنيد أخذ ابنهم بدلاً من ابن الجار (٥٣). وهكذا فإن نصف دزينة من الصدور العظام العثمانيين ومجموعة من كبار الموظفين ذوى الأصول الألبانية أو البوسنية سوف يمرون أولاً بمهانات الديفشرمة.

وتظل السلطة خاضعة لديموغرافية ضعيفة مادامت تود الحفاظ على احتكار الإسلام فى أوساطها العليا. على أن المسيحيين المتحولين إلى اعتناق الإسلام فى الديفشرمة سوف يسمحون بتجديد الصفوة الإسلامية. ويؤدى إلغاء الديفشرمة فى عام ١٦٣٨ إلى تهديد جدى لإسلامية الصفوة، فهو يحرم الإدارة العامة والعسكريين، الذين خربت الحرب صفوفهم، من دماء جديدة تجيء عن طريق الشبان المتحولين إلى اعتناق الإسلام. وسوف نلحظ ذلك بعد ثلاثين سنة، عندما يعين الباب العالى للمرة الأولى ترجماناً مسيحياً (١٦٦٩). وبدلاً من أن تختزل هذه الوظيفة فى مجرد مهمة مترجم (ترجمان)، فإنها سرعان ما تتطابق مع وزارة للشؤون الخارجية. وسرعان ما نجد أن حائزها، وهو بوجه عام أرستقراطى يونانى قريب من البطريرك اليونانى الأرثوذكسى، يلعب دوراً حاسماً فى السياسة الخارجية والداخلية. ولمّا لم يكن ملزماً بالارتداد عن دينه، فإنه سوف يفتح أبواب الإدارة العليا على اتساعها أمام إخوته فى الدين أو أمام من يزعمون الانتماء إلى الملة اليونانية الأرثوذكسية.

والحال أن النفوذ المتنامى للصفوة الجديدة، الحديثة الانتقال إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية دائماً، والذى كان موزعاً فى البداية، سرعان ما يتجلى على مرأى ومسمع من الجميع. وسوف يتجه إنكشارية الديفشرمة، المتحولون إلى اعتناق الإسلام، إلى حشد البكتاشية، أولئك الأتباع لأكثر الطرق الإسلامية تلفيقية. ومع محاربتهم للجماعة المسيحية المعادية، جماعة دار الحرب، فإنهم يستخدمون نفوذهم ويستفيدون من صداقاتهم لحماية الجماعة المسيحية فى دار الإسلام. وفيما بعد، سوف تؤدى شبكات تضامن مختلفة إلى مد مكاسب هذه العودة للمسيحية فى القمة إلى قاعدة الهرم الاجتماعى. وهكذا تنهض الديموغرافية المسيحية من جديد، إذ تحصل على دفعة قوية بفضل استقلال الملل ورعاية - أو تواطؤ - الموظفين المسيحيين بشكل متزايد.

وكان من شأن فتوحات الإمبراطورية فى الأرض العربية [٥٤] أن تسمح، منذ عام ١٥١٧، باستمالة من الجانب الإسلامى ليس فقط للسكان وإنما أيضاً للحساسية السياسية. فقلب الإمبراطورية كان ينبض حتى ذلك الحين على ضفتها الأوروبية، إسطنبول وروميليا [٥٥]؛ وهو يتجه الآن نحو أقطاب أبعد، من بلجراد إلى تلمسان مروراً بالقاهرة. ولما كانت الأناضول معزولة، فإنها تشهد ديموغرافية لا تعرف انقلابات.

وقد أدى سلام زمن سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) إلى نسيان التخريب المغولى. فقد انتقل سكان الأناضول من ٥ مليون نسمة إلى ٨ر٦ مليون نسمة بين ١٥٢٠ - ١٥٣٥ و١٣٧٠ -

١٥٨٠. ولم يكن العثمانيون يحوزون الأساليب المتقدمة التى يملكها علم الإحصاء الحديث. وعلى الرغم من الأهمية البالغة للتعدادات العثمانية فى القرن السادس عشر [٥٦]، فمن الضرورى التعامل معها بحذر. وربما كان التعداد الثانى (١٥٧٠ - ١٥٨٠) أكمل من الأول (١٥٢٠ - ١٥٣٥)، وفى تلك الحالة سيكون نمو السكان قد بولغ فى تقديره. على أننا لا نرى سبباً لتفرد تركيا فى عالم بحر متوسط تفجر فى كل مكان تحت تأثير توسع ديموغرافى غير مسبوق. لقد كان المسيحيون يشكلون نسبة ٨٪ من سكان الأناضول. وقد تجاوز معدل ازديادهم معدل ازدياد المسلمين تجاوزاً طفيفاً (٨ر٠٠٩٪ فى مقابل ٣ر٠٠٩٪ فى السنة).

وكان الوضع مختلفاً تماماً فى روميليا حيث نجد أن النمو الديموغرافى الإسلامى (٨ر٠٠١١٪) قد تجاوز بشكل محسوس النمو الديموغرافى للمسيحيين (١ر٠٠٥٪) واليهود (٣ر٠٠٦٪)، وذلك بسبب هجرة الأتراك الأناضوليين والاستيطان التركى لدوبروجا، الإقليم الشمالى - الشرقى لبلغاريا.

وتشير التعدادات التى أجريت فى القرن التاسع عشر إلى أن الميزة المسيحية فى آسيا الصغرى سوف تستمر على مدار التاريخ العثمانى. وبسبب غياب تعداد وسيط، فقد ضاعت للأسف ذكرى الديموغرافيا على مدار مائتى وخمسين سنة، لكن عمليات جزئية من شأنها أن تطلعنا على أحوال ذلك الفاصل الطويل [٥٧]. فلما كانت الطوائف المختلفة قد ظلت غير متساوية أمام القانون، خاصة القانون الضريبى، فقد كان على الذميين أن يدفعوا بنقود معدنية كبيرة العيار ثمن حقهم فى «الكفر». وقوائم الجزية وقوائم الصفقات العقارية أو الأحكام القضائية، والتى تذكر كلها الديانة [٥٨]، تطلعنا على ديناميـة المسيحيين (الجـدول VI .3). فبدلاً من النزوح الجماعى، يبقى هؤلاء باستمرار فى الأرياف والمدن. ومدن بحر إيجة، خاصة أزمير، التى يصل غير المسلمين إلى نحو ربع سكانها، تستقبل يونانيين من البيلوبونيز وأرمن من الأناضول الشرقية أو من إيران ويهوداً سيفاراديين من أسبانيا، كان أجدادهم قد استقروا فى سالونيك. أما ضفاف البحر الأسود، الأقل حظاً، فهى تعانى من عواقب انعدام الاستقرار السياسى والحروب مع فارس. وهكذا يضطر المسيحيون إلى النزوح من تريبيزوند: فمن ١٥٠٠٠ نسمة تم عدهم فى عام ١٦٠٩، لن يبقى منهم غير ٢٥٠٠ فى بداية القرن السابع عشر.

من التنظيمات إلى جماعة تركيا الفتاة، أوج التعددية الطائفية

على أبواب غرب يمر بثورة تكنولچية سافرة، كانت الإمبراطورية (العثمانية) تحيا القرن الأخير من عمرها. وكان محمد على، الذى اعترف به الباب العالى والياً على مصر، قريباً من إخضاع سلطانه (٥٩). وقد انهمكت القاهرة فى الملحمة الصناعية بينما سلمت اسطنبول نفسها لمبضع الجراح. ويمس إغراء الحداثة فى البداية الطوائف المسيحية واليهودية. وتنبثق توترات من تطور ذى سرعتين؛ فصدى النزعات القومية البلقانية والقوقازية يحييها. وبعد خمسين سنة من الثورة الفرنسية، كانت فكرة المساواة قد شقت الطريق الذى سوف تشقه فكرة الديموقراطية فى أواخر القرن العشرين: وكان الإصلاح شرطاً للمشاركة فى مجمع الأمم. وسوف يلغى العثمانيون وضعيات التمييز الطائفى عبر سلسلة من الإصلاحات الضريبية والمدنية، هى تنظيمات عامى ١٨٣٩ و١٨٥٦. وعن طريق مفارقة مقابلة للمفارقة التى تعيد إحياء الجماعة المسيحية فى ظل سلطة الإسلام، فإن هذه الإصلاحات تمهد للعلمانية التى سوف تمحو الجماعة المسيحية نهائياً فى القرن العشرين.

والحال أن التنظيمات سوف تتوج بالنزعة العثمانية، وهى المذهب الذى يعتبر لأول مرة غير إسلامى، وعلمانياً، إن لم يكن معادياً للإسلام، والذى سوف يكون مصدر إلهام دستور ١٨٧٦، والذى لم يعمر طويلاً. وكان على هذا الدستور أن ينشىء ملكية مقيدة يعتبر جميع رعاياها «عثمانيين، بصرف النظر عن ديانتهم أو عقيدتهم (٦٠)». وكان بوسع المساواة أن تحفز تداخل أنماط السلوك، بل ربما تداخل الديموغرافيات.

لكن أثر التنظيمات كان مختلفاً تماماً. إن الأقليات سوف تستفيد، دون تناسب مشترك مع نسبتها الفعلية فى السكان، من تضخم البيروقراطية التى سوف يزيد عدد أعضائها نحو مائة مرة. وتظل علمنة القضاء حبراً على ورق، أما علمنة التعليم فهى تترجم، فى الواقع الفعلى، إلى الصعود الخاطف للمدارس المسيحية التى تلقى التسامح، بل التشجيع، من جانب رجال التنظيمات. وفى المقابل، فإن الإلزام بأداء الخدمة العسكرية لا ينيخ بعد بكلكله إلاً على المسلمين، ذلك أن أفراد الأقليات قد سارعوا إلى قبول الاستعاضة عن أداء الجزية القديمة بالبدل العسكرى (رسم الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية)، حيث لا يوجد فرق بين مبلغ الأولى ومبلغ الثانى. وأخيراً، فإن الإدارة الجديدة للولايات تسقط تحت وصاية الجمعيات

العامة، والتى يجد فيها غير المسلمين أنفسهم مناظرين للمسلمين المنتخبين، أى ممثلين بدرجة تفوق نسبتهم فى السكان [٦١]. ولم يكن ذلك الإجراء محايداً بالنسبة للديموغرافيا. فهذه الجمعيات تقرر شؤون الإدارة والتجهيزات المحلية: فمن الصحة إلى الثقافة، تعدل كل ما من شأنه التعجيل بتحقيق تحول. وهكذا فإن التنظيمات، دون أن تربط الأقليات ربطاً أوثق بالإمبراطورية، تسهم فى تعزيز ديناميتها الديموغرافية. وتثبت ذلك تعدادات القرن التاسع عشر.

والحال أن تعداد عام ١٨٣١، الموجه بشكل رئيسى إلى إحصاء الرجال، المسلمين القادرين على حمل السلاح وغير المسلمين الخاضعين لأداء الجزية، يكشف عن نسبة ١٢٪ للمسيحيين فى الأناضول، فى مقابل نسبة ٨٪ فى القرن السادس عشر [٦٢]. وهذا التوزيع النسبى للطوائف يبدو معقولاً لأن المسلمين والمسيحيين على حد سواء كانوا مهتمين، لاعتبارات مختلفة، بالتهرب من هذا التعداد. ومن جهة أخرى، فإن تعدادات أواخر القرن تؤكد صعود الأقليات. والواقع أن تعدادات وتقديرات السكان، التى يحفزها تحديث جهاز الدولة واهتمام الدول الأوروبية بالأقليات الدينية، سوف تتكاثر خلال النصف الثانى للقرن التاسع عشر، من البلقان إلى طرابلس الغرب [٦٣]. إن تعدادى ١٨٨١ – ١٨٨٢ و١٩٠٦ – ١٩٠٧ وكذلك تعداد عام ١٩١٤ سوف تقدم أداة استثنائية لإعادة رسم صورة الجماعة المسيحية فى شرقى البحر المتوسط، التركى [٦٤] والعربى [٦٥]، عشية الكارثة التى تنذر بالوقوع فى تركيا.

وحول عام ١٨٨١، تتحدد تلك اللحظة من التاريخ العثمانى التى سوف يبلغ فيها غير المسلمين، اليونانيون والأرمن خاصة، أوجهم الديموغرافى. فهم يمثلون آنذاك نسبة ٢١٪ من السكان على أرض تركيا الحالية (الجداول VI. 4 a b c). وقد تعزز مجمل سكان الولايات الأناضولية تعززاً قوياً بين ١٨٣١ و١٨٨١ – ١٨٩٣ (٧ر٠٠١٥٪ فى السنة) [٦٦]، لكن المسيحيين (٨ر٠٠١٩٪)، وهذا واقع ثابت فى التاريخ العثمانى، سوف يتزايدون بنسبة أسرع من نسبة تزايد المسلمين (٠ر٠٠١٥٪).

على أن تصادم النزعات القومية سرعان ما سوف يهدد الجماعتين المسيحيتين. فمذابح الأرمن فى ١٨٩٤ – ١٨٩٦ سوف تمس فى البداية ديموغرافيتهم، لكن أعدادهم سوف تزيد مع ذلك بنسبة ٨ر٠٠٤٪ فى السنة بين عام ١٨٨١ وعام ١٩٠٦ (الجدول VI .5). ثم تؤدى حرب البلقان (١٩١٢) إلى اختزال نمو اليونانيين (٤ر٠٠٤٪ بين عامى ١٩٠٦ و١٩١٤).

وبالنسبة لهؤلاء ولأولئك، فإن هذا التراجع الديموغرافي كان نتاجاً للنزوح بشكل خاص (٣٠٠٫٠٠٠ نازح)[٦٧]، والذي يتجاوب هو نفسه مع انعدام الأمن؛ وسوف ينزح اليونانيون والأرمن إلى اليونان ومصر وسوريا وأوروبا الغربية وروسيا، أو إلى أماكن أبعد، في الأمريكتين. أما اليهود، وهم الوحيدون الذين يتزايدون بين الأقليات، فسوف يشهدون خلافاً لذلك ثلاثة عقود من النهوض الديموغرافي المماثل لنهوض المسلمين.

وتحافظ العاصمة على تراثها الكوزموبوليتي. فكما في عهد سليمان القانوني، يمثل السكان غير المسلمين فيها أكثر من ٤٠٪ من السكان (الجدول VI .6) [٦٨]. على أن ظاهرة جديدة ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر: الهجرة، خاصة إلى اسطنبول، من جانب جماعات سكانية مسلمة هاربة من عالم الحدود المسيحي [٦٩]. وتتدفق هذه الجماعات من روميليا والجبل الأسود وصربيا والبوسنة وبلغاريا وثيساليا في البلقان. كما تهاجر عدة عشرات آلاف من المسلمين اليونانيين من كريت و٥٠٠٫٠٠٠ شركسي من القوقاز. ويصل إجمالي الفارين إلى نحو مليوني نسمة. وهذه الهجرات في الاتجاه المضاد [٧٠] تتطابق مع تغير سياسي جذري.

ولنتوقف أمام العلاقات التي تسنى قيامها بين السياسة والديموغرافيا في الإمبراطورية في نهاية القرن تلك. إن السياسي أكثر حساسية دائماً للانقطاعات مما للاتجاهات المتواصلة منذ زمن بعيد. وفي أوساط السلطة، يجرى إيلاء انتباه عظيم إلى التدفقات الإسلامية. فهذه التدفقات، الفارة من أقاليم مهزومة عسكرياً، ما كان لها أن تمر دون أن يلحظها أحد، لأنها تجتاح العاصمة. وفي المقابل، فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج بالمرة من نمو طبيعي أعلى للطوائف المسيحية، فما أكثر إفلاته من المراقبة المباشرة. وعشية التبديل الهائل للمشهد، فإنه يبلغ مع ذلك نسبة ٠٫٠١٢٪، في حين أن النمو الطبيعي للمسلمين لا يدنو إلاّ من نسبة ٠٫٠٠٩٪. ويتضاعف المسيحيون في خمسين سنة، بينما يتضاعف المسلمون في خمس وسبعين سنة. ونحن نعرف أن الدولة كانت تبدو آنذاك في مظهر أكثر سلفية. وتثبت هذه الأرقام أن راديكالية السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) لا ترجع إلى التعزز المفاجىء للتفوق العددي الإسلامي بفضل الهجرة من البلقان. فالتحول الإيديولوجي الرسمي كان أسبق، لأنه حدث في الوقت الذي كانت الديموغرافية المسيحية فيه ماتزال الأكثر دينامية. ومن ثم فإن إعادة الأسلمة كانت سياسية قبل أن تكون ديموغرافية.

والواقع أن الديموغرافيا المتمايزة تجد مصدرها في التراتب الذي أسسه نظام الملل.

ففى مجتمع عثمانى يتخذ طابعاً هيراركياً قوياً، ويضع الوظيفة العسكرية على قمة الهرم، نجد أن الغالبية المسلمة لا تمارس عين الأنشطة التى تمارسها الأقليات المسيحية واليهودية. فالزراعة والجيش ترجعان أساساً إلى المسلمين، بينما ترجع الصناعة والتجارة والخدمات إلى الأقليات. أما فيما يتعلق بالإدارة، فإن الاختلاط الطائفى كان قد أدخل إليها منذ القرن السابع عشر. وهذا التقسيم، الذى يختل إلى حد ما اعتباراً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر، والذى كان المسلمون يعتبرونه امتيازاً، إنما يلحق الضرر بهم. فالحرب تقتل لكن الضريبة لا تقتل. ولما كانت [الحرب] نشاطاً نبيلاً، فقد كانت ترغم المسلمين على مدة خدمة عسكرية جد طويلة، تصل إلى عشرين سنة أو أكثر، وتنخفض إلى اثنتى عشرة سنة فى عام ١٨٢٩، عندما يجرى إغراق قوة الإنكشارية فى حمام من الدماء. وهذا الإلزام، الذى يبعد الرجال الشبان عن أسرهم، إنما يختزل نسبة الزيجات ونسبة المواليد بين المسلمين، إذ كان بالإمكان تعبئة نسبة ١٢٪ من الرجال (٧١). وسلسلة النزاعات المسلحة التى عرفها التاريخ التركى تزيد من نسبة الوفيات المرتفعة والمحسوسة بالفعل فى زمن السلم. أمَّا الأوبئة فقد كانت أكثر قتلاً بكثير بين صفوف المسلمين مما بين صفوف المسيحيين واليهود، لنفس الأسباب كما فى العالم العربى (٧٢).

وعلى الرغم من أن مبدأ الجزية كان تمييزياً إلى أكبر حد ممكن، فإن الجزية أقل فداحة من الحرب. وقد أعفى من أداء هذه الضريبة رجال الدين والإدارة وأولئك الذين يقدمون عملاً يحقق نفعاً عاماً: الأمن، صون الطرق والجسور، تربية الصقور. والواقع أن نحو الثلث فقط هم الذين كانوا يؤدون (الجزية) من الناحية الفعلية (٧٣). ولما كانت الأقليات المسيحية واليهودية فى مأمن من العبوديات العسكرية، فقد كانت أمامها فرصة لحراك اجتماعى أعظم، يشجع عليه شبه الاحتكار الذى تتمتع به فى القطاعات الأكثر دينامية فى المجتمع والاقتصاد. «إن عبقريتها التجارية تتيح لها الاحتكار الفعلى للتجارة ولجزء ملحوظ نسبياً من ثروات البلاد. [...] والحق أن مواهب الأرمنى كانت ضرورية لسادته، ويشير التسامح العام الذى يوفره التركى له إلى أنه كان يدرك هذا الواقع. والواقع أن التابع الأرمنى المسيحى والمثقف والسيد المسلم والمزارع كانا يعيشان جنباً إلى جنب حيث تنشأ بينهما علاقات جد هشة، إلاَّ أنها لا يعوزها توفير منافع متبادلة (٧٤)». وهكذا فإن هذه الأقليات يتسنى لها أن تتشكل فى طبقة متوسطة مؤثرة. ومن جهة أخرى فإن الحماية التى تتمتع بها من جانب الدول الأوروبية تعزز دورها (٧٥).

فهل تحمل الديموغرافيا أثر المستوى المعيشى الأعلى الذى تتمتع به الأقليات؟ إن الأقليات تستفيد منه، فى اسطنبول على أية حال. ففى ١٨٧٦ - ١٨٧٩، تتجاوز نسبة وفيات المسلمين إلى حد بعيد (٢١.٠٠٪) نسبة وفيات الأقليات (١٢.٠٠٪)، خاصة نسبة وفيات النساء. وكما فى الولايات العربية، فإن أمية الغالبية الساحقة للمسلمين تتعارض مع أشكال التقدم الحاسم الذى حققته الطائفتان الأخريان خلال القرن التاسع عشر، خاصة بفضل المؤسسات التى أنشأها المبشرون المسيحيون والتحالف الإسرائيلى العالمى (الجدول VI .7). ولا يمكن للحالة الصحية إلاّ أن تتأثر بذلك. على أن معدل الوفيات لا يفسر كل شىء. فالدينامية الضعيفة للجماعات السكانية المسلمة إنما تنبع أيضاً من معدل إنجاب أكثر انخفاضاً. وهذا الواقع يستثير الدهشة فى أيامنا، فقد اعتدنا الربط بين الإسلام والانفجار الديموغرافى.

وقد جرى مؤخراً إثبات الابتسار العظيم لبعض العينات العشوائية المالثوسية فى الأسر المسلمة فى اسطنبول فى أواخر القرن التاسع عشر (٧٦). وقد صدم بالفعل آنذاك بعض المراقبين، الذين ردوه إلى التجنيد وخاصة، «إلى الوسائل الضارة التى تستخدمها النساء التركيات من الطبقات الاجتماعية الأدنى لتجنب إنجاب الكثير من الأطفال (٧٧)». والحساب، المستحيل فى تلك الأزمنة، سوف يثبت بعد مائة سنة أنهم كانوا على حق: فمعدل الإنجاب فى الولايات العثمانية يتباين عكسياً مع نسبة المسلمين (٧٨).

لكن حيوية ديموغرافية استثنائية لا يمكنها ضمان الخلود للمسيحيين. فبقاؤهم السياسى كان من الصعب تصوره خارج القالب المؤسسى الذى صيغ بأناة منذ الاستيلاء على القسطنطينية. ومنذ الاستهلالات الأولى للدولة القومية، سوف تتفكك الجماعة المسيحية العثمانية. وفى عام ١٩١٤، قبل اختفاء الأقليات، نجد أنها (الأقليات) قد تجاوزت ٣ ملايين نسمة. وعلى الرغم من انتشارها فى كل أرجاء تركيا، فقد كانت قريبة من تشكيل كتلتين متماسكتين. من جهة، نجد اليونانيين: وإذ يتجمعون فى اسطنبول وفى أوروبا التركية وعلى سواحل بحر إيجة والبحر الأسود، فإنهم يضيفون أيضاً بضع جماعات فى الأناضول الداخلية، حتى قلب بلاد الأرمن. ومن جهة أخرى، نجد الأرمن، الذين يمتد وجودهم من القوقاز إلى البحر المتوسط. وكانت المدن والقرى التى يختلط فيها المسيحيون مع المسلمين الأتراك والأكراد، عديدة. وإذا كان اليونانيون يجهلون غالباً اللغة التركية (٧٩)، فإن نصف الأرمن يستخدمونها (٨٠). على أنهم ظلوا بعيدين عن اتحاد وثيق.

وسرعان ما سوف تحدث المواجهة بين عدة نزعات قومية. وكان بعضها محروماً من ركيزة إقليمية محددة، كالنزعة العثمانية - التى تحلم بأن توحد حول السلالة الحاكمة كل المسلمين والمسيحيين واليهود العثمانيين، الأتراك أو غيرالأتراك - ونزعة الجامعة الإسلامية - التى تحلم بحشد جميع مسلمى العالم حول السلطان - ونزعة الجامعة التركية - التى توسع الساحة القومية لتشمل جميع أتراك آسيا الوسطى - أو أيضاً نزعة الجامعة الطورانية الغائمة، التى تنادى بوحدة الشعوب الناطقة بلغة ذات أصل تركى، من منغوليا إلى المجر. على أن ثلاث نزعات قومية كان لها تصور إقليمى محدد. فالنزعة القومية اليونانية تمجد يونان كبرى على ضفتى بحر إيجة. والنزعة القومية الأرمنية تمجد دولة مكونة من أرمينيا الكبرى وأرمينيا الصغرى. وهذه وتلك ضحيتان لوهم ديموغرافى، منتشر بين صفوف الأقليات المسيحية الشرقية: فاليونانيون يبالغون فى نموهم والأرمن يبالغون فى عددهم. وبين كماشة الاثنين، يحتفظ الأتراك مع ذلك بالغالبية فى كل مكان. وإذ يتخلون عن الاحتشاد الدينى المحدد خلف راية الإسلام، فإنهم يتجمعون تحت راية نزعة قومية ثالثة، تعتبر إقليمية لأول مرة. وهكذا فإن الأناضول، التى لم يتم التنازع عليها قط منذ اختفاء بيزنطة، تجد نفسها دفعة واحدة محل اشتهاء ثلاثى الأطراف (٨١).

نهاية الوجود المسيحى

منذ عام ١٨٣٠، نجد أن أرمينيا الشرقية (يريڤان وقره باخ)، التى انتقلت تحت وصاية روسيا الأرثوذكسية، تعرف بعثاً قومياً ودينياً وثقافياً، وتوسعاً اقتصادياً. والحال أن أرمينيا الشرقية واليونان التى نالت استقلالها سوف تشكلان قطبين فاعلين للنزعة القومية. وهكذا فإن الأرمن واليونانيين العثمانيين سوف يجدون أنفسهم موزعين بين الولاء للإمبراطورية وطموحات جديدة إلى الاستقلال. وسوف تتفاقم هذه الطموحات حول زمن الحرب العالمية الأولى، التى سرعان ما تشهد انطفاء المذهب العثمانى. وسوف يدفع أكثر من ثلاثة ملايين من المسيحيين العثمانيين حياتهم أو رحيلهم إلى المنفى ثمناً لصدام النزعات القومية ولميلاد تركيا الحديثة.

وفيما يتعلق بأرمن تركيا، فإن العدد الذى يقدمه أول تعداد تجريه الجمهورية: ٧٧٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٢٧، هو مرتكزنا الوحيد. فمن أى عدد سكانى كانوا الناجين ؟ هل من الـ ١٫٢ مليون نسمة، كما يتضح من آخر التعدادات العثمانية (١٩١٤)، أم من الـ ٢٫٤ مليون

نسمة فى عام ١٨٨٢، كما تؤكد البطريركية الأرمنية [٨٢] ؟ إن الطائفة الأرمنية، التى كانت إلى عهد قريب الملة الصادقة (الأمة المخلصة)، «من بين جميع الأمم الخاضعة للباب العالى، الأمة التى لها مصالح مشتركة أكثر مع الأتراك والمهتمة بشكل مباشر أكثر على الحفاظ عليها[٨٣]»، قد جرى ترحيلها بفظاظة فى عامى ١٩١٥ و١٩١٦ من تركيا صوب الهامش العربى. وهى، فى خروجها، تتعرض لمذابح مازال اتساع حجمها يغذى، بعد انقضاء ثلاثة أرباع قرن، السجال بين الأرمن والأتراك. وإذا كان قد بقى مع ذلك أرمن فى الأناضول بعد الترحيل والمجازر، فإن تقلبات السياسات الروسية والأمريكية والفرنسية فى أواخر زمن الحرب سرعان ما سوف تسهم فى التعجيل باختفائهم [٨٤].

وحتى نقف على حجم المذبحة، لابد من معرفة عدد الأرمن الموجودين فى تركيا قبل الحرب، وعدد المنفيين من تركيا بعدها. والحال أن التقديرات التى تؤيد المزاعم الأرمنية وتلك التى تؤيد المزاعم التركية متناقضة. ويشكك الأرمن فى التعدادات العثمانية، فهم يقولون: إن الإلزام بدفع البدل كان يحفز المسيحيين على التهرب من موظفى الدولة. وإذ يتبنون تعدادات البطريركية، فإن تقديراتهم تتراوح فى الأغلب بين ١ر٨ مليون و٢ر١ مليون من الأرمن عشية الحرب [٨٥]. أمَّا توينبى، الذى لم يكن أرمنيا، فهو يقترح رقماً كلياً يتراوح بين ١ر٦ مليون و٢ر٠ مليون [٨٦]. وأمَّا فيما يتعلق بالأتراك فإنهم يقبلون اليوم كما بالأمس تعداد عام ١٩١٤، ويقدمون رقم الـ ١ر٣ مليون [٨٧]. فهل يمكن البت فى معركة الأرقام هذه ؟ إن هذا صعب إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تأكيدات اللجنة الأمريكية لإغاثة الأرمن والسوريين، التى بينت منذ عام ١٩١٥: «إن تقديرات الحكومة التركية تعتبر بوجه عام جد منخفضة وتقديرات البطريركية الأرمنية تعتبر أحياناً جد مرتفعة، مع ميل فى الحالة الأولى إلى التقليل وفى الحالة الثانية إلى التهويل من شأن عدد وأهمية السكان الأرمن [٨٨]».

وفى إعادة فتحه للملف فى الثمانينيات، أخضع جامعىٌ أمريكىٌ البيانات العثمانية للمناهج الديموغرافية المعاصرة [٨٩]. فقد أعاد تقييم عدد السكان الأرمن بـ ١ر٦ مليون نسمة واستنتج أنه لم يكن هناك تلاعب مقصود، وكل ما هناك هو أننا نجد أنفسنا أمام تقييم اختزالى عادى بالنظر إلى تقنيات التعداد آنذاك. وبطرحه عدد الأرمن الذين تم حسابهم فى تركيا بعد الحرب، فإنه يتوصل من ثم إلى حدوث انخفاض سكانى قدره حوالى مليون ونصف مليون من الأشخاص، وهو ما يتناسب مع حجم المذبحة بالمعنى الدقيق للمصطلح، وكذلك مع حجم النازحين، المبعدين أو المهاجرين بحرية، وحجم المتحولين إلى اعتناق الإسلام.

والواقع أن أهمية كل من المذبحة والترحيلات كانت موضع مجادلات متزايدة الحدة. فمنذ غداة الأحداث، حسب المؤرخ البريطانى توينبى والقس الألمانى ليبسيوس اللاجئين فى سوريا وروسيا وفارس، الذين كان قد تم حسابهم لدى وصولهم من جانب الجمعيات الخيرية، كما حسبا الأشخاص الذين بقوا فى تركيا، إمّا لأنهم قد أتيحت لهم الفرصة للإقامة فى مدينة كبرى، اسطنبول أو أزمير، حيث «كان من الصعب قمعهم أمام كل هذا العدد من الشهود[٩٠]»، أو لأنهم نجوا من الموت مقابل تحول إلى اعتناق الإسلام [٩١]. ويقدر توينبى عدد ضحايا المذبحة بـ ٦٦٠٠٠٠، أما ليبسيوس فيقدره بمليون نسمة [٩٢].

أما الأطروحة التركية، التى عرضت مؤخراً، فهى تعترف بظاهرة الترحيل، وتسميها على نحو محترس بـ «إعادة التوطين». وهى تعترف باتساع حجمها: ٧٠٣٠٠٠ نسمة من الجنسين ومن جميع الأعمار وفقاً لمصدر رسمى عثمانى [٩٣]، أى نحو ٧٠٪ مرحلين من بين الأرمن [٩٤]. وقد مثل هذا الترحيل واقعاً من وقائع الحرب، كان حتمياً بسبب تخابر الأرمن مع العدو الروسى. كما تعترف هذه الأطروحة بموت أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من الأرمن [٩٥]، لكنها تنفى أنهم ماتوا بحراب تركية. وبعيداً عن مذبحة منظمة من أعلى، فإن موتى الحرب قد ماتوا لأسباب تتصل بها، فهم ضحايا للأوبئة أو للضعف أثناء النزوح، أو أنهم سقطوا خلال المعارك الناشبة بين جيوش وميليشيات متعارضة. وهكذا فإن مسؤولية الجيش النظامى التركى لن تكون واردة بدرجة أكبر من مسؤولية الجماعات المسلحة غير النظامية الكردية أو عصابات الطرق الرئيسية.

واليوم يضع جامعيون غربيون فى ميزان واحد عذابات الأتراك وعذابات الأرمن: «إن ذكر عذابات جماعة وتجنب ذكر عذابات الجماعة الأخرى إنما يعطى تصوراً زائفاً حول ما كان كارثة إنسانية، لا مجرد كارثة عرقية [٩٦]». وقد أعاد أحد هؤلاء الجامعيين النظر فى الحسابات وتوصل إلى أن عدد الضحايا قد وصل إلى ٥٨٤٠٠٠ نسمة (الجدول 8. VI)[٩٧]. وينبغى رفع تقديره بدرجة طفيفة. فالواقع أنه فى إعادة تركيبه لتعداد السكان الأرمن الذين عاشوا فى تركيا عشية الحرب، حذف أرمن إسطنبول وتركيا الأوروبية [٩٨]. ويجب إعادة دمجهم فى الحساب، وهو ما يؤدى إلى تقدير عدد الضحايا بـ ٦٨٨٠٠٠ نسمة، وهو رقم أقرب إلى الحقيقة. ومن جهة أخرى، فإن ذلك هو حجم الضحايا الذى قدره توينبى فى ذروة الأزمة.

وسوف تواصل البقايا الأخيرة للسكان الأرمن الذبول بعد الترحيلات والمذابح. وأولئك الذين سوف يرحلون لن يكون لهم حق فى العودة. وفى عام ١٩٦٥، نجد أن التعداد الذى يذكر الديانة يشير إلى ٦٤٠٠٠ أرمنيا، من بينهم ٣٢٠٠٠ فقط يتحدثون بالأرمنية. والحال أن الجالية الأرمنية، التى اختفت من أرياف المهد التاريخى لأرمينيا الكبرى ولأرمينيا الصغرى، إنما تحيا الآن فى العاصمة العثمانية القديمة، اسطنبول.

أما فيما يتعلق بالجالية اليونانية المزدهرة فى تركيا، فقد دفعت بعد الحرب ثمن طموح الحكومة الهيلينية الزائد عن الحد. فالأمر لا يقتصر على أن هذه الحكومة قد قللت من شأن عدو تعرض للهزيمة [خلال الحرب العالمية الأولى]، بل إنها قد تصورت، بالرغم من جميع الشواهد، أن الديموغرافيا تميل إلى صف اليونانيين.

وقد ذاع عن رئيس الوزراء ايليفثيريوس فينيزيلوس قوله: «إن يونانيى أزمير، بفضل قدرتهم على الإنجاب، سوف يتزايدون إلى الدرجة التى سوف يتجاوز عندها عددهم عدد مجمل سكان الإمبراطورية التركية قبل نهاية هذا القرن (٩٩)».

واستقواءً بهذا اليقين الجميل وتحت مظلة قوات الحلفاء، سوف يحاول اليونانيون إعادة بناء اليونان الكبرى، بعد أن احتلوا الأناضول الغربية. وسوف تنتهى الحرب اليونانية – التركية بين عامى ١٩٢٠ و١٩٢٢ إلى هزيمة المحتلين وتجد خاتمة لها فى معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣، التى ينص أحد بنودها على تبادل ضخم للسكان: أتراك اليونان فى مقابل يونانيى تركيا.

لنلق نظرة إلى الوراء. عند استقلال اليونان (١٨٣٠)، فقد يونانيو اسطنبول وآسيا الصغرى عدداً من مواقعهم. فقد تعرضت ملتهم للأفول لحساب الملة الأرمنية. على أنهم سوف يبقون على مدار قرن، بالرغم من نداءات اليونان التى كثيراً ما تحرضهم على التمرد. وبالرغم من النزعات القومية المتشددة، فإن عدداً من اليونانيين يفضلون اليسر الذى يجدونه على ضفاف البسفور أو فى الأناضول على الحرية التى تم الفوز بها مؤخراً على ضفاف المورة أو إيبيروس الرحيمة بدرجة طفيفة. كما يتسنى لهم تعزيز صفوفهم من خلال الهجرة القادمة من اليونان الانفصالية، لأن القادة العثمانيين كانوا يريدون الحفاظ على البنية المتعددة القوميات.

وبعد ذلك بقرن، سوف يكون مصطفى كمال أقل سخاءً. وعندئذ، فإن يونانيى تركيا سوف يعانون من حماقة الحكومة الهيلينية. وعلاوة على ذلك، فبعد إزالة الأرمن، كان أتاتورك

يريد استكمال تحقيق التجانس الإثنى الذى لم ينجز فى ظل حكم جماعة تركيا الفتاة. وقد نص الاتفاق الذى عقده مع اليونان بعد انتصاره فى عام ١٩٢٢ على تبادل للسكان. إن أتراك أو مسلمى اليونان الذين يصل عددهم إلى ٤٦٤٠٠٠ نسمة، فيما عدا أتراك ومسلمى تراس الغربية، سوف يعادون إلى تركيا (١٠٠)، فى مقابل جميع يونانيى تركيا - ١٫٣٤٤ مليون نسمة، دون حساب يونانيى اسطنبول - الذين سوف يجرى إرسالهم إلى اليونان. وهكذا فلن يبقى فى عام ١٩٢٧ غير عشرة آلاف يونانى فى الأناضول.

وفى غالبية الحالات، كانت اللغة التى يتحدث بها الأشخاص هى التى تحدد الأشخاص الذين يجب ترحيلهم. لكن الدين، فى جمهورية موعودة بمستقبل علمانى، يلعب أيضاً دوره فى تحديد يونانيى الأناضول الداخلية. «إذا ما أخذنا المسميين «يونانى» و«تركى» بمفهومها الغربى وليس بالمفهوم السائد فى الشرق الأدنى، فإن تبادل السكان الشهير بين اليونان وتركيا يمثل بناءً على ذلك ليس إعادة ليونانيين إلى اليونان ولأتراك إلى تركيا بل ترحيلاً لأتراك مسيحيين وليونانيين مسلمين (١٠١)». إن عدداً كبيراً ممن يجهلون اللغة اليونانية قد جرى ترحيلهم؛ وكانوا من جميع الوجوه أتراكاً يتبنون الديانة المسيحية. وفى هذا البلد الذى كان محكوماً إلى عهد قريب بنظام الملل حيث كان الدين يحدد الهوية، سيتعين من ثم انتظار تحقيق التجانس الدينى حتى يتسنى تأكيد العلمانية التى أعلنها رئيس عصرى (١٠٢).

وقد أبقت اسطنبول على حيوية ذكرى القسطنطينية، عاصمة الأرثوذكسية. ومن حيث المبدأ، فإن سكانها اليونانيين، الأسعد حظاً، يفلتون من المبادلة. وفى عام ١٩١٤، كان عددهم نحو ٢٠٠٠٠٠ نسمة (١٠٣). ولكن هل يمكنهم البقاء طويلاً منكفئين على المتروبول، بعد حرمانهم من مؤخراتهم الأناضولية ؟

بمرور الزمن، وبالرغم من الحماية التى توفرها معاهدة لوزان، سوف تتراجع أعدادهم تراجعاً متواصلاً: من ١٣٦٠٠٠ فى عام ١٩٢٧ إلى ٨٠٠٠٠ فى عام ١٩٦٥ (١٠٤). وإثر ذلك، بفضل التفجرات العديدة للتوتر بين اليونان وتركيا، خاصة أزمات قبرص، سوف تؤدى عمليات طرد اليونانيين الذين يحملون الجنسية الهيلينية (١٠٥) إلى زيادة تآكل أعدادهم. وفى أواخر الستينيات، لن يمثلهم غير عدة مئات من العجائز والسيدات المتزوجات من يونانيين يحملون الجنسية التركية. وبحكم مسلسل الجذب، تعجل عمليات الطرد هذه بخروج يونانيين يحملون الجنسية التركية. ونحن لا نعرف عددهم، الذى لا مراء فى أنه مرتفع. والواقع أن التعدادات

التركية لا تقدم اليوم أى عون لتحديد ديانة السكان – وهو متغير يعتبر منذ ذلك الحين بلا طائل حيث أن الأقليات الطائفية قد اختفت تقريباً [١٠٦] – لكن إحصاء تلامذة المدارس اليونانية، الذى هبط من خمسة آلاف فى عام ١٩٦٥ إلى ثمانمائة فى عام ١٩٨٣، يؤكد، إن كانت هناك ضرورة لذلك، الاختفاء شبه التام لطائفتهم. إن اليونانيين لا يشكلون اليوم غير ثمانية آلاف شخص.

وحتى العشرينيات، لم تكن الطائفة اليونانية والناجون الأرمن فى اسطنبول قد تلاشوا، من الناحية الديموغرافية. على أنه يبدو من المستبعد أن تكون الدولة التركية الجديدة قد تمسكت بالاتفاقات الخاصة بيونانيي اسطنبول وحافظت على آخر من فيها من الأرمن. والواقع أنه فى هذه المدينة، التى ظلت الرئة الاقتصادية للبلاد بالرغم من نقل العاصمة إلى أنقره، كان المسيحيون يهيمنون دائماً على الاقتصاد: لقد كانت نسبة ٥٠٪ من الاستثمارات يونانية وكانت نسبة ٢٠٪ أرمنية؛ وكان اليونانيون والأرمن يحوزون معاً تسعة أعشار الوظائف فى الاستثمارات الأجنبية [١٠٧]. وكانت المشاركة التركية الضعيفة قد صبغت بالفعل المطالب الاقتصادية للنزعة القومية لدى جماعة تركيا الفتاة.

والحال أن مصطفى كمال ثم من سوف يخلفونه هم الذين، بدفعهم الأقليات إلى الرحيل، سوف يخلقون بورجوازية تركية. وهذه الطبقة الجديدة، شأنها فى ذلك شأن كوادر جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر وكوادر الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر الناصرية فيما بعد، سوف تختزل مرحلة طويلة لمراكمة رأس المال باستحواذها لقاء ثمن بخس على الممتلكات التى يتركها الراحلون، وهم فى هذه الحالة من اليونانيين والأرمن [١٠٨]. وسوف تبلغ التدابير التكديرية أوجها مع الضريبة المفروضة على رأس المال فى عام ١٩٤٢، ضريبة الورليك ويرجيسي، المحددة من زاوية الديانة والقومية. فقد جرى توزيع دافعى الضريبة إلى مسلمين وغير مسلمين ودونمة، وهم اليهود الذين تحولوا إلى اعتناق الإسلام فى القرن السادس عشر بعد مجيء مسيح غريب، هو شاباتاى زيفى. فقد بلغت الضريبة المفروضة على غير المسلمين عشرة أمثال الضريبة المفروضة على المسلمين، أما الضريبة المفروضة على الدونمة فقد كانت أعلى مرتين [١٠٩]. وهذه التدابير، المصحوبة بحملات صحفية عنصرية، تنال من «اليورجيسات والكرياكوسات» (اليونانيين) و«الأرتينات» (الأرمن) و«السالومونات» (اليهود)، تعجل عمليات الرحيل، التى تشمل اليهود، الذين كان النظام قد جنبهم العنت حتى ذلك الحين. ولا يزيد عدد اليهود اليوم عن عشرين ألفاً.

وبدلاً من تحقيق السكينة لآخر الباقين من الأقليات، التى اعتادت على مدار عدة قرون على الاستقلال الذاتى الإدارى والدينى فى ظل نظام الملل، أدت العلمانية إلى تشديد هشاشة وضعهم. فالمقابل المنتظر لإلغاء الخلافة الإسلامية من جانب الجمهورية، والذى يتمثل فى الطرد - المؤقت - للبطريرك اليونانى الأرثوذكسى المقيم فى اسطنبول، يؤدى إلى إسقاط أحد الرموز الأخيرة. وسرعان ما يتلوه تكليف مدرسين ووكلاء مديرين أتراك بالعمل فى المدارس اليونانية - إن لم يتم إغلاقها ببساطة - أو يتلوه إغلاق الجمعية الأدبية اليونانية. وتظل العلمانية انتقائية. فعلى الرغم من اعتماد قانون مدنى علمانى جديد ينطبق على جميع الأتراك، وعلى الرغم من إلغاء دين الدولة، تواصل السلطة تسجيل الديانة فى بطاقات تحقيق الشخصية وممارسة ضغوط متنوعة لإثناء غير المسلمين عن الطموح إلى عمل فى الإدارة المدنية أو العسكرية (١١٠). والواقع أن مشاركة غير المسلمين - التى تعتبر أثراً من آثار زمن التنظيمات - فى جهاز الدولة، خاصة فى مكتب الإحصاءات العثمانى - الذى ضم على التوالى مديراً يهودياً ثم أرمنياً ثم أمريكياً - يتم اختزالها بشكل ملحوظ. وحتى فى القطاع الخاص، فقد كانت المشروعات الأجنبية ملزمة بتشغيل حد أدنى من المسلمين.

ومن بين جميع الكوارث التى ميزت تاريخ الجماعة المسيحية فى بلاد الإسلام منذ الهجرة، فإن السنوات العشر التى اختفت خلالها الجاليتان الأرمنية واليونانية من تركيا، بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٤، كانت الأكثر جسامة. إن التكلفة البشرية، ٢ مليون نسمة، والمذبحة والمفاجأة غير المتوقعة قد قطعت بشكل حاسم مسار التاريخ الإسلامى. والمفارقة الأولى هى أن اختفاء المسيحيين يخالف التطورات التى ترتسم معالمها. فالواقع أنه قد حدث فى ظل نظامين عصريين، نظام جماعة تركيا الفتاة (١١١) والنظام الكمالى، اللذين كانا مفعمين بالروح العلمانية، واللذين شكلا بديلاً راديكالياً لسلطة أضفت الشرعية على الإسلام. ولم يكن هناك ما يسمح فى اتجاهات ديموغرافيا المسيحيين بالتنبؤ باختفائهم. ومن المؤكد أنهم قد أصبحوا أقل عدداً منذ بيزنطة، حيث كانوا يشكلون كل سكان الأناضول. على أن جهاد الفتح التركى قد اختزلهم، دون أن يمحو وجودهم.

والمفارقة الثانية هى أن الإسلام الظافر كان يتفاخر بحياة مشتركة مع المسيحيين واليهود أما إسلام زمن الانحطاط، الذى يدرك فى أواخر القرن التاسع عشر أنه قد خسر المعركة العالمية، فإنه يكبتهم. ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، قبل أن تصبح الإمبراطورية الرجل المريض الذى ترصد أحواله القنصليات الأوروبية، لا مراء فى أنها

(الإمبراطورية) قد قدمت بنية فريدة قادرة على ضمان السلم الأهلى. وقد استفادت من ذلك ديموغرافية الطوائف المسيحية واليهودية. وقد شهدت نمواً طبيعياً أكثر ارتفاعاً بفضل نظام الملل، الذى خصص الخدمة العسكرية للمسلمين ولكن مع إعفاء الأقليات فى المقابل من ضريبة الرأس، وخاصة بفضل الحراك الاجتماعى القوى الذى حول هذه الأقليات، بشكل مطرد، إلى «شعب – طبقة [١١٢]». بل إن هذا النمو قد سمح لها بموازنة صعود السكان المسلمين الذى تضخم من جراء الهجرات القادمة من الأراضى التى خسرتها الإمبراطورية على أطرافها. وكان المسيحيون ضحايا لإفقار الشعب التركى كما كانوا، بلا مراء، ضحايا للمشاعر المتناقضة التى حفزها لدى هذا الشعب النموذج الغربى، الذى يستثير الإعجاب والمقت، والذى كان المسيحيون ممثليه الأكثر وضوحاً.

إن نزيف المذابح ومبادلة السكان قد ترك فى تركيا طوائف غير مسلمة كان عددها فى عام ١٩٢٧ مايزال يقدر بـ ٣٤٠٠٠٠ نسمة. ولولا نزوحهم، لكان فى تركيا اليوم ٢ر١ مليون مسيحى ويهودى تركى [١١٣]. لكنهم فى الواقع لا يشكلون غير ١٤٥٠٠٠ نسمة، أى ٢ر٠٪ من السكان (الجدول VI .9). ووراء التدابير الانتقامية المتخذة من جانب الحكومات، يمكننا التساؤل عن مصير الأقليات الشديدة الصغر. فمع اجتياز عتبة حرجة، ألا يجرى دفعها بشكل قاتل إلى دوامة الفناء ؟ إن سوق الزواج يضيق، شأنه فى ذلك شأن سوق الصعود الاجتماعى. ويستمر إنجاب أطفال، ولكن لكى يشقوا طريق النزوح.

جداول وأشكال الفصل السادس

الجدول VI . 1

التوزيع الطائفي في اسطنبول (القرن الخامس عشر - القرن السابع عشر)

	1478		1520 - 1535		1550		1691	
	السكان	%	السكان	%	السكان	%	السكان	%
المسلمون	47960	60,0	231850	58,0	300000	57,7	390000	58,2
المسيحيون	23714	29,6	125542	31,4	200000	38,5	280000	41,8
اليهود	8326	10,4	42608	10,6	20000	3,8		
الإجمالي	80000	100,0	400000	100,0	520000	100,0	670000	100,0

المصدر : حسابات بالاستناد إلى روبير مانتران، الحياة اليومية ....، مصدر سبق ذكره.

الجدول VI . 2

سكان الأناضول فى القرن السادس عشر (بالآلاف)

الولاية	الأعداد				النسب			
	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى
فى 1520 - 1535								
الأناضول	2328ر5	42ر5	1ر5	2372ر5	98ر1	1ر8	0ر0	100ر0
كرمان *	717ر5	15ر5		733ر0	97ر9	2ر1	0ر0	100ر0
ذو القادرية **	334ر5	13ر0		347ر5	96ر3	3ر7	0ر0	100ر0
روم - إى قديم ***	497ر5	33ر0		530ر5	93ر8	6ر2	0ر0	100ر0
روم- إى حديث ****	126ر0	254ر0		380ر0	33ر2	66ر8	0ر0	100ر0
الإجمالى	4004ر0	358ر0	1ر5	4363ر5	91ر8	8ر2	0ر0	100ر0

فى 1570 - 1580

الولاية	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى
الأناضول	3258ر7	101ر5	2ر5	3362ر7	96ر9	3ر0	0ر1	100ر0
كرمان *	1273ر0	67ر0	0ر0	1340ر0	95ر0	5ر0	0ر0	100ر0
ذو القادرية **	544ر5	21ر0	0ر0	565ر5	96ر3	3ر7	0ر0	100ر0
روم - إى قديم ***	857ر0	91ر0	0ر0	948ر0	90ر4	9ر6	0ر0	100ر0
روم- إى حديث ****	296ر0	290ر5	0ر0	586ر5	50ر5	49ر5	0ر0	100ر0
الإجمالى	6229ر2	571ر0	2ر5	6802ر7	91ر6	8ر4	0ر0	100ر0

* كرمان : قونيه ، أكسيهير، قيصرية .

* ذو القادريه : كيرسيهير. ماراس.

* روم – إى قديم : أماسيا ، توكات ، كانيك.

**** روم – إى حديث : طرابزون ، كيما ، مالاطيا.

الجدول VI . 2 (تابع)

معدل الزيادة السنوية من 1520 - 1535 إلى 1570 - 1580

(بـ ‰)

الولايــة	مسلمون	مسـيحيون	يهــود	الإجمالى
الأناضــول	7ر1	18ر3	10ر8	7ر3
كرمان *	12ر1	30ر8		12ر7
ذو القادرية **	10ر3	10ر1		10ر3
روم - إى قديم ***	11ر4	21ر4		12ر2
روم - إى حديث ****	18ر0	2ر8		9ر1
الاجمـــالى	9ر3	9ر8	10ر8	9ر3

* كرمان : قونيه، اكسيهير، قيصرية

** ذو القادرية: كيرسيهير، ماراس.

** روم - إى قديم : أماسيا، توكات، كانيك

**** روم - إى حديث : طرابزون، كيما، مالاطيا.

المصدر : حسابات استناداً إلى عمر برقان : مساهمة فى دراسة ....، مصدر سبق ذكره. إن هذا الجدول، الذى يسمح بقياس الاتجاهات الديموغرافية فى القرن السادس عشر، يجب استكماله بالبيانات المتصلة بولاية ديار بكر (تعداد 1520 - 1535 فقط) : المسلمون : 354300، المسيحيون : 59700، اليهود : 1400 . عمر لطفى برقان ، بحث حول البيانات الإحصائية ....، مصدر سبق ذكره.

الرجال فى بعض الولايات الأناضولية ، 1831 (بالآلاف)

الجماعة	مسلمون	مسيحيون	أرمـن	يهــود	غجـر	الإجمـالى
الأعداد	1842	237	15	2	7	2102
النسب	87ر6	11ر3	0ر7	0ر1	0ر3	100ر0

* تعداد غير كامل ، استناداً إلى بيانات ولايات الأناضول وسيواس وأضنة وطرابزون وكارس وسيلدير.

المصدر : كمال كربات ، السكان العثمانيون ....، مصدر سبق ذكره.

الجـدول 3 . VI

تحويلات الأرض وأحكام المحاكم فى الأناضول فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بحسب الديانة (نسبة مئوية)

	تحويلات الأرض (دون دعوى)				الدعاوى القضائية			
أنقـرة	1592 - 1600		1688 - 1691		1592 - 1600		1688 - 1691	
	بائع	مشتر	بائع	مشتر	مـدع	مدعى عليه	مـدع	مدعى عليه
مسلمون	91	91	77	74	98	91	95	85
مسيحيون	7	7	23	26	2	8	5	15
يهـود	2	2	-		-	1	-	-
الإجمالى	100	100	100	100	100	100	100	100
قيصريه	1590 - 1600		1689 - 1692		1586 - 1610		1689 - 1692	
	بائع	مشتر	بائع	مشتر	مـدع	مدعى عليه	مـدع	مدع عليه
مسلمون	74	68	85	77	68	72	81	93
مسيحيون	26	32	15	23	32	28	19	7
يهـود	-	-	-	-	-	-	-	-
الإجمالى	100	100	100	100	100	100	100	100

المصدر : ثريا فاروقى، المدن وسكان المدن ....، مصدر سبق ذكره.

الجدول VI . 4

السكان العثمانيون بحسب الديانة والولاية (بالآلاف)

أ - تعداد 1881 / 1882 - 1893

الولايـــة	مسـلمون	يونانيون	أرمـــن	آخـرون	يهـــود	الإجمالى
اسطنبول*	425	188	152	13	45	823
إدرنه**	224	229	16	71	14	554
شاتالكا	15	36	1	6	1	59
بيجا	99	15	2	1	2	119
خوداڤينديجار	1133	133	58	6	3	1333
آيدين*	1119	197	14	3	22	1355
إزميت	133	24	37	1	0	196
كاستامونو	929	15	3	0	0	947
أنقرة	736	35	68	9	0	848
قونية	877	57	10	0	0	944
أضنة	341	6	45	4	0	396
طرابزون	857	155	42	2	0	1056
العزيز	300	1	73	8	0	382
سيواس	767	38	117	5	0	926
دياربكر	290	1	47	31	1	370
أرضروم	446	3	101	9	0	559
بيتليس	167	0	101	9	0	277
ڤان	60	0	60	0	0	120
حلب***	397	4	41	22	2	466
الإجمـــالى	9315	1136	987	199	91	11728

* لا يشمل ذلك 131000 أجنبى فى اسطنبول و 56000 فى آيدين.

** سناجق إدرنه وجيليبولو وكيركيليز وتيكيرداجى.

*** الجزء الأناضولى وحده.

المصادر : : حسابات بالاستناد إلى كمال كربات، السكان العثمانيون ...، مصدر سبق ذكره، وڤيتال كينيه، تركيا الآسيوية ...، مصدر سبق ذكره.

ب – تعداد 1906 / 1907

الولايـــة	مسلمون	يونانيون	أرمـــن	أخـــرون	يهـــود	الإجمالي
اسطنبول*	432	177	71	9	48	737
إدرنة**	335	291	25	79	22	752
شاتالكا	23	44	1	8	2	78
بيجا	141	38	2	1	3	185
خوداڤينديجار	1431	166	80	8	4	1689
آيدين*	1332	285	19	2	33	1670
إزميت	201	36	51	2	0	290
كاستامونو	1088	23	10	0	0	1121
أنقرة	1012	42	98	5	1	1158
قونية	1146	87	15	1	0	1249
أضنة	436	11	50	7	0	504
طرابزون	1072	215	51	2	0	1340
العزيز	391	1	74	8	0	473
سيواس	973	67	147	7	0	1194
دياربكر	316	1	52	23	1	393
أرضروم	552	6	116	2	0	675
بيتليس	198	0	95	5	0	298
ڤان	55	0	59	0	0	114
حلب***	441	5	58	19	2	525
الإجمـــالى	11571	1496	1077	187	116	14447

* لا يشمل ذلك 129000 أجنبي في اسطنبول و 57000 في آيدين.

** سناجق إدرنه وجيليبولو وكيركيليز وتيكيرداجي.

*** الجزء الأناضولي وحده.

المصادر : حسابات بالاستناد إلى كمال كربات، السكان العثمانيون ....، مصدر سبق ذكره، وڤيتال كينيه، تركيا الآسيوية ....، مصدر سبق ذكره.

ج – السكان العثمانيون فى عام 1914

الولايــة	مسلمون	يونانيون	أرمــن	آخـرون	يهــود	الإجمالى
اسطنبول	560	205	83	9	52	910
إدرنة	360	225	20	4	23	631
شاتالكا	20	37	1	1	2	60
كالى – إى سلطانية	150	9	3	1	4	166
خودافيندیجار	474	75	61	3	4	616
كوتاهيه	303	9	4	1	0	317
كاريس	360	98	9	7	0	473
قره حصار إى صاحب	278	1	7	0	0	286
أيدين	1249	299	20	5	35	1609
مينتيس	189	20	0	1	2	211
إزميت	227	40	56	2	0	325
كاستامونو	737	21	9	0	0	767
بولو	399	5	3	1	0	409
قيصرية	184	27	50	2	0	263
ايسكيسيهير	141	3	9	0	1	153
أنقرة	877	20	52	6	1	956
قونية	751	25	13	0	0	789
أنطاليا	236	12	1	1	0	249
نجدة	227	58	5	1	0	291
إيسيل	102	3	0	0	0	105
أضنه	342	9	53	8	0	411
طرابزون	921	162	39	1	0	1123
كانيك	266	99	27	1	0	393
العزيز	446	1	80	11	0	538
سيواس	940	75	147	7	0	1169
ديار بكر	492	2	66	58	2	620
أرضروم	673	5	134	3	0	815
بيتليس	310	0	118	10	0	438
ڤان	179	0	68	11	1	259
ماراس	153	0	32	7	0	192
أورفا	149	0	17	4	1	171
حلب*	244	7	20	12	1	284
الإجمــالى	12941	1549	1204	176	128	15997

* الجزء الأناضولى وحده.

المصادر : حسابات بالاستناد إلى كمال كريات، السكان العثمانيون ....، مصدر سبق ذكره، وڤيتال كينيه، تركيا الآسيوية ....، مصدر سبق ذكره.

الجدول VI . 5

معدل الزيادة السنوية لسكان الإمبراطورية العثمانية من عام 1881 إلى عام 1914
أرض تركيا الحالية
(0/00)

الفترة	مسلمون	يونانيون	أرمن	مسيحيون آخرون	يهود	غير مسلمين	الإجمالي
1881 - 1906 *	12٫0	15٫3	4٫8	- 3٫4	14٫0	9٫8	11٫6
1906 - 1914	14٫0	4٫4	13٫9	- 7٫6	11٫2	7٫5	12٫7
1881 - 1914 *	12٫6	11٫9	7٫6	- 4٫7	13٫1	9٫1	11٫9

* لحساب هذا المعدل ، اتخذت سنة 1888 سنة إحالة.

المصدر : الجدول VI . 4

الجدول VI . 6

نسبة غير المسلمين فى الإمبراطورية العثمانية عند منعطف القرن التاسع عشر
أرض تركيا الحالية

الإقليم	1881	1906	1914
استنبول	48ر4	41ر4	38ر4
تركيا الأوروبية	61ر0	56ر9	45ر0
الأناضول	16ر0	16ر3	16ر6
الإجمالى	20ر6	19ر9	19ر1

المصدر :انظر الجدول VI . 4 .

الجـدول VI . 7

التعليم المدرسى فى ولاية أزمير بحسب الطائفة الدينية فى أواخر القرن التاسع عشر

	التعليم الأولى		التعليم الثانوى	
	معدل الالتحاق (%)	نسبة البنات إلى كل مائة من البنين	معدل الالتحاق (%)	نسبة البنات إلى كل مائة من البنين
مسلمون	17٫8	0	5٫7	5
غير مسلمين *	98٫0	53	61٫6	59

* الارثوذكس اليونانيون خاصة.

المصدر : فيتال كينيه ، تركيا الآسيوية ...، مصدر سبق ذكره.

الجدول VI . 8

أربعة تقديرات للضحايا الأرمن لترحيلات عام 1915
(بالآلاف)

المصدر	أرنولد توينبي *		يوهان ليبسيوس **
السكان الأرمن قبل الترحيل	1600 إلى 2000	السكان الأرمن قبل الترحيل	1845
اللاجئون إلى حلب ودمشق ودير الزور اللاجئون إلى أجزاء أخرى من تركيا اللاجئون إلى القوقاز الروسية الأرمن في المراكز التي فتحها الروس اللاجئون إلى سالمة (فارس)	486 300 183 12 9	اللاجئون حتى حدود صحراء شبه الجزيرة العربية المتحولون إلى اعتناق الإسلام في تركيا اللاجئون إلى القوقاز الروسية والإسكندرية	150 - 200 200 244
إجمالي اللاجئين	990	إجمالي اللاجئين والمسلمين	594 - 644
غير المبعدين عن اسطنبول وأزمير	150	غير المبعدين عن اسطنبول وأزمير	205
إجمالي الناجين	1140	إجمالي الناجين	799 - 849
إجمالي الضحايا المتوسط	460 إلى 860 660	إجمالي الضحايا المتوسط	996 - 1046 1021

المصادر : * أرنولد توينبي، الكتاب الأزرق ...، مصدر سبق ذكره.

** يوهان ليبسيوس ، أرشيفات إبادة الأرمن، پايو، باريس، 1986.

	كاموران جورون *		چوستين ماك كارثى **
السكان الأرمن قبل الترحيل	1300	السكان الأرمن قبل الترحيل ***	1465
المهاجرون إلى البلدان العربية	225	المهاجرون إلى البلدان العربية	225
– إلى إيران	50	– إلى إيران	50
– إلى فرنسا عام ١٩٢١	35	– إلى فرنسا	30
– إلى الولايات المتحدة وكندا	35	– إلى الولايات المتحدة وكندا	35
– إلى روسيا	420	– إلى روسيا	400
– إلى بلغاريا	15	– إلى بلغاريا	20
– إلى اليونان وقبرص	45	– إلى اليونان وقبرص	48
المهاجرون إلى بلدان أخرى	50	المهاجرون إلى بلدان أخرى	3
إجمالى المهاجرين بعد الحرب	875	إجمالى المهاجرين بعد الحرب	811
الأرمن فى تركيا عام 1927	124	الأرمن فى تركيا ****	70
إجمالى الناجين	999	إجمالى الناجين	881
إجمالى الضحايا	301	إجمالى الضحايا	584
الأرمن المرحلون فى عام 1916	703		

المصادر : * كاموران جورون، الملف الأرمنى ....، مصدر سبق ذكره.

** چوستين ماك كارثى، المسلمون والأقليات ....، مصدر سبق ذكره.

*** دون اسطنبول وتركيا الأوروبية (104000 قبل 1914).

**** فى اسطنبول خاصة.

الجدول VI . 9

سكان جمهورية تركيا
(بالآلاف)

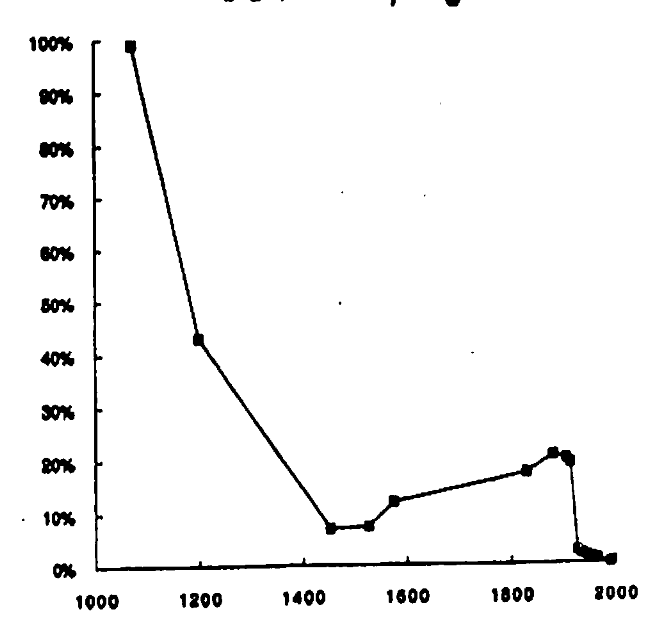
السنة	1914	1927	1935	1945	1955	1965	1991
المسلمون	12941	13290	15851	18511	23810	31139	56860
اليونانيون	1549	110	125	104	87	76	8
الأرمن	1204	77	61	60	60	64	67
المسيحيون الآخرون	176	71	41	38	62	74	50
اليهود	128	82	79	77	46	38	20
الإجمالى	15997	13630	16157	18790	24065	31391	57005
نسبة غير المسلمين (%)	19ر1	2ر5	1ر9	1ر5	1ر1	ر8	ر2
اليونانيون نوو الجنسية الهيلينية	N . D .	26	18	14	12	10	N . D .

المصادر : من عام 1914 إلى عام 1965، التعددات العثمانية والتركية والكتب الإحصائية السنوية؛ 1991، نورمان هورنر، دليل إلى الكنائس المسيحية فى الشرق الأوسط، ميجان فوكاس، بلا تاريخ؛ اليهود، إخبارية شخصية مقدمة إلى المؤلفين.

الشكل V1 . 1

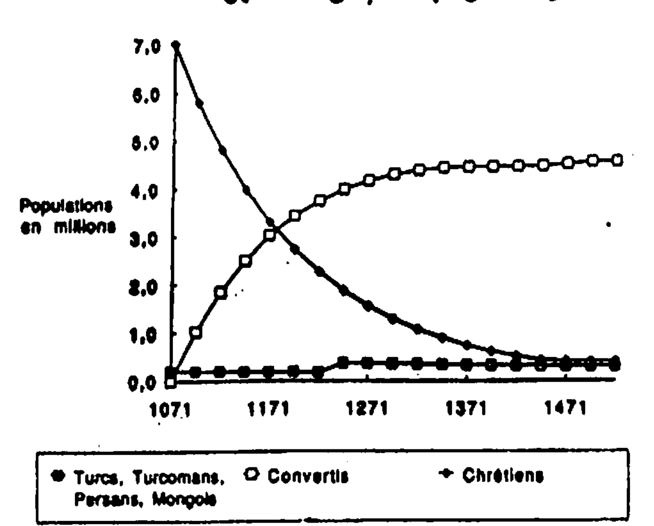
نسبة غير المسلمين فى تركيا

(من عام 1071 إلى ايامنا)



الشكل V1. 2

التحولات إلى اعتناق الإسلام فى الاناضول (1071 - 1520)



Hypothèse : 1 non-musulman sur 7 se convertit dans chaque génération.

حواشي الفصل السادس

1- L'Anatolie, dont les contours varièrent avec le temps, s'entend ici comme la Turquie d'Asie actuelle (Arménie et Kurdistan compris).

2 - Huit millions selon Speros VRYONIS, *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the 11 th through the 15 th Century,* University of Carolina press, Berkeley, 1971; sept millions selon Josiah Cox RUSSELL. Voir aussi Speros VRYONIS, "Religious Change and Continuity in the Balkan and Anatolia from the 14 th through the 15th Century", *in Islam and Cultural Change in the Middle Ages,* Speros VRYONIS (ed.), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975.

3 - Partie européenne de l'Empire ottoman.

4 - V. L. MÈNAGE, "The Islamization of Anatolia", *in* Nehemia LEVIZION (ed.), *Conversion to Islam,* Holmes and Meier Publishers, New York, 1979.

5 - Avant Mentzikert, les Seldjoukides avaient hésité entre deux proies: l'Egypte hérétique des Fratimides, et ;l'Empire byzantin des infidèles. Voir Jean- Paul ROUX, *Histoire des Turcs,* Paris, Fayard, 1984.

6 - Marco POLO, *Le Devisement du monde. Le livre merveilles,* Paris, La Découverte, 1980.

7 - Bernard LEWIS, *Istanbul et la civilisation ottomane,* Paris, Lattès, 1991.

8 - Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam,* 2e édition, Paris, 1960.

9 - Grecs, Arméniens et Arabes sont les principales.

10 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader States", *in* Kenneth SETTON, *History of the Crusades,* vol. V, Londres, The University of Wisconsin Press, 1985, estime qu'en l'année 1200 la population chrétienne de l'Anatolie était de 3 millions et la population turque de 4 millions.

11 - François TAESCHNER, art. *"Anadolu", Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

12 - A l'apparition des premiers mouvements nationalistes, au tournant du xxe siècle, certains revendiquèrent un monde turc englobant touts les peuples d'origine ethnique turque de l'Asie centrale à la Méditerranée, d'autres un monde touranien englobant tous les peuples de langue turque.

13- Feroz AHMAD, "Unionist Relation with the Greek, Armenian, and Jewish communities of the Ottoman Empire, 1908-1914", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews in the Ottoman Empire,* New York, Holmes & Meir Publishers, 1982.

14 - "Le mélange de vérités, de demi-vérités et d'erreurs (sur l'origine du peuple turc) fut proclamé doctrine officielle et des équipes de chercheurs furent mises en place pour "prouver" les différentes affirmations "d'Atatürk",

nous dit Bernard LEWIS, "History Writing and National Revival in Turkey", *Middle Eastern Affairs*, IV, 1953.
15- Ömer Lûtfi BARKAN, "Les Déportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'Empire ottoman", *Revue de la faculté d'économie d'Istanbul*, tomes XI, XIII et XV, Istanbul, 1953.
16 - Ömer Lûtfi BARKAN, "La "Méditerranée" de Fernand Braudel vue d'Istanbul", *Annales, Economies et Civilisations*, n°2, Paris, 1954.
17- H.A. GIBBONS, *The Foundation of the Ottoman Empire*, Oxford, Clarendon Press, 1916.
18 - Speros VRYONIS, "Nomadization and Islamization in Asia Minor", *Dumbarton Oaks Paper*, 29, 1975. L.VROOMAN, "The Pre-ottoman Conquest of Asia Minor", *Muslim World*, 1931, mentionne un chiffre invraisemblable d'un million de Turcs aux frontières de Byzance, avant Mentzikert, entre 950 et 1000.
19- Claude CAHEN, *la Turquie préottomane*, Institut français d'études anatoliennes, Istanbul- Paris, 1988.
20 - Voir par exemple Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPIAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, Paris, Mont - chrestien, 1966.
21 - William MCNEIL, *population and Politics since 1750*, Charlottesville, University press of Virginia, 1990.
22 - Osman TURAN, "L'islamisation dans la Turquie du Moyen Age", *Studia Islamica*, n°10, 1959.
23 - H. A. GIBBONS, *The Foundation...*, *op. cit.*
24 - Claude CAHEN, "Le problème ethnique en Anatolie", *Cahiers d'histoire mondiale*, vol. II, n°2, 1954. Voir également son commentaire de Speros VRYONIS, "The Decline of Medieval Hellenism...", *op. cit.*, dans *International Journal of the Middle East*, n°4, 1973, où il lui reproche une sous- estimation des faiblesses de Byzance.
25 - Paul WITTEK, *La Formation de l'Empire ottoman*, Londres, Variorum Reprints, 1982.
26 - Marco POLO, *Le Devisement du monde..*, *op. cit.*
27 - IBN BATTUTA, *Voyages - II. De La Mecque aux steppes russes*, paris, La Découverte, 1990.
28 - Voir chapitre I.
29 - IBN BATTUTA, *Voyages - II. De La Mecque aux steppes russes*, *op. cit.*, et IBN KHALDUN, *La Muqaddima*, trad. de Vincent Monteil, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1968.
30 - Claude CAHEN, *La Turquie préottoman...*, *op. cit.*
31 - Speros VAYONIS, *The Decline of Medieval Hellenism...*, *op. cit.*
32 - W.C. BRICE, "The Turkish Colonization of Anatolia", *Bulletin of the john Ryland Library*, n°38, 1955- 1956.
33 - R. M. DAWKINS, "The Crypto- Christians of Turkey", *Byzantion*, n°8, 1933.
34 - Ces ordres originaires du Khorassan devinrent très populaires en Anatolie à partir du XIIIe siècle.

35 - Claude CAHEN, *La Turquie préottomane, op, cit.*
36 - Les Turcs musulmans qui cohabitaient avec les chrétiens jouissaient de certains droits: mosquée, soumission à l'autorité d'un juge musulman; Robert MANTRAN, *La Vie quotidienne à Istanbul au siècle de Soliman le Magnifique,* Paris, Hachette, 1990.
37 - Robert MANTRAN, *La Vie quotidienne à Islanbul..., op. cit.*, et Bernard LEWIS, *Islanbul et la civilisation..., op. cit.*
38 - Hors l' "empire" de Trébizonde, qui survécut jusqu'en 1461.
39 - Dimitri KITSIKIS, *L'Empire ottoman,* Paris, Presses universitaires de France, 1985. pour Claude CAHEN:."Présenter l'Empire ottoman comme un empire gréco-turc est une vue un peu simpliste mais non dépourvue de réalité", Claude CAHEN, *La Turquie préottoman..., op. cit.*
40 - Voir chapitre V.
41 - Kemal KARPAT, "Millets and Nationality: The Roots of the Incongruity of Nation and State in the Post-Ottoman Era", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews..., op. cit.*
42 - Bernard LEWIS, *Islam et Laïcité. La naissance de la Turquie moderne,* Paris, Fayard, 1988. Voir aussi Bernard LEWIS, "Some Reflexions on the Decline of the Ottoman Empire", *Studia Islamica, 1959.*
43 - Pour le XVI^{e} siècle, Ömer Lûtfi BARKAN, "Contribution à l'étude de la conjoncture démographique des pays méditerranéens au XVI^{e} siècle", *Actes de l'Union internationale pour l'étude scientifique de la population,* Londres, 1969. Pour le XIX^{e} siècle, Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830- 1914, Demographic and Social Characteristics,* Madison, The University of Wisconsin press, 1985.
44 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman,* Paris, Fayard, 1990, et Kemal KARPAT, "Millets and Nationality..., *op. cit.*
45- Benjamin BRAUDE, "Foundation Myths of the *Millet System*", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews..., op. cit.*
46 - Bernard LEWIS, *Islam et läcité..., op. cit.*
47 - Il y a plusieurs interprétations du Coran, dont quatre codifiées: les rites hanbalite, malékite, chaféite et hanéfite.
48 - Bernard LEWIS, *Islam et läcité..., op. cit.*
49 - Fernand BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen sous Philippe II,* Paris, Armand Colin, 1966.
50 - Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale..., op. cit.*
51 - Bernard LEWIS, *Istanbul et la civilisation..., op. cit.*
52 - Ömer Lûtfi BARKAN, "Les déportations...", *op. cit.*
53 - V.L. MÈNAGE, art. "*Devshirme*", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*
54 - Voir chapitre V.
55 - Bernard LEWIS, *Islam et Läcité..., op. cit.*
56- ömer Lûtfi BARKAN, "Contribution à l'étude de la conjoncture démographique des pays méditerranéens au XVI^{e} siècle", *Actes de l'Union*

internationale pour l'étude scientifique de la population, Londres, 1969, ainsi que l'article "*Deftar-i Khakanî*", *Encyclopédie de l'Islam*, 1960, "Research on the Ottoman Fiscal Surveys", *in* M.A. Cook, *Studies in the Economic History of the Middle East*, Londres, Oxford University Press, 1970, et "Essai sur les données des registres de recensement dans l'Empire otoman au XV^e et XVI^e siècle", *in Journal of the Economic and Social History of the Orient*, n°1, La Haye, 1958.

57- Cem BEHAR, *The 1300 (1883) and 1332 (1905) Tahrirs as Sources for Ottoman Historical Demography*, Bogaziçi University, Istanbul, s.d.

58- Suraiya FAROQHI, *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia*, Londres, Cambridge University Press, 1984.

59- Passé à quelques lieues d'Istanbul, le traité de Kutahya (1833) reconnaissait à Muhammad Ali la souveraineté sur la Syrie et la Cilicie.

60- Robert DAVIDSON, "Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the XIXth Century", *American Historical Review*, LIX, 1954.

61- Paul DUMONT, "La période des *Tanzimat* (1839-1878)", *in* Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman, op. cit.*

62 - kemal KARPAT, *Ottoman Population 1830 - 1914, op. cit.*

63 - Le détail des recensements et estimations est dans Kemal KARPAT, *Ottoman Population 1830- 1914, op. cit.* Salahedinne Bey (1867), Ritter (1872-1874). recensement de 1881/1882- 1893, estimations de 1894, 1895, 1896, 1897, recensement de 1906- 1907, estimations de 1914.

64 - Entre 1906 et 1914, la province d'Edirne passa de 1,334 million à 631000 habitants à la suite de pertes territoriales. Notre reconstitution porte sur le territoire de 1914. Pour la province d'Alep, des estimations additionnelles furent tirées de Vital CUINET, *La Turquie d'Asie*, Paris, E.Leroux, 1896, afin de tenir compte des populations scindées, après la guerre, entre la Turquie et la Syrie.

65 - Voir chapitre V.

66 - Taux calculé avec 1888 comme année de référence du recensement de 1881/1882-1893 (recommandation de Kemal KARPAT dans, *Ottoman Population..., op. cit.*

67 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman..., op. cti.* Ce chiffre comprend, outre l'émigration grecque et arménienne, celle d'Arabes chrétiens.

68 - Sans les étrangers, en majorité chrétiens.

69 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman..., op. cit.*, et Kemal KARPAT, *Ottoman Population..., op. cit.* Sur 2 millions d'immigrants

musulmans, les trois quarts se sont installés dans la partie turque, le quart restant dans les provinces arabes: Syrie, Liban, Jordanie, Palestine, Irak. Sur les 300000 émigrés chrétiens de l'empire, les trois quarts proviendraient de Turquie, le reste des provinces arabes.

70 - La balance migratoire compensa la croissance naturelle plus faible des musulmans; c'est pourquoi la répartiton confessionnelle changea peu.

71- Plus de 52000 *Piyadé et Müsellem,* 10000 timariotes en service et 10000 valets qui leurs sont affectés, soit un total de 72000 militaires entre 1520 et 1535 *in* Ömer Lûtfi BARKAN, "Essai sur les données statistiques...", *op. cit.*

72 - Voir chapitre V et Kemal KARPAT, *Ottoman Population..., op. cit.*

73 - Kemal KARPAT, "Millets and Nationality...", *op. cit.*

74 - Arnold TOYNBEE, *Les Massacres arméniens,* Paris, Payot, 1916.

75 - Sur les capitulations, voir chapitre V.

76- Alan DUBEN et Cem BEHAR, *Istanbul Households - Marriage, Family and Fertility, 1880 - 1940,* Cambridge, Cambridge University Press, 1991.

77 - Nassau SENIOR, *A Journal Kept in Turkey and Greece,* Londres, 1856, cité par Richard CLOGG, "The Greek Millet in the Ottoman Empire", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews.., op. cit.* En ourte, "l'avortement et la prévalence choquante d'un crime contre la nature parmi les musulmans" furent avancés par le consul d'Angleterre comme des facteurs significatifs de la faible croissance démographique chez les Turcs dans un passage de son rapport (qui fut expurgé plus tard dans la version imprimée officielle).

78 - En rapportant les enfants de moins de 10 ans aux femmes d'âge fécond (20 à 50 ans), on obtient un indicateur de la fécondité des dix années précédentes. Nous l'avons calculé pour chaque province de l'empire (1894) et mis en relation avec la proportion de non- musulmans. Les deux indicateurs sont en liaison positive étroite: corrélation pondérée égale à + 0,50.

79 - Dans les années 50, les Grecs commenceront à étudier le turc, Alexis ALEXANDRIS, *The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918 - 1974,* Athènes, 1982.

80 - Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews..., op. cit.*

81 - Bientôt trois Fois et demi, si l'on pense aux revendications présentées à la conférence de Sèvres par les Kurdes, qui réclamaient en Turquie le même territoire que les Arméniens.

82- Justin MCCARTHY, *Muslims and Minorities, The Population of Ottoman Anatolia at the End of the Empire,* New York, New York University Press, 1983.

83- Abdolonyme UBICINI et Pavet de COURTEILLE, *Etat Présent de l'Empire ottoman,* Paris, Dentu, 1876.

84 - Retrait des Russes, après le traité de Brest-Litovsk en 1918, de l'Arménie turque qu'ils occupaient depuis 1916; refus par le Sénat américain en 1920 de la proposition du président Wilson de créer un Etat arménien indépendant sous mandat américain, incorporant les quatre vilayets turques à forte population arménienne d'Erzurum, Trébizonde, Van et Bitlis; occupation de la Cilicie mise sous mandat français, puis retrait des troupes françaises en 1921.
85- Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens*, Bruxelles, Editions Complexe, 1980.
86 - Arnold TOYNBEE, *in Livre bleu..., op. cit.*
87- Kamuran GÜRÜN, *The Armenian File - The Myth of Innocence Exposed*, New York, 1985. Au recensement de 1914, on avait dénombré 1,204 million d'Arméniens; le chiffre de 1,3 million tient compte de la croissance naturelle et du classement de 60000 Srméniens protestants dans la *millet* protestante.
88 - Arnold TOYNBEE, *in Livre bleu..., op. cit.*
89- Justin McCARTHY, *Muslims and Minorities..., op. cit.*, corrige simplement, à l'aide du modèle des "populations stables", les pyramides d'âges et les rapports de masculinité, dont déficience est habituelle de nos jours dans les pays en développement. L'intérêt de son travail réside en ce que les calculs sont faits par vilayet.
90 - Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens, op. cit.*
91 - Toynbee et Lepsius n'avaient évidemment pas les moyens d'estimer le chiffre des convertis: leur conversion fait de ces derniers des Turcs et les soustrait à la statistique des minorités. Leurs descendants crypto- arméniens de la région d'Antioche sont encore officiellement musulmans, utilisent l'arabe comme langue parlée et paratiquent en secret, dit-on, la religion chrétienne.
92 - Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens, op. cit.*, estiment de 1,2 à 1,5 million le nombre des victimes.
93 - Rapport du ministère ottoman de l'Intérieur au grand vizir du 7 décembre 1916, *in* Kamuran GÜRÜN, *The Armenian File..., op. cit.*
94- Proportion tenant compte des seules personnes qui risquaient la déportation, soit l'ensemble des Arméniens, à l'exception des résidents d'Istanbul et de Smyrne, et de quelque 200000 personnes qui s'étaient déjà réfugiées dans le Caucase russe.
95 - Kamuran Gürün estime les Arméniens réfugiés dans le Caucase et en Russie à 420000, soit deux fois plus que Toynbee (183000) ou Lepsius (244000). Il estime, d'après le recensement turc de 1927, à 124000 ceux qui sont demeurés en Turquie, chiffre supérieur à celui qui est présenté dans les tableaux de ce recensement, selon le critère de la religion (77000) ou celui de la langue (65000).
96 - Justin McCARTHY, *Muslims and Minorities..., op. cit.*
97 - *Ibid.*
98- Les massacres sont estimés par l'équation suivante: (Arméniens d'Anatolie en 1914) + (Arméniens d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1914) - (Arménines émigrés) - (Arménines d'Anatolie en 1927)- (Arménines

d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1927). Sans doute par inattention, McCARTHY a oublié le terme (Arménines d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1914).

99 - Richard CLOGG, "The Greek Millet...", *op. cit., in* Benjamin Braude et Bernard LEWIS, *Christians and Jews..., op. cit.*

100 - *Annuaire statistique de Turquie*, Ankara, 1930.

101 - Bernard LEWIS, *Le Retour de l'Islam,* Paris, Gallimard, 1985.

102 - Avant celui d' "Atatürk", le qualificatif préféré de Mustafa Kemal était "Ghazi" (vainqueur de la guerre sainte), en hommage à sa victoire contre les Grecs. En outre, "aujourd'hui encore dans la république laïque, le mot Turc est, selon une convention communément admise, appliqué aux seuls musulmans. Les citoyens non musulmans sont réputés citoyens turcs, mais ne se dénomment pas eux- mêmes turcs, et leurs voisins ne les désignent pas sous ce vocable. (...) L'immigrant non turc mais musulman acquiert, lui, très rapidement une identité turque"; *in* Bernard LEWIS, *Le Retour..., op. cit.*

103 - En 1923, ils étaient 250000 (estimations "brutes" du patriarcat grec orthodoxe de Constantinople); l'augmentation est vraisemblabe du fait de l'installation de 38000 Grecs dans la ville sous occupation alliée. Ils furent attirés par le mirage de la "Grande Grèce".

104 - La population musulmane de Grèce, favorisée par sa forte fécondité, a moins décliné. Des 141000 musulmans dénombrés en 1940, il en restait 125000 vers 1980 (68% de Turcs, 22% de Pomaks et 18% de Tziganes). Sur les musulmans de Grèce, voir Panayote Elias DIMITRAS, "Minorités, un plus ou un moins pour la Grèce?", *L'Evénement européen*, Paris, octobre 1991.

105 - Les Grecs helléniques ne différaient en rien des Grecs turcs, sauf par leurs ancêtres, originaires des provinces de l'empire incorporées à la Grèce après 1830.

106- La communauté arabe chrétienne fut victime à la fois de l'homogénéisation religieuse et linguisique et de la conjoncture politique; la cession à la Turquie en 1938 du *sandjak* d'Alexandrette, qui faisait partie de la Syrie sous mandat français, la poussa à l'exode.

107 - Alexis ALEXANDRIS, *The Greek Minority..., op. cit.*

108- Les spoliations s'étendirent même aux campagnes, voir Daniel PANZAC, "L'enjeu du nombre. La population de la Turquie de 1914 à 1927", *Revue des études méditerranéennes et sur le monde musulman*, n° 50, Aix-en-Provence, 1988.

109 - Bernard LEWIS, *Islam et Laïcité..., op. cit. Sur les dönme,* voir Edgard MORIN, *Vidal et les siens,* Paris, Seuil, 1988.

110 - Les non- musulmans de 18 à 45 ans qui furent enrôlés dans l'armée ont été cantonnés dans des camps spéciaux au cours de la Seconde Guerre mondiale.

111 - Lepsius aurait affirmé qu'Enver Pacha, Talaat Pacha et Djemal Pacha, les membres du triumvirat responsable des massacres arméniens de 1915, étaient en fait des athées, et qu le combat opposa des Turcs à des Arméniens et non des musulmans à des chrétiens. Voir *Mayrig,* film d'Henri Verneuil (1991).

112 - Selon l'expression d'Abraham LÈON, *La Conception matérialiste de la question juive,* Etudes et documentations internationales, Paris, 1968.

113 - Dans l'hypothèse d'une croissance naturelle alignée sur celle des chrétiens du Liban.

تعليقات الفصل السادس

١ – إن الأناضول، التي تبدلت حدودها مع الزمن، إنما تفهم هنا بوصفها تركيا الآسيوية الحالية (بما فى ذلك أرمينيا وكردستان).

٢ – ثمانية ملايين وفقاً لسبيروس فريونيس، وسبعة ملايين وفقاً لجوسيا كوكس رسل.

٣ – الجزء الأوروبى من الإمبراطورية العثمانية.

٥ – قبل مينتزيكيرت، كان السلاجقة قد ترددوا بين فريستين: مصر الفاطميين المتنكرة لمذهب السنة، وإمبراطورية الكفار البيزنطية.

٩ – كان اليونانيون والأرمن والعرب هم أهم هذه الأعراق.

١٠ – يرى جوسيا كوكس رسل أن سكان الأناضول المسيحيين كانوا يتألفون فى عام ١٢٠٠ من ٣ ملايين نسمة، بينما كان السكان الأتراك يتألفون من ٤ ملايين نسمة.

١٢ – عند ظهور الحركات القومية الأولى، عند منعطف القرن العشرين، نادت بعض الحركات بعالم تركى يشمل جميع الشعوب ذات الأصل العرقى التركى من آسيا الوسطى إلى البحر المتوسط، ونادت حركات أخرى بعالم طورانى يشمل جميع الشعوب ذات اللغة التركية.

١٤ – يذكر لنا برنارد لويس: «أن خليط الحقائق وأنصاف الحقائق والأخطاء[حول أصل الشعب التركى] قد أعلن مذهباً رسمياً وجرى تشكيل فرق باحثين لـ «إثبات» مزاعم [أتاتورك] المختلفة».

١٨ – يذكر سبيروس فريونيس رقماً لا يصدق هو مليون تركى على حدود بيزنطة، قبل مينتزيكيرت، بين عامى ٩٥٠ و ١٠٠٠.

٢٨ – انظر الفصل الأول.

٣٤ – إن هذه الطرق المنحدرة من خراسان سوف تصبح جد شعبية فى الأناضول اعتباراً من القرن الثالث عشر.

٣٦ – إن الأتراك المسلمين الذين تعايشوا مع المسيحيين كانوا يتمتعون بحقوق معينة: حيازة مسجد، والخضوع لسلطة قاض مسلم.

٣٨ – خارج «إمبراطورية» تريبيزوند، التى دامت حتى عام ١٤٦١.

٣٩ – يرى كلود كاهن أن: «تصوير الإمبراطورية العثمانية على أنها إمبراطورية يونانية تركية هو نظرة تبسيطية إلى حد ما لكنها لا تفتقر إلى سند من الواقع».

٤٠ – انظر الفصل الخامس.

٤٧ – هناك عدة تفسيرات للقرآن تعتبر أربعة منها مقننة: مذاهب ابن حنبل ومالك والشافعي وأبي حنيفة.

٥٤ – انظر الفصل الخامس.

٥٩ – إن معاهدة كوتاهية (١٨٣٣)، التي جرى التفاوض عليها على بعد عدة فراسخ من اسطنبول، قد اعترفت لمحمد على بالسيادة على سوريا وقيليقيا.

٦٤ – بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٤، انتقلت ولاية أدرنة من ١٫٣٣٤ مليون نسمة إلى ٦٣١٠٠٠ نسمة إثر خسائر إقليمية. وتتصل إعادة التركيب التي قمنا بها بأرض عام ١٩١٦. وفيما يتعلق بولاية حلب، استخلصنا تقديرات إضافية من فيتال كينيه، «تركيا الآسيوية»، باريس، ١٨٩٦، حتى نأخذ بعين الحسبان الجماعات السكانية المقسمة، بعد الحرب، بين تركيا وسوريا.

٦٥ – انظر الفصل الخامس.

٦٦ – معدل محسوب يتخذ من سنة ١٨٨٨ سنة إحالة اعتماداً على تعداد ١٨٨١/١٨٨٢ – ١٨٩٣.

٦٧ – يشمل هذا الرقم، علاوة على النزوح اليوناني والأرمني، نزوح العرب المسيحيين.

٦٨ – دون الأجانب، وغالبيتهم من المسيحيين.

٦٩ – من بين مليونين من المهاجرين المسلمين، أقام ثلاثة أرباعهم في الجزء التركي، بينما بقي ربعهم في الولايات العربية: سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، العراق. ومن بين الـ ٢٠٠٠٠٠ نازح مسيحي عن الإمبراطورية، جاء ثلاثة أرباعهم من تركيا، وجاء ربعهم من ولايات عربية.

٧٠ – عوض ميزان الهجرة نمو المسلمين الطبيعي الأضعف؛ وهذا هو السبب في أن التوزيع الطائفي لم يتغير كثيراً.

٧١ – أكثر من ٥٢٠٠٠ من البياده والمسلمين، و ١٠٠٠٠ تيماري في الخدمة و ١٠٠٠٠ مساعد من الملحقين بهم، أي إجمالي ٧٢٠٠٠ عسكري بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٣٥.

٧٢ – انظر الفصل الخامس وكمال كربات، «السكان العثمانيون...» مصدر سبق ذكره.

٧٥ – حول الامتيازات، انظر الفصل الخامس.

٧٧ – علاوة على ذلك، نجد أن «الإجهاض والقلبة المزعجة لجريمة ضد الطبيعة بين المسلمين» قد جرى تقديمهما من جانب قنصل إنجلترا كعاملين هامين للنمو الديموغرافي الضعيف لدى الأتراك في فقرة من تقريره (تم تهذيبها فيما بعد في النسخة المطبوعة الرسمية).

٧٨ – عندما ننسب الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات إلى النساء اللواتي في عمر الخصوبة (٢٠ إلى ٥٠ سنة)، نحصل على مؤشر لخصوبة السنوات العشر السابقة. وقد حسبناه بالنسبة لكل

ولاية من ولايات الإمبراطورية (١٨٩٤) وربطناه بنسبة غير المسلمين. ويعتبر المؤشران على ارتباط إيجابى وثيق: ارتباط متزن يساوى + ٥٠ر٠.

٧٩ – فى الخمسينيات، بدأ اليونانيون دراسة التركية.

٨١ – وسرعان ما سوف تصبح محل اشتهاء ثلاث مرات ونصف مرة، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا المطالب التى قدمت إلى مؤتمر سيڤر من جانب الاكراد، الذين طالبوا فى تركيا بذات الأرض التى طالب بها الأرمن.

٨٤ – انسحاب الروس، بعد معاهدة بريست – ليتوڤسك فى عام ١٩١٨ من أرمينيا التركية التى كانوا يحتلونها منذ عام ١٩١٦؛ رفض مجلس الشيوخ الأمريكي فى عام ١٩٢٠ اقتراح الرئيس ويلسون الداعى إلى إنشاء دولة أرمنية مستقلة تحت انتداب أمريكى، تشمل ولايات أرضروم و تريبيزوند وڤان وبيتليس التركية الأربعة التى توجد بها جماعات سكانية أرمنية قوية؛ احتلال قيليقيا التى وضعت تحت الانتداب الفرنسى، ثم انسحاب القوات الفرنسية فى عام ١٩٢١.

٨٧ – فى تعداد عام ١٩١٤، كان عدد الأرمن ٢٠٤ر١ مليون نسمة؛ ويأخذ رقم ٣ر١ مليون بعين الحسبان النمو الطبيعى وإدراج ٦٠٠٠٠ أرمنى بروتستانتى فى الملة البروتستانتية.

٨٩ – بمساعدة نموذج «الجماعات السكانية المستقرة»، تصحح جوستين ماك كارثى، «المسلمون والأقليات...» مصدر سبق ذكره، بشكل بسيط أهرام الأعمار وعلاقات الذكورة، والتى يعتبر تصورها معتاداً فى أيامنا فى البلدان النامية. وتكمن أهمية عملها فى أن الحسابات قد أجريت بحسب الولاية.

٩١ – من الواضح أن توينبى وليبسيوس لم تكن لديهما وسائل لتقدير عدد المتحولين إلى اعتناق الإسلام: فتحولهم يجعل منهم أتراكاً ويخرجهم من إحصاء الأقليات. ومن الناحية الرسمية ما يزال أحفادهم ذوو الأصل الأرمنى المستتر يعتبرون مسلمين، وهم يستخدمون العربية كلغة حديث، ويقال إنهم يمارسون الديانة المسيحية سراً.

٩٢ – يقدر چيرار شاليان وإيڤ تيرنون، «إبادة الأرمن»، مصدر سبق ذكره، عدد الضحايا بما يتراوح بين ٢ر١ مليون و ٥ر١ مليون.

٩٤ – نسبة تأخذ فى الحسبان مجرد الأشخاص الذين تعرضوا للترحيل، أى مجمل الأرمن، فيما عدا سكان إسطنبول وأزمير، ونحو ٢٠٠٠٠٠ شخص كانوا قد لجأوا بالفعل إلى القوقاز الروسية.

٩٥ – يقدر كاموران جورون عدد الأرمن اللاجئين إلى القوقاز وروسيا بـ ٤٢٠٠٠٠ نسمة، أى بأكثر مرتين من تقديرى توينبى (١٨٣٠٠٠) أو ليبسيوس (٢٤٤٠٠٠). ووفقاً للتعداد التركى لعام ١٩٢٧، يقدر بـ ١٢٤٠٠٠ نسمة عدد أولئك الذين ظلوا فى تركيا، وهو رقم أعلى من الرقم الوارد فى جداول هذا التعداد، وفقاً لمعيار الديانة (٧٧٠٠٠) أو وفقاً لمعيار اللغة (٦٥٠٠٠).

٩٨ – قدرت المذابح وفقاً للمعادلة التالية: (أرمن الأناضول فى عام ١٩١٤) + (أرمن اسطنبول وتركيا الأوروبية فى عام ١٩١٤) – (الأرمن النازحين) – (أرمن الأناضول فى عام ١٩٢٧) – (أرمن اسطنبول وتركيا الأوروبية فى عام ١٩٢٧). ولا مراء فى أن ماكارثى قد نسيت، دون قصد، حد (أرمن اسطنبول وتركيا الأوروبية فى عام ١٩١٤).

١٠٢ – قبل لقب «أتاتورك»، كان لقب مصطفى كمال المفضل هو «الغازى» (ظافر الحرب المقدسة)، الذى لقب به تحية لانتصاره على اليونانيين. وعلاوة على ذلك، فإن «كلمة تركى، فى الجمهورية العلمانية اليوم أيضاً، لا تنطبق إلاّ على المسلمين، وذلك وفقاً لعرف معترف به من الجميع. ويعتبر المواطنون غير المسلمين أتراكاً، لكنهم لا يسمون أنفسهم أتراكاً، ولا يسميهم جيرانهم بهذا الاسم. [...] أما المهاجر غير التركى ولكن المسلم فإنه يحصل بسرعة بالغة على هوية تركية»؛ فى برنارد لويس، «عودة الإسلام»، مصدر سبق ذكره.

١٠٣ – فى عام ١٩٢٣، كان عددهم ٢٥٠٠٠٠ نسمة (تقديرات «إجمالية» للبطريركية الأرثوذكسية اليونانية فى القسطنطينية)؛ وتعتبر الزيادة مرجحة بحكم إقامة ٣٨٠٠٠ يونانى فى المدينة تحت احتلال الحلفاء. وقد اجتذبهم سراب «اليونان الكبرى».

١٠٤ – إن الجماعة السكانية المسلمة فى اليونان، المحظوظة بحكم خصوبتها القوية، قد اضمحلت على أية حال . فمن ١٤١٠٠٠ مسلم تم تعدادهم فى عام ١٩٤٠، لم يبق غير ١٢٥٠٠٠ نحو عام ١٩٨٠ (٦٨٪ أتراك، ٢٢٪ بوماك و ١٨٪ غجر).

١٠٥ – إن اليونانيين الهيلينيين لم يكونوا يختلفون فى شىء عن اليونانيين الأتراك، إلاّ من حيث أسلافهم، المنحدرين من ولايات الإمبراطورية التى أدمجت فى اليونان بعد عام ١٨٣٠.

١٠٦ – كانت الجماعة العربية المسيحية ضحية فى أن واحد لعملية تحقيق التجانس الدينى واللغوى وللسياق السياسى؛ وقد دفعها إلى النزوح التنازل لتركيا فى عام ١٩٣٨ عن سنجق الإسكندرونة، الذى كان جزءاً من سوريا فى ظل الانتداب الفرنسى.

١٠٨ – لقد امتدت الاستيلاءات إلى الأرياف نفسها.

١١٠ – جرى عزل المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٤٥ سنة والمجندين فى الجيش فى معسكرات خاصة خلال الحرب العالمية الثانية.

١١١ – أكد ليبسيوس أن أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا، أعضاء الثلاثى الحاكم المسئول عن مذابح الأرمن فى عام ١٩١٥، كانوا فى الواقع ملحدين، وأن المعركة كانت بين أتراك وأرمن لا بين مسلمين ومسيحيين.

١١٢ – بحسب تعبير أبراهام ليون.

١١٣ – بافتراض نمو طبيعى موازٍ للنمو الطبيعى لمسيحيي لبنان.

الفصل السابع

إسرائيل والديموغرافيا الفلسطينية

«يتحدد طابع دولة من الدول فى المقام الأول بتركيبها الديموغرافي، بمستوى وبوحدة سكانها».

أبا إيبان، وزير الشؤون الخارجية الإسرائيلية (١٩٦٦ - ١٩٧٤)، داڤار، ٢٥ أغسطس ١٩٦٧، نقلاً عن صبرى جريس، العرب فى إسرائيل.

«دون هجرة يهودية كبرى إلى إسرائيل تواصل الاتساع، دون نمو ملحوظ لمعدل المواليد اليهود فى البلد، فسوف يكون محكوماً علينا بأن نصبح أقلية، حتى ولو أحبط جيشنا القومى تهديدات الديكتاتوريين العرب بالقضاء على إسرائيل. إن إهمال هذا الخطر يساوى قول: بعدى الطوفان».

ديفيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٦٣)، هاآريتز، ١٧ نوفمبر ١٩٦٧، نقلاً عن صبرى جريس، العرب فى إسرائيل.

البحر المتوسط ملاذ وممر. وبعد العرب، رست عدة شعوب على ضفته الجنوبية: الفرنجة، الأتراك، المغول، الفرنسيون من جديد، يصحبهم هذه المرة إيطاليون وأسبان ثم يهود. والحال أن الشعوب التى جاءت من أوروبا قد عادت إلى قارتها الأصلية، لأنها لم تكن مستعدة لتبنى لغة أو ديانة مضيفيها، ولم تكن مستعدة لقطع الصلات مع المتروبول. أمَّا الشعوب التى جاءت من آسيا فهى تشكل اليوم بضع قطرات فى دماء مضيفيها. فما الذى سوف يحدث

لليهود الذين جاءوا إلى الشرق الأدنى فى آن واحد من أوروبا ومن بقية العالم العربى، والذين لا متروبول لهم ؟ من الواضح أن من السابق لأوانه كثيراً استشفاف الخاتمة: إن المغامرة التى بدأت على مشارف القرن العشرين سوف تتكشف نتائجها فى الأجل الطويل.

نزعة قومية خالقة للديموغرافيا

كان ثيودور هرتزل، مؤلف كتاب الدولة اليهودية والأب المؤسس للصهيونية، يحلم برسم مشروعه على خريطة فلسطين. وسعياً إلى ذلك، دق باب حامى الأماكن المقدسة، السلطان عبد الحميد. ومتوهماً ليونةً فى شخص محادثه العثمانى - ألم يكن عمه قد منح لرعاياه المسيحيين فى جبل لبنان مزايا شبه دولة [1]؟ - تخيل أن بوسع الإمبرطورية التنازل عن جزء جديد من سلطتها.

لكن النواة اليهودية لم تكن آنذاك تملك وزن الموازنة. فهى تنحدر جزئياً من بضع مئات من العائلات التى لم تغادر فلسطين قط والتى انضم إليها فى القرن السادس عشر فرع من الهجرة الكبرى التى قام بها مستذلو إعادة الفتح الأسبانية. وفى عام ١٨٥٢، كان اليهود يشكلون ١٣٠٠٠ نسمة، أى ٤٪ بالكاد من سكان سناجق القدس وعكا ونابلس. وتلوح فى الأفق بالفعل هجرة جديدة، تساعد على إغراء هذه النواة. وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كان بوسع موجة أولى من القادمين غير المسلمين الإقامة فى فلسطين حتى مع أن أكثر أحفاد عثمان إسلاماً [عبد الحميد الثانى] كان يحكم بيد يبدو أنها حديدية. وبالنظر إلى بعد اسطنبول، فمما لا مراء فيه أنه قد أسىء تقدير حجم حركات السكان وأنه لم يول اهتمام يذكر للصفقات العقارية التى أدت شيئاً فشيئاً إلى نقل أرض العرب إلى اليهود.

وحتى قبل المؤتمر الصهيونى الأول، الذى عقد فى بال فى عام ١٨٩٧، كانت الجماعة السكانية اليهودية فى سناجق القدس وعكا ونابلس الثلاثة قد بدأت تنمو عن طريق الهجرة وليس فقط بحكم نموها الطبيعى، الناشىء عن ارتفاع معدل المواليد وانخفاض معدل الوفيات (الجدول VII .1). وبقدر اتساع الإضافة الأجنبية، سوف تصبح السناجق العثمانية الثلاثة فلسطين. فهذا الاسم الرومانى، الذى كان قد اختفى من الجدول الإدارى ومن الاستعمال العام منذ العصر العباسى [2]، يصبح منذ ذلك الحين موعوداً بمستقبل سياسى عاصف. إن ٨٤٣٠٠ يهودى [3] سوف يجتازون البحر المتوسط بين عامى ١٨٥٠ و١٩١٤، حيث يفعل ذلك ٤٤٠٠٠

منهم بعد عام ١٨٩٧، لكى يصلوا بشكل شرعى وسلمى إلى بلد لم يتسن للصليبيين اختراقه إلاّ بشكل عاصف.

على أن كثيرين سوف يواصلون الرحلة ويعودون إلى بلدانهم الأصلية. ويفعل ذلك البعض لأنهم لم تكن لديهم غير نية أداء الحج هناك، ويفعله البعض الآخر لأن الأرض المقدسة قد خيبت آمالهم. وهكذا فإن «معاودة النزوح» التى تزعج كثيراً قادة إسرائيل اليوم، كانت ممارسة عادية بالفعل. والواقع أن ديفيد بن جوريون، رئيس أول حكومة لإسرائيل، قد بالغ فى تقدير تقلب مهاجرى ما قبل الانتداب البريطانى (١٩١٩ - ١٩٤٨) هؤلاء، فهو يرى أن ثمانية من كل عشرة أفراد كانوا يرجعون فوراً إلى أوروبا، أو كانوا يتجهون إلى أمريكا، فى الأسابيع أو الأشهر التالية لوصولهم. وبعد ذلك بقرن، فإن عديدين من اليهود السوفييت سوف يشقون طريقاً مماثلاً. والمحصلة أن ٣٣٠٠٠ من المهاجرين فى العصر العثمانى سوف يستقرون فى فلسطين. وسوف يحصل كثيرون منهم على الجنسية العثمانية.

والحال ان وصول الموجتين الأوليين من اليهود، وهو عمل تأسيسى للاستيطان اليهودى فى ظل الانتداب، إنما يتميز بثقل سياسى باكثر مما يتميز بثقل ديموغرافى. فهاتان الموجتان لا تقدمان غير مساهمة متواضعة فى إعادة صوغ الخريطة العرقية. فالواقع أن فلسطين، بعيداً عن أن تكون البلد الخالى من البشر الذى تصوره أولئك المتجهون إلى صهيون، كانت فى واقع الأمر موطناً لجماعة سكانية عربية هامة. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى، كان هناك ٦٠٢٠٠٠ مسلم و٨١٠٠٠ مسيحى، إلى جانب ٦٠٠٠٠ يهودى، يحمل ٣٩٠٠٠ منهم الجنسية العثمانية [٤]. وفى نهاية الأمر، فإن هذه الأرض كانت تشبه غيرها من الأراضى، فى الفسيفساء الطائفية للإمبراطورية التى يهيمن عليها الإسلام. وكان الوجود اليهودى فيها أقل رسوخاً مما فى العراق وفى اليمن، لكنه كان أكثر رسوخاً مما فى بقية سوريا (التاريخية).

وسوف يؤدى اختيار المعسكر الردىء، معسكر دول وسط أوروبا، إلى انخراط العثمانيين فى صفوف خاسرى الحرب الكبرى (الحرب العالمية الأولى). وسوف يكون تقسيم الإمبراطورية المهزومة مصحوباً بالقضاء الوحشى، فى الأناضول، على الديانة السماوية الثانية، وبالإضعاف البطىء لها فى المشرق. فالجماعة المسيحية سوف تنحسر فى كل مكان لكن الإسلام سوف يؤكد حيويته الديموغرافية[٥]. باستثناء فلسطين التى تبحر منذ ذلك الحين ضد التيار، والتى يصبح الإسلام فيها، تدريجياً، ديانة أقلية. ولنتوقف قليلاً لنتساءل: لو كانت الإمبراطورية، التى يحكمها آنذاك رجال جماعة تركيا الفتاة، قد اختارت الوفاق الثلاثى بدلاً

من التحالف الثلاثى، أو لو كانت قد التزمت الحذر وظلت خارج المعسكرين، فهل كان يمكن أن تسمح باستقرار جسم غريب «كافر» وقومى فى مدينة الإسلام المقدسة الثالثة، فى اللحظة ذاتها التى كانت تسعى فيها إلى احتواء فيض جماعتها المسيحية ؟ الأرجح أنها ما كان يمكن لها أن تسمح بذلك. إن القمع الذى ينزل على يهود فلسطين فى ١٩١٤ - ١٩١٨ لا يسمح للشك بأن يحوم. ولم يكن لدى رجال تركيا الفتاة أى مبرر لأن يكيلوا بمكيالين، لأن يستخدموا معيارين مختلفين. فبحماسة واحدة سوف يستأصلون شأفة النزعتين القوميتين الأرمنية واليونانية، وسوف يحيدون النزعة القومية العربية، ويقاومون صعود النزعة القومية اليهودية. وتجد الصهيونية نفسها طريدة، شأنها فى ذلك شأن جميع الحركات غير التركية وغير المسلمة المنشطرة عن المركز. والأرجح أن هذا الترحيل الجماعى والهرب إلى مصر سوف يؤدى إلى خسارة الجماعة السكانية اليهودية فى فلسطين لنسبة ٤٠٪ من أعدادها خلال الحرب.

إن تصريح بلفور لعام ١٩١٧، والذى صدر فى معمعان العمل العسكرى، معروف للجميع. فالتاج البريطانى، الذى لم يكن قد تم التنازل له عن أية صلاحية فى الأقليم، يعد الحركة الصهيونية بخلق وطن قومى يهودى فى فلسطين. وقد جرى التمسك بهذا التعهد؛ فهو يسمح ليهود عام ١٩١٨ الذين لا يزيد عددهم عن ٥٩٠٠٠ بأن يصبحوا الـ ٦٥٠٠٠٠ إسرائيلى الذين تضمهم الدولة العبرية، عند مولدها، فى ١٤ مايو ١٩٤٨. وفى المقابل، فإن الألعاب البهلوانية العديدة التى تلجأ إليها بريطانيا العظمى بعد أن أصبحت قوة انتداب لا تنتقل إلى الأحفاد. فمن كتاب أبيض إلى آخر (١٩٢٢ و١٩٣٩)، نسى العالم وساطتها المستحيلة فى المواجهة بين النزعتين القوميتين العربية واليهودية. فبين الغالبية العربية والأقلية اليهودية، تبت لندن فى النزاع مستلهمة الكتاب المقدس، ولكن بأسلوب بيلاطس البنطى لا بأسلوب سليمان.

إن زيادة السكان اليهود عشرة أضعاف تدين بالقليل جداً لنموهم الطبيعى وتدين بالكامل أوبالكامل تقريباً للهجرة. فعشية المحرقة النازية، وجد اليهود، المضطهدون فى أوروبا، أن طرق النزوح إلى العالم الجديد مغلقة فى وجوههم. وبفضل النشاط المكثف من جانب الحركة الصهيونية فى أوروبا، حيث وجدت معاداة السامية أصداء متصاعدة، إن لم تكن فى السلطة بالفعل، وبفضل رعاية سلطة الانتداب (البريطانى على فلسطين)، استقبلت سواحل فلسطين نحو نصف مليون من اللاجئين (اليهود). وهم لا يدفعون السكان الذين يمدون جذورهم فى البلاد إلى الرحيل، لكن وصولهم الجماعى يخلق التوتر الحاد الذى سوف يؤدى إلى هذه النتيجة.

ومن هيرنان كورتيس (الفاتح الأسباني للمكسيك) الذى أحرق سفنه لكى يغرس رجاله إلى الأبد إلى البوير الذين دفنوا فى الترانسفال ماضيهم الهولندى كمنبوذين فابتكروا لغة لهم، يضم التاريخ حشداً لا نهائياً من الأمثلة التى تؤدى فيها نواة من المهاجرين إلى إنشاء دولة. وفى هذا الإقليم، فإن ذلك هو ما فعله العرب ثم الأتراك. ولكن بفارقين دقيقين، إذا ما قارنّاهم باليهود: فالعرب الذين يفتحون الشرق الأدنى ثم المغرب، شأنهم فى ذلك شأن الأتراك الذين يستولون على الأناضول، لم يكونوا قط جد عديدين ولم يسعوا إلى الانعزال هناك. على العكس تماماً، فقد قاموا فى البداية بالتغلغل وقلبوا المؤسسات المحلية ثم اختلطوا بالسكان المحليين إلى أن أصبح الجميع فى نهاية الأمر متشابهين. واليوم يعتبر الأناضوليون أنفسهم أتراكاً بينما يعتبر المغاربة أنفسهم عرباً. ولم يحدث شيء من هذا فى فلسطين، حيث حل المهاجرون محل السكان السابقين.

ولا يمر ذلك دون مقاومة. لقد أشير كثيراً إلى «مسارعة كبار ملاك الأرض العرب إلى بيع ملكياتهم للمنظمات الصهيونية. [...]. وقد جرّت هذه المشتريات من جهة أخرى إلى مضاربة عقارية من أكثر المضاربات العقارية ربحية [...]. وهو ما يعنى أن الصهيونيين قد اشتروا أرضهم المقدسة بثمن باهظ (٦)» لكن الفلسطينيين لم يكونوا كلهم كبار ملاك ولم يراكموا كلهم أرباحاً. وتنهض حساسية قومية فى آن واحد ضد استحواذ البريطانيين على السلطة واستحواذ اليهود على الأرض؛ ويثور الفلاحون وعوام المدن. على أن تمردات ١٩٢٠ – ١٩٢١ وثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩ لن تنجحا لا فى الإطاحة بالانتداب البريطانى ولا فى الإطاحة بهجمة الهجرة (اليهودية). ويترك السكان العرب المبادرة السياسية لكبار الإقطاعيين، وبعضهم جبناء، بينما يولى بعضهم الآخر وجوههم شطر هتلر. وبعيداً عن الأشكال المرئية للاحتجاج، لا يتأخر السكان عن الرد عن طريق الديموغرافيا.

إن معدلات مواليد ووفيات الجماعتين السكانيتين (الجدول VII .2) (٧) التى تعد سلطة الانتداب لها بيانات سنوية تتميز بدقة مدهشة بالنسبة للعصر وللإقليم، تتميز ببعض السمات الكلاسيكية للديموغرافيا المتمايزة : تفوق النمو الطبيعى للعرب على النمو الطبيعى للقادمين الجدد، وذلك بالرغم من أن معدل الوفيات يعتبر أعلى بين الأوائل. لكن الأرقام لا تفصح عن كل جوهرها إلاّ إذا قارن المرء فلسطين بمحيطها العربى، الذى كان آنذاك أقل عرضة للخطر. فهى تبين أن الفلسطينيين، منذ زمن الانتداب، وبشكل غير واع دون شك، سوف يجدون فى الواقع سلاحاً فى العائلة الكثيرة العدد، فكما لو كانوا يريدون القبض على ذراع الميزان الذى يميل

لحساب اليهود، يرتفع معدل مواليدهم آنذاك، ثم يستقر بشكل ثابت، فوق كل قاعدة مألوفة. ففي أدنى مستوى له، في عام ١٩٤٢، يصل إلى ٠٫٠٤٥٪، وفي ذروته، يصل إلى ٠٫٠٦٠٪ (٨). ومع معدل مواليد وسطي نسبته ٠٫٠٠٥٥٪، أي ٨ إلى ٩ أطفال لكل امرأة، فمن المؤكد أننا نجد أنفسنا أمام رقم قياسي عالمي آنذاك. أمّا العالم العربي - الإسلامي، وهو مزرعة معدلات إنجاب بالغة الارتفاع، فإنه يبدو أقل خصوبة بالمقارنة (مع فلسطين): ففي الفترة نفسها، يبلغ معدل المواليد ٠٫٠٤٤٪ بين مسلمي مصر (١٩٤٤ - ١٩٤٨) و٠٫٠٤٠٪ في سوريا. بل إن الجزائر، التي سوف تتغذى نضالاتها التالية على معدل المواليد القوي، يتم تجاوزها (٠٫٠٤٢٪ بين عامي ١٩٢٦ و١٩٤٩ بين المسلمين). ومن ثم فإن الفلسطيني ينفصل آنذاك ولوقت طويل، عن جيرانه (٩). ومنذ ذلك الحين، يجري تحديث الترسانات في الشرق الأوسط، لكن هذا السلاح «التقليدي» هو السلاح الوحيد الذي لا يصبح عتيقاً: ففي غزة وفي الضفة الغربية، في أعوام ١٩٨٥ - ١٩٩٠، يظل معدل المواليد كما هو.

واليوم، تحكم دولة إسرائيل سكاناً يتألفون من ٦٫٤ مليون نسمة (أوائل عام ١٩٩٣): ٤٫٢ مليون يهودي و٢٫٧ مليون عربي، حيث يتوزع هؤلاء الأخيرون إلى ٧٧٠٠٠٠ مواطن إسرائيلي و ١٫٩ مليون منحدر من الأراضي التي تم احتلالها بعد حرب ١٩٦٧: غزة، الضفة الغربية، القدس، الجولان (١٠). وبإيقاع معدلات النمو المتوقعة، سوف يكون بوسع العرب تجاوز اليهود نحو عام ٢٠١٠ في هذا الجزء من الأرض برمته. وحتى حرب ١٩٦٧، أدت آثار قانون العودة (١١) إلى تعويض فروق معدلات المواليد: إن رصيد هجرة قوامه مليون شخص بين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٧ يسمح في الواقع لليهود بالاحتفاظ بنسبتهم المتقدمة بين سكان إسرائيل: ٨٨٪.

لكن الاحتلال الذي يختتم الحرب يُدْخِلُ اختلال التوازن. فدفعةً واحدةً، ضمن الحدود الجديدة، تهبط نسبة اليهود إلى ٦٤٪. وعلى مدار السنوات التالية، يؤدي تواصل الهجرة اليهودية، من جهة، والنزوح الفلسطيني، صوب الخليج، من جهة أخرى، إلى التخفيف مجدداً من آثار تباين معدل المواليد. على أن هاتين الحركتين للهجرة سوف تجف ينابيعهما في الثمانينيات عندما تتأكد الأزمة الاقتصادية في إسرائيل وعندما تؤدي الصدمة البترولية المضادة إلى دفع أمراء الخليج إلى اختزال تشغيل (الفلسطينيين). وعندئذ يدخل النمو المتمايز إلى الساحة السياسية. وعلاوة على الإيمان برب واحد، يتفق الخصمان منذ ذلك الحين على شيء واحد على الأقل: إنهما يعترفان معاً بالملمح الديموغرافي لنزاعهما ويواجهان الرهان معاً في الأراضي المحتلة.

إن السياسيين الإسرائيليين، «صقوراً» كانوا أم «حمائم»، قد نفخ كل منهم بدوره فى أبواق أريحا. فالأكثر تشدداً بينهم يرون أن السيطرة العسكرية على الأرض تكفل جميع الضمانات. وسعياً إلى تجنب أخطار المستقبل، يقترح البعض حلولاً جذرية. ومثال ذلك الحاخام كاهانا. فعشية موته الدامى، نادى بمقايضة ضخمة تهدف إلى طرد الفلسطينيين[١٢]. وهى مقايضة غير متكافئة : كل عرب إسرائيل والأراضى المحتلة فى مقابل اليهود القلائل الموجودين فى البلدان العربية. وهذه طبعة جديدة من المقايضة اليونانية - التركية التى شهدها عام ١٩٢٣ [١٣]. لكن تفكير هذا الساڤونارولا المسلح يتوج تقليداً متوارثاً منذ زمن طويل. ذلك أن شخصيات معتبرة، واشتراكية أحياناً، كانت قد نادت «بانشاء فلسطين، على الأقل فلسطين غربية خالية من العرب [...] وما من سبيل هناك إلى ذلك غير نقل جميع العرب إلى البلدان المجاورة، نقلهم كلهم بعيداً عن هذا المكان. إذ لا يجب ترك قرية واحدة، ولا قبيلة واحدة[١٤]».

أمّا الحمائم، فى المقابل، فقد أعربوا عن الفكرة بصوت عالٍ وقوى : إن دولة إسرائيلية تتجاوز بشكل زائد عن الحد الحدود التى عرفتها فى عام ١٩٤٨ سوف تضطر عاجلاً أم آجلاً إلى سداد الحساب الديموغرافى لشرّه توسعها الإقليمى. بل إن دعاة الحد الأدنى يريدون رد جميع الأراضى المحتلة، فيما عدا القدس، لاستعادة النقاء الأصلى والحفاظ على روح البؤرة (اليهودية)، وهو ما يفترض غلبة العنصر اليهودى وسير العمل المنسجم للعبة ديمقراطية لا تتعرض يوماً للإزعاج من جراء عدم إذعان معارضة عربية. وهم يقبلون العودة، مع تعديلات طفيفة، إلى الأراضى المحددة فى عام ١٩٤٨، التى تبلغ نسبة اليهود اليوم فيها ٨٥٪. على أن إسرائيل الصغيرة هذه يتقد فى أحشائها ببطء اعتلال آخر: احتواء الغالبية اليهودية المكانى من جانب أقلية فلسطينية مستندة إلى سكان الدول العربية المجاورة.

العرب الإسرائيليون: نواة متعاظمة

يوم ميلادها، دخلت إسرائيل حرباً مع جيرانها. وفى ختام المعركة، تشير المصادر[١٥] إلى أن ما بين ٦٠٠٠٠٠ و٨٤٠٠٠٠ فلسطينى قد رحلوا، لكن ١٥٦٠٠٠ أفلتوا من الاضطرار إلى النزوح. وكان يمكن لقصة هؤلاء الناجين أن تكون قصيرة لو كان القمع الذى وصفه فى عام ١٩٦٨ ناثان ڤاينشتوك، الكاتب الإسرائيلى اليسارى المتشدد، بغضب بالغ الانتقاد، قد انتهى

إلى النجاح. فقد أشار إلى أن «السياسة الزراعية التى اتبعتها السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ تجاه الأقلية العربية يمكن تلخيصها فى كلمتين: «النهب المنهجى». ذلك أن جميع الإجراءات التى يمكن تخيلها – إصدار قوانين جديدة، التفسير التعسفى للترتيبات الحقوقية السابقة، التعسف العسكرى – قد طبقت لتحقيق هذا الهدف. إن ٧٠٠٠٠ هكتاراً من أفضل الأراضى بين الـ ١١٠٠٠٠ هتكار التى كانت تخص الفلاحين العرب فى عام ١٩٤٨ قد تم الاستيلاء عليها أو مصادرتها بحيل مختلفة. والنتيجة ان ٢٤٠٠٠ قروى قد جردوا من أراضيهم (١٦)». لكن القصة سارت فى اتجاه آخر غير اتجاه التلاشى.

إن هؤلاء المنسيين، الذين جرت تسميتهم بـ «العرب الإسرائيليين»، ينضمون إلى الجماعات الأخرى ذات الاسم المزدوج الذى يجمع بين شعوب أصبحت فى عداء متبادل: «اليونانيين العثمانيين»، الذين اختفوا الآن من التاريخ، و«الأرمن الأتراك» و«اليهود العرب»، الذين اختُزلوا إلى مجرد قشرة. وهذا الوضع المزعج يعود عليهم بتحدٍ مزدوج، تحدى الإسرائيليين وتحدى العرب. فلما كانت الشكوك تحيط بهم لكونهم لم يختاروا طريق النزوح، فإنهم يصبحون أكثر عرضة لها بكثير بعد حصولهم على الجنسية الإسرائيلية. وحتى الآن فإنهم نادراً ما شاركوا فى الرواية، لأن نيران الحاضر كانت تتأجج دائماً فى ساحة أبعد: حول الحروب العربية – الإسرائيلية، وحول الدياسبورا الفلسطينية فى الأردن وفى لبنان وحول أساليب كفاحها عبر العالم، وأخيراً حول الانتفاضة فى الأراضى المحتلة. وولاء هؤلاء العرب الإسرائيليين تجاه الدولة الجديدة يبدو بلا نقيصة (١٧). ومن المفارقات أن النبذ المزدوج الذى يتعرضون له، من جانب الإسرائيليين والعرب الآخرين، يشجع بقاء هذه الجماعة الصغيرة. فالواقع أن ديموغرافيتهم، المستفيدة من سياسة إدارة الظهر التى يتبعونها بحكمة، سوف تلقى مكاسب غير متوقعة.

إن جواز سفرهم الإسرائيلى – وهو مستند سفر لا يجوز استخدامه فى البلدان العربية (١٨) – يمنعهم فى المقام الأول من النزوح. ومن المؤكد أنهم يجدون بذلك أنفسهم محرومين من السخاء الأميرى الخليجى، لكن صفوفهم لا تتعرض للاختزال. ومنذ عام ١٩٤٨، يدل غياب أية هجرة على مد الجذور ويتعارض بشكل مدهش مع النزيف المتواصل الذى كان قد أوجد دياسبورا فلسطينية وصل عددها إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة فى عام ١٩٩٠ (١٩). وفى المقام الثانى، فإن نموهم الطبيعى يتجاوز بكثير النمو الطبيعى لليهود، حتى وإن كان لا يصل إلى مستوى النمو الطبيعى للفلسطينيين الآخرين. واستناداً إلى نظام رعاية

صحية يتميز بالكفاءة، فإن متوسط العمر بينهم (٧٤٫٣ سنة)، جد القريب من متوسط العمر بين اليهود (٧٦٫٧ سنة)، يعتبر رقماً قياسياً مطلقاً بين العرب. ومعدل وفياتهم (٤٫٣٠٠٪) أدنى مرتين من معدل وفيات اليهود [٢٠]، الذين يعتبر الهرم العمرى بينهم أكثر أهمية فى الأعمار الأكبر: وهى ميزة مكتسبة لوقت طويل، لأن الهرم لا يتحول إلاَّ ببطء.

إن إنشاء إسرائيل قد قسم الفلسطينيين إلى جماعتين. وعلى مدار زمن طويل نجد أن القدرة على الإنجاب، وهى قدرة تتميز بمحددات اجتماعية عميقة، تتبع منحنيات متوازية. فحتى عام ١٩٧٠، ترتفع على حد سواء بين العرب الإسرائيليين، مع فارق واضح فى المستوى بين المسيحيين والمسلمين [٢١]، وبين عرب الضفة الغربية وغزة. ثم يحدث تباين: انخفاض سريع عند الأوائل وحدهم، خاصة عند المسيحيين. ويتمشى ذلك مع المخطط المألوف؛ فانخفاض معدل الوفيات وارتفاع مستوى التعليم قد لعبا ببساطة دورهما [٢٢].

والواقع أن المسيحيين المتجاوبين منذ زمن بعيد مع النماذج الغربية، سوف يواصلون تقييد حجم أسرهم. وقد كانوا من بين أكثر العرب انخراطاً فى السيطرة على معدل المواليد. ويتجلى اختلافهم أولاً بزواج أقل تكراراً وأقل تبكيراً. والحال أن العزوبة المستمرة، التى تشجبها الأخلاق الإسلامية، كانت بالفعل تَقدَّر ١٥٪ من مسيحيى الأجيال المولودة فى ظل الانتداب. وقد تجاوزت الآن نسبة ٢٠٪. أمَّا فيما يتعلق بسن الزواج، فإننا نشهد تلاقياً، حيث إن المسلمين يكادون يتزوجون فى عمر متأخر شأنهم فى ذلك شأن المسيحيين. كما أن ممارسات منع الحمل موزعة بين الطوائف. ففى عام ١٩٨٢، فى قرية شفرعام، فى الجليل، كانت الأسرة المثالية تتميز بحجم واحد تقريباً فى نظر المسيحيين أو المسلمين أو الدروز: ٣ أو ٤ أطفال. على أن الاتجاهات الفعلية كانت أكثر اختلافاً: إن ٤٠٪ من المسيحيين، فى مقابل ٢٥٪ من المسلمين ومن الدروز، يمارسون بالفعل منع حمل يهدف إلى الوقف النهائى للإنجاب[٢٣]. ومنذ عام ١٩٨٦، ينقلب الاتجاه بشكل محسوس: فمعدل مواليد العرب الإسرائيليين يأخذ فى الارتفاع. ومن الناحية الظاهرية، فإن الظواهر التى كان من شأنها مواصلة العمل على تخفيضه لم تتغير مع ذلك. لنتوقف قليلاً أمام التغاير الواضح بهذا الشكل.

إن الاحصاءات تطبع فى الذهن دائماً تصوراً سياسياً للمجتمع. والإحصاءات الإسرائيلية تبرز الاختلافات فى الطائفة والأصل والوضعية. ومثلما تدرج فى جداول منفصلة اليهود المنحدرين من أوروبا والآخرين - المؤلفين فى غالبيتهم العظمى من يهود عرب- فإنها تقدم عرب البلد بحسب ظلال طوائفهم. وكان العثمانيون قد حسبوا بالفعل المسيحيين

والمسلمين بشكل منفصل. ولم تفعل إسرائيل غير مواصلة هذا التراث. لكن إفراز الدروز من بين المسلمين يعتبر بدعة، شأنه فى ذلك شأن تمييز السكان المستقرين عن البدو الرحل (أقل من ٣٨٠٠٠)، وهو تمييز يختص بصفحات جميلة من مقدمة ابن خلدون. وأحياناً ما يجرى تسجيل الأصل العرقى نفسه، كما هو الحال بالنسبة للشراكسة (٣٠٠٠ نسمة)، وهم مسلمون منحدرون من القوقاز، وتم تعريبهم منذ زمن بعيد. وصحيح أن الدروز والشراكسة قد أدخلوا إلى الخدمة العسكرية، خلافاً للمسلمين الآخرين والمسيحيين. وربما كانت الرغبة فى تخفيف الاستقطاب اليهودى - العربى لحساب تكوين أكثر تركيباً تحرك الإحصائيين، لكن الميل إلى تمييز المسيحيين ربما كان ماثلاً أيضاً.

فمنح «وضعية خاصة للطوائف المسيحية لتمييزها عن الغالبية المسلمة بهدف الحيلولة دون قيام تنظيم عربى على المستوى الوطنى [٢٤]»، بناءً على اقتراح حزب الماباى العمالى، إنما يستمد إلهامه من الحرب الأهلية فى لبنان، التى كانت، فى نظر إسرائيل، مجرد تناحر بين الطوائف. وهذا يعنى نسيان أن المسيحيين كانوا بين أوائل المحتجين على الهجرة اليهودية وأنهم كانوا دائماً على رأس الحركات الوطنية. وليس مما لا معنى له أن الفلسطينيين قد اختاروا، ليس فقط امرأة، بل ومسيحية، هى حنان عشرواى، لكى تدير فى الكواليس محادثات الصلح فى نوفمبر ١٩٩١ فى مدريد.

شغل أراضى إسرائيل

من الجزائر إلى تركيا، يتميز التاريخ الطويل للأقليات غير المسلمة فى البحر المتوسط العربى والتركى بحوادث إعادة تجمع. والحال أن المبرر الاقتصادى والبحث عن الأمن كانا أكثر من مرة متجاورين مع تركيز السكان المسيحيين واليهود تركيزاً أعلى باستمرار، ومع إعادة تجمعهم فى المدن. وفى هذا الصدد، فإن تاريخ دولة إسرائيل الذى مازال قصيراً يعتبر نموذجياً. ذلك أنه لم يحدث من قبل قط ان اكتسبت حركات متدفقة من أركان الإقليم الأربعة مثل هذا التزامن.

وسوف يشهد العقد التالى لإنشاء إسرائيل وصول جميع اليهود العرب والأتراك كلهم تقريباً، من بغداد حتى جنوب المغرب الأقصى، ومن اليمن حتى اسطنبول: وهم يشكلون اليوم نسبة ٥٢٪ من سكان إسرائيل [٢٥] (الجدول VII .3). وغالباً ما يمر توجههم إلى المدينة دون

أن يلحظ أحد ذلك. ويعاد التفكير إلى حد ما فى تاريخ الكولون (الفرنسيين). فالكيبوتز الرائد كان فكرة للتجميع بأكثر مما كان واقعاً ميدانياً. والواقع أن ٦٦٪ من اليهود يتجمعون اليوم فى ١٢٪ من الأرض (١٩٩٠)، فى مناطق حضرية أساساً: فى الوسط، مراكز تل أبيب والقدس وريحوفوت وبتاح - تيكفا والرملة وعسقلان. فاليهود هناك يشكلون غالبية ضخمة (٩٨٪). وما أن يغادر المرء هذه النوى المدينية، حتى يقترب من العالم العربى وذلك فى آن واحد من حيث المسافة، حيث إن هذه الأرض جد محدودة، ومن حيث تنوع الديانات.

وحتى داخـــل حـدود إسرائيل المعترف بهـا، فـإن إسـرائيل قـد تـركت فـى الـواقع الديموغرافيا العربية سيدة لمناطق الاتصال. إذ لا يقتصر الأمر على أن السكان اليهود فى تلك المناطق أقل ضخامة (٧٩٪ فى النقب) أو متساوين مع العرب (٥٠٪ فى الجليل) [٣٦] وينمون بسرعة أقل من السكان العرب، بل إنهم يهجرون الاتساع الفعلى لها: إن ٧٠٪ من يهود الشمال (الجليل، حيفا، شارون) يتجمعون فى عشرة مناطق صغيرة يصل عدد السكان فى الواحدة منها إلى ٢٠٠٠٠ نسمة أو أكثر، فى حين أن ٧٥٪ من العرب يتجمعون فى جميع المناطق الصغيرة الأخرى، تلك التى يصل عدد السكان فى الواحدة منها إلى أقل من ٢٠٠٠٠ نسمة. ولما كانت هذه الدساكر والقرى أكثر انتشاراً من المدن، فإن السكان العرب هم الذين يحتلون أعماق البلد [٣٧]. ولاعتبارات تتعلق بالأمن، كانت السلطة الإسرائيلية تريد الحيلولة دون التركز العربى. والواقع أنها قد حققت عكس ما تريد: الحصار الديموغرافى.

إن مراكز الشمال السبعة، المتاخمة للبنان، تجمع شبه إجمالى غير اليهود المؤلف من ٧٧٠٠٠ نسمة [٣٨]. وتحيا نسبة ٨٢٪ من العرب الإسرائيليين بين ناتانيا، التى لا تبعد عن تل أبيب إلاَّ بمسافة ٢٠ كيلو متراً، وصفد المتاخمة للحدود اللبنانية. وفى عام ١٩٧٦، وفزعاً من اختلال التوازن الناشىء، دعت السلطة العامة إلى «تهويد الجليل». والحال أن تقرير كونيك، الذى يربط صعود النشاط السياسى للعرب بصعود ديموغرافيتهم، يتصور أولاً شكلاً مستتراً للنزوح العربى، «عن طريق تشجيع وزيادة مصاعبهم فى العثور على عمل فى إسرائيل وعن طريق تكثيف وجود قوات الشرطة فى القطاعات العربية بهدف تخويفهم [٣٩]»، ثم تحدث عودة يهودية. ويتوجب حث هؤلاء اليهود على الكف عن احتقار هذا الجليل هـاجوييم، جليل الأمم هذا الذى سمى بهذا الاسم فى التوراة بسبب كثرة سكانه غير اليهود، الآراميين والفينيقيين. ومن ثم فإن التقرير يقترح أن يتم استيطان ٦٠٠٠٠ هكتار من الأراضى الجيدة، التى سوف تصادر من العرب. لكن ضغوطاً داخلية ودولية متنوعة، وخاصة هذا «التمشرق» للأذهان الذى

كان الآباء المؤسسون لإسرائيل قد خافوا منه كثيراً، سوف تعرقل تهويد الجليل. ومنذ التعداد الأخير (١٩٨٣) يضم الجليل (أوائل ١٩٩٢) ١٩٢٠٠٠ نسمة من السكان الإضافيين؛ من بينهم ٩٣٠٠٠ عربي.ولن يتأثر الميزان الديموغرافي بالرغم من تدفق اليهود السوفييت نحو تلك المنطقة.

فما الذى سوف يكون عليه المستقبل؟ قبل أن نسأل الخرائط، يجب أن نراجع قصة التنبؤات الخاصة بالسكان. ففى إسرائيل كما فى بلاد أخرى، تعتبر التوقعات الديموغرافية فى آن واحد حسابية جد صارمة وانعكاساً للسيكولوجية الجماعية. والافتراضات الخاصة بالاتجاهات المستقبلية للإنجاب وللهجرة هى التى تحدد النتيجة. لكن المتخصص يصوغها إمّا فى لحظة تفاؤل عام أو فى زمن انعدام اليقين. وعندما تحتفل إسرائيل بذكرى مرور عشر سنوات على قيامها، فى عام ١٩٥٨، بعد عامين من انتصار سيناء الخاطف، نجد أن النبرة كانت نبرة استبشار، وارتياحاً إلى الهزيمة العسكرية التى لحقت بالرئيس جمال عبد الناصر، يصل المهاجرون جماعات. والحال أن الإنجاب اليهودى، جد المنخفض فى أوروبا أو فى أمريكا، يرتفع هنا مع وصول يهود العالم العربى. وتأخذ التوقعات الديموغرافية ذلك فى الحسبان. ومن ثم يجرى التنبؤ بنمو للسكان اليهود جد سريع من شأنه أن يؤدى إلى تراجع السكان العرب من ١ر١١٪ فى عام ١٩٥٨ إلى ٤ر١٠٪ فى عام ١٩٧٠ (٣٠).

وبعد ذلك بعشر سنوات، أدت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى توسيع المساحة التى تسيطر عليها إسرائيل. ويضطر الديموغرافيون الإسرائيليون إلى إعادة النظر فى حساباتهم من جديد. فهم يتجنبون ضم كل سكان الأراضى المحتلة، لكنهم يضمون إلى سكان إسرائيل جماعتين سكانيتين عربيتين جديدتين، جماعة مدينة القدس العتيقة، التى تم الاستيلاء عليها من الأردنيين، وجماعة الجولان، التى تم الاستيلاء عليها من السوريين، وذلك قبل وقت طويل من الضم الرسمى لهاتين المنطقتين فى ١٩٨٠ و١٩٨١. والأثر المباشر لإعادة التحديد الإحصائى هذه هو رفع نسبة العرب إلى ١ر١٤٪. أمّا الأثر المتأخر فهو ضم قدرتهم على الإنجاب، جد المرتفعة آنذاك. ويكشف باحث ديموغرافى إسرائيلى عن المستقبل الجديد. إن انقلاب المنظورات مذهل: ففى أفق عام ١٩٩٣، سوف يكون العرب ٦ر٢٠٪، أى أكثر من ساكن بين كل خمسة من السكان (٣١). وفى وحدة الحساب نفسها، أى إسرائيل فى حدودها المعترف بها، فإن العرب، الذين كان تفاؤل حسابات عام ١٩٥٨ قد اختزلهم إلى ٩٪ فى عام ١٩٩٣، سوف يكونون فى الواقع ١٧٪، أى أكثر مرتين تقريباً (٣٢).

وقد نشأت مساجلة منذ غداة حرب ١٩٦٧ بين «أنصار التمسك بالأراضى» – أولئك الذين تعتبر الأراضى بالنسبة لهم، حتى وإن كانت مأهولة بالعرب، ضمانات لتفوق إسرائيل ومن ثم للسلم – والمدافعين عن «الغالبية الديموغرافية» – أولئك الذين يتوجب فى نظرهم للسعى إلى تكوين جماعة سكانية يهودية إلى أقصى درجة ممكنة أن يحتفظ بأولويته. وتميز هذه المساجلة النشرة التى سوف يكرسها دوف فريدلاندر وكالفن جولدشيدر لسكان إسرائيل، فى ذات اللحظة التى يتخذ فيها الرئيس السادات خطوة واسعة تجاه الصلح [٣٣]. وينكب الكاتبان على استعراض سيناريوهات مختلفة مؤطرة بافتراض قوى، هو افتراض أن تضم إسرائيل كبرى كل الأراضى المحتلة، وبافتراض ضعيف، هو افتراض إسرائيل صغرى لا تضم إليها غير القدس والجولان. وحتى فى هذه الأرض الأخيرة، فإن الصعود العربى لا مفر منه: ١٨,٢٪ فى عام ١٩٩٠ و٢١,٢٪ فى عام ٢٠١٠. وهكذا فإن عشرين سنة قد أدت إلى تبديد وهم التآكل العربى مع التأكد من أن ما هو ماثل ليس أقل من قنبلة. وفى غمرة المفاوضات فى كامب ديفيد، ينقل الإحصائيون إلى مناحم بيجين الرسالة الضمنية التى تدعو إلى التخلص من المكاسب الإقليمية. ومن ثم فإن واقعية العلماء وجهامة المتمسكين بإسرائيل كبرى سوف تؤثران على المفاوضات. «إن الحقائق الديموغرافية للحياة فى إسرائيل وفى هذه الأراضى تحول إلى الأبد دون ضم أو دمج غزة والضفة الغربية فى دولة إسرائيل[٣٤]».

وفى أواخر الثمانينيات، يخطط المسؤولون الإسرائيليون [٣٥] لتحقيق توازن لميزان الهجرة: فالقادمون لا يصلون إلاّ ببطء غداة عملية احتلال لبنان، المسماة بعملية «السلام فى الجليل» (١٩٨٢)، وذلك إلى درجة أن عمليات الهجرة المضادة (النزوح) تصل إلى تجاوزهم منذ عام ١٩٨٥ [٣٦]. إلاّ أنه بعد ذلك ببضع سنوات، يؤدى انهيار ما سمى بالشيوعية، فى إثيوبيا ولكن خاصة فى أوروبا الشرقية، إلى كسر حواجز أخرى. إن ١٨١٠٠٠ مهاجر، من الفالاشا وخاصة من السوفييت، سوف يقيمون فى عام ١٩٩٠، وسوف يقيم ١٥١٠٠٠ خلال عام ١٩٩١ ويصل ٧٧٠٠٠ مهاجر فقط فى عام ١٩٩٢، (ليس معروفاً كم من بينهم سيقيم بصفة نهائية فى إسرائيل)[٣٧]: أى أكثر من الذين أقاموا خلال السنوات الثلاث والعشرين السابقة منذ حرب ١٩٦٧ (١٩٦٧ – ١٩٨٩). ومستقبل الهجرة غير مؤكد. فهل سيواصل المهاجرون التدفق بهذا المعدل ؟ وإلى متى ؟ وكم من سوف يبقون منهم بالفعل: الثلث كما حدث خلال العقد؟ وهل سوف يحافظون على معدل الإنجاب جد المنخفض الذى عرفوه فى روسيا التى جاءوا منها؟

فى آخر التوقعات المنشورة [٣٨]، يرصد الديموغرافيون الإسرائيليون تيارات الهجرة الجديدة ويقدرون أن ما بين ٥٠٠٠٠٠ و٨٠٠٠٠٠ يهودى من الاتحاد السوفييتى السابق سوف يكون بوسعهم الاستيطان قبل عام ١٩٩٥. وفى عام ٢٠٠١، لابد أن عرب إسرائيل الصغرى سوف يتجاوزون عتبة المليون نسمة [٣٩]. وسوف يمثلون عندئذ ما بين ١٦٪ و١٧٪ من السكان، أى نسبة أعلى بشكل محسوس من اليوم، وذلك بالرغم من الهجرة اليهودية. وعلاوة على ذلك، فخلال السنوات العشر الأولى من القرن القادم، سوف يصبح الفلسطينيون الأغلبية فى الكيان الأوسع المؤلف من إسرائيل والأراضى المحتلة. والهجرة الجديدة، أياً كان إيقاعها وحجمها، لن تؤثر عملياً على هذه النتيجة [٤٠].

والمكان ليس مشغولاً بشكل متجانس. وإذا ما وسعنا التوقعات إلى الذكرى المئوية لإنشاء إسرائيل، فى عام ٢٠٤٨، وهو أفق جد بعيد بالنسبة للباحث الديموغرافى، لكنه قريب على مستوى حياة بلد ما، فسوف نشهد احتداداً لتشوهات ترتسم بالفعل (الجدول VII.4). وبافتراض عدم نجاح إعادة توزيع قسرية للمهاجرين الجدد فى تعديل هذه الاختلالات، فإن مجمل الشمال (٥١٠٠ كم^2) – الجليل، مديرية حيفا ومركز شارون – سوف يرتد إلى تراثه التوراتى ليصبح «أرض الأمم». وعندئذ فإن العرب سوف يتجاوزون اليهود بدرجة طفيفة. وفى النقب، الذى تغطى اتساعاته الصحراوية أكثر من نصف إسرائيل (١٢٨٠٠ كم^2)، يمكن للعرب أيضاً أن يلامسوا الغالبية. وفى الوسط، على مساحة تقل عن ٢٠٠٠ كم^2، فإن مدن وأرباض تل أبيب والقدس وكذلك مناطقها الداخلية الأكثر قرباً منها تحتفظ وحدها بالتجانس الذى حلم به الآباء المؤسسون لإسرائيل، حيث تصل نسبة العرب إلى ٦٪.

وخلال الحملات الصليبية، فعلى هذه النقطة نفسها من الخريطة تركز رهان رئيسى. وبعد بضع سنوات قليلة فقط من فتح القدس وإقامة المملكة اللاتينية فى شريط قريب من شريط إقليم الوسط الحالى فى إسرائيل، اضطر الفرنجة إلى كفالة أمنه والسيطرة، وصولاً إلى ذلك، على هذين الجناحين المتمثلين فى الجليل شمالاً والنقب جنوبياً. ولابد للمقارنة أن تتوقف هنا. فخلافاً للفرنجة، وهم مستوطنون أيضاً، نجد، فى داخل حدود إسرائيل، أن غالبية فى الواقع هى التى تملى قانونها على أقلية، وهذه وتلك يفصل بينهما تمايز أساسى فى الهوية.

لكن ديموغرافية إسرائيل تندرج ضمن دائرتين أوسع، الدائرة المحددة بحدود فلسطين

فى ظل الانتداب، والدائرة التى تشكل مجمل الشرق الأدنى، بل المجمل العربى – الإسلامى.
وفى الدائرة الأولى، فإن اللعبة الديموغرافية محسومة سلفاً. وهى محسومة سلفاً فى الدائرة الثانية من باب أولى. إلاّ أنه هنا يتوجب على الجماعة الجديدة نيل الاعتراف بها. وقد سمحت الحرب لها بالعزلة، أما الصلح فسوف يفرض التبادل. وعندئذ فإنه لا مراء فى أن إسرائيل سوف يتعين عليها اكتشاف المورد الذى يمثله مواطنوها العرب. إن الطابع المختلط للأقاليم التى يشكلون نسبة متنامية منها، والمتصلة بالدول المجاورة، يمكنه أن يجعل منها مناطق عازلة مثلما يمكنه أن يجعل منها أماكن مرور. وغداً، بحسب ما يمكن أن يقرره السياسيون، فإنها سوف تشكل إمّا سوراً أو جسراً يربط أقلية شرقى البحر المتوسط اليهودية ببقية الفسيفساء الطائفية الشرقية.

جداول الفصل السابع

الجدول VII . 1

معدل الزيادة بحسب الطائفة فى فلسطين (1860 - 1949)

($^0/_{00}$)

السنة	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالى
1860	10,4	16,4	7,4	10,8
1882	10,8	21,7	21,1	12,2
1895	12,3	15,8	32,6	13,5
1905	23,7	17,7	87,1	26,8
1914	- 15,2	- 35,0	- 9,5	- 16,7
1918	12,1	19,7	119,6	23,2
1922	21,5	22,2	69,1	28,2
1931	24,7	37,8	156,2	54,6
1936	25,5	24,2	57,5	34,6
1939	30,5	29,8	39,2	33,1
1946	- 196,7	- 156,9	173,4	- 31,6
1949	30,9	3,0	53,7	43,7

المصدر : تعددات الفترتين العثمانية والبريطانية.

الجدول VII .2

معدلات المواليد والوفيات بحسب الطائفة (1924 - 1991)

(0/00)

السنة	معدل المواليد				معدل الوفيات			
	مسلمون	دروز	مسيحيون	يهود	مسلمون	دروز	مسيحيون	يهود
1924	55,5	39,0	40,4	38,3	29,9	19,3	16,8	12,6
1925	54,7	59,3	37,2	33,2	31,2	32,5	18,8	15,1
1926	60,2	55,0	40,0	36,0	28,6	34,9	17,9	12,1
1927	56,1	50,3	38,9	35,1	33,0	28,1	20,1	13,4
1928	60,9	45,6	40,4	35,4	35,1	21,0	18,9	12,1
1929	57,7	43,7	37,9	34,1	31,7	26,7	17,9	11,8
1930	60,3	45,0	39,0	33,4	27,9	19,2	16,2	9,6
1931	60,3	51,7	39,0	32,7	29,6	16,5	15,7	9,7
1932	49,0	43,7	36,4	29,2	26,3	22,3	15,9	9,7
1933	49,8	47,0	36,0	29,2	24,1	17,6	14,0	9,3
1934	46,6	41,8	33,5	30,0	26,7	31,0	16,2	9,5
1935	52,6	42,8	34,4	30,6	23,5	21,0	13,9	8,5
1936	53,1	51,0	36,2	29,7	20,0	20,1	12,6	8,8
1937	49,8	44,1	33,6	26,5	24,9	22,8	14,0	7,7
1938	47,2	42,4	34,4	26,3	18,7	16,8	12,5	8,1
1939	46,4	40,9	31,3	23,0	17,4	17,6	11,5	7,6
1940	47,4	50,8	31,1	23,7	24,7	18,1	12,2	8,2
1941	49,2	44,5	29,1	20,7	21,4	21,4	11,1	7,9
1942	45,2	35,1	27,8	22,7	19,9	18,4	12,1	8,6
1943	52,4	49,0	32,6	29,0	19,0	13,1	11,6	7,7
1944	53,7	44,6	31,0	30,2	17,3	17,5	10,1	7,1
1945	54,2	45,0	32,7	30,3	16,7	12,9	9,9	6,7
1946	54,2	47,0	33,3	29,1	15,9	17,0	9,1	6,4

1947				30,0				6,2
1948				26,3				6,7
1949		غيراليهود		30,0		غيراليهود		6,8
1950		43,2		33,0		9,5		6,5
1951		46,5		32,7		8,8		6,4
1952		45,6		31,6		11,5		6,8
1953	53,1	54,0	32,5	30,2	10,4	8,8	8,3	6,3
1954	48,8	48,0	33,6	27,3	9,8	9,2	9,4	6,4
1955	50,1	44,5	34,8	27,2	9,1	9,3	7,0	5,8
1956	51,7	47,1	33,8	26,7	9,8	8,7	8,1	6,3
1957	46,3	48,0	34,4	25,9	8,0	8,2	7,3	5,9
1962	51,7	46,7	34,9	22,5	6,4	6,8	6,9	5,8
1967	51,0	43,6	30,4	22,5	6,1	5,3	5,9	6,7
1972	49,5	42,7	26,9	24,3	5,8	5,3	7,0	7,3
1975	46,3		25,6	25,0	5,6		6,7	7,4
1976	47,0		25,5	25,1	4,9		6,3	7,1
1977	44,6	41,8	24,6	23,6	5,0	5,0	6,4	7,2
1978	42,6		23,7	22,3	4,7		6,0	7,2
1979	42,1		23,1	22,0	4,3		6,2	7,1
1980	38,9	39,2	22,1	22,0	4,2	4,4	6,1	7,2
1981	37,3	36,1	20,0	21,4	3,9	4,0	5,7	7,1
1982	37,3	36,0	20,3	21,8	3,8	4,0	5,9	7,4
1983	36,6	35,8	20,3	22,0	3,7	4,5	5,9	7,5
1984	36,0	32,7	19,2	21,6	3,7	3,6	5,8	7,3
1985	34,8	31,6	18,3	21,6	3,7	3,4	5,2	7,2
1986	33,8	30,8	22,0	21,2	3,4	3,4	5,6	7,5
1987	34,4	30,5	22,3	20,5	3,4	3,6	5,3	7,3
1988	35,5	30,5	22,1	20,2	3,5	3,1	5,4	7,2
1989	36,2	30,8	22,8	19,7	3,3	3,6	5,4	7,0
1990	36,8	31,0	22,2	19,4	3,2	3,4	4,8	6,8
1991*	37,4	29,1	21,0	18,5	3,1	3,3	4,7	6,7

* المعدلات محسوبة عن الأشهر التسعة الأولى من عام 1991

المصادر: بالنسبة لفترة الانتداب، جوستين ماك كارثي، سكان فلسطين...، مصدر سبق ذكره.

اعتبارا من عام1948، مكتب الإحصاءات المركزي، الملخصات الإحصائية الإسرائيلية، القدس، 1950- 1991.

الجدول VII . 3

اليهود فى البلدان العربية وفى تركيا نحو عام 1948 وهجرتهم إلى إسرائيل (1948 – 1986)

(بالآلاف)

البلد	اليهود في عام 1948	1948 – 1951	1952 – 1960	1961 – 1964	1965 – 1971	1972 – 1979	المجموع
تركيا 1945	77,0	34,5	6,9	4,8	9,3	3,1	60,4
سوريا 1948	31,0	2,7	1,9	1,3	0,9	0,8	8,5
لبنان 1948	5,2	0,2	0,8	0,2	2,1	0,6	4,0
الأردن 1948	0,2						0,1
العراق 1947	120,0	123,3	3,0	0,5	1,6	0,9	129,4
اليمن الشمالى 1948	46,0	45,0	0,8	0,5	0,1		46,4
اليمن الجنوبى 1948	5,0	3,3	0,4	0,2	0,3		4,2
شبه الجزيرة العربية 1948	0,2	0,2					0,2
مصر 1947	67,0	8,8	17,5	1,2	1,7	0,5	30,0
ليبيا 1948	38,0	31,0	2,1	0,3	2,1	0,2	35,8
تونس 1946	74,0	13,3	23,6	3,8	7,8	2,1	52,2
الجزائر 1941	130,0	3,8	3,4	9,7	3,2	2,1	23,7
المغرب الأقصى 1948	265,0	28,3	95,9	100,4	30,2	7,8	265,7
الإجمالى الفرعى	858,6	294,4	156,3	122,9	59,3	18,1	660,6
إجمالى المهاجرين		686,7	294,5	228,0	197,8	267,6	1250,3

المصادر: مكتب الإحصاءات المركزى، الهجرة إلى إسرائيل – ١٩٨٦، القدس؛ تعدادات السكان، الموسوعة اليهودية، مصدر سبق ذكره.

الجدول VII . 4

أعداد وتوقعات السكان اليهود والعرب فى إسرائيل بحسب الأقاليم الكبرى * (1948 – 2048)

(بالآلاف)

السنة	1948	1961	1972	1983	1990	1995	2000	2005	2010	2015	2020	2025	2030	2035	2040	2045	2048
الشمال																	
اليهود	228	602	780	937	1089	1273	1308	1339	1367	1391	1412	1430	1446	1458	1468	1475	1478
العرب	128	208	320	465	583	687	782	876	969	1059	1145	1225	1300	1368	1430	1485	1509
الوسط																	
اليهود	471	1252	1734	2182	2594	3085	3221	3352	3477	3597	3711	3820	3924	4023	4116	4206	4248
العرب	15	21	25	39	54	67	80	96	112	130	148	168	189	211	233	257	269
الجنوب																	
اليهود	1	79	171	231	264	304	308	311	313	315	315	315	314	312	310	307	306
العرب	13	18	30	44	72	88	104	121	139	158	178	198	219	239	260	281	291
الإجمالى																	
اليهود	700	1933	2685	3350	3947	4663	4838	5003	5158	5303	5439	5566	5683	5793	5894	5988	6032
العرب	156	247	375	548	708	842	966	1093	1221	1347	1471	1592	1708	1819	1924	2023	2069

* الشمال : محافظتا الجليل وحيفا، ومركز شارون. الوسط : محافظة القدس وتل أبيب والوسط (ماعدا شارون) ومركز عسقلان. الجنوب : مركز بئر سبع.

الجدول 4 . VII (تابع)

أعداد وتوقعات السكان اليهود والعرب في إسرائيل بحسب الأقاليم الكبرى * (1948 – 2048)

(بالآلاف)

النسبة المئوية للعرب	1948	1961	1972	1983	1990	1995	2000	2005	2010	2015	2020	2025	2030	2035	2040	2045	2048
الشمال	36,0	25,7	29,1	33,2	34,9	35,0	37,4	39,6	41,5	43,2	44,8	46,1	47,3	48,4	49,4	50,2	50,5
الوسط	3,1	1,6	1,4	1,8	2,0	2,1	2,4	2,8	3,1	3,5	3,8	4,2	4,6	5,0	5,4	5,8	6,0
الجنوب	92,9	18,6	14,9	16,0	21,4	22,4	25,2	28,0	30,8	33,5	36,1	38,6	41,1	43,4	45,6	47,7	48,8
الإجمالي	18,2	11,3	12,3	14,1	15,2	15,3	16,6	17,9	19,2	20,3	21,3	22,2	23,1	23,9	24,6	25,3	25,5

* الشمال : محافظتا الجليل وحيفا ومركز شارون. الوسط : محافظة القدس وتل أبيب والوسط (ماعدا شارون) ومركز عسقلان. الجنوب : مركز بئر سبع.

المصادر : توقعات إجمالي السكان : حتى عام 2005، مكتب الإحصاءات المركزي، النشرة الشهرية للإحصاءات، ملحق، أكتوبر 1991 (ماعدا القدس الشرقية والجولان بالنسبة للعرب).

بالنسبة للفترة من عام 2010 إلى عام 2048، استقراء للاتجاهات الهندسية لمعدل الزيادة خلال فترة 1990 – 2005 .

بالنسبة لسكان الأقاليم، مكتب الإحصاءات المركزي، الملخصات الإحصائية الإسرائيلية، القدس 1991، استقراء تعديلات النسب.

حواشي الفصل السابع

1- La Moutassarrifiya du Mont-Liban, voir chapitre V.
2 - Bernard LEWIS, "La Carte du Proche-Orient", *Le Débat*, n°58, Paris, 1990.
3 - Ces chiffres et les suivants de la période ottomane sont tirés de Justin MCCRATHY, *The Population of Palestine. Population Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate*, New York, Columbia University Press, 1990, et de Roberto BACHI, *The Population of Israel*, CICRED, Paris, 1974.
4 - Les chiffres sont contestés. Voir une fourchette:

Source	*musulmans*	*chrétiens*	*juifs*	*dont juifs ottomans*
Recensement ottoman	515 481	69 456	?	31 671
McCARTHY (rec. corrigé)	602 377	18 012	60 000	38 754
Bachi (sources diverses)	525 000	70 000	94 000	?

5 - Voir chapitre VIII.
6 - Nathan WEINSTOCK, *Le Sionisme contre Israël, Paris,* Maspero, 1969.
7- On trouvera ces taux par exemple dans Justin McCARTHY, *The Population of Palestine..., op. cit.*
8 - Peut-être plus encore si l'on tient compte d'un sous-enregistrement des filles à la naissance: 91,4 filles enregistrées en 1926 pour 100 garçons, au lieu d'une valeur normale de 95,3, d'où un taux de natalité probablement égal à 63, 5 0/00.
9 - Voir chapitres IV et VIII.
10 - La statistique esraélienne agrège aux Arabes israéliens les habitants de Jérusalem- Est et du Golan. Ils sont au contraire confondus dans ce chapitre avec les populations des autres territoires occupés, car aucune annexion n'a été reconnue par la communauté internationale.
11 - Loi de 1950, offrant à tout Juif le droit d'immigrer en Israël, complétée en 1952 de la loi de la citoyenneté, qui permet à tout Juif immigré de devenir citoyen dès son arrivée.
12 - Georges DUSSAULT, "Israël: l'enjeu démographique", *L'Afrique et l'Asie modernes,* n°143, 1984-1985.
13 - Voir chapitre VI.
14 - M. J. Weitz, membre du parti gouvernemental MAPAMMAPAI en 1967, déclaration faite à *Davar* (le quotidien officiel de la centrale syndicale Histadruth), 29 septembre 1967, cité par Eli LOBEL, *Les Juifs et la Palestine*, introduction de Sabri *GERIES*, *Les Arabes en Israël,* Paris, Maspero, 1969.
15- 840000 selon Elias SAMBAR, *Palestine* 1948. *L'expulsion,* Les livres de la revue d'études palestiniennes, Washington, 1984; 750000 selon Georges

KOSSAÏFI, "L'enjeu démographique en Palestine", *in* Camille MANSOUR (éd.), *Les Palestiniens de l'intérieur,* Les livres de la revue des études palestiniennes, Washington, 1989. L'Israélien Roberto BACHI donne l'estimation la plus basse: 614000 à 626000, *La Population d'Israël, op. cit.*

16- Nathan WEINSTOCK, *le Sionisme..., op. cit.* Sur le même sujet, voir notamment, Sabri GERIES, *Les Arabes..., op. cit.,* Camille MANSOUR (éd.), *Les Palestiniens de l'intérieur, op. cit.,* et Charles KAMEN, "After the Catastrophe II: The Arabs in Israel", *Middle Eastern Studies,* janvier 1988.

17 - "Le comportement des Arabes, confie l'un d'eux, ne justifie pas les mesures de répression appliquées contre eux. La souveraineté de l'Etat d'Israël, les institutions publiques ou le pouvior même n'ont jamais été mis en cause. Les Arabes d'Israël ont observé un calme presque total depuis qu'ils sont devenus citoyens de l'Etat d'Israël. Plus des trios quarts des votes arabes allaient aux partis sionistes: MAPAI, MAPAM, Akhduth Haavoda, Heruth, et même aux partis religieux juifs. le MAKI (Parti communiste), qui défendait au grand jour les intérêts arabes, ne recueillait que le cinquième des voix. Le comble de l'ironie fut la prologation du gouvernement militaire sur les Arabes, obtenu à l'aide des voix de parlementaires arabes." Sabri GERIES, *Les Arabes..., op. cit.*

18 - Sauf, depuis peu, pour accomplir le pèlerinage à La Mecque.

19 - Effectif des Palestiniens résidant hors des frontères du mandat (Israël, Gaza, Cisjordanie).

20 - Faible mortalité des Arabes israéliens, mais non égalité avec les Juifs.

Mortalité infantile (*0/00*)	*Juifs*	*Arabes*	*Surmortalité arabe*
1970 - 1972	16, 8	26, 1	55%
1980 - 1982	11, 0	22, 4	104%
1987	7, 8	15, 3	96%

Source: *Statiscal Abstract of Israel,* n°41, Jérusalem, 1990

21 - Voir chapitre VIII.

22 - Au chapitre VIII, nous expliquons pourquoi ces facteurs n'ont pas joué dans les territoires occupés.

23 - M. Al-HAJ, *Social Change and Family Processes. Arab Communities in Shefar- A'm,* Boulder et Londres, Westview Press, 1987.

24 - Doris BENSIMON et Eglal ERRERA, *Israéliens, des Juifs et des Arabes,* Complexe, Bruxelles, 1986.

25- Sergio DELLA PERGOLA et U.O. SCHMELZ, "Residential Distribution Aspects of Immigrants Absorption in Israel", *Séminaire sur les phénomènes migratoires, l'urbanisation et la contre- urbanisation,* Amalfi, 1991.

26 - District du Nord, sauf le Golan. Dans le Nord au sens large (Galilée, Haïfa, Sharon), c'est-à- dire dans l'ensemble des districts où les Arabes sont fortement représentés, les Juifs sont 65%.
27 - Dans les localités de moins de 20000 habitants, on compte (fin 1990) 437000 Arabes pou 326000 Juifs.
28 - Sans Jérusalem- Est et le Golan.
29 - Doris BENSIMON et Eglal ERRERA, *Israéliens..., op. cit.*
30 - Benjamin Gil, *Projections of the Population of Israel (1955 - 1970)*, Jérusalem, 1958. Ce rythme de baisse supposait qu'en 1993 les non- Juifs seraient 9, 2%; à comparer avec les 17, 3% que trouvera Roberto Bachi pour la même année.
31 - Roberto Bachi, *The Population of Israel*, CICRED, 1974. En fait Bachi avait surestimé la croissance relative des Arabes: ils seront 15, 3% de la population d'Israël, de Jérusalem - Est et du Golan à la mi- 1993.
32 - 9%: extrapolation en 1993 de la projection de 1958; 17, 3%: chiffre projeté par Bachi en 1993, moins Jérusalem- Est et le Golan.
33 - Dov FRIEDLANDER et Calvin GOLDSHEIDER, *The Population of Israel*, Columbia University Press, New York, 1979.
34 - Nick EBERSTADT et Eric BREINDEL, *Realities behind Comp David: Demographic Aspects of Politics of Peace in the Middle East*, Center for Population Studies, Harvard University, Harvard, 1978.
35 - *Projection of Population in Israel up to 2010- Based on the Population in 1985*, Central Bureau of Statistics, Jérusalem, 1988.
36 - Sur une période plus longue, entre 1978 et 1989, Israël a enregistré 217000 immigrants pour une balance migratoire de 85000, soit 39%; Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*.
37 - Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*. Jérusalem, décembre 1991.
38 - Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*. Jérusalem, octobre 1991.
39 - Le million pourrait être franchi plus tôt, car une sous- estimation entache ces projections, effectuées pourtant en 1991, au terme de six années de redressement continu de la fécondité arabE: elles tiennent compte de ce phénomène pour les chrétiens mais non pour les musulmans.
40- Dans l'ensemble formé par Israël et les territoires occupés, 500000 immigrants supplémentaires de l'ex- Union soviétique repous-seraient de 5 ans seulement la date du dépassement par les Palestiniens.

تعليقات الفصل السابع

١ – متصرفية جبل لبنان، انظر الفصل الخامس.

٤ – الأرقام محل جدل. وإليكم نموذجاً للتباينات:

المصدر	المسلمون	المسيحيون	اليهود	من بينهم يهود عثمانيون
التعداد العثمانى	515481	69456	?	31671
ماك كارثى (تعداد مصحح)	601377	81012	60000	38754
باشى (مصادر مختلفة)	525000	70000	94000	?

٥ – انظر الفصل الثامن.

٨ – ربما كان أكبر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار انخفاضاً فى تسجيل البنات عند الميلاد: ففى عام ١٩٢٦ جرى تسجيل ٤ر٩١ بنتاً فى مقابل كل مائة ولد، وذلك بدلاً من قيمة عادية قدرها ٣ر٩٥، ومن هنا معدل مواليد من المرجح أنه يساوى ٥ر٦٣٠٠٪.

٩ – انظر الفصلين الرابع والثامن.

١٠ – تضم الإحصاءات الإسرائيلية إلى العرب الإسرائيليين سكان القدس الشرقية والجولان. ونحن خلافاً لذلك نضمهم فى هذا الفصل إلى سكان الأراضى المحتلة الأخرى، لأن الأسرة الدولية لم تعترف بأى ضم.

١١ – قانون عام ١٩٥٠، الذى يمنح كل يهودى حق الهجرة إلى إسرائيل، والمستكمل فى عام ١٩٥٢ بقانون المواطنة، الذى يسمح لكل يهودى مهاجر (إلى إسرائيل) بأن يصبح مواطناً منذ وصوله.

١٣ – انظر الفصل السادس.

١٤ – م. ع. ڤايتس، عضو حزب المابام – الماباى الحاكم فى عام ١٩٦٧، تصريح أدلى به لصحيفة «داڤار» (الصحيفة اليومية الرسمية لاتحاد الهستادروت النقابى)، ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧.

١٥ – ٨٤٠٠٠٠ وفقاً لإلياس صنبر و ٧٥٠٠٠٠ وفقاً لجورج قصيفى. ويقدم الإسرائيلى روبيرتو باشى التقدير الأكثر انخفاضاً: من ٦١٤٠٠٠ إلى ٦٢٦٠٠٠.

١٧ – «يذكر أحد العرب الإسرائيليين أن أسلوب العرب لا يبرر التدابير القمعية المتخذة ضدهم. فسيادة دولة إسرائيل والمؤسسات العامة أو السلطة نفسها لم تتعرض قط لتهديد. وقد راعى

عرب إسرائيل سكينة شبه تامة منذ أن أصبحوا مواطنين فى دولة إسرائيل. وأكثر من ثلاثة أرباع أصوات العرب تذهب فى الانتخابات لأحزاب صهيونية: المابای والمابام وأحدوت هاعفودا وحيروت، بل ولأحزاب دينية يهودية. أما حزب ماكى (الحزب الشيوعى)، والذى يدافع على الملأ عن مصالح العرب، فإنه لم يحصل إلاّ على خمس أصوات (العرب). وتكمن ذروة المفارقة فى تمديد الحكم العسكرى المفروض على العرب، والذى تم التوصل إليه بمساعدة أصوات البرلمانيين العرب». صبرى جريس، «العرب...»، مصدر سبق ذكره.

١٨ – اللهم إلاّ لأداء فريضة الحج إلى مكة، والذى أجيز منذ وقت قصير.

١٩ – عدد الفلسطينيين المقيمين خارج حدود الانتداب (أى خارج إسرائيل وغزة والضفة الغربية).

٢٠ – معدل وفيات العرب الإسرائيليين الضعيف، ولكن عدم التساوى مع اليهود.

معدل وفيات الأطفال (٠/٠٠)	اليهود	العرب	تفوق معدل وفيات العرب
1972 - 1970	1 6,8	26,1	55%
1982 - 1980	11,0	22,4	104%
1987	7,8	15,3	96%

المصدر: الملخصات الإحصائية الإسرائيلية رقم 41، القدس، 1990.

٢١ – انظر الفصل الثامن.

٢٢ – فى الفصل الثامن، نشرح السبب فى عدم تأثير هذه العوامل فى الأراضى المحتلة.

٢٦ – المنطقة الشمالية، ما عدا الجولان. وفى الشمال بالمعنى الواسع (الجليل، حيفا، شارون)، أى فى مجمل المناطق التى يعتبر العرب ممثلين فيها بقوة، تبلغ نسبة اليهود ٦٥٪.

٢٧ – فى النواحى التى تضم الواحدة منها أقل من ٢٠٠٠٠ نسمة، نجد (فى نهاية عام ١٩٩٠) ٤٣٧٠٠٠ عربى فى مقابل ٣٢٦٠٠٠ يهودى.

٢٨ – دون القدس الشرقية والجولان.

٣٠ – إن هذا الإيقاع للانخفاض يفترض أن غير اليهود سوف يمثلون فى عام ١٩٩٣ نسبة ٢ر٩٪: وتجب مقارنة هذه النسبة بنسبة الـ ٣ر ١٧٪ التى يتوقعها روبيرتو باشى بالنسبة للسنة نفسها.

٣١ – الواقع أن باشى قد بالغ فى تقدير النمو النسبى للعرب، فهو يرى أنهم سوف يمثلون نسبة ٢ر١٥٪ من سكان إسرائيل والقدس الشرقية والجولان فى منتصف عام ١٩٩٣.

٣٢ – ٩٪: استقراء لما سيكون عليه الحال فى عام ١٩٩٣ وهو مستمد من إسقاط لما كان عليه الحال فى عام ١٩٥٨؛ ٣ر ١٧٪ : رقم يتوقعه باشى بالنسبة لعام ١٩٩٣، ماعدا القدس الشرقية والجولان.

٣٦ – على مدار فترة أطول، بين عامى ١٩٧٨ و ١٩٨٩، سجلت إسرائيل ٢١٧٠٠٠ مهاجر بالنسبة لميزان هجرة قدره ٨٥٠٠٠، أى ٣٩٪.

٣٩ – من الممكن اجتياز المليون بسرعة، لأن تقديراً منخفضاً يشوب هذه التوقعات، التى أجريت على أية حال فى عام ١٩٩١، فى ختام ست سنوات من النهوض المستمر للخصوبة العربية : وهى تلخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة بالنسبة للمسيحيين، ولكن ليس بالنسبة للمسلمين.

٤٠ – فى الكيان المؤلف من إسرائيل والأراضى المحتلة، أدى وصول ٥٠٠٠٠٠ مهاجر إضافى من الاتحاد السوفييتى السابق إلى تأجيل التجاوز من جانب الفلسطينيين لمدة خمس سنوات فقط.

الفصل الثامن

الجماعة المسيحية فى القرن العشرين: اضمحلال أم خسوف؟

> «يتألف تاريخ العروبة من حلقات متصلة، ويشكل سلسلة مترابطة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رابطة اللغة والثقافة العربيتين فى هذه البلدان هى أوثق مما فى أى مكان آخر من العالم، وأن التسامح الدينى قد ولد وترعرع وقام دائماً بين المنتمين إلى مختلف الأديان فى البلدان الشقيقة المجاورة، فسوف يتأكد المرء من أن عبارتى - «المصريون عرب» - تتناسب مع صلات القربى هذه».
>
> مكرم عبيد،
>
> مناضل قبطى بحزب الوفد (١).

كانت الإمبراطورية العثمانية ملائمة لديموغرافيا الأقليات المسيحية واليهودية؛ لكن الفاصل الكولونيالى وخاصة الاستقلالات كانت غير ملائمة لها. فاليهود سوف يختفون تقريباً من البلدان العربية تحت الضغوط المتعددة التى ستحيط بإنشاء إسرائيل فى عام ١٩٤٨. على أن أى تحول سياسى لن يتمكن من تمييز تاريخ الجماعة المسيحية الشرقية بالدقة نفسها. فهذه الجماعة لم تعرف لا المذابح ولا عمليات الطرد التى أدت إلى محو الجماعة المسيحية من تركيا. فعلى العكس من ذلك، تبدأ فى الانقلاب بهدوء، لصالح المسلمين، الدينامية القديمة التى كان ثقل الجماعة المسيحية قد زاد بفضلها على نحو بطىء فى ظل السلطة الإمبراطورية. ومنذ الحرب العالمية الأولى، يلعب التقاء استثنائى دوره: التقاء معدلات الوفيات، وتلاحق معدلات الإنجاب والزواج. وتصبح هذه السمات الكبرى للديموغرافيا المتمايزة ذات أهمية حالية أيضاً.

تفتت الإحصاء وذبول الجماعات المسيحية

من بين جميع الدول العربية التى تحيا فيها الآن جماعة مسيحية، فإن مصر وحدها هى التى كانت توجد فى القرن الماضى ضمن حدودها الحالية تقريباً. وتسمح تعداداتها بتتبع تقدم الطوائف الثلاث منذ عام ١٨٨٢. وفى المقابل، فى شرقى السويس، نجد أن خطوط الحدود، المألوفة اليوم، قد ولدت من تمزيق الإمبراطورية العثمانية، ثم من حرب ١٩٤٨ بين إسرائيل وجيرانها. وفى أماكن كثيرة، نجد أن التقسيم الإدارى العثمانى قد اقترن على نحو بالغ الدقة بخطوط التوزع العرقية – اللغوية أو الدينية. أما التقسيم الذى فرضته الدول المنتدبة فقد استجاب لاعتبارات عسكرية واقتصادية بدلاً من الاعتبارات السوسيولوجية؛ وقد اخترق الجماعات البشرية المتجانسة. وسعياً إلى اقتسام مناطق النفوذ والأسواق والبترول، أعاد المهندسون البريطانيون والفرنسيون تشكيل الولايات العثمانية تشكيلاً جديداً مختلفاً. على أن بوسع المرء مع ذلك إعادة تكوين صورة السكان للعصر فى التقسيم الحالى بين الدول القومية (الجدول VIII .1) بفضل التعدادات التى تتابعت من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤.

لقد جمعت الإدارة التركية حشداً من البيانات إلاّ أنها لم تستشعر أية ضرورة لنشرها(٢)؛ وهكذا ظلت صورة المجتمع سراً. وأخيراً تؤدى أعمال عالم تركى معاصر (٣) إلى كشف الستار عن هذه الأرقام التى رقدت فى زوايا النسيان منذ ثلاثة أرباع قرن. وهى تصحح، بشكل جد محسوس بالنسبة لهذا الموضع أو ذاك، الأرقام التى كانت الأدبيات قد روجتها حتى الآن، والتى ترجع كلها إلى مراقبين أوروبيين. فهؤلاء المراقبون، وهم أعضاء فى جمعيات علمية أو دبلوماسيون، كانوا على علم بوجود بيانات تركية، إلا أنهم لم يكونوا على علم بنتائجها المحددة. وبحكم التعاطف الشخصى، أو لمجرد أنهم كانوا يجدون بشكل أسهل مقدمين للمعلومات بين صفوف النخبة المسيحية، فقد كانوا ميالين غالباً إلى التهويل من ثقل الجماعة المسيحية (٤). على أن البانوراما التفصيلية التى رسمتها البيانات العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى هى آخر بانوراما تقدم صورة كلية لتوزيع الطوائف.

ولتوضيح هذا التوزيع ولتقديم بانوراما مماثلة فى نهاية القرن العشرين، كان يتعين على الدول القومية التى قامت على الأراضى العربية للإمبراطورية أن تستأنف العرف العثمانى فى إحصاء البشر بحسب ديانتهم. والحال أن بعض الدول تفعل ذلك، وبعضها الآخر لا يفعله.

وسوف يحتفظ العراق وسوريا بهذه العادة حتى صعود حزب البعث إلى السلطة فى الستينيات: فالعلمانية التى يعلنها تزيل من الإحصاء كل إشارة طائفية. وفى لبنان، حيث يعتبر الدين المعيار الأساسى لتوزيع الأدوار السياسية والمهام الإدارية، فإن ما يجرى تحريمه منذ انتهاء الانتداب الفرنسى (١٩٤٣) هو مجرد إجراء تعداد، ذلك أن شفافية الأرقام قد أصبحت موضع رهان كبير. أمّا إسرائيل، جد الدقيقة فى تحديد الانتماء الدينى لرعاياها، فإنها تفقد الحرص على التفاصيل بالنسبة للأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧. وفى النهاية، فإن مصر والأردن وحدهما هما اللذان حافظا على تراث إحصاء طائفى (الجدول VIII .2).

لقد كان فجر القرن العشرين العصر الذهبى بالنسبة للجماعة المسيحية العربية. وكشاهد على تأصل عميق وعلى إرادة فى النهضة [٥]، فإنها تسهم فى تعزيز الفكرة الجديدة عن الأمة العربية. والواقع أن احتضار الإمبراطورية قد جر إلى احتضار جماعة مسلمة (أمة إسلامية) منظمة، كانت قد أبقت لزمن طويل على المسيحيين فى وضعية الذميين المتناقضة: خضوع حقوقى مع صدارة اقتصادية وثقافية. وكان الخط الشريف لعام ١٨٣٩ وتنظيمات عامى ١٨٥٦ و١٨٦٧ قد استعادت منذ وقت قصير المساواة فى الوضعية. لكن هذه الإصلاحات التى سرعان ما يلغيها السلطان عبد الحميد سوف تسير فى الاتجاه المضاد للهدف الأصلى منها وسوف تكون مصحوبة بتوترات. وفى فضاء عالم يتطلب إعادة صوغ له، يتقدم خليفتان رئيسيان. ولا يعد لا الأول ولا الآخر بمستقبل سار للجماعة المسيحية العربية: فالأول يخطط لبناء تركيا، والآخر يخطط لإعادة تنشيط الإسلام.

وفى مواجهة النزعة القومية التركية الوليدة، التى تحذف من مشاريعها التجديدية الأراضى العربية للإمبراطورية، وفى مواجهة الأصولية الإسلامية التى تستبعد من المناقشة غير المسلمين، تطرح الطبقة المثقفة المسيحية المشرقية أشكالاً أخرى للتجمع القومى. إن بعض «أنصار النزعة العثمانية» سوف يحتفظون بتعلقهم بـ «الرجل المريض»، الذى يسعون إلى رد الحياة إليه؛ ومن هؤلاء، مثلاً، سليمان البستانى، الوزير وعضو الدييت العثمانى [٦]. وفى نهاية القرن العشرين التى نعاصرها، والثرية بحالات التحرر من الأوهام فيما يتعلق بالدولة القومية فى الشرق الأدنى، ربما تستعيد النزعة العثمانية شيئاً من فتوتها: إن عدداً من المثقفين المسيحيين أو اليهود المنحدرين من الإقليم يحيون فى كتاباتهم إمبراطورية متعددة القوميات يحنون إليها [٧]. كما أن عدداً من النزعات القومية المنشطرة عن المركز، كالنزعة القومية اللبنانية أو الآشورية، إلخ، قد اكتسبت عدداً من الأنصار منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

وعلى نطاق أوسع، سوف يبرز عدد من الرواد الذين يعلنون تأكيداً لهوية جديدة عبر الارتباط باللغة المشتركة بين المسيحيين والمسلمين: وهكذا تولد «العروبة» بين الطائفتين بشكل متزامن. ويكتب المسيحى بطرس البستانى (١٨١٩ – ١٨٨٣): «ياأبناء العرب، فلتعلوا من شأن اللغة العربية وسوف يكتب لكم البقاء! لقد كان العرب ملوكاً تحت الخيمة؛ فهل تصبحون عبيداً فى قصوركم ؟».

إن المكاسب التى كان بوسع الجماعة المسيحية الشرقية انتزاعها من صلاتها مع أوروبا، والانفتاح الاقتصادى، ومفهوم العصرية، لم تكن قد أدت بعد إلى الإساءة إلى علاقاتها ببيئتها المسلمة. والواقع أن التدخل الفرنسى والبريطانى فى شؤون الإقليم لم يكن يتميز آنذاك بالاتساع الذى سرعان ما سوف يتميز به فى ظل الانتداب. وتستفيد الديموغرافيا المسيحية من هذا الوضع الملائم، ويصل ثقلها إلى أوج لم تعرفه قط منذ زمن الحملات الصليبية: ٤ر٢٦٪ من سكان الشرق الأدنى (سوريا ولبنان وفلسطين فى عام ١٩١٤) و٠ر٨٪ فى مصر، ولكن مجرد ٢ر٢٪ فى العراق حيث كان عدم التسامح المغولى، قبل ذلك بخمسمائة سنة، قد أدى إلى تهميش الجماعة المسيحية بشكل لا يمكن علاجه. وفى هذا البلد الأخير، تتقدم الجماعة المسيحية بشكل طفيف حتى عام ١٩٦٠ (١ر٣٪). وفى البلدان الأخرى، تهبط نسبتها: ١ر١٠٪ فى مجمل الشرق الأدنى [8] (لبنان، سوريا، إسرائيل، الأردن) فى عام ١٩٩٠، و٨ر٥٪ فى مصر. ولم يكن ذلك نتيجة لأى عنف، بل نتيجة للتفاعل الحر للقوى الديموغرافية (الجدول 3. VIII، الشكل 1. VIII).

نحو المساواة الطائفية فى وجه الموت

فى مصر [9]، فى بداية القرن كما قبل ذلك [10]، كان المسيحيون يتمتعون بحالة صحية أفضل من حالة المسلمين. ونحو عام ١٩٠٠، كانت خريطة معدل الوفيات وخريطة الجماعة المسيحية تكشفان عن تعارض حاد، فالأقاليم الأكثر مسيحية هى الأقاليم الأضعف فى معدل وفيات أطفالها، أكان ذلك فى الدلتا أم فى صعيد مصر (الجدول 4. VIII). فهل يعنى ذلك أن الجماعات السكانية المسيحية كانت تتميز بمعدل وفيات أضعف، أم أنها ببساطة كانت تسكن الأقاليم المتميزة بمعدل وفيات معتدل بالنسبة لجميع السكان، أكانوا مسلمين أم مسيحيين؟

ومع الوقت، تضيق الهوة بين الطائفتين: فنحو عام ١٩٢٠، يختفى معامل الارتباط

الإقليمى، لكن تفوق معدل وفيات المسلمين لا يختفى على الأرجح. والواقع أن بيانات الحالة المدنية، المنشورة اعتباراً من عام ١٩٤٤ بحسب الانتماء الطائفى، تقدم البرهان [١١] على أن هذا المعدل المتفوق للوفيات قد دام فى مصر (الجدول VIII .5). ويقدر انخفاض معدلات الوفيات جد المرتفعة التى عرفها الماضى، فإن ميزة المسيحيين على المسلمين تخف. ويبدو [١٢] أنها قد اختفت خلال السبعينيات.

وفيما يتعلق بفلسطين، فإن لدينا معلومات أدق [١٣]، وذلك بفضل سلاسل بيانات الحالة المدنية التى ترجع إلى زمن الانتداب، والتى كفلت إسرائيل مواصلتها بعد عام ١٩٤٨. ففى السنوات السابقة على إنشاء إسرائيل، كان متوسط العمر بين المسيحيين يزيد بنحو عشر سنوات عن متوسط العمر بين المسلمين والدروز [١٤]. ومن المؤكد أن الطائفة المسيحية قد استفادت من ميزة جغرافية، تتمثل فى انغراسها الحضرى الراسخ: ٧٥٪ يسكنون المدن من بين اليهود والمسيحيين فى عام ١٩٣١، فى مقابل أقل من ٣٠٪ من بين المسلمين والدروز [١٥]. كما أن المسيحيين كانوا يتمتعون بميزة سوسيولوجية: فمعدل تعليمهم المدرسى فى عام ١٩٤٣ قد بلغ بالفعل نسبة ٩٠٪، فى مقابل مجرد ٢٥٪ بالنسبة للمسلمين [١٦]. وتشير الإحصاءات الإسرائيلية إلى أن المسلمين، حتى فى أيامنا حيث انخفض معدل وفيات الأطفال بين الطائفتين انخفاضاً ملحوظاً [١٧]، لم يلحقوا بالمسيحيين تماماً (الجدول VIII .6). على أن تخلفهم لا يزيد عن أربع سنوات ونصف سنة، بينما كان يتجاوز ٩ سنوات فى ١٩٧٠ - ١٩٧٤.

أمّا لبنان الستينيات فهو يقدم صورة تباينات أكثر وضوحاً بشكل محسوس، مع تفوق فى نسبة وفيات أطفال المسلمين بنسبة ٥٠٪ (الجدل VIII .7). والواقع أن العوامل الاجتماعية والجغرافية للنمو المتمايز قد تميزت بتوزيع متباين. وإذا كان الشيعة اللبنانيون قد تمكنوا من توحيد صفوفهم تحت راية المستضعفين فى الأرض [١٨]، فإن ذلك لا يرجع إلى مجرد أن عقيدة الشيعة كانت دائماً إسلاماً متمرداً. فمع ركيزة فلاحية جردت من الأرض على أيدى إقطاعيات محلية فى الجنوب وفى البقاع، تركز طائفتهم علامات مستوى متدنٍ من النمو أفلت منها الآخرون: العشائرية الكابحة، مستوى الدخل المنخفض، الأمية السائدة، الموقع البعيد عن طرق المواصلات الرئيسية. ومع المطالب المدينية للطبقة العاملة المنظمة فى نقابات، تتجاوب، بشكل عفوى أكثر، صيحات الريف الشيعى؛ على سبيل المثال، الهبة الفلاحية التى قام بها زارعو التبغ فى الجنوب (١٩٧٣).

وفى بداية الثمانينيات، بالمقابل، فى العاصمة،حيث تؤدى الحرب التى تخلق مواجهة بين المسلمين والمسيحيين إلى وضعهم أمام ضغوط وجودية واحدة، يبدو أن المسلمين والمسيحيين قد كفوا عن التمايز. ويشير استقصاء منشور حول الحالة الصحية لسكان بيروت فى عام ١٩٨٤ إلى أن الاستجابات المتقاربة لهؤلاء ولأولئك فى المسألة الصحية [١٩] يمكنها تفسير مستوى متقارب لمعدل وفيات الأطفال والأحداث. وحول عام ١٩٨٠، يموت ٠٫٠٥٠٪ إلى ٠٫٠٦٠٪ من المواليد الجدد قبل بلوغ الخامسة من العمر، بصرف النظر عن الطائفة التى ينتمون إليها [٢٠]. ولا تتوافر أية بيانات لتقدير تباينات معدلات الوفيات بحسب الديانة فى البلدان الأخرى، العراق والأردن وسوريا.

النموذج الأسرى الغربى: أشكال تبنيه وأشكال مقاومته

فى العصر العثمانى، من المرجح أن معدل مواليد المسيحيين كان أعلى من معدل مواليد المسلمين [٢١]. ويشهد القرن العشرون انقلاب العلاقة. فمعدل المواليد بين المسلمين يرتفع، بما يشكل نتيجة لاستقرار الأسرة: فالواقع أن الطلاق يصبح نادراً، بعد أن كان يؤدى فى السابق إلى إبعاد ثلث النساء المسلمات وهن فى ريعان عمر الإنجاب [٢٢]. وفى اللحظة نفسها، يبدأ المسيحيون فى الحد من عدد مواليدهم.

مصر

فى مصر، منذ الأربعينيات، يتجاوز معدل المواليد بين المسلمين معدل المواليد بين المسيحيين بنسبة ٣٠٪. ومع تواصل ملحوظ، تستمر الهوة أيضاً فى أيامنا (الجدول 8. VIII) [٢٣]. والاستثناء الوحيد هو فترة ١٩٥٤ - ١٩٥٨. ففى بداية الثورة الناصرية، ينخفض معدل المواليد بين المسيحيين بينما يبقى على حاله بين المسلمين. وكانت القطيعة السياسية جذرية بما يكفى لإثارة الفوضى فى الإدارات، ويمكننا تصور أنها قد أدت إلى اضطراب تسجيل الحالة المدنية، وليس إلى اضطراب معدل المواليد نفسه. ولكن، إن كان الأمر كذلك، فلماذا حدث ذلك بالنسبة للبعض وليس بالنسبة للبعض الآخر ؟ إن بعض الأحداث تؤثر على معدل المواليد، لأنها تحفز آلاماً جماعية. والناصرية تمر مر الكرام على المسلمين، الذين لا تهدمهم من حيث كونهم طائفة، لكنها تدفع المسيحيين إلى وقف التكاثر، وهو علامة بين علامات أخرى على انزعاجهم.

وكانت السلالة التى أسسها محمد على فى عام ١٨٠٥ قد حافظت، خلال قرن ونصف قرن، على مناخ وفاق طائفى. وقد شارك الأقباط المصريون فى بناء الاستقلال المصرى بدعمهم لانتفاضة أحمد عرابى (١٨٨٢)، ثم بتقديمهم كوادر ومناضلين إلى حزب الوفد الذى أسسه سعد زغلول (٢٤). لكن ثورة ١٩٥٢ تستثير تحفظهم: فقد كان بين الضباط الأحرار عدد كبير من المتعاطفين مع الإخوان المسلمين، بل إن عدداً كبيراً منهم كانوا أعضاء سابقين فى الجماعة، كأنور السادات، الذى سوف يصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد. وسرعان ما تحد الجمهورية من قوتهم. فهى، لكونها علمانية، تحل المحاكم الطائفية، بما يؤدى إلى إخضاع المسيحيين لقانون مدنى مصطبغ بالشريعة الإسلامية. وهى، لكونها مؤيدة للمساواة، تعزز مكافحة الأمية بفرضها دراسة القرآن على طلاب التعليم العام. ومصر التى سرعان ما تسمى اشتراكية فى ظل رئاسة جمال عبد الناصر تصدر قوانين تأميم (١٩٦٤) وقوانين إصلاح زراعى تؤدى إلى كسر طبقة من رجال الأعمال ومن كبار ملاك الأرض ذات مكون مسيحى قوى (٢٥).

وعندئذ فإن الانزعاج المسيحى يجر إلى «عودة» جماعية إلى لبنان لجماعة مسيحية مستقرة (فى مصر) منذ القرن السابع عشر. أمَّا الأقباط، الراسون على ضفاف النيل منذ زمن سحيق، فهم يختارون شكلاً آخر للانكفاء الطائفى: إنهم يهجرون الأقاليم التى تتميز فيها أعدادهم بأعلى مستوى من الضعف للتجمع فى القاهرة وفى ملاذاتهم فى صعيد مصر - المنيا وأسيوط وبنى سويف - حيث تتعزز كتلتهم. وبعد ذلك بجيل، تصبح مدن الأقاليم هذه مراكز نشاطية إسلامية وإبعاد طائفى. وتؤدى اليوم حالات إحراق كنائس ومتاجر الأقباط إلى دفعهم إلى التجمع فى أحياء وإلى شق الطريق إلى المنفى. وبعد سبعة قرون من المملوك بيبرس، يتجدد الخوف الطائفى.

لقد تفوق الأقباط على المسلمين فى تقليل معدل مواليدهم فى أزمنة لم تكن أساليب منع الحمل الحديثة موجودة فيها. وعندما تظهر هذه الأساليب، فإنهم سوف يبقون ببساطة على تفوقهم، لكنهم لن يزيدوه. ولا مراء فى أنهم كانوا أقل ميلاً من المسلمين إلى التجديد فى هذا المجال. وفى ٢٦ مارس ١٩٦٤، أعلن الرئيس عبد الناصر أمام مجلس الأمة تأييده لسياسة حد من المواليد. وشأنه فى ذلك شأن الرئيس التونسى بورقيبه فى اللحظة نفسها، اجترأ على تحدى التقاليد، سابقاً بذلك البلدان العربية الأخرى بعشر سنوات. والحال أن الهيراركية القبطية قد استقبلت بفتور هذا التوجه، الثورى بالنسبة لذلك الزمن. وهى، فى ذلك، لم تفعل

سوى مشاطرة أخلاق الكنائس المسيحية الأخرى التى يمثل منع الحمل بالنسبة لها انتهاكاً لوصايا مقدسة مختلفة. لكن قلق الأقلية الحاد يعزز تحفظها، فقد أعلن أحد ممثليها البارزين: «إننا نتقاسم بالفعل المصاعب التى تواجهها جميع الأقليات فى العالم، فهل يتعين علينا زيادة هذه المصاعب بتقليل أعدادنا ؟ إننا لو شجعنا تحديد النسل، لتعرضنا لخطر انتحار عرقى»[٢٦].

ولابد هنا من مناقشة مسألة تعرضت لنقاش حاد: هل تكذب علينا الإحصاءات المصرية؟ كيف لا يكون عدد الأقباط سوى ثلاثة ملايين فى هذا البلد الذى يواصل حمل اسمهم فى جميع اللغات، ماعدا اللغة العربية ؟ إن إيجيبت، تسمى بالعربية مصر، وهو ما كان يعنى فيما مضى «حاضرة» أو «تخوم بلد». لكن اسمها فى جميع اللغات الأخرى يكشف عن نسب اشتقاقى واضح أعاد اكتشافه بالفعل فولنى، الرحالة العلامة لعصر التنوير. فقد قال: «يزعمون أن اسم الأقباط يرجع إلى مدينة كوبتوس التى لاذوا بها، خلال أعمال الاضطهاد التى مارسها اليونانيون؛ لكننى أعتقد أن له أصلاً طبيعياً أكثر وقديماً أكثر. ويبدو لى أن المصطلح العربى، قبطى، هو تحوير واضح للمصطلح اليونانى، أيجوپتيوس، اجيپسيا»[٢٧]. فهل يمكن من ثم أن نصدق أن مصر التى صاغتها دائماً، بعيداً عن الاسم، ثقافة هؤلاء السكان الأوائل المتمسكين بنسب فرعونى، لا تضم منهم اليوم غير نسبة تتراوح بين ٥٪ إلى ٦٪ من سكانها ؟

فى كتاب جيد التوثيق من جهة أخرى، يمكن للمرء إذاً أن يقرأ دون شكل آخر للبرهنة، مادام هناك اعتراف واسع بتزييف الإحصاءات: «إن تعداد عام ١٩٧٦ يقدرهم بمليونين ونصف مليون نسمة، وهو رقم من المؤكد أنه غير مناسب. ولا مراء فى أن الواقع أقرب من ٧ مليون إلى ٨ مليون» [٢٨]. وهناك دراسة أخرى مكرسة للأقلية المسيحية الأوفر عدداً فى عالم الإسلام العربى تستبعد بظاهر اليد نفسه قرناً من العمل الإحصائى فى مصر: «إن مسألة عددهم مسألة مرتبكة. فتعداد عام ١٩٨٦ يرى أنهم يشكلون نسبة ٨٪ من المصريين (أى نحو ٣٢٠٠٠٠٠ نسمة) [٢٩]، وهو ما يعتبر أفضل من نسبة الـ ٦ر٣٪ التى يتحدث عنها تعداد ١٩٧٦، إلاّ أنه تبقى نكتة: إن التلاعبات المنهجية إلى هذا الحد أو ذاك من جانب الموظفين المسلمين وحجز المعلومات من جانب الأقباط تجعل هذا الرقم (رقم تعداد عام ١٩٨٦) قليل المصداقية. والحال أن الكنيسة، على أساس سجلات التعميد التى تحوزها، تعلن وجود ١١ مليوناً من المؤمنين، لكن التقدير يبدو هذه المرة مفتعلاً. ونحن نقترح، كافتراض متوسط، عدد

٧ إلى ٨ مليون قبطى» (٣٠). أمّا الصحافة الغربية الكبرى، التى تجد صعوبة فى الاعتراف بأن الأقلية أقلية، فهى غالباً ما تردد هذه التقديرات المبالغ فيها. والميل إلى التضخيم العددى ليس جديداً. وقد أوضح بالفعل بيير روندو فى تعليقه على تقديرات ر.پ. إدلبى، الذى ذهب إلى أن مصر لابد وأنها كانت تضم ٣ مليون مسيحى فى عام ١٩٥٢: «إن هذه الأرقام تبدو جد مفتعلة(٣١)».

وإذا كان هناك تقليل إحصائى، فإنه يكتسب على أية حال استمرارية ملحوظة: فالواقع أن التعدادات تشير، منذ عام ١٨٨٢، إلى اضمحلال يتميز بانتظام تام. على أن النظم السياسية التى تتعاقب كانت أكثر تقلباً تجاه الأقباط. ولو كانت قد سعت إلى التلاعب بالأرقام، فإن بعض الحكومات كان من شانها أن تقدر عدد الأقباط بأعلى مما هو عليه فى الواقع، وكان من شأن البعض الآخر تقدير هذا العدد بأقل مما هو عليه بالفعل. فالانتداب البريطانى مثلاً كان سيجد مصلحة فى تضخيم تقدير عدد أفراد الطائفة التى كان يعتمد عليها أحياناً، خاصة فى تجنيد موظفيه. وبالمقابل، فى يومنا هذا، فإن المعنيين أنفسهم قد يميلون إلى إخفاء هويتهم الدينية فى كل مكان يخشون فيه من تجليات إعادة أسلمة تعتبر فائرة أحياناً. وإذا كانت الأرقام زائفة، فإننا نتوقع من ثم قطيعة للاتجاهات التى ترسمها قبل وبعد النظام الناصرى. إلاّ أنه لا وجود لمثل هذه القطيعة، وهو ما يثبت قربها من الحقيقة.

وهناك دليل أكثر حسماً: إن سجلات الحالة المدنية من جهة والتعدادات من الجهة الأخرى تعتبر منسجمة تماماً عندما تسجل الأولى معدل مواليد أكثر ضعفاً بين الأقباط وعندما تسجل الثانية نمواً أكثر بطئاً بينهم. ولو كانت الطائفة القبطية تضم اليوم ثمانية ملايين نسمة بدلاً من ثلاثة ملايين، فإن مواليدها السنويين الـ ٩٠٠٠٠ يتطابقون مع معدل مواليد قدره ٠.١١٪ بدلاً من ٠.٣٠٪. ومثل هذا المعدل جد المنخفض للمواليد من شأنه أن يكون غير منسجم بالمرة مع بقاء ثقل الأقباط فى السكان. وقد يكون، كما يزعم البعض، أن بعض الأقباط يخفون هويتهم الدينية، وقد يكون أيضاً أن عدم وضوح للأسماء يدفع بعض موظفى التعداد إلى تسجيل الديانة الإسلامية من تلقاء أنفسهم على البطاقات. ولكن كيف يمكن لهذا الإخفاء أن يؤثر بتواتر واحد وعلى الأجل الطويل على عمليتين مستقلتين، هما عملية التعداد الدورى للسكان وعملية تسجيل المواليد، والتى تجرى من جهة أخرى فى ذات الوقت تقريباً الذى يجرى فيه عمل دينى تماماً، هو التعميد ؟

إن الاضمحلال البطىء لأقباط مصر، الذين هبطوا من نسبة ٨٪ إلى نسبة ٦٪ فى قرن

واحد، ليس فى الواقع نتيجة لأية مؤامرة إحصائية؛ إنه النتيجة الديموغرافية لأشكال التقدم الاجتماعى التى حققتها طائفتهم [٣٢]. والأمثلة متوافرة، وليس فى الشرق وحده، على طوائف تصبح موضعاً لمزاد ديموغرافى، وكأن الأقلية لابد لها من أن تقترب أكثر ما يمكن من الأغلبية حتى تستحق الاهتمام. إن الكولون الفرنسيين فى الجزائر، واليونانيين والأرمن فى تركيا، والآشوريين - الكلدانيين فى العراق، قد بالغوا كلهم فى تقدير قواهم؛ وقد تجرعوا كلهم الكأس المر من جراء ذلك.

الفلسطينيون

إن ما كان فارقاً خفيفاً فى مصر يصبح تبايناً صارخاً لدى الفلسطينيين: فمعدل المواليد يفصل بين الطوائف فصلاً جذرياً. وقد رمز إنشاء إسرائيل إلى قطيعة فى تاريخ السكان الفلسطينيين. فنحن نعرف كيف أنه قد أخل بتوزيعهم السكانى وبوسعنا أن نتصور دون صعوبة أنه قد مس مجمل التكاثر. لكن الانقلاب قد مس أيضاً الإحصاء، بحيث إن المنحنيات التى ترسمها المؤشرات تمزج بالتغير الديموغرافى آثار التحول الإدارى. وقبل عام ١٩٤٨، كانت السجلات البريطانية ترصد مواليد كل سكان فلسطين. ومنذ عام ١٩٤٨، تقدم الإدارة الإسرائيلية بيانات الحالة المدنية بحسب الطائفة [٣٣]. وهى تتصل بذلك الجزء من الفلسطينيين الذى يحمل الجنسية الإسرائيلية (١٢٪) وتتصل، بعد عام ١٩٦٧، بفلسطينيى الأراضى المحتلة (٢٩٪).

وهذه السلسلة الطويلة بشكل غير عادى تقدم لنا بعض اليقينيات. فأولاً، منذ سبعين سنة على الأقل، كانت الأسر المسيحية فى فلسطين محدودة أكثر بكثير من الأسر الدرزية، وكانت هذه الأخيرة محدودة أكثر من الأسر المسلمة الأخرى. وفى ظل الانتداب، ترك الانتماء إلى الطوائف بصمته القوية على المعايير الأسرية: فقد كان المسيحيون ينجبون فى المتوسط ٥ أطفال وكان المسلمون ينجبون ٨ أطفال. وفى ظل الإدارة الإسرائيلية، تتسع الهوة فى البداية قبل أن تضيق. وفى بداية السبعينيات، ترتفع الخصوبة بين المسلمين إلى أكثر من ٩ أطفال للمرأة [٣٤]، كما لو أن الأسرة الكثيرة العدد تقدم لهم ملاذاً بشكل أكثر تواتراً مما هو الحال بالنسبة للمسيحيين، الذين تنخفض خصوبتهم على العكس من ذلك.

وفى أن واحد تتركز التعاسات والمرارات فى الضفة الغربية وغزة. ويحبط تمردهما ما

يعتقد الديموغرافيون أنه قانون: فالواقع أن السكان فيهما يحتفظون فى آن واحد بثلاثة أرقام قياسية يستحيل أصلاً أن تتساوق: التعليم [٣٥]، الطابع الحضرى (١٠٠٪ فى غزة)، وخصوبة الإنجاب (الجدول 9. VIII). وفى ظل أى نظام آخر، أى حيث لا تبلغ التوترات الطائفية والسياسية تلك الدرجة من الحدة، فإن تقدم التعليم المدرسى وانخفاض معدل الخصوبة يسيران جنباً إلى جنب. وينجم هذا وذاك عن تعديل للأدوار الأسرية، خاصة لوضعية الطفل: إن دخولاً سابقاً للأوان إلى الحياة العملية كان يناسب فى السابق ذرية وفيرة العدد؛ وتكاليف مدة دراسة طويلة تثنى منذ ذلك الحين الوالدين عن ذلك. وفى الأراضى المحتلة، فإن التحمل الجزئى لنفقات التعليم من جانب وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، وهى وكالة متخصصة من وكالات الأمم المتحدة، يخفف العبء الاقتصادى الذى يمثله أطفال المجتمعات المعاصرة.

على أن ذلك لا يعنى أن الأسرة الوفيرة العدد تشكل، فى الضفة الغربية كما فى غزة، مصدر الثراء الذى كانته فى أرياف الزمن السابق. فالأطفال الذين يتراوح عددهم بين ثمانية وتسعة والذين تلدهم امرأة فلسطينية لا يمثلون بعد مورداً اقتصادياً، بل يمثلون فعلاً سياسياً[٣٦]. وفى عام ١٩٨٩، حينما أخذت تتصاعد منذ أكثر من عام صيحات الانتفاضة وحينما بدا أن علمانية منظمة التحرير الفلسطينية تتلاشى أمام إسلامية حماس، فإن الخصوبة تصل فى غزة إلى قمة مطلقة: فالمرأة الفلسطينية، إذ تنجب فى تلك السنة ٩٫٥ أطفال فى المتوسط[٣٧]، تقدم مساهمة كبرى فى معركة البشر.

وينجب الفلسطينيون الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية أطفالاً أقل مرتين إلى ثلاث مرات بحسب ما إذا كانوا مسلمين أم مسيحيين. ولم يحدث قط ولا فى أى مكان أن كانت التباينات بين الجماعات بمثل هذه القوة. وما يقررها هو الوضعية السياسية، بأكثر مما يقررها الانتماء الطائفى. فعلى رأس القائمة تجىء غزة، المدينة – المخيم حيث يتأبد عدم الاستقرار. ثم تجىء الضفة الغربية، التى تحتفظ على الرغم من كل شىء ببعض سمات بلد مهيكل. ويجىء أخيراً العرب الإسرائيليون الذين يميل جيلهم الثانى، الخصيب اليوم، إلى التوافق مع الاتجاهات السائدة لمجتمع أصبح فيه، بالرغم منه، أحد العناصر المكونة له.

فكيف لا يمكننا الاعتراف فى هذه المنحنيات، حيث تأخذ العناصر المكونة للسكان الفلسطينيين فى التباين اعتباراً من عام ١٩٨٠، بالصدى الذى تتجاوب به الخصوبة مع السياسة ؟ نحو هذا التاريخ يميل فصيل نحو الإخوان المسلمين، ثم نحو سديم الجهاد الإسلامى، لكى ينجب حركة المقاومة الإسلامية، الأشهر تحت اسمها المستمد من

أحرفها الأولى، حماس . والواقع أن أحد المنشورات الأولى التى أعلنت وجودها من خلالها، فى عام ١٩٨٨، هذه الحركة التى تضم شبيبة غزة والضفة الغربية، قد نادى بصدارة الإسلام فى النضال من أجل فلسطين: «لقد تبنت منظمة التحرير الفلسطينية فكرة دولة علمانية وهو ما يتعارض تماماً مع فكرة الدين. إن إسلامية فلسطين تشكل جزءاً من ديننا. وعندما تتبنى منظمة التحرير الفلسطينية الإسلام قاعدة للحياة، فإننا سوف نكون جنودها [٣٨]». وربما بسبب الإهمال، يجد المسيحيون من ثم أنفسهم مستبعدين من الدفاع عن القضية الوطنية بالرغم من بروز ممثليهم السياسيين والمثقفين.

ويتجه المسيحيون بشكل مطرد إلى خيار النجاح الفردى. أمّا السكان المسلمون فى غزة والضفة الغربية من جهة، وعرب إسرائيل من الجهة الأخرى، فهم يعلقون كلهم آمالهم على الأسرة. إلاّ أنه فى حين أن الأوائل يراهنون على البعد الضخم لرابطة الرحم، فإن الأخيرين، والمسيحيين من بينهم خاصة، يراهنون على الصعود الاجتماعى لأبنائهم، والمتناقض، كما نعرف، مع أعدادهم.

لبنان

فى لبنان، يعتبر الإسلام والمسيحية أكثر تركيباً مما فى مصر أو فى فلسطين. وعشية حرب ١٩٧٥، نجد أن موارنة لبنان، المشبعين بروح الجبل، قد حافظوا على خصوبة مرتفعة نسبياً (الجدول 10. VIII). وقد تعززت هذه الخصوبة من جراء خوفهم من أن يصبحوا أقلية فى بلد كانوا يحوزون فيه دستورياً الغالبية النسبية فى البرلمان والولاية الأولى فى الدولة. والواقع أن القانون الانتخابى قد ثبت عدد النواب وتوزيعهم الطائفى [٣٩]، فى حين أن الميثاق الوطنى (١٩٤٣) – وهو اتفاق تم شفهياً بين المارونى بشارة الخورى والسنى رياض الصلح – قد منح رئاسة الجمهورية لمارونى، ورئاسة الحكومة لسنى ورئاسة مجلس النواب لشيعى. وهذه التوزيعات للولايات والسلطات تستلهم توزيعات السكان التى أظهرها تعدادا عام ١٩٢٢ وعام ١٩٣٢ [٤٠]. وكان لابد من انتظار الاتفاقات التى تمت فى الطائف [٤١] فى عام ١٩٨٩، بين الباقين من مجلس النواب اللبنانى الأخير المنتخب فى عام ١٩٧٣، لتعديل بعض هذه الترتيبات، فى ظروف درامية. والحال أن الاتفاق المعقود فى قلب شبه الجزيرة العربية الوهابية، التى تعتبر شكلاً من أشكال الثيوقراطية الإسلامية [٤٢]، والذى كان موجهاً إلى

استعادة الوفاق الطائفى فى لبنان، قد سجل بشكل مكتوب لأول مرة الصدارة المسيحية (رئاسة الجمهورية). وتم منح التساوى البرلمانى للمسلمين [٤٣]، دون تعديل توزيع الولايات العليا.

إلاَّ أنه فى حين أن السياسة قد جمدت الاختصاصات الطائفية، فإن الديموغرافيا الطائفية كانت قد تحركت منذ زمن طويل. وهذا هو السبب فى أن التعداد أصبح عملية لا دستورية، دون أن يتم قط كتابة الحظر الذى ينال منه بأكثر مما حدث مع الميثاق الوطنى نفسه: فلن يتم إجراء أى تعداد للسكان بعد تعداد عام ١٩٣٢، وذلك خوفاً من أن يكشف ما حدث من تغير. ومن المؤكد أنه كان هناك إدراك واسع بإعادات التوزيع الديموغرافية الجارية، مما دفع الرئيس شهاب مثلاً، فى عام ١٩٦٠، إلى تدشين التساوى بين المسلمين والمسيحيين فى تولى الوظائف العامة [٤٤]، لكن هذا الإدراك ظل غير معلن.

ومن المؤكد أن ثقل المسيحيين فى السكان قد انخفض. ونحن نعرف أن معدل مواليدهم قد واصل انخفاضه [٤٥]: فمع خصوبة تصل إلى ٢٫١ طفل للمرأة فى منتصف الثمانينيات[٤٦]، يشكل مسيحيو لبنان أول جماعة سكانية عربية تصل إلى نهاية انتقالها الديموغرافى، فى حين أنهم يحيون على بعد بضع خطوات من جنوب فى ذروة خصوبته، جبل عامل اللبنانى وغزة والضفة الغربية الفلسطينيتين. وقد زاد النزوح من حدة آثار هذه الخصوبة الضعيفة.

على أن المسيحيين مازالوا يشكلون اليوم نحو ٤٣٪ من السكان [٤٧]. والواقع أن انزعاج طوائفهم فى البلدان المجاورة قد أدى، بما يمثل مفارقة، إلى تعزيز وضعهم فى لبنان. وفى الخمسينيات والستينيات، أكد التدفق الواسع للقادمين، خاصة المسيحيين، من سوريا ومصر والعراق أن بيروت ماتزال ملاذاً. وقد عاود التفكير فى ذلك بشير الجميل، الذى انتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، عندما أعلن فى ١٤ سبتمبر ١٩٨٢، يوم اغتياله: «إن لبنان وطن لجميع المسيحيين، للمسيحيين غيرنا إذا ما أرادوا ذلك. ومن واجبنا حمايتهم. إننا نريد أن نبقى دائماً فى هذا الشرق. إن لنا بلداً يمكننا العيش فيه مرفوعى الهامة دون أن يجىء أحد ويأمرنا: «سر على الجانب الأيسر !» كما كان يحدث فى زمن الأتراك. إننا نرفض العيش فى وضعية الذميين» [٤٨].

ولبننة المسيحيين العديدين المهاجرين من البلدان المجاورة تؤدى إلى انغراسهم فى لبنان. وليس مما لا معنى له أن الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ – ١٩٦٤)، ولعله رجل الدولة

اللبنانى الوحيد الذى لبث فوق الزمر، قد ناضل فى آن واحد من أجل الرقى الاجتماعى للمسلمين - على سبيل المثال عندما طلب إلى بعثة، هى بعثة الـ IRFED، إعداد تقرير تفصيلى عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، وهو أول تقرير يوضح التفاوتات الطائفية(٤٩) - وشجع الديموغرافيا المسيحية، بفضل التوسع فى منح الجنسية اللبنانية (٥٠).

أما أفراد الطائفة الأرثوذكسية اليونانية، فعلى غرار إخوتهم الفلسطينيين فى الملة(٥١)، ولكن خلافاً للموارنة، سرعان ما يقتفون أثر التجارب التى تمت فى شمالى البحر المتوسط. وقد يبدو ذلك من المفارقات لأنهم، لكونهم الورثة الروحيين لبيزنطة - ولنزاعاتها مع روما - يعتبرون الأكثر «شرقية» بين مسيحيى المشرق، والأكثر تعايشاً مع جيرانهم المسلمين. فخلال الغزوات الصليبية، ظلوا أوفياء تجاه النظم المحلية الإسلامية. ولكونهم تحديداً لم يكونوا مشبوهين بأى ولاء للكنيسة اللاتينية فإنهم لم يستشعروا أية حاجة للاعتصام بحاجز جبلى وتسنى لهم الازدهار فى الأقاليم الساحلية إلى جانب السنيين. ومن ثم فقد شكلوا معهم نواة المدن الساحلية، بدءاً ببيروت، التى سوف تتسع فى منتصف القرن التاسع عشر بفضل انفتاحهم على أوروبا. ومن بيروت وحلب ودمشق واللاذقية ويافا، سوف يسيطرون على الدوائر التجارية على نطاق الإمبراطورية (العثمانية). وكان بطريركهم، بعد السلطان، أحد أعلى شخصيات النظام مرتبة.

وسوف يؤدى تمزيق المجال العثمانى وإنشاء لبنان الأكبر (١٩٢٠) بشكل أكيد إلى اختزال الصلاحيات السياسية والاقتصادية على حد سواء لأفراد الطائفة الأرثوذكسية اليونانية (٥٢). واستباقاً لمسيحيى الشرق العربى شرقى السويس، سوف يجدون أنفسهم الطائفة الثانية بين الطوائف المسيحية والطائفة الرابعة بين طوائف الدولة الفتية. وإذ يجدون أنفسهم منفصلين من جراء الحدود الجديدة عن إخوتهم فى الدين وشركائهم التجاريين فى فلسطين (١٩٤٨) وفى سوريا (١٩٥٢)، فإنه يتعين عليهم تبديل انتشارهم. وسوف يفعلون ذلك بالاتجاه إلى العالم الغربى.

أما أفراد الطائفة الكاثوليكية اليونانية، القريبون بحكم التاريخ من الأرثوذكس، والذين لم ينفصلوا عنهم إلاً بشكل متأخر (٥٣)، والموجودون مثلهم فى بيروت كما على طريق المرور الذى يربط دمشق بالبحر المتوسط (٥٤)، فإنهم لا يختلفون عنهم كثيراً من حيث الديموغرافيا. وهاتان الطائفتان، اللتان تتقبلان بهدوء وضعهما كأقلية، ممثلتان بشكل واسع فى الطبقة المثقفة والبورجوازية التجارية. وبدلاً من اللعب بورقة العدد، الخاسرة سلفاً، فإنهما تسعيان

إلى تأبيد ميزة وضع أعلى. وهناك تلعب المرأة فى ذلك دوراً اجتماعياً كما تلعب دوراً أسرياً والطفل وريث: ولا حاجة إلى إنجاب أطفال كثيرين.

وعلى الجانب الإسلامي، فإن اتجاهات التكاثر تتباين أيضاً بشكل شديد الوضوح[٥٥]. إن السنة اللبنانيين، «أهل المدن» الذين لا توجد لهم جذور جبلية[٥٦]، هم بالنسبة إلى الشيعة كالأرثوذكس بالنسبة إلى الموارنة. ومنذ عام ١٩٧٠، يبدون أمارات أكيدة للمالتوسية. وفى هذا، بعد جيلين من أجيال اسطنبول[٥٧]، يتجاوزون ببضع مسافات سنيي العالم كله [٥٨]. ولما كانوا أقلية شأن كل الأقليات الأخرى فى لبنان، فإن طائفتهم تستشعر أنها قوية بغالبية لا تنفد فى الإسلام، على أبواب البلد نفسها. ولما كانوا متحررين من هاجس العدد، فإنهم يتبنون بعض قيم المجتمع المتعدد الطوائف لزمن ما قبل الحرب، وهى القيم التى هيمن عليها آنذاك الانفتاح المسيحى على الغرب [٥٩].

وفى الوقت نفسه، فإن الصعود الشيعى كان يتهيأ فى المخدع. فهذه الطائفة التى كانت غالبية فى زمن الفاطميين، والتى تعرضت فيما بعد للمكابدات على أيدى المماليك الذين أجبروها على الانزواء فى جبل عامل والبقاع، إنما تنهض من سبعة قرون من الامحاء. ويتواصل نهوضها الديموغرافى حتى أيامنا: ففى حين أن البلد فى مجمله يبرز باعتباره الأقل خصوبة في العالم العربي، فإن الشيعة الريفيين يبقون على هامش الحركة العامة تقريباً. وفى عيد ميلادهن الثلاثين، تعتبر الزوجات الشابات فى جنوبى لبنان أمهات لـ ٤٫٥ طفل للواحدة[٦٠]؛ وفى الخمسين من العمر، يكون لمن تكبرهن ٨ أطفال. وعلى غير العادة، فقد أخطأ فولني، الذى كان قد تنبأ بفنائهم المرجح: «فى هذا العصر، لا يوجد بعد غير خمسمائة أسرة من المتاولة [الشيعة] الذين لانوا بالمسيف اللبنانى وفى لبنان الموارنة؛ ولما كانوا مبعدين من أرضهم الأصلية، فمن المرجح أنهم سوف ينتهون إلى الفناء وإفناء اسم هذه الملة نفسه معهم[٦١]».

لقد بدأ التوسع الشيعى فى السنوات التى سبقت حرب ١٩٧٥ - ١٩٩٠. فعندئذ تترك بعض الأسر الجيوب الإقطاعية والفقيرة التى تحيا فيها فى الجنوب وفى البقاع لكى تستقر فى ضواحى بيروت. وكانت العاصمة لا تضم من الناحية العملية شيعة قبل إعلان لبنان الأكبر. فقد كان عددهم فيها ٨٠ فى عام ١٨٩٥ ثم ١٥٠٠ فى عام ١٩٢٠.[٦٢] وفى عام ١٩٥٠، كانت طائفتهم ماتزال جد متواضعة: ٢٨٠٠٠ نسمة، أى ٦٪ من السكان [٦٣]. وفى عام ١٩٧٥، قدر

عددهم بـ ٢١٦٠٠٠ نسمة [٦٤]، أى ٢٩٪ بالفعل من سكان بيروت الكبرى. وسوف تؤدى المعارك العسكرية والانهيار الاقتصادى التالى إلى توسيع النزوح.

وبعد عام ١٩٧٥، تحت ضغوط الحرب، تهبط جماعات سكانية مارونية وشيعية من الجبال. وينشىء الفريقان ضواحى بدلاً من احتلال المدينة فى قلبها، والتى تركت للسادة القدماء الأماكن، أى للأرثوذكس اليونانيين فى الجهة الشرقية، والسنة فى الجهة الغربية. إلا أنه لم يكن هناك أى شىء مشترك بين الحركتين. فالموارنة قد وطدوا ووسعوا تماماً انغراساً متحققاً بالفعل منذ بضعة أجيال، فى حين أن الشيعة قد اكتشفوا المدينة عند انسحابهم إليها تحت ضغط المحتل الإسرائيلى. وقد تمكن البعض من الإقامة فى الشقق الفاخرة أحياناً التى هجرها ملاك مسيحيون غالباً، بينما اضطر الغالبية إلى بناء حزام البؤس المتمثل فى الضاحية الجنوبية. وقد قلب الجميع المحتوى الاجتماعى لغربى العاصمة، فى هجرة لم تأخذ أكثر من عشر سنوات. ولا مراء فى أن التاريخ سوف يرى فى هذه الحركة إحدى التحولات الكبرى للقوام السكانى اللبنانى.

وتفشى لنا البيانات اللبنانية بعض الأسرار عن الديموغرافيا المتمايزة. إن الطريق الحديث الذى تهمشت عبره الجماعة المسيحية الشرقية إنما ينبع بشكل أو بآخر من قربها من الجماعة المسيحية الغربية. وكان هذا القرب فى السابق سياسياً، وهو ثقافى منذ هذه اللحظة. فالموارنة والكاثوليك والأرثوذكس اليونانيون لم يكتفوا بتبنى نموذج الأسرة المحدودة الغربية - على الرغم من أنهم فعلوا ذلك متأخرين. ذلك أنهم قد اقتفوا أثر الأساليب نفسها، بتبنى القيم نفسها. وفى بداية السبعينيات، على غرار الفرنسيين فى القرن الأخير ولكن فى عصر «الحبة» (حبة منع الحمل)، كان مسيحيو لبنان يحدون من خصوبتهم عبر أساليب طبيعية [٦٥]، وهى الأساليب الوحيدة التى لا تتعارض مع الأخلاق التى يعلنها البابا. أمَّا المسلمون، الشيعة والسنة على حد سواء، فقد كانوا أكثر اعتياداً بالفعل على الأساليب الحديثة لمنع الحمل، وذلك بالرغم من خصوبتهم الأعلى بكثير.

إن وضعية الأقليات المسيحية قد سمحت لها فى ظل العثمانيين بممارسة - وأحياناً بشبه احتكار - بعض الأدوار الاقتصادية. ومن جهة أخرى، فإن انتماءها إلى الجماعة المسيحية قد جعلها منفتحة منذ وقت مبكر على المجتمعات التى كانت تجىء منها آنذاك الأشكال الأهم للتقدم المادى. وقد حافظت هذه المجتمعات على علاقات وثيقة مع مسيحيى الشرق، خاصة عبر النشاط المدرسى والجامعى الذى بذلته الإرساليات الكاثوليكية

والبروتستانتية (٦٦)، والذى تمثلت نتيجته الأولى فى مولد نخبة مسيحية. لكن هذه النتيجة تعمق، فى أساس مجتمعات الشام نفسه، تفاوتاً أمام التعليم كان حاسماً فى الحوار الطائفى، وذلك لمجرد أنها قد أطلقت العملية الديموغرافية التى سوف تحول التوازنات بين الطوائف. الاندراج فى أنشطة القطاع الثالث (التجارة والخدمات، إلخ) والتحول الحضرى، الوضع الاجتماعى الميسور، التعليم المدرسى، بما فى ذلك تعليم النساء: إن المسيحيين، بأسرع من المسلمين، سوف يجمعون كل عوامل الانتقال الديموغرافى المبكر هذه. على أن الأسباب الواحدة تؤدى إلى نتائج متعارضة: فهى تؤدى فى العصر العثمانى إلى تسارع ديموغرافى، وتؤدى فى القرن العشرين إلى تباطؤ.

بحثاً عن إخوتهم فى الدين

المسيحيون الشرقيون بادىء ذى بدء أهل استقرار، وهو استقرار فى المدينة. ومما لا مراء فيه أن انغراسهم قد حماهم على مدار أكثر من ألف سنة. وحتى منتصف القرن الماضى، لم يعرفوا من الناحية العملية حركات كبرى، باستثناء السوريين الذين استقروا فى القاهرة أو فى الإسكندرية منذ مائة عام خلت. على أن النزوح السورى - اللبنانى اعتباراً من عام ١٨٦٠، ثم ضغط مدن الهلال الخصيب والنيل، سوف يؤديان إلى قلب صورة الأمور: فاليوم، ربما كان الحراك هو الذى يحفظ دينامية طوائفهم.

إن القاهرة تفصل مصر. ففى الشمال، نجد أن الجماعة المسيحية تعتبر الآن شبه غائبة، إلاّ فى المدن. وهى تؤلف نسبة ٥ر١٪ فقط من سكان الدلتا (٦٧). ومما لا مراء فيه أنه قد مر وقت طويل على انسحابها من أرياف مصر السفلى، فى حين أن المدينتين المولودتين من القناة، بورسعيد والإسماعيلية (٦٨)، تشهدان منذ ثلاثة أرباع قرن فقط نزوحها البطىء. وكانت هاتان المدينتان تضمان ربع المسيحيين عشية الحرب العالمية الأولى؛ وهما لا تضمان منهم اليوم غير ٤٪ بالكاد. والواقع أن الإسماعيلية لم تشهد فقط ميلاد شركة قناة السويس، التى كانت مقراً لها، بل شهدت أيضاً مولد الإسلام السياسى الحديث: فهناك أسس حسن البنا، فى عام ١٩٢٨، جماعة الإخوان المسلمين. وسرعان ما انساب هذا التيار فى العالم العربى كله(٦٩)، ناسباً إلى نفسه بسرعة كمبادىء ثابتة النضال من أجل إعادة العمل بالقانون الإسلامى، الشريعة، وبناء اقتصاد إسلامى متحرر من «الصليبيين»، أى من المهيمنين

الأجانب عليه. وتصبح القناة، التي كانت رمزاً شائناً لهذه الهيمنة، أحد المسارح الأولى لنشاط الإسلام السياسي. وفي جهة غربية أبعد، تشهد الإسكندرية نفسها شحوب لوحة الألوان الطائفية التي كان لورانس داريل قد استمد منها ألوانه جد المفعمة بالحيوية في رباعيته [٧٠]. كما أن سكانها غير المسلمين، الذين انخفضوا من ٢٦٪ إلى ٦٪ من السكان بين عامي ١٩٢٧ و١٩٨٦، قد فقدوا تنوعهم الواسع. فعلاوة على اليهود (كانوا ٢٤٦٩٠ في عام ١٩٣٧ وأصبحوا ٦٤ في عام ١٩٨٦)، رحل أجانب عديدون. وهكذا فإن الحاضرة المطلة على البحر المتوسط، التي لم تكن تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ أجنبي من سكانها الـ ٧٠٠٠٠٠ عشية الحرب العالمية الثانية [٧١]، إنما تتحول إلى قرية ضخمة تضم نحو ثلاثة ملايين نسمة، لا يشكل فيها الأجانب بعد غير نواة صغيرة قوامها ١٠٠٠٠ نسمة [٧٢].

وإلى الجنوب من القاهرة، تعتبر الجماعة المسيحية أفضل انغراساً. فهي تشكل عشر السكان. وشأنها في ذلك شأن المسلمين، فقد حافظت على رصيد ريفي راسخ: إن ٧٠٪ من مسلمي الصعيد [٧٣] و٦٣٪ من المسيحيين يقيمون في الأرياف (الجدول VIII .11). وقد مر وقت طويل بالفعل على الزمن الذي كان فيه حضورها أكثر رسوخاً إلى حد ما في المدينة [٧٤]. على أن تغيراً يعلن عن نفسه في مصر الوسطى، وهي موقع وجود قبطي قوي: إن نسبة المسيحيين تنخفض وطابعهم الريفي يبهت؛ فهم يتجمعون الآن في المدينة. وهذا التطور المزدوج محسوس بشكل خاص في المحافظات الأربع الأكثر قبطية: أسيوط والمنيا وسوهاج وقنا. وقد كشف تعداد عام ١٩٦٠ في الصدارة الاضمحلال النسبي. والحال أن هجرة أقباط الوادي سوف تتسارع عندما توسع الحركات الإسلامية شبكتها وعندما يصعد بعض القريبين منها إلى الإدارة العليا [٧٥]. أمّا الساحات الجامعية التي سوف يقابل فيها دعاة الإسلام الجدد الجمهور الأفضل، مثلما هو الحال في جامعات القاهرة، فهي بالتحديد ساحات أسيوط والمنيا وسوهاج. والحال أن تنظيم الجهاد، الذي إنشيء في الإسكندرية في عام ١٩٧٥، سوف يعاود بسرعة صعود مجرى النيل لكي يدشن في مصر الوسطى سلسلة من الاعتداءات على ممتلكات الأقباط وأماكن عبادتهم وتجارتهم أو دورهم السكنية الخاصة.

وفي ملتقى طرق المصرين (مصر العليا ومصر السفلى)، في مشارف العاصمة، تتباين محافظتا الجيزة والقليوبية تبايناً غريباً: فلما كانتا مصبين لفيضانات الهجرة من مصر الوسطى والسفلى، فإنهما تعتبران الإقليمين الوحيدين اللذين تنمو فيهما نسبة المسيحيين. والحال أن الحاضرة الكبرى وضواحيها، إذ توفر للأقباط الأمن العددي وإمكانيات سوق على

مستوى ديناميتهم الاقتصادية، إنما تجمع بالفعل نسبة ٢٨٪ من الأقباط (٢١٪ من المسلمين). وفي منظور جد بعيد، هل تصبح القاهرة ملاذهم الحقيقي ؟

أمّا تآكل الطوائف المسيحية في سوريا، والأكثر مفاجأة، فهو يرجع إلى أصل آخر. فمن عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٠، تاريخ آخر تعداد بحسب الطائفة، انتقلت نسبتهم في إجمالي السكان من ١ر١٤٪ إلى ٩ر٧٪ [٧٦] (الجدول VIII .12). ولا يرتفع معدل زيادتهم فوق مستوى الصفر إلاّ في دمشق وفي محافظة الحسكة بفضل الهجرات القادمة من بقية سوريا في الحالة الأولى، ومن تركيا في الحالة الثانية. وفي جميع الأماكن الأخرى، تنخفض الأرقام المطلقة. وخلافاً للحال في مصر، فإن هذا الانخفاض ليس مصحوباً بأي تركز في المكان. فأولئك الذين يغادرون مواطنهم من مسيحيي سوريا لا يستقرون لا في دمشق ولا في حلب، المكانين الرئيسيين للتجارة ولتولي الوظائف العامة والثقافة، بل يستقرون في باريس أو ميلانو أو ديترويت أو أستراليا.

والواقع أن سوريا قد دخلت منذ نيل الاستقلال (١٩٤٣) في واحدة من تلك الفترات المتميزة بانعدام الاستقرار السياسي التي كشفت لنا أحداث كثيرة من أحداث التاريخ التركي والتاريخ العربي آثارها على الأقليات الطائفية. ومن المؤكد أن المسيحيين، وغالبيتهم من الملة اليونانية، الأرثوذكسية أو الكاثوليكية، لم يرتاحوا إلى حسني الزعيم (١٩٤٩)، أحد رؤساء سوريا العابرين، الذي استمد إلهامه من الفكر ومن الفعل السياسي لأتاتورك. وفي غضون بضع سنوات، نجد أن أقوى بورجوازيات حلب ودمشق المسيحية سوف تشق طريقها إلى بيروت، ومعها رؤوس أموالها.

وشأنه في ذلك شأن إنشاء لبنان الأكبر (١٩٢٠) على أراض تطالب بها سوريا لنفسها، فإن نزوح البشر والثروات يفسر السبب في أن الفظاظة العنيدة تجاه لبنان قد ظلت المبدأ السياسي الثابت الوحيد في برنامج حكام سوريا. والحال أن انعدام الاستقرار، اليساري أحياناً واليميني أحياناً أخرى، يفضي إلى النظام البعثي (١٩٦٣ ثم ١٩٧٠). فهذا النظام، الذي يحرص في البداية على اختزال الإخوان المسلمين، لا يزعج الجماعة المسيحية بصفتها هذه [٧٧]. إن البعث السوري، العلماني رسمياً، قد ضم بين مؤسسيه مسيحيين، كتب أحدهم، وهو ميشيل عفلق [٧٨]: «نحن نعتبر العروبة جسماً روحه الإسلام [٧٩]». وسرعان ما يضع هذا الحزب الجانب الرئيسي من السلطة في أيدي العلويين، وهم فرع منشق متطرف من الإسلام[٨٠]. وفوق النزاعات، القاتلة أحياناً، تتمكن أقليات الشرق الأدنى من استعادة تضامن عرضي في وجه الغالبية الوحيدة في الإقليم، الإسلام السني.

أمّا العراق فهو البلد الوحيد الذى لم تضمحل جماعته المسيحية، على الأقل حتى عام ١٩٦٥، تاريخ آخر تعداد يبين الانتماء الطائفى. وهى تدشن فى السنوات العشرين التالية للحرب العالمية الثانية إعاة انتشار جذرية. فهل كف الشمال عن أن يوفر لها فرصاً اقتصادية أم أن التعايش مع الأكراد أصبح مستحيلاً ؟ إن ما يبقى هو أن نصف المسيحيين سوف يرحلون فى أقل من عشرين سنة عن محافظتى نينوى (الموصل) ودهوك متجهين إلى العاصمة، حيث تتجمع، فى عام ١٩٦٥، نسبة ٥١٪ من مسيحيى البلد (الجدول VIII. 13). أمّا الآشوريون النساطرة (٨١)، فسوف يعانون خلال فترة ما بين الحربين من المهانات على أيدى الأتراك كما على أيدى العراقيين. فالنساطرة، الذين انحازوا إلى الروس والحلفاء فى ١٩١٤ – ١٩١٨ ضد العثمانيين، قد قدموا بعد ذلك يد العون إلى سلطة الانتداب البريطانية سعياً إلى الحفاظ على نظام تزعزعه الانتفاضات الكردية والشيعية بشكل متواصل. وعندما تحين ساعة الاستقلال فى العراق (١٩٣٠)، يجدون أنفسهم ملزمين بتقديم الحساب للسلطات الجديدة. وإذ يتعرضون للمذابح على أيدى المسلحين الأكراد غير النظاميين فى عام ١٩٣٣، بمساعدة العسكريين العراقيين (٨٢) التى لم يوافق عليها الملك فيصل، فإنهم يشقون طريقهم إلى المنفى. ولا يتعرض الكلدانيون لمثل هذا المصير، لكنهم يتركون هذه المنطقة التى تتميز بانعدام الأمن متجهين إلى الاستقرار فى بغداد.

وبين عامى ١٩٧٥ و١٩٩٠، استقبلت القارات الخمس نازحين لبنانيين، ساعين كلهم إلى ملاذ، مؤقت بالنسبة للبعض، وأطول أمداً بالنسبة للبعض الآخر، وربما نهائياً. ومن المؤكد أن الحرب كانت السبب الدافع إلى ذلك. فالحروب غالباً ما تؤدى إلى النزوح، ويتم ذلك دائماً تقريباً بالاتجاه إلى الملاذ الأقرب. وخلال أقسى المعارك، خاصة قبل تدخل الجيش السورى (١٩٧٦)، وجدت أسر عديدة فى الواقع ملاذاً مؤقتاً فى دمشق. لكن عمليات الرحيل سرعان ما تمضى إلى أماكن أبعد وتصبح أكثر تركزاً. وهى لا تكتسب أبداً تقريباً الطابع المألوف اليوم بشكل محزن، لانكفاء غير منظم من جانب جماعات سكانية آخذة فى الانسحاب. وإذا كان اللبنانيون قد جعلوا من الاستقرار فى الخارج ردهم المتكرر على انعدام أمن السياسة والاقتصاد، فإن ذلك يرجع إلى أن آباءهم وأجدادهم كانوا قد شقوا الطريق إلى النزوح. وكان ذلك نوعاً من لقاء جديد مع التاريخ، مجرد تعجيل، جد قوى، لتراث هجرة متواصل منذ أجيال أيضاً (٨٣). والواقع أن لبنان كان قبل الحرب بالفعل واحداً من أندر بلدان العالم التى يعتبر عدد المنحدرين منها، أكانوا حاملين لجنسياتها أم لا، كثيراً خارج الحدود كثرته على أراضيها.

والواقع أن الحرب الأولى بين الطوائف فى تاريخ لبنان الحديث، فى عام ١٨٦٠، هى التى أعطت إشارة الرحيل للوحدات الأولى من النازحين [٨٤]. والحال أن النزوح، الذى يشكل مؤشراً على تزايد الضغط الديموغرافى فى الجبل وعلى البحث عن ساحات تجارية أوسع من الشام [٨٥]، سرعان ما يؤدى إلى تشكيل شبكات عبر قارية. وهو يتواصل حتى عام ١٩٧٥، حيث لا تشكل أزمة ١٩٢٩ والحربان العالميتان غير فترات الانقطـاع الـوحيدة لتياره (الجدول VIII .16). وخلافاً لكثير من حالات النزوح العربية فى القرن العشرين، والتى تتجاوب مع طلب يد عاملة فى الخارج ومع رفض الشقاء فى الداخل، فإن النزوح اللبنانى قبل عام ١٩٧٥ قد تجاوب بشكل خاص مع استراتيجية مستثمر. وهذا هو السبب فى أنه سوف يظل كثيفاً خلال فترتى الازدهار الكبريين، قبل الحرب العالمية الأولى وفى ظل ولايتى الرئيسين شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤) وشارل حلو (١٩٦٤ - ١٩٧٠) [٨٦].

فما هـو التكوين الطـائفى للنـزوح، وعبر الحذف الذى يمثله، كيف عدّل توزيع اللبنانيين الذين ظلوا فى البلد [٨٧]؟ إن النازحين، إذ يتركون عالماً يعتبر فيه الانتماء الدينى مصدر الهوية، إنما يستقرون فى أراض تتميز بالعلمانية، والإحصاء الوحيد الذى من شأنه أن يوضح دون تحيز توزيعهم الطائفى، إحصاء البلد الذى يستقبلهم، إنما يحيل الانتماء الدينى إلى المجال الخاص. ومن ثم فإنه لا يقدم لنا أى عون. أما الإحصاء اللبنانى فقد توقف فى عام ١٩٣٢. وفى ذلك التـاريخ، كان المسيحيون يشكلون نسبة ٨٥٪ من الديـاسبـورا (الجدول 17. VIII) [٨٨]. وكان الموارنة يمثلون الغالبية فى هذه النسبة، حتى وإن كان الأرثوذكس والكاثوليك اليونانيون قد أبدوا ميلاً أقوى إلى الرحيل. ويستمر هذا الواقع حتى الاستقلال على الأقل، ومن الأرجح حتى انبثاق اقتصادات الخليج الريعية. والحال أن الجاليات اللبنانية الضخمة التى تشكلت آنذاك فى الأمريكيتين أو مصر أو أستراليا ونيوزيلنده كانت تتميز بغالبية مسيحية، فيما عدا أفريقيا الغربية التى كانت فيها شيعية أساساً. ويتعزز الوضع الاقتصادى للجماعة المسيحية التى بقيت فى لبنان، وإن لم يكن ذلك إلاّ بفضل رؤوس الأموال التى يستثمرها أبناء عمومتها المهاجرون إلى أمريكا. لكن ديموغرافيتها تضعف: على نحو مباشر، من جراء النزيف الناشىء عن الهجرة، وعلى نحو غير مباشر، من جراء انخفاض لمعدل المواليد يفاقم الآن الرخاء الاقتصادى [٨٩].

وكانت الخمسينيات والستينيات فترة إعادة توزيع استثنائية. فبينما كانت تتواصل موجة نزوح إلى الخارج ماتزال ذات غالبية مسيحية، تؤدى ثلاثة تيارات للهجرة إلى تعديل

التوازنات الطائفية فى لبنان. إن اللبنانيين الذين تركوا مصر التى استقر فيها أجدادهم، شأنهم فى ذلك شأن السوريين الذين تركوا بلدهم عند فحص نتائج التأميمات، كانوا يتميزون بغالبية مسيحية. أمّا الفلسطينيون، بالمقابل، والذين دفعهم النزوح فى مناسبتين إلى الهجرة إلى البلدان المجاورة (١٩٤٨ و١٩٦٧)، فقد كانوا فى غالبيتهم العظمى مسلمين [٩٠]. وفى بداية السبعينيات، وصل عددهم إلى قرابة ٣٥٠٠٠٠ نسمة [٩١]. وإلى أعداد المسلمين تضاف، بشكل مؤقت، هجرة لليد العاملة السورية غير المؤهلة - ٢٨٠٠٠٠ نسمة فى الفترة نفسها[٩٢].

على أن توزيعين جديدين، أحدهما إقليمي والآخر وطني، سوف يعطيان للنزوح اللبنانى فى السنوات التالية وجهة جديدة. وأولهما هو انفجار الريع البترولى. والقرار الذى سوف يتخذه أمراء الخليج باستثمار أو بإنفاق جزء هام منه فى بلدانهم إنما يخلق فى الواقع واحدة من أوسع أسواق العمل المهاجر فى العالم، هى السوق الثالثة بعد الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. ولمّا كان ملوك النفط محرومين من السواعد ومن الكفاءات الفنية وحائزين لرؤوس أموال ضخمة، فإنهم يطلبون السواعد والكفاءات الفنية على حد سواء. والحال أن الفلسطينيين، الذين كان فرع من شتاتهم قد استقر فى الكويت وفى العربية السعودية منذ عام ١٩٤٨، إنما يتصدرون الوقوف على أبواب الفردوس. ونحو أواخر الستينيات، يتلوهم مصريون وسوريون ولبنانيون، إن اقتصرنا على الإشارة إلى البلدان العربية المتعددة الطوائف. أمّا المعجل الثانى للنزوح اللبنانى فهو انهيار الأمن، ثم انهيار الاقتصاد وأخيراً انهيار الهياكل الاجتماعية وهياكل التضامن الطائفى نفسها، وهى الانهيارات التى ميزت سنوات الحرب الأهلية الخمس عشرة. لقد هيمن الرعب على بيروت منذ عام ١٩٧٥ لكن الليرة اللبنانية لم تتعرض للانهيار إلاّ فى عام ١٩٨٤، وهو الحدث الذى خسر البلد بعده فى آن واحد رساميل منظمة التحريرالفلسطينية وما يهبط عليه من عائدات النفط [٩٣]. وتنتظر المعارك داخل الطوائف عام ١٩٨٨ (بين الشيعة) وعام ١٩٨٩ (بين الموارنة). وهذا التراكم للانتكاسات يعيد للنزوح كثافته التى شهدتها السنوات الأولى من هذا القرن.

على أن التغير لم يكن عددياً فحسب. ذلك أن التكالب على الخليج، خلافاً لحركات النزوح التى سبقته، إنما يجد جنوده بشكل واسع بين صفوف السكان المسلمين. على أن البيانات الجادة تعوزنا من جديد لرسم ميزان طائفى. والسبب فى ذلك ليس هو علمانية البلدان المضيفة، فكلها هذه المرة تعتبر الإسلام ديناً للدولة، بل الحالة الرثة لإحصاءاتها عن السكان[٩٤].

إن الحرب الأهلية فى لبنان لم تؤد إلى مجرد إحياء تراث النزوح. فقد أعادت تنشيط التضامنات الطائفية العتيقة. وبين عامى ١٨٦٠ و١٩٧٥، كان البناء الوطنى للبنان الأصغر ثم للبنان الأكبر قد مارس، وإن كان بشكل غير ناجز بالفعل، عمله. فالاختلاط كان قد تسرب شيئاً فشيئاً فى كل قضـاء، إن لم يكن فى كل قرية (٩٥)، إلى الدرجة التى تسنى فيها للجميع أو للجميع تقريباً التفاخر بجيرانهم المنتمين إلى ديانة أخرى.

والحال أن السنوات العشر الأولى للحرب قد اجتاحت من الناحية العملية هذا القرن من تعلم الحياة المشتركة. إن «معزلاً» مسيحياً، مغلقاً على نفسه بين قديشة ونهر الكلب، يجد نفسه خالياً من أى عنصر إسلامى ليستعيد، مع تباين طفيف فى الظلال، الحدود الطائفية التى ترجع إلى ما قبل عام ١٨٦٠. وتحدث عملية مماثلة فى الشوف، حيث يعتبر الجبل الآن درزياً بشكل يكاد يكون موحداً، وفى البقاع الأوسط والشمالى، حيث يهيمن الإسلام الشيعى دون منازع تقريباً. وإذ يبحث السكان عن ملاذ لدى ذويهم، فإنهم يستعيدون بشكل طبيعى تماماً مهد عائلاتهم، أى أنهم يخترقون، فى الاتجاه المضاد، طرق الهجرة التى كانت قد قادتهم قبل ذلك صوب هذه المصاهر التى صارتها كل بلدة.

إلاّ أن هناك تطوراً لم تعطله الحرب: استقطاب بيروت. فالعاصمة وضواحيها لا مراء فى أنها تضم اليوم ثلاثة أرباع اللبنانيين. وفى المجال المختزل لكتلة كانت موزعة فى السابق بين سيدين، السنى والأرثوذكسى اليونانى، تتواجد من ثم، لأول مرة بما يتناسب مع أهميتها الفعلية، كافة الطوائف التى تشكل لبنان. وبالرغم من ضعف انحدار الحواجز التى أقيمت خلال المعارك، فإن بيروت تحقق الامتزاج الذى رفضه الجبل.

جداول وأشكال الفصل الثامن

الجـدول 1 . VIII

تناظر التقسيمات الحالية والعثمانية فى الهلال الخصيب

البلد فى حدوده فى عام 1992	التقسيم العثمانى من عام 1881 إلى عام 1893
العـراق	ولاية بغداد (كاملة). ولاية الموصل (كاملة). ولاية البصرة (ماعدا الكويت*).
إسرائيل	ولاية بيروت : سنجق عكا. متصرفية القدس : قضاء يافا.
الأردن وفلسطين	ولاية بيروت : سنجق البلقاء. متصرفية القدس: قضاءات القدس والخليل وغزة. ولاية دمشق : سنجق معان. **
لبنان	ولاية بيروت : سنجق بيروت ، قضاءا طرابلس وعكار. ولاية دمشق : قضاءات حاصبيا وراشيا وبعلبك والبقاع. متصرفية جبل لبنان **.
سوريا	ولاية بيروت : سنجق اللاذقية ، وقضاءا صافيتا وقلعة الحصن. ولاية حلب : سنجق حلب. ولاية دمشق : قضاءات دمشق ودوما ووادى الشام ونبق ،حماه وحوران. سنجق دير الزور.

* لا يقدم تعداد (1881 - 1893) تفاصيل ولاية البصرة.

** لم يجر تعداد لسنجق معان ولمتصرفية جبل لبنان . وقد استعرنا الأرقام هنا من ف. كينيه ، سوريا ، لبنان .... مصدر سبق ذكره.

الجـــدول VIII . 2

آخر عملية رسمية تقدم التوزيع الطائفى

البلـــــد	تاريخ وطبيعة العملية	الدافع لوقف مسلسل العملية
مصر	تعداد عام 1986	مسلسل العملية مستمر
العراق	تعداد عام 1965	أعد تعدادا عام 1977 وعام 1987 فى ظل نظام علمانى بعثى.
الأردن	تعداد عام 1979	مسلسل العملية مستمر
لبنان	تعداد عام 1932 *	من شأن أى تعديل للتوزيع الطائفى للسكان أن يهدد التوزيع الطائفى للسلطات والذى حدده الميثاق الوطنى لعام 1943.
سوريا	تعداد عام 1960	أعد تعدادا عام 1970 وعام 1981 فى ظل نظام علمانى بعثى.
الضفة الغربية	التعداد الأردنى لعام 1960	لاتقدم التقديرات الإسرائيلية التوزيع الطائفى.
غزة	التعداد العثمانى لعام 1914	لم تجر الإدارة المصرية تعداداً لسكان غـزة، ولاتقـدم التقـديـرات الإسرائيلية التوزيع الطائفى.
إسرائيل	تعداد عام 1983	مسلسل العملية مستمر

* قدم تعدادان إداريان تقديرات فى عامى 1943 و 1956.

الجـدول 3 . VIII

مسيحيو البلدان العربية من عام 1894 إلى أيامنا

أ – الأعداد المطلقة

السنة	مصر	العراق	الأردن	سوريا	فلسطين *	لبنان
1894		31775	39269	176828	42871	418702
1907	913592					
1914		32493	49520	134546	69456	502101
1917	1026107					
1922					71464	335668
1927	1181910					
1931					88907	
1932						392544
1937	1304000					
1943						544822
1945				414907		
1946					145063	
1947	1501635	156258				
1948				436510		
1949					93000	
1950			49475			
1956						769558
1960	1905182			361064		
1961			82174		96355	
1965		248737				
1966	2018562					
1972					76502	
1975						998000
1976	2285620					
1979			153182			
1983					99525	
1986	2829349					

ب – نسبة إلى إجمالي السكان

السنة	مصر	العراق	الأردن	سوريا	فلسطين *	لبنان
1894		2ر16 %	8ر96 %	10ر88 %	13ر30 %	60ر47 %
1907	8ر14 %					
1914		2ر16 %	9ر06 %	10ر13 %	11ر26 %	57ر64 %
1917	8ر07 %					
1922					9ر50 %	55ر11 %
1927	8ر34 %					
1931					8ر60 %	
1932						49ر9 %
1937	8ر19 %					
1943						52ر07 %
1945				14ر07 %		
1946					7ر59 %	
1947	7ر92 %	3ر24 %				
1948				14ر07 %		
1949					5ر26 %	
1950			8ر25 %			
1956						54ر66 %
1960	7ر33 %			7ر91 %		
1961			6ر89 %		3ر23 %	
1965		3ز09 %				
1966	6ر74 %					
1972					2ر04 %	
1975						42ر90 %
1976	6ر24 %					
1979			4ر23 %			
1983					2ر10 %	
1986	5ر87 %					

* فلسطين فى ظل الانتداب البريطانى : الكيان الذى يتكون الآن من إسرائيل والضفة الغربية وغزة . البلدان الأخرى فى حدودها الحالية.

الجدول VIII . 4

نسبة المسيحيين ومعدل وفيات الأطفال فى مصر (1902 - 1934)

الإقليم	معدل وفيات الأطفال (0/00)			
	1902 - 1909	1910 - 1919	1920 - 1929	1930 - 1934
الدلتا ١	261	231	186	178
الدلتا ٢	232	214	198	179
الوادى ١	337	320	289	257
الوادى ٢	292	304	274	235

1 : محافظات يمثل فيها المسيحيون أقل من 10 %.

2 : محافظات يمثل فيها المسيحيون اكثر من 10 %.

الجـدول VIII . 5

المعدل الإجمالى لجميع الوفيات بحسب الطائفة فى مصر
(1944 - 1980)

الفـــترة	المعدل الإجمالى للوفيات (0/00)		تفوق معدل وفيات المسلمين
	المسـلمون	المسيحيون	
1944 - 1948	25٫2	18٫1	39٫5 %
1949 - 1953	19٫5	15٫0	30٫4 %
1954 - 1958	17٫8	10٫3	72٫7 %
1959 - 1960	17٫0	11٫9	42٫1 %
1974	13٫3	12٫4	7٫3 %
1980	10٫3	10٫6	- 2٫7 %

المصادر : بيانات الحالة المدنية والتعدادات المصرية.

الجـــدول VIII . 6

وفيات الأطفال المسلمين والمسيحيين في إسرائيل (1955 - 1989)

السنوات	معدل وفيات الأطفال (0/00)		تخلف المسلمين بالأعوام	تفوق وفيات المسلمين
	المسيحيون	المسلمون		
1955 - 1959	46ر1	60ر6	—	% 31ر5
1960 - 1964	42ر1	46ر4	5ر4	% 10ر1
1965 - 1969	32ر9	43ر8	7ر1	% 32ر9
1970 - 1974	29ر5	40ر4	9ر1	% 36ر9
1975 - 1979	20ر9	32ر1	8ر8	% 53ر9
1980 - 1984	17ر8	23ر0	6ر2	% 28ر8
1985 - 1989	12ر1	17ر3	4ر6	% 43ر4

المصادر : الملخصات الإحصائية الإسرائيلية ، 1990.

الجـــدول VIII . 7

وفيات الأطفال بحسب الطائفة في لبنان (استقصاء عام 1971)

عمـــر الأم	نسبة الأطفال الميتين (0/00)		تفـوق وفـيات المسلمين
	المسيحيون	المســلمون	
20 - 24	31٫1	66٫6	114٫0 %
25 - 29	35٫3	36٫1	2٫3 %
30 - 34	39٫4	71٫2	81٫0 %
35 - 39	68٫0	95٫3	40٫1 %
40 - 44	61٫7	87٫3	41٫5 %
45 - 49	91٫0	147٫4	62٫0 %

المصدر : الأسرة في لبنان ، الجمعية اللبنانية لتنظيم الأسرة، بيروت ، 1974، مجلدان.

الجـــدول VIII . 8

المعدل الإجمالي للمواليد بحسب الطائفة في مصر (1944 - 1980)

الفـــترة	المعدل الإجمالي للمواليد ($^{0}/_{00}$)		تفـــوق مواليـــد المسلمين
	المســـلمون	المســـيحيون	
1944 - 1948	43ر7	33ر8	29ر4 %
1949 - 1953	44ر8	33ر3	34ر5 %
1954 - 1958	42ر5	24ر6	73ر0 %
1959 - 1960	43ر8	31ر4	39ر5 %
1974	37ر9	29ر0	30ر5 %
1980	38ر9	30ر8	26ر0 %

المصادر : بيانات الحالة المدنية وتعددات السكان (بيانات غير مصححة).

الجدول VIII . 9

مؤشر خصوبة الفلسطينيين (1925 - 1990)

الفترة	المؤشر التركيبي للخصوبة (عدد أطفال كل امرأة)			تفوق خصوبة المسلمين
	المسيحيون	الدروز	المسلمون	
جميع الفلسطينيين				
1925 - 1929	5,83	7,62	8,69	49 %
1930 - 1934	5,52	6,88	7,98	45%
1935 - 1939	5,10	6,64	7,47	46 %
1940 - 1944	4,55	6,72	7,44	64 %
العرب الإسرائيليون				
1955 - 1959	4,62	7,08	8,13	76 %
1960 - 1964	4,67	7,79	9,33	100 %
1965 - 1969	4,26	7,30	9,22	117 %
1970 - 1974	3,42	7,14	8,57	151 %
1975 - 1979	3,13	6,91	7,25	132 %
1980 - 1984	2,37	5,41	5,51	132 %
1985 - 1989	2,49	4,19	4,70	88 %

الأراضـــي المحتلـــة .

الفـــترة	الضفة الغربية	غـــزة
1969 - 1986	7ر63	7ر74
1970 - 1974	7ر92	8ر38
1975 - 1979	7ر96	9ر01
1980 - 1984	7ر13	8ر25
1985 - 1990	7ر23	8ر71

المصـدر : من عـام 1932 إلى عـام 1944 : جوستين ماك كارثي، مصدر سبق ذكره. من عام 1955 إلى عام 1990 : الملخصات الإحصائية الإسرائيلية، المجلد 41 ، القدس ، 1990.

الجدول 10. VIII

الخصوبة بحسب الطائفة في لبنان (1971)

	المسيحيون		المسلمون		
	الموارنة	الآخرون	السنة	الشيعة	الدروز
معدل الخصوبة في عام 1970، بالنسبة لكل ألف من النساء المتزوجات					
15 – 19	158	158	380	300	300
20 – 24	343	400	378	443	316
25 – 29	350	252	355	463	300
30 – 34	202	198	324	360	154
35 – 39	113	68	230	281	150
40 – 44	65	19	74	172	56
العدد النهائي المتوسط للأطفال بالنسبة لكل امرأة					
النساء المتزوجات اللواتي تتراوح أعمارهن بين 45 و49 سنة	5ر20	5ر14	6ر91	8ر49	5ر33
المؤشر الفعلي	3ر81	3ر33	5ر18	6ر58	3ر56
أساليب منع الحمل المستخدمة					
الحبوب	10 %	12 %	20 %	17 %	15 %
العزل	10 %	32 %	20 %	10 %	33 %

المصدر: ع . كامي، الدين والخصوبة، التباينات بين المسيحيين والمسلمين العرب، دار نشر جامعة كمبردج، كمبردج، 1981.

الجدول VIII . 11

التوزيع الطائفى بحسب المحافظة فى مصر (1986)

المحافظة	المسلمون	المسيحيون	أخرون
القاهرة	5436780	565101	5409
الإسكندرية	2713749	182294	416
بورسعيد	377730	16095	16
السويس	311011	13786	55
دمياط	738079	1751	16
الدقهلية	3457715	35304	187
الشرقية	3369380	41333	711
القليوبية	2417819	89948	21
كفر الشيخ	1784454	11266	29
الغربية	2815099	47722	174
المنوفية	2182246	40707	81
البحيرة	3205880	44792	57
الإسماعيلية	525667	15546	10
الجيزة	3534542	14898	180
بنى سويف	1359842	79046	31
الفيوم	1487569	54466	223
المنيا	2160359	480592	85
أسيوط	1810739	395588	88
سوهاج	2141482	307343	55
قنا	2091479	153860	53
أسوان	751691	41678	10
البحر الأحمر	81369	3547	0
الوادى الجديد	109391	1751	0
مطروح	155561	1551	0
شمال سيناء	168990	652	6
جنوب سيناء	24708	217	0
الإجمالى	45213331	2774034	7913

المصدر : تعداد السكان.

الجدول VIII . 12

التوزيع الطائفى بحسب المحافظة فى سوريا (1948 و 1960)

	التقدير الإدارى لعام 1948				تعداد عام 1960			
	المسلمون	المسيحيون	اليهود	الإجمالى	المسلمون	المسيحيون	اليهود	الإجمالى
سوريا	2588436	436510	32510	3057456	4198464	361064	5067	4565121
مدينة دمشق					481838	45641	2392	529963
دمشق	560486	75122	15862	651470	431510	23839	7	455396
حمص	178915	49026	0	227941	318420	61975	0	380471
حماه	149732	21034	0	170766	288815	24283	0	313101
اللاذقية	391253	82500	1	473754	470598	44967	0	515568
حلب	777877	128627	14468	920972	1153267	87210	1852	1242547
الحسكة	104128	45744	2074	151946	250339	58262	816	309494
دير الزور	228640	4597	85	233322	348842	3118	0	351977
السويداء	80773	8826	10	89609	86902	5109	0	92011
درعا	116632	21034	10	137676	156263	6660	0	162923

الجدول VIII . 13

التوزيع الطائفي بحسب المحافظة في العراق في تعدادي عام 1947 وعام 1965

	1947				1965			
	المسلمون	المسيحيون	اليهود	الإجمالي	المسلمون	المسيحيون	اليهود	الإجمالي
بغداد	702316	37059	77542	816917	1915619	127140	2616	2045375
نينوى + دهوك	507422	77386	10345	595153	819538	69014	49	888601
المثنى + القادسية	377007	285	825	378117	542573	604	51	543228
ذي قار	370281	939	652	371872	496998	1835	17	498850
البصرة	349302	8868	10537	368707	653290	15929	260	669479
ميسان	301477	3401	2131	307009	342833	2615	19	345467
كركوك	274124	7808	4042	285974	459634	13960	32	473626
كربلاء	274210	15	39	274264	339832	22	0	339854
ديالى	268531	839	2851	272221	396150	1207	6	397363
بابل	259129	212	1865	261206	447501	657	10	448168
أربيل	228615	8051	3109	239775	347515	8731	47	356293
السليمانية	223562	566	2271	226399	397337	2402	29	399768
واسط	224241	340	349	224930	333647	664	20	334331
الأنبار	180991	10489	1442	192922	303029	3958	25	307012
الإجمالي	4541208	156258	118000	4815466	7795496	248737	3182	8047415

الجدول VIII . 14

التوزيع الطائفى لسكان الأردن (الحدود الحالية) بحسب الطائفة (1950 - 1979)

المنطقـــة	1950		1961		1979	
	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون
البلقاء	212734	30364	464279	47057	1228385	68344
عمان			390510	41792	1089025	61676
البلقاء			73769	5265	139360	6668
عجلون، إربد	223343	12278	262728	11166	587991	13769
الكرك	95896	6652	63953	3257	119480	4591
معان	18552	181	46406	503	71802	2016
الإجمالى	550525	49475	837366	61983	2007658	88720

الجدول VIII . 15

التوزيع الطائفى للسكان العرب فى الضفة الغربية وغزة بحسب الطائفة

المنطقة	1961		1972		1990	
	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون
القدس	301648	42618	74400	11800	131700	14600
بقية الضفة الغربية	457731	3237	622557	4403	948250	6750
غزة *			595900		895400	

* لم يجر تعداد لغزة خلال فترة إدارة مصر لها، وتوزيعها الطائفى غير معروف.

المصادر: 1961، تعداد الأردن؛ 1972 و 1990، الإحصاءات الإسرائيلية.

الجـدول VIII .16

النزوح اللبناني (1860 - 1987)

الفـترة	العدد السنوي	المعدل الوسطي
1899 - 1860	3000	0,8%
1913 - 1900	15000	3,4%
1918 - 1914	0	0,0%
1938 - 1919	4400	0,6%
1945 - 1939	0	0,0%
1958 - 1946	3 500	0,3%
1962 - 1959	14 700	0,8%
1972 - 1963	5 200	0,3%
1979 - 1975	53 200	2,0%
1983 - 1980	33 000	1,1 %
1987 - 1984	68 400	2,3 %

المصادر: 1860 - 1958: ا. سافا، النزوح، مصدر سبق ذكره؛ 1959 - 1972 : ي. كرباج وف. فارج، الوضع، المجلد٢، مصدر سبق ذكره؛ 1975 - 1987: : ب. لبكي، «النزوح الخارجي»، مغرب — مشرق، العدد125، باريس، 1989.

حاشية: 1860-1958 = النزوح (حالات الخروج النهائي)؛ 1958 - 1987 = صافي النزوح (حالات الخروج – حالات الدخول).

الجـدول VIII . 17

اللبنانيون فى لبنان وفى الشتات، بحسب تعداد عام 1932

الطائفـــة	الأعداد المطلقة فى عام 1932		الميل إلى النزوح	المساهمة فى الشتات
	فى لبنان	فى الخارج		
الموارنـــة	227800	123397	35 %	49 %
الأرثوذكس اليونانيون	77312	57031	42 %	22 %
الكاثوليك اليونانيون	46709	29627	39 %	12 %
البروتستانت	6869	2931	30 %	1 %
الأرمـــن	31992	2424	7 %	1 %
مسيحيون مختلفون	6264	434	6 %	0 %
إجمالى المسيحيين	396946	215844	35 %	85 %
السـنة	178130	17205	9 %	7 %
الشيعة	155035	10910	7%	4 %
الدروز	53334	8750	14 %	3 %
إجمالى المسلمين	386499	36865	9 %	14 %
يهود آخرون	9981	1677	14 %	1 %
الإجمـــالى	793426	254386	24 %	100 %

المصدر : أ. دو فوما، التوزيع الطائفى فى لبنان، مصدر سبق ذكره.

الجدول VIII . 18

الجماعة المسيحية الشرقية بحسب الكنيسة والبلد (تقدير فى عام 1992)

(بالآلاف)

الكنيسة	مصر*	لبنان	سوريا	العراق	الأردن	إسرائيل	الأراضى المحتلة	تركيا	مجمل الشرق الأوسط
القبطية (جميع الملل)	3116ر1	2ر1	0ر0	1ر1	1ر1	0ر8	2ر7	0ر0	3123ر8
الأرثوذكسية اليونانية	4ر2	322ر5	483ر3	0ر5	75ر2	32ر4	40ر4	13ر1	971ر7
المارونية	2ر4	537ر0	26ر9	0ر0	0ر0	7ر2	0ر3	0ر0	573ر8
الكاثوليكية اليونانية	4ر5	279ر2	107ر4	0ر4	20ر4	43ر0	4ر3	0ر0	459ر2
الأرمنية الرسولية	7ر2	214ر8	107ر4	15ر0	3ر2	1ر3	2ر8	64ر4	416ر2
الكلدانية الكاثوليكية	0ر5	5ر4	6ر4	234ر1	0ر0	0ر0	0ر0	6ر4	252ر9
اليعقوبية	0ر2	16ر1	85ر9	22ر3	2ر0	0ر1	2ر4	37ر6	166ر7
اللاتينية	3ر6	3ر2	10ر7	3ر1	32ر2	12ر9	14ر8	5ر4	86ر0
البروتستانتية	19ر8	22ر1	19ر3	3ر5	4ر1	4ر4	4ر7	4ر9	82ر9
السورية الكاثوليكية	1ر2	21ر5	21ر5	33ر3	0ر0	0ر1	0ر5	1ر6	79ر7
النسطورية	0ر0	5ر4	16ر1	52ر6	0ر0	0ر0	0ر9	0ر0	75ر0
الأرمنية الكاثوليكية	0ر6	21ر5	23ر6	3ر3	0ر4	0ر1	0ر3	4ر8	54ر7
العدد المطلق للمسيحيين	3160ر3	1400ر4	847ر4	279ر1	137ر1	101ر3	69ر7	131ر9	6127ر2
النسبة فى السكان	5ر7 %	43ر8 %	6ر4 %	1ر4 %	4ر2 %	2ر1 %	3ر8 %	0ر2 %	3ر8 %

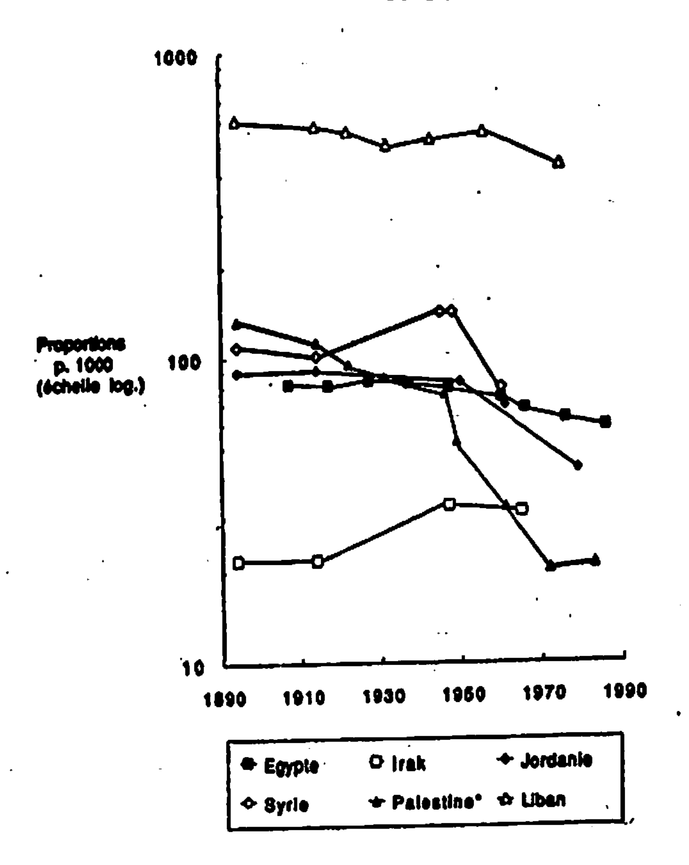
* تم التوصل إلى العدد الإجمالى للمسيحيين باستقراء تعداد عام 1986.

المصدر : استخلاص قام به المؤلفان من بيانات قدمها نورمان أ . هورنر، دليل إلى الكنائس المسيحية .... مصدر سبق ذكره.

الشكل VIII

نسبة المسيحيين فى البلدان العربية فى المشرق

(1990 - 1890)



1- *In* Anouar ABDEL-MALEK, *Anthologie de la littérature arabe contemporaine,* vol. II, Paris, Seuil, 1965.
2 - Voir chapitre V.
3- Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830- 1914, Demographic and Social Characteristics,* Madison, The University of Wisconsin Press, 1985.
4 - Pour le Mont- Liban, nous avons eu recoure aux chiffres de Vital CUINET, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie administrative, statistique et raisonnée,* Paris, E. Leroux, 1896.
5 - La *nahda* compta de nombreux écrivains chrétiens.
6 - Feroz AHMAD, "Unioist Relation with the Greek, Armenian, and Jewish Communities of the Ottoman Empire, 1908- 1914", *in* Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews in the Ottoman Empire,* New York, Holmes and Meir Publishers, 1982.
7 - Georges CORM, *L'Europe et l'Orient,* Paris, La Découverte, 1989, ou Edgard Morin, *Vidal et les siens,* Paris, Seuil, 1988.
8 - Liban, Syrie, Israël, Jordanie.
9 - Héritière de Muhammad Ali, sa statistique publie depuis 1907 des annuaires d'une remarquable tenue, rédigés en français jusqu'en 1952, y compris donc sous le mandat britannique: souvenir des missions scientifiques envoyées en France au XIXe siècle. Les décès y sont répartis avec un luxe de détails selon la préfecture et la cause, mais seulement à partir de 1944 selon la confession, et avec irrégularité.
10 - Voir chapitre V.
11 - Les taux bruts de mortalité fournis au tableau VIII. 4 sont tirés de l'état civil, sans ajustement. Durant la période nassérienne, la mortalité chrétienne paraît anormalement faible, probablement à cause de non - déclarations.
12 - Les données en notre possession ne fournissent qu'un seul taux pour les quinze dernières années, celui de 1980.
13- Mais pas nécessairement plus fiables: dans la Palestine sous mandat britannique, les décès étaient sous-enregistrés. L'espérance de vie à la naissance s'en trouve surestimée, mais les différences confessionnelles sont respectées.
14- Georges KOSSAÏFI, Contribution à l'étude *démographique de la population palestinienne,* université de Paris I, 1976, vol. I.
15- Department of Statistics, *A Survey of Palestine,* Anglo-American Committee of Inquiry, Jérusalem, 1946, vol. I.
16- Taux à 5-14 ans, Georges KOSSAÏFI, *Contribution à l'étude démographique..., op. cit.*
17 - Les Arabes israéliens jouissent Sans doute de la mortalité infantile la

plus faible de toutes populations arabes. Elle dépasse toutefois sensiblement celle des Juifs de même nationalité. Voir chapitre VII.
18 - C'est le nom qu'adopta le mouvement chiite de l'imam Moussa sadr dans les années 70.
19- Hoda ZURAYK, Haroutune ARMENIAN et al., *Beirut 1984: A Population and Health Profile,* American University of Beirut, Beyrouth, 1985.
20 - Philippe FARGUES et Myriam KHLST, "Child Mortality in Beirut: Six Indirect Estimates Based on Data Collected at the Time of a Birth", *Population Studies,* vol 43 /3, Londres, 1989.
21 - Voir chapitre V et VI.
22 - Philippe FARGUES, "Un siècle de transition démographique en Afrique méditerranéenne, 1885 - 1985", *Population,* n°2, Paris, 1986.
23 - Les naissances sont légèrement sous- enregistrées à l'état civil égyptien. Des redressements sont proposés dans *The Estimations of Recent Trends in Fertility and Mortality in Egypt,* Committee on Population and Demography, Washington, National Academy Press, 1982.
24 - Pierre RONDOT, "L'évolution historique des coptes d'Egypte", *Cahiers de l'Orient contemporain,* n°2, Paris, 1950.
25 - Laurent et Annie CHABRY, *Politique et minorités au Proche -Orient,* Paris, Maisonneuve et Larose, 1984.
26 - Otto F.A. MEINARDUS, *Christian Egypt. Faith and Life, Le Caire,* The American University in Cairo Press, 1970.
27 - VOLNEY, *Voyage en Egypte et en Syrie,* Paris, Mouton, 1959.
28 - Laurent et Annie CHABRY, *Politique et minorités..., op. cit.*
29 - Le chiffre réel du recensement de 1986 est 2 829 349 chrétiens de tous rites, coptes et non- coptes.
30 - christian Cannuyer, *Les Coptes,* Bruxelles, Brepols, 1990.
31 - Pierre RONDOT, *Les Chrétiens d'Orient,* Paris, Peyronnet, 1955.
32- Il y a un demi-siécle, quelques, conversions à l'islam survenaient encore, trop rares pour expliquer la baisse de la proportion. "(Des coptes) ne voient plus de raison de continuer à appartenir à une secte qui les différencie des voisins sans rien leur donner en retour", notait Charles ISSAWI, cité par Pierre RONDOT, qui observait que "chaque année plusieurs centaines de coptes passent à l'islam", *Les Chrétiens d'Orient, op. cit.*
33 - Les séries qui permettent de calculer l'indice synthétique de fécondité, naissances par confession et âge de la mère dans la population arabe israélienne, ne sont en fait disponibles qu'à partir de 1955.
34 - Aucune population nationale ne semble avoir jamais connu une telle fécondité. Le Kenya, qu'on présentait comme un record vers 1980, avait alors un indice égal à 8, 5.
35 - Les Palestiniens sont, avec les Libanais, les plus éduqués des Arabes, particulièrement les femmes.
36 - Voir chapitre VII.
37 - En 1990, la fécondité augmenta encore à Gaza, pour atteindre 9,6 enfants par femme.
38- Cité par Jean- François LEGRAIN, "Mobilisation islamiste et soulèvement palestinien, 1987 - 1988", *in Intellectuels et militants de l'Islam*

contemporain, sous la dir. de Gilles KEPEL et Yann RICHARD, Paris, Seuil, 1990.

39 - Jusqu'aux accords de Taef : 54 députés chrétiens (30 maronites, 11 grecs orthodoxes, 6 grecs catholiques, 4 arméniens orthodoxes, 1 arménien catholique, 1 protestant, 1 représentant des autres minorités) et 45 musulmans (20 sunnites, 19 chiites, 6 druzes).

40 - Voici ces répartitions (en %), assez dissemblables comme on peut le vérifier.

Communauté	*1922*	*1932*
CHRÈTIENS		
Maronites	32, 7	28, 8
Grecs orthodoxes	13, 4	9, 8
Grecs catholiques	7, 0	5, 9
Autres	2, 1	6, 8
MUSULMANS		
Sunnites	20, 5	22, 4
Chiites	17, 2	19, 6
Druzes	7, 2	6, 8

Source: Saïd HIMADEH, Economic Organization of Lebanon and Syria, Beyrouth, American University of Beirut, 1936.

41 - Localité d'Arabie Saoudite.

42 - L'Arabie Saoudite est également un allié de L'Occident et une puissance régionale qui aspire à jouer un rôle d'arbitre dans divers conflit interarabes, au Liban notamment.

43 - Les accords de Taef ont porté à 54 le nombre des députés musulmans.

44- En fait, les chrétiens conservèrent la première place dans l'administatRion: en 1978, ils détenaient 53% des postes de la fonction publique. Boutros LABAKI, *Education et mobilité sociale dans la société multicommunautaire du Liban. Approche socio-historique,* Francfort, Deutsches Institut für Internationale Pädagogische Forschung, 1988.

45 - L'enquête effectuée en 1987 par Robert Kasparian indique à la fois une natalité basse (8,0% de moins de 5 ans dans la population totale, soit un taux brut de natalité d'environ 16 ‰) et une fécondité légitime encore modérée: 3, 3 enfants en moyenne au 15e anniversaire du mariage dans les cohortes 1970-1974. La nuptialité féminine est en effet devenue particulièrement tardive: 26, 5 ans en moyenne au premier mariage. On ne dispose pas de données comparatives sur les musulmans. Robert KASPARIAN, *Enquête sur la famille chrétienne au Liban,* Beyrouth, Centre d'études et de recherches sur l'Orient chrétien, 1990.

46 - Le rapport de *l'Enquête sur la famille chrétienne..., op. cit.*, ne fournit pas les naissances par période et par âge des femmes. La pyramide des âges permet cependant une estimation de la fécondité, en multipliant par 7 le rapport des enfants de moins de 5 ans aux femmes de 15 - 49 ans.

47 - Estimation de Salma HUSSEÏNI MOUSSAWI pour 1975, *Redistribution de*

la population du Liban pendant la guerre civile (1975 - 1990), Ecole des hautes études en sciences sociales, thèse de doctorat, Paris, 1992.

48- Cité par Jean- Pierre PÈRONCEL- HUGOZ, *Une croix sur le Liban*, Paris, Lieu commun, 1984. Béchir Gemayel ignorait- il que la période turque avait été favorable à la démographie chrétienne?

49 - En réalité, des disparités régionales furent mise en évidence. Mais elles reflétaient des inégalités confessionnelles. Mission IRFED - Liban, *Besoins et possibilités de développement au Liban*, 2 vol., Beyrouth, 1961.

50- Les chrétiens gagnaient souvent les procès en intégration dans la nationalité libanaise, pourvu qu'ils pussent prouver qu'un de leurs ancêtres avait habité le territoire qui forma plus tard le Liban.

51 - C'est aussi le cas des chrétiens de Jordanie et de Syrie. L'unique indice que l'on possède sur leur fécondité (rapport enfants / femmes : voir tableau VIII. 16) révèle une différence très profonde dans le premier pays, où ils sont majoritairement orthodoxes, mais plus atténuée dans le premier pays, Ou ils sont majoritairement orthodoxe, mais plus atténuée dans le second, qui possède une plus grande diversité et d'importantes communautés catholiques rurales.

52 - May DAVIE, "Ville, notables et pouvoir : les orthodoxes de *Beyrouth* au XIXe siècle", communication au colloque *Bourgeoisies et notables au Maghreb et au Machrek*, Grasse, 1991.

53 - Voir chapitre V.

54 - Dans la ville de Zahlé notamment.

55 - L'enquête libanaise de 1971 donnait aux druzes une fécondité très modérée, inférieure à celle des maronites, *Al -Usra fi Lubanan (La Famille au Liban)*, Association libanaise pour le planning familial, 2 vol., Beyrouth, 1974. Peut-être les druzes fermés aux adhésions depuis qu'en 1043 le calife Muktana Baha Eddin les décréta closes, possèdent-ils la démographie fragile de nombreux isolats?

56- Exception faite des population sunnites du Denniyé et du Djebel Qammoua.

57 - Alan DUBEN et Cem BEHAR, *Istanbul Households. Marriage, Family and Fertility*, 1880- 1940, Cambridge, Cambridge University Press, 1991.

58 - A l'exception des Bosniaques en Yougoslavie et des Bulgares, Youssef COURBAGE, "Les transitions démographiques des Muslumans, en Europe orientale", *Population*, Paris, n° 3, 1991.

59 - Les écoles religieuses chrétiennes - Collège protestant, Notre- Dame de Jamhour, Sœurs de Nazareth, etc. - et le lycée franco- libanais de Beyrouth ont toujours reçu les faveurs de la bourgeoisie sunnite, grande ou petite.

60- C'est la fécondité observée en 1984, *Family Planning in Rural Lebanon; 1983 - 1984*, Lebanon Family Planning Association, Beyrouth, 1985. Cette enquête ne fournit pas les données qui permettraient de comparer la fécondité des deux régions couvertes- Sud et Beqaa Ouest, à forte majorité chiite - avec celle des familles chrétiennes; Robert KAS PARIAN, *Enquête sur la famille chrétienne..., op. cit.*

61 - VOLNEY, *Voyage..., op. cit.*

62 - Leïla TARAZI FAWAZ, *Merchants and Migrants in xixth century* Beirut, Cambridge, Harvard University Press, 1983.

63- Etienne de VAUMAS, "La répartition confessionnelle au Liban et l'équilibre de l'Etat libanais", *Revue de gégraphie alpine,* vol. XLIII / III, Grenoble, 1955

64- Salma HUSSEÏNI MOUSSAWI, *op. cit.* Voir aussi les travaux de Abdo KAHI, *in* Nabil BEYHUM, *Reconstruire Beyrouth. Les paris sur le possible,* Lyon, IRMAC, 1991.

65 - La méthode Ogino chez les chrétiens du Liban, le coït interrompu chez les Français.

66- Boutros LABAKI a récemment publié un inventaire du rôle des institutions religieuses, chrétiennes et musulmanes, dans la promotion de l'enseignement au Liban: *Education et mobilité..., op. cit.*

67 - Alexandrie non comprise.

68 - Villes fondées en 1860 et 1863 par la Compagnie du canal de Suez.

69 - Elle comptait 2 millions d'adhérents en 1948, dont 1 million en Egypte. *Atals mondial de l'islam activiste,* paris, la Table ronde, 1991.

70 - "Alexandrie, si paisible en apparence, n'était pas un endroit sûr pour les chrétiens", écrvait cependant l'auteur du Quatuor d'Alexandrie, *Justine,* Paris, Buchet - Chastel, 1957.

71 - Au recensement de 1937, Alexandrie comptait 597 385 nationaux et 88 351 étrangers, dont 36 822 Grecs, 22 881 Britanniques et 14 030 Italiens.

72 - 10 834 étrangers au recensement de 1986, sur 2 896 459 habitants.

73 - L'ensemble de la Moyenne et de la Haute- Egypte, qui commence à Giza et finit à Assouan.

74- Voici ce que Jacques BERQUE écrit de la fin du siècle dernier: "Le copte, qui est le plus vieux paysan d'Egypte, exerce des métiers de circonstance. Par exemple tout ce qui touche au cadastre et au fisc : compromettante spécialité. Lui qui tient de plus près que tout aurte à la glèbe immémoriale, se laisse parfois tenter par l'expatriation du langage et des conduites (...) Sa communauté dispersée mais solidaire n'en introduit pas moins sa contribution, une nuance - et parfois un contraste - dans la cité musulmane. Un axe secondaire qui cherche sa voie", *L'Egypte, impérialisme et révoluion,* Paris, Gallimard, 1967.

75 - Assassiné en 1981 par des islamistes, le président Anouar el- Sadate avait nommé en 1973 à Assiout un gouverneur, Muhammad Uthman Ismail, dont Gilles KEPEL rappelle qu' "il s'emploie (jusqu'en 1982) à encourager les Jamaat islamiyya afin qu' elles luttent contre les communistes", avant d'ajouter que "le prodigieux développement des associations islamistes universitaires est cependant dû à la dynamique propre qu'elles ont su impulser", *Le Prophète et pharaon. Les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine,* Paris, La Découverte, 1983.

76 - On ne sait pas quelle est la proportion actuelle.

77- Malgré quelques avatars, cités par Christian LOCHON, *Les Communautés*

chrétiennes en Syrie à la fin du xixe siècle, communication aux Journées de l'association Française pour l'étude du monde arabe et musulman, Tours, 1991.

78 - Il appartiendra à l'aile pro- irakienne du parti.

79 - Cité par Olivier CARRÉ, *L'Utopie islamique dans l'Orient arabe,* Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1991.

80 - Les alaouites forment une branche des chiites. Fondée par Muhammad Ibn Nuçaïr (884), qui se disait incarnation de l'Esprit saint, la communauté rejette diverses obligations rituelles de l'islam. Elle ne survit qu'en Syrie, et en faible nombre au Liban et en Turquie. Louis MASSIGNON, art. "Nusaïrîya", *Encyclopédie de l'Islam, op. cit.*

81 - Les Assyriens, groupe ethnique pratiquant encore un dialecte araméen, se répartissent entre deux Eglises: les nestoriens, séparés de Rome, et les chaldéens, retournés à Rome. En Irak, elles sont respec-tivement dans des proportions de 10% et 90%.

82 - Pierre RONDOT, *Les Chrétiens d'Orient, op. cit.*

83 - Généralisant un peu vite à l'Orient entier la spécificité libanaise, Etienne de Vaumas notait : "L'Oriental est infiniment moins enraciné à son sol que le paysan d'Occident, sa communauté compte infiniment plus pour lui que la terre. (...) De là cette tendance à former des diasporas répandus dans le monde entier", Etienne de VAUMAS, "La répartition confessionnelle..", *op. cit.*

84 - Voir chapitre V.

85- Boutros LABAKI a bien montré la diversité des causes de cette émigration, "L' émigration libanaise en fin de période ottomane (1850 - 1914)", *Hannon, revue libanaise de géographie, vol, XIX,* Beyrouth, 1987.

86 - 15000 et 8000 départs par an, respectivement : Yousef COUR BAGE et Philippe FARGUES, *La Situation démographique au Liban,* vol. II, beyrouth, Librairie orientale, 1974.

87- Les maronites du Liban se sentent forts de leurs émigrés outre-Atlantique. Comme la mémoire libanaise s'est estompée au fil du siècle, ils tendent à surestimer le nombre des Libanais - de cœur ou de fait- parmi ces émigrés. D'autres émigrés libanais dont le départ est plus récent, les chiites en Afrique, conservent une solidarité communautaire active.

88 - Par nature, l'émigré ne peut pas être recensé directement dans le pays de départ. Il lui faut un répondant, le plus souvent familial. Tout le monde n'en a pas, en particulier l'émigré ancien. Le recensement a très vraisemblablement sous-évalué l'émigration (254000 en 1932), mieux estimée par Elie SAFA, *L'Emigration libanaise,* Beyrouth, université Saint - Joseph, 1960 : 1214500 en 1959.

89 - Nous avons vu que c'était l'inverse au siècle passé: chapitre V.

90 - Les chrétiens représentent aujourd'hui 2,1% des Arabes qui résident en Israël et dans les territoires occupés et 4% en Jordanie.

91- L'UNRWA décomptait au Liban les résidents palestiniens des comps : 130 500 en 1970. Vivant hors des camps, la majorité des Palestiniens échappait à la statistique.

92 - Youssef COURBAGE et Philippe FARGUES, *La Situation démographique*

au Liban..., op. cit., vol. II.
93 - Transférée à Tunis en 1982, la centrale palestinienne retira ses capitaux des banques libanaises; à partir de 1984, la crise des économies du Golfe limita par ailleurs les remises d'épargne des émigrés.
94 - Koweït et Bahraïn font exception. L'un et l'autre produisent une bonne statistique de leurs ressortissants étrangers. Le détail en est toutefois trop grossier pour nous renseigner sur la composition confessionnelle de la diaspora libanaise. On sait seulement que la proportion de chrétiens parmi les étrangers (toutes nationalités confondues) était de 23,5% au dernier recensement de Bahraïn (1981) et qu' elle a évolué de la manière suivante à Koweït : 1957: 10,5%, 1965: 10,0%, 1970: 8,7%, 1975: 8,6%, 1980: 11,0%, 1985: pas d'information sur la religion. La coïncidence entre la remontée de la proportion de chrétiens au Koweït et la guerre civile au Liban est trop ténue pour constituer un signe.
95- Le *caza* est la plus petite division administrative : le Liban en compte 24. Tous étaient effectivement mixtes avant 1975. Cela ne veut pas dire que les villages eux- mêmes l'étaient tous.

تعليقات الفصل الثامن

٢ – انظر الفصل الخامس.

٤ – بالنسبة لجبل لبنان، لجأنا إلى الأرقام التى قدمها فيتال كينيه.

٥ – ضمت النهضة كتاباً مسيحيين عديدين.

٨ – لبنان، سوريا، إسرائيل، الأردن.

٩ – إن مصر، وريثة محمد على، قد نشر جهازها الإحصائى منذ عام ١٩٠٧ كتباً سنوية تتميز بمستوى رائع من الضبط، محررة بالفرنسية حتى عام ١٩٥٢، ومن ثم حتى فى ظل الانتداب البريطانى: وهو ما يشكل أثراً من آثار البعثات العلمية التى أرسلت إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر. وقد جرى توزيع المتوفين فى هذه الكتب السنوية بوفرة من التفاصيل بحسب محل الوفاة وسببها، إلاّ أنه لم يجر توزيعهم بحسب الطائفة إلاّ اعتباراً من عام ١٩٤٤، وبصورة غير منتظمة.

١٠ – انظر الفصل الخامس.

١١ – إن المعدلات الإجمالية للوفيات والمقدمة فى الجدول VIII.4 مستمدة من بيانات الحالة المدنية، دون تعديل. وخلال الفترة الناصرية، تظهر وفيات المسيحيين ضعيفة بشكل غير عادى، والأرجح أن ذلك يرجع إلى حالات من عدم الإعلان عنها.

١٢ – إن البيانات التى لدينا لا تقدم غير معدل واحد بالنسبة للسنوات الخمس عشرة الأخيرة، هو معدل عام ١٩٨٠.

١٣ – لكنها ليست بالضرورة أكثر أهلية للاعتماد عليها: ففى فلسطين فى ظل الانتداب البريطانى، كان هناك انخفاض فى تسجيل المتوفين. ومعدل الحياة عند الميلاد يبدو مبالغا فى تقديره، لكن الاختلافات الطائفية قد روعيت.

١٦ – معدل ٥ –١٤ سنة.

١٧ – لا مراء فى أن العرب الإسرائيليين يتمتعون بأضعف معدل لوفيات الأطفال بين جميع الجماعات السكانية العربية. على أنه يتجاوز بشكل محسوس معدل وفيات الأطفال عند اليهود الذين يحملون الجنسية نفسها. انظر الفصل السابع.

١٨ – ذلك هو الاسم الذى تبنته حركة الإمام موسى الصدر الشيعية فى السبعينيات.

٢١ – انظر الفصلين الخامس والسادس.

٢٣ – يتميز المواليد بتسجيل منخفض بدرجة طفيفة فى سجلات الحالة المدنية المصرية.

٢٩ – الرقم الفعلى لتعداد عام ١٩٨٦ هو ٢٨٢٩٣٤٩ مسيحياً من جميع الملل، الأقباط وغير الأقباط.

٣٢ – على مدار نصف قرن وحالات قليلة للتحول إلى اعتناق الإسلام ما تزال تحدث، وهى جد نادرة بحيث لا يمكنها تفسير انخفاض النسبة. ويلاحظ شارل عيسوى: «أن [عدداً من الاقباط] لا يرون بعد سبباً لمواصلة الانتماء إلى طائفة تميزهم عن جيرانهم دون أن تعطيهم شيئاً فى المقابل»، ويلاحظ بيير روندو، الذى يورد هذه الجملة، «أن عدة مئات من الأقباط يتحولون كل سنة إلى الإسلام».

٣٣ – لم تتوافر السلاسل التى تسمح بحساب المؤشر التركيبى للخصوبة وللمواليد بحسب الطائفة وعمر الأم فى السكان العرب الإسرائيليين إلاّ اعتباراً من عام ١٩٥٥.

٣٤ – لا يبدو أن أية جماعة سكانية قومية قد عرفت قط مثل هذه الخصوبة. إن كينيا، التى جرى تقديمها على أنها تتميز بمؤشر قياسى نحو عام ١٩٨٠، كان مؤشرها آنذاك يساوى ٨٫٥.

٣٥ – إن الفلسطينيين، مع اللبنانيين، هم الأكثر تعلما بين العرب، خاصة النساء.

٣٦ – انظر الفصل السابع.

٣٧ – فى عام ١٩٩٠، زادت الخصوبة زيادة أكبر فى غزة، لتصل إلى ٩٫٦ أطفال للمرأة الواحدة.

٣٩ – حتى اتفاقيات الطائف: ٥٤ نائباً مسيحياً (٣٠ مارونياً، ١١ أرثوذكسياً يونانيا، ٦ كاثوليك يونانيين، ٤ أرمن أرثوذكس، أرمنى كاثوليكى، بروتستانتى، ممثل للأقليات الأخرى) و ٤٥ مسلماً (٢٠ سنياً، ١٩ شيعياً، ٦ دروز).

٤٠ – إليكم هذه التوزيعات (بنسب مئوية)، جد المتباينة كما يمكن للمرء أن يتحقق من ذلك.

الطائفة	1922	1932
المسيحيون		
الموارنة	32, 7	28, 8
الأرثوذكس اليونانيون	13, 4	9, 8
الكاثوليك اليونانيون	7, 0	5, 9
آخرون	2, 1	6, 8
المسلمون		
السنة	20, 5	22, 4
الشيعة	17, 2	19, 6
الدروز	7, 2	6, 8

المصدر: سعيد حمادة: تنظيم لبنان وسوريا الاقتصادى، بيروت، الجامعة الأمريكية فى بيروت، ١٩٣٦.

٤١ – بلد بالعربية السعودية.

٤٢ – إن العربية السعودية هي أيضاً حليف للغرب وقوة إقليمية تطمح إلى لعب دور الحكم في مختلف النزاعات العربية – العربية، خاصة في لبنان.

٤٣ – أدت اتفاقيات الطائف إلى زيادة عدد النواب المسلمين إلى ٥٤.

٤٤ – الواقع أن المسيحيين قد احتفظوا بالصدارة في الإدارة: ففي عام ١٩٧٨، كانوا يحوزون نسبة ٥٣٪ من المناصب في الوظائف العامة.

٤٥ – يشير الاستقصاء الذي قام به روبير كاسباريان في عام ١٩٨٧ في آن واحد إلى معدل مواليد منخفض (٠ر٨٪ من الأقل من ٥ سنوات في إجمالي السكان، أي معدل مواليد إجمالي قدره نحو ٠.١٦٪) وخصوبة مبررة أكثر اعتدالاً: ٣ر٣ أطفال في المتوسط في العيد الخامس عشر للزواج في جماعات ١٩٧٠ – ١٩٧٤. والواقع أن زيجات الإناث قد أصبحت متأخرة بشكل خاص: ٥ر٢٦ سنة في المتوسط عند الزواج لأول مرة. ولا نملك بيانات مماثلة بشأن المسلمين.

٤٦ – لا يُقدم تقرير «استقصاء حول الأسرة المسيحية...»، مصدر سبق ذكره، المواليد بحسب الفترة وبحسب عمر الزوجات. على أن هرم الأعمار يسمح بتقدير للخصوبة، بضرب علاقة الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٥ سنوات بالزوجات اللاتي تتراوح أعمارهن بين ١٥ و ٤٩ سنة في رقم ٧.

٤٧ – تقدير سلمى الحسيني الموسوي بالنسبة لعام ١٩٧٥.

٤٨ – هل كان بشير الجميل يجهل أن الفترة التركية كانت مؤاتية للديموغرافيا المسيحية؟

٤٩ – الواقع أنه قد جرى إظهار التباينات الإقليمية. لكنها تعبر عن تفاوتات طائفية.

٥٠ – الواقع أن المسيحيين يكسبون غالباً الدعاوى الخاصة بالحصول على الجنسية اللبنانية، شريطة تمكنهم من إثبات أن أحد أجدادهم قد سكن الأرض التي شكلت فيما بعد لبنان.

٥١ – تلك أيضاً هي حالة مسيحيي الأردن وسوريا. والمؤشر الوحيد الذي نحوزه حول خصوبتهم (علاقة الأطفال/ الزوجات: انظر الجدول VIII. 16) يكشف عن اختلاف جد عميق في البلد الأول، حيث يعتبرون أرثوذكس في غالبيتهم، لكنه أخف في البلد الثاني، الذي يتميز بتنوع أكبر وبوجود طوائف كاثوليكية ريفية هامة.

٥٣ – انظر الفصل الخامس.

٥٤ – في مدينة زحلة خاصة.

٥٥ – ينسب استقصاء عام ١٩٧١ اللبناني إلى الدروز خصوبة جد معتدلة، أدنى من خصوبة الموارنة. فهل يمكن اعتبار أن الدروز الذين لا يمكن للأغراب الانتماء إليهم منذ أن قرر الخليفة المكتني بهاء الدين في عام ١٠٤٣ أن يكونوا جماعة لا تسمح بانتماء الأغراب إليها يتميزون بالديموغرافية الهشة التي تميز العديد من الجماعات التي لا تقبل انتماء الأغراب إليها؟

٥٦ – فيما عدا الجماعات السكانية السنية في دينّيا وجبل قموعة.

٥٨ – فيما عدا البوسنيين في يوغوسلافيا والبلغار.

٥٩ – إن المدارس الدينية المسيحية – الكلية البروتستانتية، كلية نوتردام دوجمهور، كلية أخوات الناصرة، إلخ – والليسيه الفرنسي – اللبناني في بيروت قد نالت دائماً حظوة البورجوازية السنية، الكبيرة أو الصغيرة.

٦٠ – تلك هي الخصوبة المرصودة في عام ١٩٨٤، «تنظيم الأسرة في الريف اللبناني؛ ١٩٨٣ – ١٩٨٤»، رابطة تنظيم الأسرة في لبنان، بيروت، ١٩٨٥. ولا يقدم هذا الاستقصاء البيانات التي تسمح بمقارنة خصوبة الإقليمين اللذين شملهما الاستقصاء – الجنوب والبقاع الغربي، المتميزين بغالبية شيعية – مع خصوبة الأسر المسيحية.

٦٥ – أسلوب أوجينو عند مسيحيي لبنان، الجماع غير المتواصل عند الفرنسيين.

٦٦ – نشر بطرس لبكي مؤخراً بياناً بدور المؤسسات الدينية، المسيحية والإسلامية، في تعزيز التعليم في لبنان.

٦٧ – الإسكندرية خارج الدلتا.

٦٨ – مدينتان أنشأتهما شركة قناة السويس في عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٣.

٦٩ – كانت تضم مليونين من الاتباع في عام ١٩٤٨، من بينهم مليون في مصر.

٧٠ – لقد كتب مؤلف رباعية الإسكندرية على أية حال، أن «الإسكندرية، جد الهادئة من الناحية الظاهرية، لم تكن بلداً آمناً بالنسبة للمسيحيين».

٧١ – في تعداد عام ١٩٣٧، ضمت الإسكندرية ٥٩٧٣٨٥ مصرياً و ٨٨٣٥١ أجنبياً، من بينهم ٣٦٨٢٢ يونانياً و ٢٢٨٨١ بريطانياً و ١٤٠٣٠ إيطالياً.

٧٢ – ١٠٨٣٤ أجنبياً في تعداد عام ١٩٨٦، من ٢٨٩٦٤٥٩ ساكناً.

٧٣ – مجمل مصر الوسطى والعليا، التي تبدأ من الجيزة وتنتهي في أسوان.

٧٤ – إليكم ما يكتبه جاك بيرك عن أواخر القرن الماضي: «إن القبطي، وهو أقدم فلاح في مصر، يمارس مهناً طرفية. على سبيل المثال، كل ما يتصل بالمساحة وبالضرائب: وهو تخصص يعرضه للشبهات. وعلى الرغم من أن ارتباطه بالأرض الأزلية يكاد يفوق ارتباط أي أحد آخر بها، فإنه يستسلم أحياناً لإغراء الاغتراب عن لغته ومعاملاته. [...]. إن طائفته المبعثرة ولكن المتضامنة تقدم مع ذلك مساهمتها، التي تشكل فارقاً دقيقاً – وأحياناً تبايناً – في المدينة المسلمة. إنها محور ثانوي يبحث عن طريقه ». «مصر، الإمبريالية والثورة»، باريس جاليمار، ١٩٦٧.

٧٥ – إن الرئيس أنور السادات، الذي اغتيل في عام ١٩٨١ على أيدي إسلاميين، كان قد عين في عام ١٩٧٣ في أسيوط محافظاً، هو محمد عثمان إسماعيل، الذي يذكر جيل كيبيل أنه «اجتهد (حتى عام ١٩٨٢) في تشجيع الجماعات الإسلامية حتى تناضل ضد الشيوعيين»، وذلك قبل أن يضيف أن «التطور الهائل للجماعات الإسلامية الجامعية إنما يرجع على أية حال إلى الدينامية الخاصة التي تمكنت من حفزها».

٧٦ – لا نعرف النسبة الحالية.

٧٧ – بالرغم من بضع كوارث، أشار إليها كريستيان لوشون.

٧٨ – كان ينتمى إلى جناح الحزب الموالى للعراق.

٨٠ – يشكل العلويون فرعاً من الشيعة. والحال أن الطائفة، التى أسسها محمد بن نصير (٨٨٤)، الذى زعم أنه تجسيد لروح القدس، إنما ترفض العديد من فرائض الإسلام الشعائرية. وهى لا توجد إلاّ فى سوريا، وبأعداد ضعيفة فى لبنان وفى تركيا.

٨١ – إن الآشوريين، وهم جماعة عرقية ما تزال تستخدم لهجة آرامية، موزعون على كنيستين: كنيسة النساطرة، المنفصلين عن روما، وكنيسة الكلدانيين، الذين رجعوا إلى روما. وفى العراق يمثل النساطرة نسبة ١٠٪ من الآشوريين بينما يمثل الكلدانيون نسبة ٩٠٪ منهم.

٨٣ – فى تعميمه الخصوصية اللبنانية بشكل سريع إلى حد ما على الشرق برمته، يلاحظ إيتيان دو فومار «إن الشرقى أقل تجذراً فى أرضه إلى أبعد حد من فلاح الغرب، وطائفته أهم بالنسبة له إلى أبعد حد من الأرض [...]. ومن هنا ذلك الاتجاه إلى تشكيل دياسپورات منتشرة فى العالم كله».

٨٤ – انظر الفصل الخامس.

٨٥ – لقد بين بطرس لبكى بوضوح تنوع أسباب هذا النزوح.

٨٦ – ١٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ راحل فى السنة بحسب الترتيب.

٨٧ – يشعر موارنة لبنان أنهم أقوياء بمهاجريهم إلى ما وراء المحيط الأطلسى. وبما أن الذاكرة اللبنانية تبهت على مر القرن، فإنهم يميلون إلي المبالغة فى تقدير عدد اللبنانيين – هوى أو فعلاً – بين هؤلاء النازحين. ويحتفظ نازحون لبنانيون آخرون يعتبر رحيلهم أحدث، وهم الشيعة فى أفريقيا، بتضامن طائفى نشيط.

٨٨ – بحكم طبيعة الأمور، لا يمكن إدخال النازح فى التعداد على نحو مباشر في البلد الذى يرحل عنه. ولابد له من مسؤول ينوب عنه فى الإدلاء بالبيانات، وهو فى أغلب الأحيان على ارتباط عائلى به. والجميع ليس لهم مثل هذا المسؤول، خاصة النازح القديم. والأرجح أن التعداد قد قلل من حجم النزوح (٢٥٤٠٠٠ فى عام ١٩٣٢)، الذى قدره إيلى صفاء تقديراً أفضل، «النزوح اللبنانى»، بيروت، جامعة سان جوزيف، ١٩٦٠: ١٢١٤٥٠٠ فى عام ١٩٥٩.

٨٩ – لقد رأينا أن العكس كان فى القرن السابق: الفصل الخامس.

٩٠ – يمثل المسيحيون اليوم نسبة ١ر٢٪ من العرب المقيمين فى إسرائيل وفى الأراضى المحتلة ونسبة ٤٪ فى الأردن.

٩١ – حسمت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة فى لبنان عدد المقيمين الفلسطينيين فى المخيمات : ١٣٠٠٠٠ فى عام ١٩٧٠. أما غالبية الفلسطينيين، التى تحيا خارج المخيمات، فلم تدخل فى الإحصاء.

٩٣ - إن القيادة الفلسطينية، التى انتقلت إلى تونس فى عام ١٩٨٢، قد سحبت رساميلها من البنوك اللبنانية؛ واعتباراً من عام ١٩٨٤، أدت أزمة اقتصاديات الخليج من جهة أخرى إلى الحد من تحولات مدخرات النازحين.

٩٤ - تعتبر الكويت والبحرين استثناءً. ويقدم البلد الأول والبلد الثانى إحصاءً جيداً لسكانهما الأجانب. على أن تفاصيله جد مشوشة بما لا يسمح لنا بالوقوف على التكوين الطائفى للدياسبورا اللبنانية. وكل ما نعرفه هو أن نسبة المسيحيين بين الأجانب (يجرى الخلط بين جميع القوميات) كانت ٥ر٢٣٪ فى التعداد الأخير للبحرين (١٩٨١) و أنها قد تطورت على النحو التالى فى الكويت: ١٩٥٧: ٥ر١٠٪، ١٩٦٥: ٠ر١٠٪، ١٩٧٠: ٧ر٨٪، ١٩٧٥: ٦ر٨٪، ١٩٨٠: ٠ر١١٪، ١٩٨٥: لا توجد أية معلومات عن الديانة. والتلازم بين زيادة نسبة المسيحيين فى الكويت والحرب الأهلية فى لبنان جد رهيف بالنسبة لتشكيل علامة.

٩٥- القضاء هو أصغر وحدة إدارية: ويوجد فى لبنان ٢٤ قضاء. وكانت كلها مختلطة من الناحية الفعلية قبل عام ١٩٧٥. وهذا لا يعنى أن القرى نفسها كانت كلها مختلطة.

المحتويات

تصويبات

صواب	خطا	س	ص
يحيون مع المسيحيين في	يخيون في	1	77
اضطرت	اضطر	9	274
حصبايا	حاصبيا	16	282
تحويلات	تحولات	2	315

الإشـــراف الفنـــي: **حســن كــامل**

تصميم الأساسي للغلاف : **أســامة العبــد**

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

يبدو الإسلام، عند النظر إليه من شمال البحر المتوسط، مهيمناً بلا منازع على مجتمعات جنوب البحر. ولكن، هل يرجع التجانس الواضح إلى ليل الأزمنة؟

لقد دامت عملية إقرار الإسلام في الشرق العربي تسعة قرون. ولم يكن ذلك الزمن، بالمرة، زمن إكراه وأعمال عنف متصلة. فهنا وهناك، تسنى للمسيحية ولليهودية البقاء، بل الازدهار، أكثر من مرة. وقد ترافقت عمليات تسارع اضمحلال الجماعات المسيحية المحلية مع غزوات أوروبا المسيحية. ووجدت كل مواجهة امتداداً لها في عودة للأصولية الإسلامية: تطهرية الموحدين والانتصارات الأولى للاسترداد الإسباني، التشدد المملوكي والحروب الصليبية، نزعة الجامعة الإسلامية التي روج لها السلطان عبد الحميد الثاني والإذلالات التي تعرضت لها الإمبراطورية العثمانية في المغرب والبلقان، الصعود الحالي لأصولية إسلامية جديدة وإنشاء إسرائيل. وجميع هذه الاندفاعات لتشدد الدولة والمجتمع تترافق مع انكفاء للأقليات. على أن فترة طويلة، هي القرون العثمانية الأربعة، تشهد وثبة للأقليات في إثر الاضمحلال، في تركيا والشرق العربي.

فهل يقدم تاريخ ذلك التعايش الطائفي علامات لتخيل المستقبل؟

تصميم الغلاف: نسرين كنك